@ketab_n
Follow Me
18.9.2015

تيوفيل غوتييه

«الميتة العاشقة»

وقصص فنطازيّة أُخرى

ترجمها عن الفرنسية

محمّد علي اليوسفي

مشروع «كلمة»
كلاسيكيّات الأدب الفرنسيّ

تيوفيل غوتييه

«الميتة العاشقة»

وقصص فنطازيّة أُخرى

ترجمها عن الفرنسيّة
محمّد علي اليوسفي

مراجعة
كاظم جهاد

Twitter: @ketab_n

الطبعة الأولى 1435هـ 2014م
حقوق الطبع محفوظة
© هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة مشروع «كلمة»

PQ2258 .M57 2014
Gautier, Théophile, 1811-1872
[La morte amoureuse et autres récits fantastiques]
«الميتة العاشقة» وقصص فنطازيّة أخرى: قصص قصيرة؛ تأليف تيوفيل غوتييه؛ ترجمة محمّد علي اليوسفي؛ مراجعة كاظم جهاد. - هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، كلمة، 2014.
ص. 404 ؛ 14×21 سم.
ترجمة كتاب: La morte amoureuse et autres récits fantastiques
تدمك: 4-330-17-9948-978
1-كلاسيكيّات الأدب الفرنسيّ المترجم إلى العربية.
أ- اليوسفي/ محمّد علي ب-جهاد، كاظم

يتضمّن هذا الكتاب ترجمة الأصل الفرنسي:
La morte amoureuse et autres récits fantastiques

رسم الغلاف للرسّام الفرنسيّ فرانسوا بوشيه
Illustrations par *François Boucher (1703-1770)*

كلمة KALIMA www.kalima.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ فاكس: 127 6433 2 971+

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

إن هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة مشروع «كلمة» غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره. وتعبر وجهات النظر الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة عن الهيئة.

حقوق الترجمة العربية محفوظة لـ مشروع «كلمة»
يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيها التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

Twitter: @ketab_n

«الميتة العاشقة»

وقصص فنطازيّة أُخرى

Twitter: @ketab_n

المحتوى

تقديم 7

إبريق القهوة – حكاية فنطازيّة........................ 15

أومفالْ – حكاية بأسلوب الرّوكوكو 27

الميتة العاشقة 41

الفارس المزدوج 79

قدَم المومياء 93

ممثّلان من أجل دور واحد 109

آرّيا مارتشيلا، ذكرى من پومپَي 123

تقمُّص 165

جتّاتورا 287

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

تقديـــــم

ثمّة أدباء متعدّدو القدرات والأداءات، ينطلق إلهامهم الأدبيّ في مسارات عدّة، ويطرقون في تجاربهم الإبداعيّة أكثر من باب. تحسبهم شاردين في تنوّع الأجناس الأدبيّة، موزّعين على مشاغل شتّى، ثمّ إن أنتَ أمعنتَ النظر في مجموعِ ما خطّه يراعُهم الواثق وجدتَ على الدوام، في حالة كبار الأدباء، خيوطاً ناظمة ومحاور رئيسة تنظّم الشتات وتقود مختلف حركات الفكر والشعور لديهم إلى بؤرة عميقة، موحّدة ولاهبة.

كذلك هو شأن الشاعر والكاتب الفرنسيّ تيوفيل غوتييه Théophile Gautier (1811–1872). عبرَ مسيرة إبداعية دامت خمسين سنة ونيّفاً، فرض حضورَه واحداً من النوابض المحرِّكة للرومنطيقيّة ومجدّداً في النقد الفنّيّ، وشاعراً مجوِّداً وإن لم يكن غزير الإنتاج في الشّعر، وكاتباً مسرحيّاً، ورحّالة شغِفاً بما يرى من شعوبٍ ومَشاهد. بيد أنّه فرض حضورَه بخاصّةٍ روائيّاً وقاصّاً من طبقة رفيعة، ترك بصماته الواضحة في جنس أدبيّ عسير المسالك، يسهل فيه الابتكار السطحيّ وتكثر فيه مزالق التكرار ومحاكاة الآخرين، عنيتُ الأدب الفنطازيّ. ولذا ففي هذه السلسلة الموجّهة لتقديم أمّهات الأدب الفرنسيّ السابق للقرن العشرين في ترجمات رصينة ومهمومة بالجَمال قدرَ اهتمامها بالدقّة، قرّرنا أن نقدّم تسعاً من أعمق قصص غوتييه الفنطازيّة وأكثرها انتشاراً وصموداً أمام اختبار الزمان والمسافة التاريخيّة. هذه القصص مجتمعة في هذا الكتاب. وفي كتاب آخر هو الآن قيد الإعداد نقدّم ترجمة رحلتيه إلى الجزائر

Twitter: @ketab_n

ومصر. هكذا يقف القارئ على وجهين من وجوه إبداعه الفريد المتعدّد.

القصص المترجمة هنا منتقاة من إنتاج للكاتب يمتدّ على الفترة بين 1831 و1856. ليست هذه القصص - وسنعود إلى مسألة الجنس الأدبيّ - خياليّة بالكامل كحَكايا الجنيّات مثلاً، بل هي تمزج بين الخيال والواقع، وتدع عناصر غير مرئيّة أو لم تعد تنتمي إلى عالم الأحياء تتدخّل في الواقع ثمّ تتلاشى مخلّفةً أثراً عميقاً في الكائن الذي يحدث له أن يرصد بعض تجليّاتها. امرأة تواصل عشقها في ما وراء الموت، وقدم مومياء تتدخّل في حياة ذلك الذي اشتراها من مخزنِ تحفيّات وعتائق، وحسناء مرسومة على نَجْدِ حائطٍ تلهب خيال شابٍّ عاشق، إلخ. شاعريّة اللّغة تُحوّل أغلب صفحات الكتاب إلى قصائد نثر، وانثيالات الخيال المتواصلة تمنح الشخوص حياة أُخرى داخلَ الحياة.

ينبغي أن نقول في هذا التقديم الوجيز كلمة عن طبيعة القصص، وعن انتمائها إلى فئة الأدب المُفارق للواقع، أي إلى ما كانت العرب تدعوه أدب الغريب والعجيب. هذه التسمية موفّقة على كونها شاملة وفضفاضة، ذلك أنّها تجمع فئات متجاورة لا ينفكّ بعضها يومئ إلى البعض الآخر، منه ينهل، وإليه يُضيف. ولم يكن النقّاد العرب غافلين عن تدرّج النصوص المنضوية في هذا الجنس الأدبيّ في علاقتها بالواقع وخروجها عنه. فإذا ما قادنا نصٌّ إلى ما لا يقبل التصديق وما يشذّ عن نواميس الطبيعة ويتحدّى العقل تكلّموا عن أدب يُعنى بالخوارق، وهو ما نجد نماذج عليه في كرامات الصوفيّة أو في حكايات «ألف ليلة وليلة».

مع تقدّم النقد الغربيّ الحديث، وبالتزامن مع مغامرة البنيويّة في النقد الأدبيّ والعلوم الإنسانيّة، حاول بعضهم رسم حدود فاصلة أو شبه فاصلة بين ثلاث فئات من الأدب المُفارق للواقع. الدراسة التي

Twitter: @ketab_n

تُذكر أكثر ما تُذكر في هذا الباب هي «مدخل إلى الأدب الفنطازيّ» *Introduction à la littérature fantastique* للنّاقد البلغاريّ المولد، الفرنسيّ التعبير، تسفيتان تودوروف Tzvetan Todorov، الصادرة في منشورات لو سوْي Le Seuil بباريس في 1970. في هذه الدراسة سعى إلى إضفاء صفة منهجيّة أو نسقيّة على تصنيف مختلف درجات مُجاوزة الواقع في مثل هذه النصوص، وانتقد المقاربات المضمونيّة أو الثيميّة المحض التي سادت لدى سابقيه من النقّاد وأعلام الشعريّة، خصوصاً لدى الشاعر والباحث روجيه كايوا Roger Caillois والنّاقد جان-بيار ريشار Jean-Pierre Richard .

وجد تودوروف أنّ عامل التمييز الأساس أو الفيصل بين الفئات الرئيسة الثلاث من هذا الأدب يتمثّل في تردّد القارئ أمام ما يُسرَد له من أحداث وما يوصف له من ظواهر. فإذا شعر إزاء نصّ ما بشيء من الغرابة ولم يدم تردّده وكان في مقدوره، بعد تمحيص وتفكُّر، أن يردّ الأحداث والظواهر إلى نواميس الطبيعة وقوانين الكَون كنّا أمام ما يدعوه تودوروف littérature de l'étrange، وهو ما يترجمه بعض الباحثين العرب إلى «أدب الغريب». نصوص أُخرى يظلّ فيها التردّد يرافق القارئ طويلاً أو حتّى النهاية، فالأحداث تدور في إطار الواقع وتقبل بقوانينه ولكنّها تتخطّاه في جوانب معيّنة. وهذا المزج بين ما يمكن تصديقه وما لا يمكن التسليم بإمكانه هو ما يشكّل محرّك النصّ والأساس الذي يقوم عليها عقْد القراءة. وإنّما على البراعة في تحقيق المزج هذا يقوم نجاح النصّ أو روعته ودوام أثره. هذه الفئة يسمّيها تودوروف، متّبعاً السائد قبله، littérature fantastique، وهو ما يترجمه بعضهم إلى «الأدب العجائبيّ». فئة ثالثة من النصوص لا يطول أمامها

Twitter: @ketab_n

تردّد القارئ لأنّه سرعان ما يفطن إلى أنّ حركّيتها الأساس أو صفتها النوعيّة إنّما تقوم على خرق الواقع، كما في حكايات «ألف ليلة وليلة» أو في قصص الجنيّات، فيأنس لهذا الانجراف في ما لا يقبله العقل ولكن ترتاح إليه المخيّلة لما فيه من إيغال في التّعجيب. هذه الفئة الأخيرة تقابل في نظر تودوروف la littérature du merveilleux، الذي يسمّيه بعض الباحثين العرب «الأدب الغرائبيّ». بيد أنّ تودوروف انتبه إلى جمود هذا التقسيم، أو حتّى إلى عدم كفايته، فأشار إلى أنّ بعضاً من أدب الفئة الوسطى يجنح إلى الغريب المقبول، فهو في عُرفه *fantastique-étrange* (فنطازيّ-غريب)، وبعضاً آخر يجنح إلى الخارق والمُفارق كلّياً للواقع، فهو في نظره fantastique-merveilleux (فنطازيّ-خوارقيّ). باللّغة الشائعة لدى أغلب الباحثين العرب نكون هنا أمام خمس فئات متدرّجة: الغريب المحض، فالعجائبيّ الغريب، فالعجائبيّ، فالعجائبيّ العجيب، فالعجيب. يتساءل المرء طبعاً - وفعلاً تساءل الباحثون - عن مدى امتلاك هذه المقابلات العربيّة ما يكفي أو ما يلزم من الوضوح ومرونة التداول المصطلحيّ. أضفْ أنّ تقسيمات تودوروف هذه، على ما تُسديه من فائدة، أثارت انتقادات حادّة، فهو يبدو مصرّاً، كأنّما حبّاً بالتصنيف لا غير، على وضع حدود فاصلة ومنيعة بين ما لا يقبل الفصل، أي عناصر جنس أدبيّ متعالقة ومتواشجة لا ينفكّ بعضها ينقلب في البعض الآخر وينسكب فيه.

يرى كاتب هذه السطور، شأنه شأن باحثين آخرين، أنّنا أمام جنس أدبيّ شامل نسمّيه توخيّاً للوضوح أدب الغرابة أو الأدب المُفارق للواقع، وهو يقوم على ثلاثة إجراءات سرديّة متفاعلة: فمنه أدب الغريب المحض، المنضوي في حدود الاحتمال والقابل، حسب طبيعة القراءة

Twitter: @ketab_n

وإمكانات التأويل، إلى الظفر بتصديق القارئ؛ ومنه ما كان خارقاً لكلّ نواميس الطبيعة وشروط الاحتمال، فهو أدب الخوارق والتعجيب المتطرّف. وبين هاتين الفئتين يقوم أدب يفارق الواقعِ ويبدو كأنّه يخالف نواميس الطبيعة، ولكن إلى حدٍّ نتردّد إزاءه طويلاً، فلا نحن قائلون بغرابته البسيطة، أي الممكن تفسيرها وقبولها، ولا نحن بالمسلّمين بكونه من قبيل الخوارق فنتعامل معه على أنّه كذلك ونوقف امتحان العقل أو مرافعته بخصوصه. وهو ما نسميّه «الأدب الفنطازيّ»، وهي تسمية شاعت في العراق وبلدان عربيّة أُخرى منذ عقود، ولها فضلُ إبعادنا عن تسمية «الأدب الفنطاستيكيّ» التي يستخدمها بعضهم، بوقْعها الصوتيّ الصّادم هذا وبنشخها بناء الصفة عن البناء الفرنسيّ نشخاً كليّاً. والحال، وفي حدود علمي، لم تقبل العربيّة (وشيوع الاستخدام برهان كبير على سواغيّة مصطلح أو عدمها)، أقول لم تقبل بناءً كهذا إلاّ في مفردتين: «الرومنطيقيّة» (ويخطئ البعض أيّما خطأٍ بدعوتها بـ «الرومنسيّة»، فهذه كما يعلم الباحثون الجادّون ليست تلك)، و«الديالكتيكيّة». الأولى جاءت مستساغة وفرضت نفسها في اللغة السائرة، والثانية يستخدمها بعضهم ويعافها بعضهم الآخر لصالح «الجدليّة». هذان استثناءان، والذوق وخصوصيّة العربيّة، ولكلّ لغة خصوصيّتها، يمنعان من تحويلهما إلى قاعدة.

أعود إلى هذا الكتاب، من خلال مسألة تواشج هذه الفئات وما يشيع بينها من بدليّة وتفاعل وتخاصُب مشترك. خذ «ألف ليلة وليلة» مرّة أُخرى: ألستَ واجداً في هذا السّفْر الرّائع، بمقتضى طبيعة هذه الحكاية أو تلك، ظواهر وأحداثاً تمتّ بصلة إلى الفئات الثلاث أو حتّى الخمس إن نحن أخذنا بتقسيم تودروف بكامله؟ على النحو ذاته لا تنحبس نصوص

Twitter: @ketab_n

غوتييه الفنطازيّة في خانة واحدة. فلئن كان أغلبها يصبّ في تيّار الأدب الفنطازيّ إلّا أنّ بطل قصّته «الفارس المزدوج»، الماثلة في هذا الكتاب، مثلاً، الذي يرافقه نجمان أوّلهما أخضر والثاني أحمر، كنايةً عن ازدواج شخصه وتأرجح مصيره، أو «قدم المومياء» و«إبريق القهوة» و«آرّيا مارتشيلا»، التي تشهد جميعاً انبعاث الأموات، شخوصاً أم أطيافاً لسنا لنعرف، هذا كلّه يجنح بنا إلى أدب الخوارق. لا بل إنّ قصّة «التقمّص» تنسكب في وجهها الأساس في لغة الخيال العلميّ. على أنّ الفنطازيّ يظلّ هو الغالب، ما دام غوتييه يكتب لا من أجل التعجيب المحض، وإنّما بهدف الإبانة عن السواتر الرقيقة التي تفصل شعورنا عن اللّا شعور، والواقعَ عن الحلم، والمادّة عن الخيال، والجسدَ عن الرّوح، والموتَ عن الحياة. ههنا تكمن قوّته كشاعرٍ وأهميّته بين روّاد الحداثة الأدبيّة. وعلى هذا الأساس يفرض نفسه واحداً من «كلاسيكيّي» هذه الحداثة. من ناحية أُخرى، ترتدّ بعض النصوص أو جوانب منها إلى الواقع، واقع مأساويّ ومقروء بلغة شاعر، كما في القصّة الطويلة أو الرواية القصيرة التي تختم هذا الكتاب، «جتّاتورا»: يكاد الفنطازيّ يختفي فيها كليّاً، فما هي إلاّ تصوير أليم للانهيار الذي يُلحقه بمصيرَي البطل وعشيقته تطيُّر شعبيّ سائد في جنوب إيطاليا يروحان هما ضحيّته، يقوم على الاعتقاد بامتلاك بعض الأفراد عيناً شرّيرة تصيب الناظر إليها بضرر جسيم. هذا الاعتقاد يقود البطل إلى عزلة قاهرة، وإلى الموت، بعدما أحلّ في داخله شكّاً عميقاً بسلامة طواياه، وغرَّبه عن شعوره ببراءته الأصليّة، وعطّلَ تزامُنه وذاتَه.

والحقّ، فمسألة الهويّة وثيمات الازدواج والقرين والشّبيه والصّنْو وانتحال الهويّة وصناعة الاستلاب تُهيكل قصص غوتييه وتمنحها عمقاً

Twitter: @ketab_n

فلسفيّاً وأدبيّاً فريدين. بعض شرّاحه، جان غودون Jean Gaudon مثلاً في تقديمه المستفيض لنشرته لهذه النصوص في سلسلة «فوليو» *Folio* الصادرة في منشورات غاليمار Gallimard بباريس، يردّون ذلك إلى ما قد يكون غوتييه عاناه من شعور بالازدواج والانقسام، هو الذي نذر نفسه في صباه للرّسم ثمّ صار كاتباً تتناهبه أجناس أدبيّة عديدة. مهما يكن حجم المعاناة في ذلك، لا شكّ أنّ اجتياز الكاتب لها كان ظافراً ورحلته فيها ميمونة، ما دامت بعض القصائد والروايات والقصص تشهد على تعمّق وأناقة كبيرين في معالجته لهذا كلّه. والمهمّ أيضاً، وهنا دليل آخر على أنّ غوتييه لم يكن يمارس كتابة الغرابة من أجل الغرابة، أنّ عودةً إلى الواقع دائماً ما تتوّج نصوصه. فتدرك الشخصيّة القصصيّة معضلتها، أو تموت ضحيّة وهمها القاتل فنكمل نحن القرّاء شوط التساؤل الممضّ والفهم الخلّاق. والموتى لا يفرضون علينا وجودهم إلّا بقدر ما تدوم زيارة توقفنا على الأساسيّ ويعودون بعدها إلى عالمهم الأليف، عدمهم الكلّيّ. ثمّة هنا شيء من عبقريّة الشعر الرثائيّ العالميّ واللّحظة الطلليّة في الشعر العربيّ القديم. من انطماسِ الأطلال وانقشاعِ الماضي تنبثق شرارة شعريّة هي علامة حياةٍ، وهِبة وجودٍ إضافيّ.

يبقى أن نشير إلى بضعة أشياء وثيقة الصّلة بقراءة غوتييه وترجمته. فهذا الوريث لرائد الأدب الفنطازيّ ومعلّمه الشخصيَ المعلن، الألمانيّ هوفمان Hoffmann، ذهب بعيداً بإرث المعلّم وفرض عليه لا لغة الشعر وحدها كما أسلفنا في القول، ولا تعمّق الرومنطيقيّ الثائر الذي يستنطق الواقع والغيب والدواخل الإنسانية ومنطق الكون كلّه فحسب، بل كذلك أدوات الناقد الفنّي والرّحالة الذي يهمّه أن يزجّ بقرائه في تعدّد الثقافات وثراء المرئيّات. ثمّة جانب متبحّر أو موسوعيّ في نصوصه هذه، فيرى

Twitter: @ketab_n

القارئ معه إيطاليا بثقافتها وفنونها، والهند ومصر بروحانيّاتهما ورؤية أهلهما للّغز البشريّ. وهو لا ينفكّ يملأ نصوصه بمفردات آتية من لغات عديدة يقحمها على الفرنسيّة وينشئ غرابة لغويّة توجّب الحفاظ عليها، وقد حافظ عليها مترجم الكتاب. وكان لا بدّ من وضع حواشٍ حرصَ المترجم والمُراجع على أن تكون دالّة بلا إطالة، وواضحة دون استسهال.

محرّر السلسلة

كاظم جهاد

Twitter: @ketab_n

إبريق القهوة

حكاية فنطازيّة[1]

«رأيتُ تحت حُجُبٍ دكناء
أحدَ عشر كوكباً،
والقمرَ، والشمسَ أيضاً،
وهي تسجد لي،
في صمتٍ،
طيلة نومي».

رؤيا يعقوب[2]

دُعيتُ، في السنة الماضية، برفقة اثنين من زملائي في المشغل، هما أريغو كوهيك وبدرينو بورنيولي، لقضاء بضعة أيّام في مزرعة توجد في عمق مقاطعة النورماندي.

تبيّن أنّ الطقس الذي كان يوحي بأنّه سيكون رائعاً، قرّر أن يتغيّر فجأةً، وهكذا هطلت أمطار كثيرة إلى درجة تحوّلتْ معها الدروب التي كنّا نسلكها إلى ما يشبه مجرى سيول.

(1) نُشِرت للمرّة الأولى في صحيفة *Le Cabinet de lecture*، في الرابع من أيّار 1831. وبخصوص مصطلح «الفنطازيّ»، انظر التقديم. أمّا الحواشي فقد وضع أغلبَها المترجم، كثّف في بعضٍ منها ملاحظات شرّاح قصص المؤلّف، ووضع المُراجع عدداً منها.

(2) «رؤيا يوسف» في طبعات أخرى. ولنذكر من القرآن الكريم، ومن مستهلّ سورة يوسف: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾.

Twitter: @ketab_n

كنّا نخوض في الوحل حتّى الرّكَب، والتصقت طبقة ثخينة من التربة الطريّة بنعال جزماتنا، فكانت تبطئ خُطانا بثقلها حتّى أنّنا لم نبلغ وجهتنا إلّا بعد ساعة من غروب الشمس.

كنّا منهوكي القوى حتّى أنّ مضيفنا، وقد رأى الجهود التي نبذلها كي نخفي تثاؤبنا ونحافظ على عيوننا مفتوحة، سرعان ما رافق كلّ واحد منّا إلى غرفته بعد العشاء مباشرةً.

كانت غرفتي واسعة؛ أحسست وأنا أدخل إليها بما يشبه رعشة حمّى، إذْ بدا لي كأنّني كنت ألِجُ عالما جديداً.

وبالفعل، كان من شأن المرء أن يظنّ نفسه في عهد الريجانس[1]، من خلال رؤية رسوم «بوشيه»[2] على أعالي الأبواب، مجسِّدةً الفصول الأربعة، والأثاث المثقل بالزخرفة المحاريّة[3]، ذات الذوق الأكثر رداءة، ومرايا الحيطان المنحوتة بأشكال فظيعة.

لا شيء غير منظّم. كانت طاولة الزينة ملأى بعلب الأمشاط ورشّاشات البودرة، وكأنّها استُخدِمت ليلة البارحة. وعلى الأرضيّة الخشبية المصقولة جيّداً فستان أو فستانان بألوان متنوّعة ومروحة يدويّة مزركشة بالفضّة، وكان ما أثار دهشتي وجود علبة سعوط من الصَّدَف مفتوحة فوق المدفأة وملأى بتبغ لا يزال جديداً.

لم ألاحظ هذه الأشياء إلّا بعد أن وضع الخادم شمعدانه على المنضدة

(1) الريجانس: عهد وصاية فيليب دوق أورليان على عرش فرنسا بين 1715 و1723. وطراز الريجانس الذي نشأ إبّانه هو طراز معماريّ يتميّز بالبساطة والأناقة.

(2) فرانسوا بوشيه François Boucher : رسّام فرنسيّ من القرن الثامن عشر اشتهر بأسلوب الروكوكو (الزخرفة الثقيلة) في الرسم. وبالنسبة لـ «أعالي الأبواب» في العبارة ذاتها، كان شائعاً تزيين أعالي أبواب البيوت برسوم.

(3) أسلوب معماريّ شاع في عهد لويس الخامس عشر، تميّز بخطوط ملتوية تشبه أشكال المحار والأصداف.

Twitter: @ketab_n

وتمنّى لي نوماً هانئاً، وأعترفُ بأنّني بدأت بالارتعاش مثل الورقة. خلعت ثيابي بسرعة، وأخلدت إلى النوم، وكي أتخلّص من هذه المخاوف الحمقاء، سرعان ما أغمضت عينيَّ ملتفتاً نحو الحائط.

غير أنّ البقاء على تلك الوضعيّة بدا لي مستحيلاً: كان السرير يهتزّ تحتي مثل موجة، وكان جفناي ينسحبان إلى الوراء بعنف. فألفيتُني مجبراً على التقلّب والرؤية.

كانت النار الملتهبة ترسل انعكاسات محمرّة في الشقّة، بحيث يمكن للمرء أن يميّز بلا عناءٍ شخوصَ النّجْد[1] الباذخ ووجوه الأشخاص المرسومين والمعلّقين على الجدار وقد اسودّت بفعل الدخان.

كان هؤلاء هم أسلاف مضيفنا، فرسان مدرّعون بالحديد، ومستشارون بشعور مستعارة، ونساء جميلات ذوات وجوه مزيّنة وشعور بمساحيق بيضاء، مع ورود في الأيدي.

فجأةً ازداد توقّد النار بشكل غريب؛ أضاء الغرفة وميض باهت، ورأيت بوضوح أنّ ما حسبته مجرّد رسوم تافهة كان هو الواقع؛ ذلك أنّ أحداق تلك الكائنات االمؤطّرة كانت تتحرّك وتلتمع بطريقة غريبة؛ وكانت شفاههم تنفتح وتنغلق مثل شفاه أناس يتكلّمون، لكنّني لم أكن أسمع شيئاً غير تكتكة الساعة الدقّاقة وصفير ريح الشمال الخريفيّة.

تملّكني رعب لا يُقاوم، انتصب شعري فوق جبيني، اصطكّت أسناني حتّى كادت تتهشّم، وغرق جسمي كلّه في عرق بارد.

دقّت الساعة الحادية عشرة. دوّى ارتجاج الدقّة الأخيرة لمدّة طويلة، وعندما تلاشى نهائياً...

آه! كلّا، لا أجرؤ على قول ما حدث. لن يصدّقني أحد، وقد يقال

---

(1) النّجْد، وجمعه نُجود، هو قماش موشّى أو بساطٌ أو رسمٌ منسوج، به يُغلّف حائط غرفة.

Twitter: @ketab_n

عني إنّني مجنون.

اشتعلت الشموع من تلقاء نفسها؛ وشرع المنفاخ، دون تدخّل أيّ كائن مرئيّ، يضرم النار، محشرجاً مثل شيخ مصاب بالربو، في حين كانت ملاقط النار تسعّر الجمر، والمجرفة ترفع الرماد.

إثر ذلك انقذف إبريق قهوة تحت طاولة كان فوقها، وتوجّه متدحرجاً نحو موقد المدفأة ليستقرّ وسطَ الجمر.

بعد لحظات، بدأت الأرائك ترتجّ، وتُحرِّك سيقانها الملتوية بطريقة مباغتة، لتصطفّ حول المدفأة.

2

لم أكن أعرف كيف أفكّر إزاء ما أرى؛ غير أنّ ما تبقى لي كي أراه كان أعجب.

أحد رسوم البورتريه، وهو أقدمها جميعاً، ويمثّل شخصاً ممتلئ الخدّين بلحية يغزوها الشيب، ويشبه إلى حدّ الالتباس تلك الفكرة التي كنتُ كوّنتُها عن السّير جون فلستاف[1]، أخرج رأسه من إطاره مكشّراً، وبعد جهد جهيد تمكّن معه من تمرير كتفَيه وبطنه الكبيرة عبر ألواح الخشب الضيّقة للإطار، ثمّ قفز بتثاقل إلى الأرض.

وما إن استرجع أنفاسه قليلاً حتّى أخرج من جيب صديريّه مفتاحاً في منتهى الصغر؛ نفخ فيه ليتأكّد من نظافة ثقبه، ثمّ استخدمه في معالجة كلّ الأطر الخشبية الواحد تلو الآخر.

---

(1) السّير جون فلستاف Sir John Falstaf : شخصيّة طريفة من ابتكار شكسبير، تظهر في مسرحيّتَيه «هنري الرابع» *Henri IV* و«زوجتا وندسور المرحتان» *The Merry Wives of Windsor*. ويمثّل فالستاف السيّد الإقطاعيّ المفلس والمحافظ على بقايا من عظمته القديمة.

Twitter: @ketab_n

وهكذا توسّعت كلّ الأطر ميسّرةً خروج الوجوه التي تؤطّرها بسهولة.

قساوسة صغار يشبهون الدّمى، سيّدات وارثات ضامرات ومصفرّات، قضاة ذوو سحنات وقورة متدثّرون بأثواب واسعة سوداء، رجال متأنّقون بجوارب من حرير وسراويل ضيّقة يشهرون السلاح، وكان كلّ هؤلاء الشخوص يقدّمون مشهداً في منتهى الغرابة إلى درجة أنّني لم أستطع الامتناع عن الضحك رغم رعبي.

جلس هؤلاء السادة الموقّرون، وقفز إبريق القهوة بخفّة فوق المائدة. احتسوا القهوة في فناجين يابانية بيضاء وزرقاء أسرعت إليهم تلقائيّاً من فوق مكتب، وكلّ فنجان عليه قطعة سكّر وملعقة فضّية صغيرة.

بعد تناول القهوة، اختفت الفناجين والإبريق والملاعق معاً، وبدأت محادثة كانت من أغرب ما سمعت، فما من أحد بين هؤلاء المتحدّثين الغريبين كان ينظر إلى الآخر أثناء الحديث: كانوا يحدّقون كلّهم في بندول الساعة.

لم أتمكّن أنا أيضاً من غضّ النظر والامتناع عن متابعة عقارب الساعة التي كانت تتقدّم نحو منتصف اللّيل بخطوات غير محسوسة.

وأخيراً دقّت الساعة منتصف اللّيل؛ انطلق صوتٌ كان له رنين الساعة نفسها، وقال:

- حان الوقت، ينبغي البدء بالرقص.

وقف المحفل كلّه. تراجعت الأرائك بحركات تلقائية؛ وعندئذ أمسك كلّ فارس بيدِ سيّدة، وقال الصوت نفسه:

- هلمّوا، أيّها السادة في الجوقة، ابدؤوا!

Twitter: @ketab_n

نسيت أن أقول إنّ موضوع الرسوم على النّجْد كان يمثّل كونشرتو إيطاليّاً من جهة، وحملة صيد أيائل من جهة ثانية، حيث كان عدد من الخدم ينفخون في الأبواق. أمّا قادة كلاب الصيد والعازفون الذين لم يقوموا بأيّ حركة حتّى ذلك الوقت، فقد أحنوا رؤوسهم علامة على المشاركة.

رفع المايسترو عصاه، فانطلقت معزوفة حيّة وراقصة من طرفَي القاعة. تمّ أداء رقصة «المينْوَيه» الثلاثيّة في البداية.

غير أنّ النوتات السريعة الموجودة في توليفة العازفين لم تكن لتنسجم جيّداً مع هذا التبجيل الموقّر: وهكذا، وخلال بضع دقائق، بدأ كلّ زوج راقص يدور ويلفّ مثل خذروف ألمانيّ. وكانت فساتين النساء الحريرية، وهي تندعك في هذه الزوبعة الراقصة، تصدر أصواتاً ذات طبيعة متفرّدة؛ وكأنّها حفيف أجنحة لرفّ من الحمام. وكان الهواء الذي يدلف إليها من تحتُ يجعلها تنتفخ بشكل مدهش حتّى لتبدو أشبه ما تكون بنواقيس مرتجّة.

كانت قوس العازفين البارعين تمرّ سريعاً على الأوتار فتنبثق منها شرارات كهربائية. وترتفع أصابع عازفي الناي وتنخفض كما لو كانت من مادّة الزئبق، وكانت خدود النافخين من قادة كلاب الصيد منتفخة مثل مناطيد صغيرة، كلّ ذلك يساهم في تشكيل فيض من العلامات الموسيقية والألحان الثنائية المتكرّرة الفائقة السرعة، وسلالم أنغام تصاعدية وتنازلية في منتهى الالتواء وبطريقة لا يمكن تصوّرها، حتّى أنّ العفاريت نفسها ما كانت لتتمكّن من مواكبة مثل هذا الإيقاع ولو لدقيقتين.

كان من دواعي الشفقة رؤية كلّ الجهود التي يبذلها هؤلاء الراقصون من أجل استدراك الإيقاع. كانوا يقفزون ويتشقلبون ويؤدّون حركات

Twitter: @ketab_n

دائرية بأرجلهم ويستبدلون ساقاً بساقٍ خلال الإيقاع أو يثبون وثبات تصالبيّة على ارتفاع ثلاثة أقدام، حتّى أنَّ العرق المتصبّب من جباههم إلى عيونهم كان يأتي على الزينة والمساحيق. وعبثاً كان ما بذلوا من جهود، فقد ظلّت الفرقة تسبقهم دائماً بثلاث نوتات موسيقية أو أربع.

دقّت الساعة تشير إلى الواحدة؛ توقّفوا. أدركتُ أمراً فاتني: كان هناك امرأة لا ترقص.

كانت جالسة على أريكة قرب المدفأة، ولم يكن يبدو عليها أيّ اهتمام بما يجري حولها.

لم تسبق لعينيّ، حتّى في الحلم، رؤية مثل ذلك الكمال؛ بشرة ذات بياض ناصع، شعر ذو شقرة تميل إلى اللّون الرماديّ، أهداب طويلة وحدقتان زرقاوان كانتا من الصفاء والشفافية إلى حدّ رؤية روحها فيهما بوضوح حصاة في جدول.

وأحسست بأنّني لو قُيّض لي أن أحبّ، ذات يوم، فلن أحبّ سواها. أسرعت إلى مغادرة الفراش الذي لم أتمكّن من تركه حتّى تلك اللّحظة، واتّجهت نحوها يقودني شيء ما، كان يفعل فعله فيَّ دون أن أدرك كنهه؛ ووجدتُني عند ركبتيها، وإحدى يديها بين يديَّ، وأنا أحادثها كما لو كنت أعرفها منذ عشرين عاماً.

لكن، وبشكل خارق، كنت وأنا أحادثها، أرافق، بحركة من رأسي، عزف الموسيقى التي لم تتوقّف؛ ومع أنّي كنت في ذروة السعادة برفقة مثل هذه المرأة الفائقة الجمال، كانت قدماي تتلهّفان لمراقصتها.

إلّا أنّني لم أجرؤ على اقتراح ذلك. ويبدو أنّها دركت ما أرغب فيه، إذْ أنّها رفعت يدها الثانية التي لم أكن أمسك بها، باتّجاه ميناء الساعة:

- عندما يصل العقرب إلى هنا، سوف نرى، يا عزيزي تيودور.

Twitter: @ketab_n

لا أعلم كيف حصل ذلك، ولم أفاجأ البتّة بمناداتها لي باسمي، وتابعنا الحديث. وأخيراً، عندما دقّت الساعة المحدّدة، اهتزّ الصوت ذو الرنين الفضّيّ في الغرفة مرّة أخرى وقال:

- أنجيلا، يمكنك الرقص مع السيّد، إذا كان ذلك يروق لك، لكنّك تعرفين نتيجة ذلك.

- لا يهمّ، أجابت أنجيلا بنبرة حرِدة.

ولفّتْ ذراعها العاجيّة حول عنقي.

- «بريستيسيمو!»[1] صاح الصوت.

وبدأنا رقصة الفالْس. كان نهد الفتاة يلامس صدري، وخدّها المخمليّ يكاد يلامس خدّي، وتنفّسها العذب يطفو على فمي.

لم يسبق لي في حياتي اختبارُ مثل هذا الإحساس؛ كانت أعصابي تختلج مثل نوابض معدنية، ودمي يسيل في شراييني مثل تدفّق سيل من الحمم، بينما أستمع إلى قلبي ينبض مثل ساعة معلّقة على أذنيّ.

ومع ذلك لم تكن في تلك الحال أيّ درجة من الضنى. كنت غارقاً في فرح لا يوصف وتمنّيت أن أظلّ كذلك، والشيء اللّافت للانتباه أنّنا لم نحتج إلى أيّ جهد لمرافقة الموسيقى التي تضاعفت سرعتها ثلاث مرّات. وكان الحضور المبهورون بخفّتنا يصرخون «برافو!»، ويصفّقون بقوّة بأيديهم فلا يصدر منها أيّ صوت.

بدتْ أنجيلا التي رقصت حتّى تلك اللّحظة بطاقةٍ ورشاقة مدهشتَين، وقد شرعت تتعب فجأةً؛ كانت تتثاقل على كتفي كما لو أنّ ساقَيها قد خذلتاها؛ أمّا قدماها الصغيرتان اللّتان كانتا قبل دقيقة واحدة لا تكادان تلامسان الأرضية الخشبية فقد صارتا غير قادرتين على تركها إلّا ببطء،

---

(1) «بسرعة فائقة!» بمصطلحات الموسيقى.

Twitter: @ketab_n

كما لو أنّهما أُثْقِلتا بكتلة من رصاص.

- أنجيلا، أنت مرهقة، قلتُ لها، فلنسترحْ.

- أرغب في ذلك حقّاً، أجابت وهي تمسح جبينها بمنديلها. لكن، عندما كنّا نرقص الفالس، جلسوا كلّهم؛ ولم تتبقَّ إلّا أريكة واحدة، بينما نحن اثنان.

- وما الإشكال يا ملاكي الجميل؟ سوف أُجلسك على ركبتيَّ.

3

ودون أيّ اعتراض، جلست أنجيلا وطوّقتني بذراعيها كما لو كانتا وشاحاً أبيض، وخبّأت رأسها في صدري كي تدفأ قليلاً، ذلك أنّها صارت باردة مثل الرخام.

لا أدري كم من الوقت بقينا في ذلك الوضع، فحواسّي كلّها كانت مأخوذة في تأمّل ذلك المخلوق الغريب العجيب.

لم تعد لديّ أيّ فكرة عن الزمان أو المكان؛ كفّ العالم الواقعيّ عن أن يكون موجوداً بالنسبة لي، وتحطّمت كلّ الصلات التي كانت تربطني به؛ كانت روحي المتحرّرة من من سجنها الطينيّ تسبح في الفراغ وفي اللّانهاية؛ وكنت أتوصّل إلى فهم ما لا يمكن لأيّ إنسان أن يفهمه، فأفكار أنجيلا تتكشّف لي دون أن تحتاج إلى كلام؛ ذلك أنّ روحها كانت تلمع في جسدها مثل مصباح من مرمر، فيما الأشعة التي تنطلق من صدرها تخترق صدري من جهة إلى أخرى.

صدحت القبّرة، وترنّح بريق باهت على الستائر.

وما إن أدركت أنجيلا ذلك حتّى نهضت مستعجلة، وحيّتني بإشارة وداع، وبعد بضع خطوات صرخت وسقطت أرضاً.

Twitter: @ketab_n

تملّكني الرعب وأسرعت لرفعها. يتجمّد دمي حالما أستعيد التفكير فيما حدث: لم أجد شيئاً سوى إبريق القهوة المهشّم في ألف قطعة.

أمام هذا المشهد، واقتناعاً منّي بأنّني كنت ضحيّة خدعة شيطانية، تملّكني رعب أدّى بي إلى فقدان الوعي.

4

عندما استعدت وعيي، كنت في فراشي؛ وكان آريغو كوهيك وبدرينو بورنيولي واقفَين قرب سريري.

وما إن فتحت عينيّ حتّى صاح آريغو:

- آه! لم يذهب جهدي سدى! مرّت قرابة الساعة وأنا أفرك لك صدغيك بماء الكولونيا. يا للشيطان، ماذا فعلت هذه اللّيلة؟ في الصباح عندما لاحظت أنّك لم تنزل دخلت إلى غرفتك فوجدتك ممدّداً بطولك على الأرض، مرتدياً ثياباً على الطريقة الفرنسية، حاضناً بين ذراعيك قطعة بورسلين[1] مهشّمة، كما لو كانتْ فتاة شابّة وجميلة.

- بالتأكيد هذا لباس زواج جدّي، قال الثاني وهو يرفع أحد ذيلَي السترة الحريرية ذات الصبغة الورديّة المشجّرة باللّون الأخضر. ها هي أزرار الألماس الاصطناعيّ وخيوط الزخرفة التي كان يتباهى بها أمامنا بكثرة. لا شكّ أن تيودور قد عثر عليها في إحدى الزوايا وارتداها للتسلية. لكنْ بالمناسبة ما الذي جعلك تتألم؟ أضاف بورنيولي. هذا يكون أمراً جيّداً لو تعلّق بعشيقة شابّة ذات كتفين بيضاوين: عندئذ يمكن حلّ أربطتها ونزع قلائدها ووشاحها،

(1) أواني الخزف الصينيّ.

Twitter: @ketab_n

وتكون مناسبة مواتية للتغنّج.

- لا يتعلّق الأمر سوى بلحظة ضعف تملّكتني؛ أنا معتاد على ذلك، أجبت بجفاف.

نهضتُ وتخلّصتُ من زيّي المضحك السخيف.

وبعد ذلك تناولنا الغداء.

أكل رفاقي الثلاثة كثيراً وشربوا أكثر؛ أمّا أنا فلم أكّد أتناول شيئاً، ذلك أنّ ذكرى ما حصل ظلّت تتسبّب لي بشرود غريب.

بعد انتهاء الغداء، ونظراً لنزول أمطار غزيرة، لم يكن هناك مجال للخروج؛ فانشغل كلّ واحد منّا كما استطاع. دقّ بورنيولي إيقاع مسيرات حربيّة على زجاج النافذة؛ وتواجه آريغو ومضيفنا في لعبة الضامّة؛ أمّا أنا فقد سحبت من «ألبومي» مربّعاً من ورق الرِّقّ وشرعت أرسم.

جاءت الخطوط الأوّلية شبه غير المرئية، والتي رسمها قلمي دون أن أفكّر فيها البتة، لتمثّل بدقّة متناهية شكل إبريق القهوة الذي لعب دوراً في منتهى الأهميّة خلال المشاهد اللّيليّة.

- إنه لأمر مدهش كم أنّ هذا الرأس يشبه أختي أنجيلا، قال مضيفنا الذي انتهى من اللّعب ووقف يتفرج عليّ من فوق كتفي بينما كنت أرسم.

وفعلاً، كان ما بدا لي قبل قليل إبريقاً هو في الحقيقة وجه أنجيلا العذب والحزين.

- أستحلفك بكلّ قدّيسي الفردوس! هل هي ميتة أم حيّة؟ صرختُ بنبرة صوت مرتجف، كما لو أنّ حياتي باتت مرهونة بإجابته.

- لقد ماتت منذ عامين، بسبب نزلة صدريّة أعقبت حفلة راقصة.

- وا أسفاه! أجبتُ متألّماً.

Twitter: @ketab_n

ثمّ أعدت الورقة إلى الألبوم وأنا أحبس دمعة كانت توشك على النزول.

لقد أدركتُ للتوّ أنّ أيّ سعادة لم تبقَ لي على وجه الأرض!

Twitter: @ketab_n

أوفــــال

حكاية بأسلوب الرّوكوكو[1]

كان عمّي، الحامل لقب فارس...[2]، يقطن منزلاً صغيراً ينفتح من جهةٍ على شارع تورنيل الكئيب، ومن جهة ثانية على جادّة سانت-أنطوان الكئيبة. بين الجادّة والقسم الرئيسيّ من المنزل، كانت توجد بضع خمائل نباتية تفترسها الحشرات والطحالب وهي تمدّ أذرعتها العجفاء بصورة باعثة على الشفقة نحو ما يشبه بركة مياه آسنة محصورة بين أسوار سوداء عالية. وكان هناك بضع زهرات ذاوية وبائسة تحني رؤوسها بوَهن، مثل بُنَيّات مسلولات، في انتظار شعاع من الشمس يأتي ويجفّف أوراقها الآخذة بالتعفّن. هجمت الأعشاب على الممرّات التي لم يعد من السهل التعرّف عليها لطول ما غاب عنها المشاط. وهناك سمكة أو سمكتان حمراوان تسبحان، لا بل تطفوان في بِرْكة مغطّاة بطحالب الماء ونباتات مستنقعات.

كان عمّي يسمّي كلّ ذلك حديقتَه.

يوجد في حديقة عمّي، إلى جانب كلّ الأشياء الجميلة التي وصفتُها للتوّ، جناح معتدل الكآبة، وقد سمّاه، من باب التلاعب بالكلمات على الأرجح: «جناح الملذّات». كان في حالة خراب كامل. الحيطان محدّبة، وثمّة طبقات ملاط عريضة انفصلت عنها وظلّت ثاوية على الأرض

(1) نشرها للمرّة الأولى في صحيفة *Le Journal des gens du monde*، في السّابع من شباط 1834. والروكوكو أسلوب معماريّ يبالغ في الزخرفة.

(2) يضع المؤلّف أحياناً ثلاث نقاط محلّ اسم المكان، وأحياناً أخرى يذكر منه حرفه الأوّل.

Twitter: @ketab_n

بين نبات القرّاص والشوفان الهائج؛ وكانت عفونة منحلّة تضفي اللّون الأخضر على القاعدة السفلية للجدران؛ أمّا خشب المصاريع والأبواب فقد تخلخل، ولم يعد قابلاً للإغلاق أو صار يُغلق بصعوبة. وكان يزيّن المدخل الرئيسيّ ما يشبه قِدْراً تفوح بأبخرة مشعّة؛ ففي عهد لويس الخامس عشر، زمن بناء «جناح الملذّات»، كان يوجد دائماً مدخلان، من باب الاحتياط. زخارف بيضوية وأُخرى حلزونية وهندباء تثقل الأفاريز المفكّكة بفعل تسرّب مياه الأمطار. وباختصارٍ كان «جناح ملذّات» عمّي فارس... من أسوإ المباني المثيرة للرثاء التي يمكن رؤيتها.

هذه الخربة البائسة العائدة إلى الماضي، والتي تبدو من شدّة خرابها كأنّها عاشت مائة عام، هي خربة جبس وليست خربة حجر، كلّها مخدّدة، كلّها متشقّقة، مبقّعة، ومنخورة بالطحالب وملح البارود، كانت أشبه بواحد من أولئك الشيوخ المبكّرين الذين استنفدتهم أوسخ أنواع الفسق والفجور؛ لم تكن توحي بأيّ احترام، فلا وجود في العالم لما هو أبشع وأبأس من فستان من الشفّ عتيق أو جدار جبس قديم، شيئان لا يتعيّن عليهما البقاء ومع ذلك يدومان.

في هذا الجناح أسكنني عمّي. ولم يكن الداخل أقلَّ من الخارج من حيث توخّي أسلوب الروكوكو المعماريّ الشديد الزخرفة، ولو أنّه كان أفضل وقاية. كان السرير من اللّمباس، نسيج الحرير الصينيّ الأصفر ذي الزهور البيضاء الكبيرة. وهناك ساعة مزخرفة بالحصى تقف على قاعدة صغيرة مرصّعة بالصدف والعاج. بينما شريط مزخرف بورود ذات أزهار صغيرة يلتفّ بأناقة حول مرآة من فينيسيا[1]: وفوق الأبواب

(1) اسمها معرّب، كما هو معروف، على هيئة «البندقيّة»، ولكنّ اسمها بالنطق الإيطاليّ (وهو على وجه الدقّة «فينيتسيا») صار يُستخدَم بالعربيّة، وهو يلائم الصياغة في أحيان كثيرة.

Twitter: @ketab_n

رُسِمَت الفصول الأربعة بألوان متدرّجة. وهناك سيّدة جميلة ذات مساحيق خفيفة ومشدّ أزرق سماويّ مع تدرّج أوشحة من اللّون نفسه، في يدها اليمنى قوس، وفي يدها اليسرى حجلة، مع هلال على جبينها وكلب سلوقيّ عند قدميها، وهي تتبختر وتبتسم بألطف طريقة ممكنة داخل إطار بيضويّ واسع. كانت تلك إحدى عشيقات عمّي القديمات، وقد أمر برسمها على هيأة إلهة الصيد ديانا. لم يكن الأثاث، كما تدلّ معاينته، من الطراز الأكثر حداثة. لا شيء يمنع المرء من الاعتقاد أنّه في عهد الريجانس[1]، ويزيد النَّجد الأسطوريّ الذي يغلّف الجدران في تكملة هذه الصورة الوهميّة كأفضل ما يكون.

يمثّل النّجد هرقل وهو يغزل الصوف عند قدمَي أومْفالْ[2]. كان الرسم متكلّفاً على طريقة فان لو[3] وبالأسلوب الأكثر اقتراباً من الأسلوب الذي شاع أيّام بومبادور[4] ممّا يمكن تخيّله. كان لهرقل مغزل يحيط به شريط ذو لونورديّ؛ وكان يرفع خنصره برشاقة متميّزة، مثل مركيز يتناول تنشيقة سعوط، جاعلاً خيطاً أبيض رقيقاً من صوف يدور بين إبهامه وسبابته؛ وكان عنقه المتوتّر محمّلاً بعقد أشرطة، وأزرار مورّدة، وعقود لؤلؤ وألف حلية نسائية أخرى؛ بينما تلوح تنّورة واسعة متموّجة اللّون، مع سلّتَين واسعتين، لتسبغ على البطل قاهر الوحوش هيئة في منتهى اللّطف.

(1) عهد الريجانس: سبق التعريف به، شاع فيه طراز في المعمار وتأثيث البيوت يتميّز بالبساطة والأناقة.

(2) هي ملكة ليديا، استعبدت هرقل فترة. وتقدّمه الأسطورة غازلاً الصوف بين قدميها.

(3) شارل أندريه فان لو Charles André Van Loo، المعروف باسم كارل فانلو Carle Vanloo (1717–1795): رسّام ومن عائلة رسّامين فرنسيّين من أصل هولنديّ.

(4) مدام بومبادور Madame de Pampadour (1721–1764): محظيّة لويس الخامس عشر؛ لعبت دوراً مهمّاً في سياسة البلاط وفي رعاية الفلاسفة والفنّانين والكتّاب.

Twitter: @ketab_n

أمّا أومْفال فكانت كتفاها البيضاوان مغطّاتين إلى النّصْف بجلدِ أسدِ نيمي[1]؛ ويدها الضعيفة تستند إلى الدبّوس ذي العُقد لعشيقها؛ وشعرها الجميل، ذو الشقرة المائلة إلى الرماديّ بفعل بعض المساحيق، ينزل بلامبالاة على امتداد عنقها اللّيّن والمتموّج مثل عنق يمامة؛ وفي قدميها الصغيرتين الأقرب إلى قدمَي إسبانية أو صينية حقّاً، وكان يمكنهما أن يملأ حذاء سندريلّا بسهولة، خفٌّ من الطراز شبْه العتيق ذو لون ليلكيّ فاتح مع حبّات لؤلؤ. كانت جذّابة حقّاً! رأسها يتراجع إلى الخلف بازدهاء فاتن؛ فمها ينطوي ويُظهر مطّاً عذباً للشفتين، منخراها منفوخان نوعاً ما وخدّاها مضطرمان قليلاً؛ وثمّة خال صغير مصطنع رُسِم ببراعة فزاد من ألقهما بطريقة رائعة؛ ولم يكن ينقص إلّا شاربان قصيران لنرى أمامنا فارساً مكتملاً.

كان هناك شخصيّات أُخرى كثيرة على نَجْد الحائط، مثل الوصيفة التي لا غنى عنها وإله الحبّ الصغير المعتاد؛ غير أنّها شخصيات لم تترك في ذاكرتي ملامح مميّزة حتّى أتمكّن من وصفها.

في ذلك الوقت كنت في عزّ شبابي، وهذا لا يعني أنّني مسنّ جدّاً اليوم؛ كنتُ تخرّجت للتوّ من المدرسة الثانوية وجئت لأمكث عند عمّي وقتاً كافياً في انتظار اختياري لمهنة ما. وما من شكّ في أنّ ذلك الرجل الطيّب لو تمكّن من التوقّع بأنّني سوف أحترف مهنة الحكّاء الغرائبيّ، لطردني وحرمني من الميراث نهائياً؛ إذْ كان يعلن أنه يكنّ للأدب عامّة، وللكتّاب بشكل خاصّ، أقوى ازدراء أرستقراطيّ. وبصفته واحداً من النبلاء، كان يرغب في إخضاع كلّ هؤلاء المتحذلقين الصغار الذين ينكبّون على تحبير الأوراق والكلام بوقاحة عن الأشخاص المحترمين، إخضاعهم

(1) نيمي: اسم وادٍ صرع فيه هرقل أسداً كان قد روّع البلاد، وارتدى جلده.

Twitter: @ketab_n

للشنق أو الضرب بالعصيّ. فليحلَّ سلام الربّ على روح عمّي المسكين! لم يكن يقدّر أيّ شيء في العالم ما عدا «رسالة إلى زيتولبيه»[1].

وعليه، كنت متخرّجاً للتوّ من الثانوية. وكنت ممتلئاً بالأحلام والأوهام. وربّما كنت بسذاجة لا تعادلها أو تفوقها إلّا سذاجة فتاة الورد في سالنسي[2]. كنت سعيداً بالتخلّص من العقوبات الكتابية، شاعراً بأنّ كلّ شيء على ما يرام في أفضل عالم ممكن. كنتُ مؤمناً بأشياء غير متناهية: أؤمن براعية السيّد دو فلوريان، بالخرفان الممشّطة والمصبوغة فروتها؛ ولم أكن أشكّ لحظة في قطيع السيّدة ديزوليير[3]، وكنت أؤمن حقّاً بوجود تسع ربّات إلهام كما يؤكّد مصنّف الأب جوفنسي حول الأساطير «فهرست الآلهة والأبطال»[4]. لقد كانت ذكرياتي المتأتّية من بيركان وجيسنر[5] تخلق لي عالماً صغيراً حيث كلّ شيء ورديّ، وأزرق سماويّ، وأخضر تفاحيّ. يا للبراءة المقدّسة! كما يقول ميفيستوفيليس[6].

عندما ألفيتُني في تلك الغرفة الجميلة، غرفتي، غرفتي أنا وحدي، أحسست بفرح لا مثيل له. جرَدْتُ باعتناءٍ كلّ أثاثها؛ نقّبتُ في كلّ الزوايا، واستكشفتها في كلّ الاتّجاهات. كنتُ في السماء الرابعة، سعيداً

---

(1) زيتولبيه Zétulbé إحدى شخصيّات أوبرا كوميدية كانت شائعة في تلك الفترة للمؤلّف الموسيقيّ الفرنسيّ فرانسوا-أدريان بوالديو François Adrien Boieldieu (1775-1834)، عنوانها «خليفة بغداد» *Le Calife de Bagdad*.

(2) عرفت مدينة سالنسي Salency الفرنسية بحفل قديم بدأ منذ القرن الخامس، تُتوّج فيه أعفّ فتاة بتاج من الورد لكنّه بات مثار سخرية في القرن التاسع عشر.

(3) كلّ ما سبق إشارة الى نصوص ومحفوظات رعوية لكتّاب كلاسيكيّين كانت مقرّرة في المدارس.

(4) هو *Appendix de Diis et Heroibus*، للأب جوزيف دو جوفنسي Joseph de Jouvancy.

(5) انظر الحاشية الثالثة في هذه الصفحة.

(6) شخصيّة تجسّد الشيطان في مسرحيّة «فاوست» *Faust* لغوته.

Twitter: @ketab_n

مثل ملِك أو ملِكَين اثنين. بعد العشاء (إذْ كان يُقدّم العشاء في بيت عمّي)[1]، وهي عادة فاتنة تلاشت مع أشياء أخرى كثيرة لا تقلّ عنها فتنة أتأسّف عليها من صميم قلبي، حملت شمعداني وانسحبت متشوقاً لرؤية مقرّي الجديد.

خُيِّل لي وأنا أخلع ثيابي أنّ عينَي أومفال قد تحرَّكتَا؛ نظرتُ بانتباه أكثر، مع شعور خفيف بالرعب لأنّ الغرفة كانت واسعة، ولم يكن ضعف الغبش المنير المتموّج حول الشمعة قادراً إلّا على جعل الظلام مرئيّاً أكثر. اعتقدتُ أنّني رأيت رأسها ملتفتاً نحو الجهة المعاكسة. بدأ الخوف يتملّكني حقّاً؛ نفختُ على الضوء. التفتّ ناحيةَ الحائط ووضعت الشرشف على رأسي ساحباً طاقيتي حتّى ذقني، وانتهى بي الأمر إلى النوم. وهكذا بقيت عدّة أيام لا أجرؤ على إلقاء نظرة على النّجد اللّعين.

ولعلّه ليس من العبث، ومن أجل جعل الحكاية العجيبة التي سأحكيها أكثر صدقيّة، أنْ أخبر قارئاتي الجميلات بأنّني في ذلك الوقت كنت فتًى على قدر من الجمال حقّاً. كان لي أجمل عينين في العالم: أقول هذا لأنّه قيل لي؛ وسحنة أكثر غضارة قليلاً من سحنتي الآن؛ سحنة قرنفلة؛ وشعر أسود مجعّد ما زال حتّى الآن كذلك، وسبعة عشر عاماً لم تبقَ كذلك. ولم يعد ينقصني سوى إشبينة جميلة لأغدو ملاكاً مقبولاً قليلاً؛ ومن سوء الحظّ أن لإشبينتي سبعة وخمسين عاماً، وثلاثاً فقط من أسنانها، وهو أكثر ممّا ينبغي من جانب، وأقلّ ممّا ينبغي من جانب آخر.

ذات مساء تجاسرت، مع ذلك، على إلقاء نظرة على عشيقة هرقل

---

(1) إشارة إلى عادة العشاء العائليّ المتأخّر souper، المحفوف بشيء من الاحتفاليّة باعتباره خاتمة أو تتويجاً لليوم، التي ابتكرها الفرنسيّون في القرن الثامن عشر، لكنّها فقدت من قيمتها في القرن التاسع عشر لصالح وجبة العشاء العاديّة dîner . كانت تشكّل لحظة وئام عائليّ أو عشقيّ تشغل فيها المحادثة والدّعابة مكاناً مهمّاً.

Twitter: @ketab_n

الجميلة؛ كانت تنظر إليّ بنظرة هي الأشدّ حزناً وسقماً في العالم. في تلك المرّة سحبت طاقيتي حتّى كتفيَّ وحشرت رأسي تحت المسند.

وفي تلك اللّيلة حلمت حلماً لا يشبه غيره، هذا إذا اعتبرناه حلماً.

سمعت حلقات الستائر في سريري تنزلق صارخة وهي في قضيبها المعدنيّ كما لو أنّ هناك من سَحب الستارة بسرعة فائقة. فاستيقظت؛ على الأقلّ هُيّئ لي أنّني استيقظت في حلمي. لم أرَ أحداً.

كان القمر يضيء مربّعات الزجاج ويرسل ضوءه الأزرق الباهت داخل الغرفة. فترتسم ظلال كبيرة ذات أشكال غريبة على الأرضيّة والحيطان. دقّت الساعة المزخرفة بالحصى معلنة عن مرور ربع ساعة؛ طال رنينها قبل أن يتلاشى؛ وبدا كأنّه تنهيدة. وكانت نبضات الرقّاص تشبه إلى حدّ بعيد دقّاتِ قلبِ شخص متأثّر.

لم أكن مرتاحاً ولم أكن أعرف أيضاً بماذا يمكنني أن أفكّر.

جاءت هبّة ريح قويّة خبطت المصارع وصفَقَتْ زجاج النافذة. تقصّف الخشب وتموّج النّجْد. خاطرت بالنظر صوب أومْفال، وقد ذهب بي الظنّ، بشكل غامض، إلى أنّها قد تكون على علاقة بكلّ ما يجري. ولم أكن مخطئاً.

اهتزّ النّجْد، بعنف. انفصلت أومْفالْ عن الجدار وقفزت بخفّة على الأرضية؛ جاءت إلى سريري وقد عمدتْ إلى الالتفات نحوه. أعتقد أنّه ليس من الضروريّ أنْ أحكي عن ذهولي. ذلك أنّ أكبر عسكريّ سنّاً وإقداماً لم يكن من شأنه أن يشعر بكاملِ الأمان في مثل هذا الظرف، والحال أنّني لم أكن مسنّاً ولا عسكريّاً. فانتظرتُ صامتاً نهاية المغامرة.

رنّ في أذني صوت ناعم مزماريّ النغم ومتقطّع، مع تلك اللّثغة بحرف الراء المتكلّفة اللّطف بعد أن تصنّتعها المركيزات والمتكلّمون

Twitter: @ketab_n

بظرف وأدب، في عهد الوصاية على العرش:

«هل أنا أخيفك، يا صغيري؟ صحيح أنّك لست سوى طفل؛ لكنّه ليس من المستحسن أن تخاف من السيّدات، خصوصاً من الشابّات اللّائي يردن بك خيراً؛ هذا ليس من التهذيب ولا من شيَم الفرنسيّين؛ ينبغي أن تتدارك مثل هذه المخاوف. هيّا، أيّها المتوحّش الصغير، تخلّصْ من هذه الهيئة ولا تُخْفِ رأسك تحت الأغطية. ما زالت تربيتك تتطلّب الكثير، وأنت لست متقدّماً كثيراً، يا غلامي الجميل؛ في زمني كان الأطفال الجميلون أكثر تروّياً منك.

– لكن، يا سيّدتي، ذلك أنّ...

– ذلك أنّ رؤيتك لي هنا، وليس هناك، تبدو لك غريبة، قالت وهي تعضّ قليلاً شفتها الحمراء بأسنانها البيضاء، وتمدّ إصبعها الطويل والمشيق نحو الجدار. حقّاً ما يحدث ليس طبيعياً جدّاً؛ وحتّى لو فسّرته لك لن تفهمه بطريقة أفضل: يكفيك أن تعرف إذاً أنّك لا تتعرّض إلى أيّ خطر.

– أخشى أن تكوني الـ... الـ...

– الشيطان، فلنصدعْ بالكلمة، أليس كذلك؟ أهذا ما أردتَ قوله؛ ستوافقني الرأي على الأقلّ أنّني لست مفرطة في السواد مقارنة بالشيطان، وأنّ الجحيم نفسه، لو كان مأهولاً بشياطين مجبولة على غراري، لصار مكاناً يحلو فيه العيش تماماً كما هي الحال في الفردوس».

وحتّى تظهر أومْفالْ أنّها لم تكن بصدد التباهي ردّت جلد الأسد الذي ترتديه إلى الخلف، وكشفت لي عن كتفين وصدر ذي شكل رائع وبياض فاتن.

Twitter: @ketab_n

«ههْ! ما رأيك؟ قالت بنبرة دلال خفيفة راضية.

- أقول حتّى لو كنتِ الشيطان بشخصه لن أعود إلى الشعور بالخوف، سيّدتي أومْفالْ.

- هذا كلام بليغ؛ لكن لا تعدْ إلى مناداتي بسيّدتي ولا بأومْفالْ. لا أريد أن أكون سيّدة بالنسبة لك، ولست أومفال تماماً كما إنّني لست الشيطان.

- من تكونين إذاً؟

- أنا مركيزة ت... بعد وقت على زواجي أمرَ المركيز بنسج هذا النّجد لشقّتي، وأمر برسمي مرتديةً زيّ أومْفالْ؛ والمركيز نفسه يمْثل فيها بملامح هرقل. وهذه فكرة متفرّدة أتى بها، إذْ يعلم الله أنْ لا أحد في العالم يشبه هرقل أقلّ من المركيز المسكين. منذ زمن طويل لم تعد هذه الغرفة مأهولة. وأنا التي تحبّ الرفقة بشكل طبيعيّ، كنت أشعر فيها بالسأم إلى حدّ الهلاك، والابتلاء بالصداع. كان الوجود مع زوجي يعني أنّني وحدي. وعندما جئتَ أنت أفرحتَني؛ عادت الحياة إلى هذه الغرفة الميتة وصار بإمكاني الاعتناء بشخص ما. كنت أنظر إليك تذهب وتعود، وأنصت إليك وأنت تنام وتحلم؛ وأتابع قراءاتك. وجدتك لطيفاً بمظهر جذّاب، هذا أمر يعجبني: وهكذا أحببتك في نهاية المطاف. حاولت إفهامك ذلك؛ كنت أطلق تنهّدات، فتحسبها متأتّية من الريح؛ وألوّح إليك بإشارات وأرمي لك بغمزات عاشقة فلا أنجح إلّا في زيادة شعورك بالرعب الفظيع. وبعد استنفاد كلّ الوسائل قرّرت اتّخاذ المسعى غير اللّائق الذي أقوم به الآن، وأن أقول لك بصراحة ما لا تستطيع فهمه تلميحاً. وبما أنّكِ تعرف الآن أنّني أحبّك، أتمنّى أن..».

Twitter: @ketab_n

كان الحوار لا يزال في تلك النقطة عندما سُمع صوت مفتاح في القفل.

ارتعدت أومْفال واحمرّ حتّى بياض عينيها.

«إلى اللّقاء! قالت، إلى الغد». ثمّ عادت إلى جدارها متقهقرةً، ربّما خشيةَ أن تتركني أرى قفاها.

كان القادم هو باتيست الذي جاء بحثاً عن ثيابي لتنظيفها بالفرشاة.

«أنت مخطئ يا سيّدي، بالنوم والستائر مفتوحة، قال لي. إذْ يمكنك التقاط برد في الدماغ؛ هذه الغرفة في منتهى البرودة!»

وبالفعل كانت الستائر مفتوحة؛ استغربت ذلك وأنا الذي ظننت أنّي كنت أحلم، إذْ كنت متأكّداً من إغلاقها مساء البارحة.

وما إن خرج باتيست حتّى ركضتُ باتّجاه النّجد. جسستُه في كلّ الاتّجاهات؛ كان بساطاً حقيقيّاً من الصوف، خشن الملمس مثل كلّ البسُط الممكنة. كانت أومْفالْ تشبه شبح اللّيل الفاتن مثلما يشبه ميتٌ حيّاً. تفحّصت الجدار؛ كان ممتلئاً؛ ولا وجود للوح مؤطّر أو باب خفيّ. لكنّني لاحظت هذه الملاحظة فقط، كانت عدّة خيوط قد تقطّعت في المساحة التي توجد فيها قدما أومْفالْ. وهذا ما دفع بي إلى التفكير.

أمضيت كامل النهار في تزجية للوقت لم يسبق لها مثيل؛ كنت أنتظر حلول المساء بقلق ولهفة معاً. انسحبت مبكّراً وقد قرّرت التأكّد من الكيفيّة التي سينتهي بها الأمر. نمت؛ فلم يتطلّب حضور المركيزة مزيداً من الانتظار؛ فقد وثبت أسفل الحائط لتحطّ مباشرةً في فراشي؛ جلستْ عند رأس السرير وبدأت المحادثة.

وكما في اللّيلةَ السابقة طرحتُ عليها بعض الأسئلة وطلبت منها توضيحات. كانت تتملّص من بعضها، وتجيب عن بعضها الآخر بطريقة فيها تهرّب لكنّها لا تخلو من نباهة إلى درجة أنّني، وبعد ساعة، لم يعد لي

Twitter: @ketab_n

أيّ شكٍّ في علاقتي بها.

كانت أثناء حديثها تمرّر أصابعها في شعري وتسدّد لي ضربات صغيرة على خديَّ وقبلات خفيفة على جبيني.

كانت تثرثر، تثرثر بطريقة ساخرة وغنِجة، وبأسلوب يجمع بين الأناقة والحميميّة ومهابة سيدّة جليلة القدْر، أسلوب لم أتمكّن من إيجاده لاحقاً لدى أيّ شخص آخر.

جلستُ في البداية على أريكة بجانب السرير؛ وسرعان ما مدّت إحدى ذراعيها حول عنقي، أحسست بقلبها يدقّ بقوّة إزائي. كانت تلك حقّاً امرأة جميلة وفاتنة وغير خياليّة، مركيزة حقيقيّة تمْثل بجانبي. يا للتلميذ المسكين في السابعة عشرة من عمره! هناك ما يجعل المرء يفقد صوابه؛ وبالفعل فقدتُه. لم أكن أعلم كثيراً ماذا كان سيحدث، لكنّني حدست بغموض أنّ ذلك لن يروق للمركيز.

«والسيّد المركيز، ماذا عساه سيقول هناكَ على جداره؟»

كان جلد الأسد قد سقط أرضاً والخفّ اللّيلكيّ الفاتح المطعّم بالفضّة يثوي بجانب خفّي.

«لن يقول شيئاً، عادت المركيزة للقول ضاحكةً من شغاف قلبها. وهل هو يرى شيئاً؟ وحتّى إذا رأى فهو الزوج الأكثر فلسفة ومسالمة؛ إنّه معتاد على ذلك. هل تحبّني يا صغيري؟

- نعم، كثيراً، كثيراً».

أطلّ النهار؛ وانسحبت عشيقتي.

بدا لي النهار طويلاً بشكل فظيع. وحلّ المساء أخيراً. جرت الأمور كما في اللّيلة الفائتة. ولم تكن اللّيلة الثانية لتحسد الأولى. لا بل إنّ المركيزة كانت تزداد فتنة. تكرّرت هذه اللّعبة مدّة أُخرى طويلة. وبما أنّني لم أكن

Twitter: @ketab_n

أنام ليلاً، كنت أشعر بنوع من النعاس طيلة النهار، وهذا الأمر لم يكن ليريح عمّي. ارتاب في شيء ما؛ ولعله تنصّت من وراء الباب وسمع كلّ شيء؛ ذلك أنّه ذات صباح، دخل إلى غرفتي بشكل مفاجئ إلى درجة أنّ أنطوانيت لم تكد تتمكّن من الصعود إلى مكانها.

كان يتبعه عامل متخصّص في نسج البسُط ومعه كلّابة وسُلّم.

نظر إليّ بطريقة عنجهيّة وصارمة أدركت معها أنّه كان يعلم بكلّ شيء.

«مركيزة ت... هذه، مجنونة حقّاً؛ كيف تجرّأتْ على عشق طفل بليد من هذا النوع؟ قال عمّي ذلك وهو يصرّ على أسنانه؛ مع أنّها وعدت بالتعقّل!

«يا جان، فكّ نَجْدَ الحائطِ، اطْوِهِ وانقلْه إلى تسقيفة البيت».

كانت كلّ كلمة من كلمات عمّي خنجراً.

لفّ جان عشيقتي أومْفالْ، أو المركيزة أنطوانيت دو ت...، ومعها هرقل أو المركيز دو ت...، ونقل كلّ شيء إلى التسقيفة. لم أتمكّن من حبس دموعي.

في الغد، أرجعني عمّي بعربة جياد السيّد ب... إلى أهلي المحترمين الذين لم أبح لهم بشيء، كما يمكن للمرء أن يتوقّع، حول مغامرتي.

مات عمّي؛ وتمّ بيع المنزل والأثاث؛ ومن المرجّح أنّ النّجد قد بيع مع البقيّة.

يبقى أنّني، ومنذ مدّة، كنت أنقّب عند تاجر سلع قديمة بحثاً عن قطع مقلّدة، فصدمتُ بقدمي لفّة كبيرة معفّرة بالغبار ومغطّاة بنسيج العناكب.

Twitter: @ketab_n

«ما هذا؟ سألت الأوفيرني[1].

- إنّه نَجد من طراز الروكوكو، يمثّل قصّة الحبّ بين السيّدة أومْفالْ والسيّد هرقل؛ هو من شغل بوفيه[2] وكلّه من الحرير وكان محفوظاً جيّداً. إذا اشتريته منّي لمكتبك فلن أبيعك إيّاه بسعر باهظ، لأنّك أنت».

مع ذكر اسم أومْفالْ تدفّق دمي كلّه إلى قلبي.

«افرِدْ هذا النّجد»، قلت للتاجر بنبرة مقتضبة ومتقطّعة كما لو أصابتني حمّى».

كانت هي نفسها حقّاً. لاح لي فمها وكأنّه يفترّ لي عن ابتسامة لطيفة فيما توقّدتْ عيناها عندما التقتا بعينيّ.

«كم تطلب مقابله؟

- لا يمكنني إعطاؤك إيّاه بأقلّ من أربعمائة فرنك، بالضبط.

- لا أحمل مثل هذا المبلغ. سأذهب لجلبه؛ وسأكون هنا قبل ساعة».

عدت مع المبلغ الماليّ؛ لم أجد النّجْد. لقد جاء إنجليزيّ وساوم عليه خلال غيابي، فدفع ستمائة فرنك وأخذه.

في الحقيقة، ربّما كان من الأفضل أنّ الأمر سار هكذا، وبالتالي فقد حافظت على تلك الذكرى اللّذيذة سليمة وكاملة. يقال إنّه لا ينبغي العودة إلى الحبّ الأوّل ولا إلى رؤية الوردة التي أعجبتنا البارحة.

ثمّ إنّني لم أعد فتياً بما يكفي أو جميلاً بما يكفي حتّى تنزل النُّجود من جدرانها إكراماً لي.

---

(1) نسبة إلى سكّان منطقة الأوفرنيي Auvergne الفرنسية.

(2) بوفيه Beauvais : مدينة فرنسية شهيرة بصنع السجّاد.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الميتة العاشقة[1]

تسألني يا أخي إنْ كنتُ قد أحببتُ؛ نعم. إنّها قصّة متفرّدة وفظيعة، ورغم أنّ لي من العمر ستّة وستّين عاماً، فأنا لا أكاد أجرؤ على تحريك رماد هذه الذكرى. لا أريد أن أرفض لك طلباً، غير أنّني لن أحكيَ مثل هذه الحكاية لروحٍ أقلّ تجربة. إنّها أحداث من الغرابة إلى درجة أنّني لا أقدر على تصديق حصولها لي. كنتُ طيلة أكثر من ثلاث سنوات ألعوبةَ وهْم فريدٍ وشيطانيّ. عشتُ، أنا خوريّ الأرياف البائس، كلّ ليلة في الحلم (فليكنْ حلماً بمشيئة الربّ!) حياةَ ملعون، حياةً اجتماعية مدنيّة تليق بساردانابال[2]. نظرة واحدة مفعمة بالملاطفة تجاه امرأة كادت تتسبّب في هلاك روحي؛ لكنّني في نهاية المطاف، بعون الربّ وقدّيسي الشفيع، توصّلت إلى طرد الروح الشيطانية التي تملّكتني. لقد تعقّد وجودي بوجودٍ آخر ليليّ مختلفٍ تماماً. ففي النهار أكون قسّاً في خدمة الربّ، عفيفاً، مهتمّاً بالصلاة وبالأشياء المقدّسة؛ وفي اللّيل، ما إن أغمض عينيّ حتّى أصير سيّداً شابّاً، خبيراً في النساء، وفي الكلاب والخيول، وألعب النرد، وأشرب وأجدّف؛ وعندما أستيقظ فجراً، أشعر بالعكس تماماً، أنّني نائم وأحلم بأنّني قسّ. ومن هذه الحياة المسرنمة بقيتْ لي

---

(1) نُشرت أوّل مرّة في صحيفة *Chronique de Paris*، التي كان يُشرف على صفحاتها الأدبيّة الروائيّ أونوريه دو بلزاك Honoré de Balzac، في الأعداد من 23 إلى 26 حزيران، 1836.

(2) ملك آشوري أسطوريّ في الميثولوجيا الإغريقية وهو تحريف لاسم آشور بانيبال. وقد وضع اللّورد بايرون Lord Byron في 1821 مسرحيّة عنه، معروفة.

Twitter: @ketab_n

ذكريات عن أشياء وكلمات لا يمكنني الدفاع عن نفسي إزاءها، ورغم أنّني لم أغادر قطّ جدران بيت كاهن الرعيّة، يمكن لمن يسمعني أنْ يقول، بالأحرى، إنّني رجل استنفد كلّ شيء وعاد من الحياة المدنية إلى الدين ويريد إنهاء أيّامه المضطربة جدّاً في حضن الربّ، أكثر منّي مجرّد طالب مدرسة إكليريكيّة[1] بلغ الشيخوخة في مقرّ منسيّ للخوارنة، داخل إحدى الغابات ومن دون أيّ صلة بما يجري في عصره.

نعم، أحببت كما لم يحبّ إنسان في العالم، كان حبّاً جنونيّاً عنيفاً، كان من العنف حتّى أنّي أستغرب كيف لم يتمكّن من تفجير قلبي. آه! يا لتلك اللّيالي! يا لتلك اللّيالي!

منذ نعومة أظفاري، أحسست بنداء باطنيّ يدفعني نحو وظيفة الكاهن؛ لذلك مالت دراساتي كلّها إلى هذا الاتّجاه، ولم تكن حياتي، حتّى الرابعة والعشرين من عمري، إلّا ترهْبناً طويلاً. وبعد إكمال مرحلة اللّاهوت، مررتُ، بالتعاقب، على كلّ درجات الكهنوت الصغيرة، وارتأى رؤسائي أنّني جدير، رغم عنفوان شبابي، باجتياز الدرجة الأخيرة الرهيبة. وحُدِّدَ يوم سِيامتي[2] كاهناً خلال أسبوع عيد الفصح.

لم يسبق لي الخروج إلى المجتمع قطّ؛ وكان العالم، بالنسبة لي، يقتصر على الأرض المسوّرة للمَجْمع والمدرسة الإكليريكية. كنت لا أكاد أعلم بوجود كائن يُدعى المرأة، لكنّني لم أكن لأشغل به تفكيري كثيراً؛ كنت أعيش في براءة تامّة. ولم أكن أرى أمّي العجوز العاجزة إلّا مرّتين في العام. تلك هي كلّ علاقاتي بالخارج.

لم أكن نادماً على شيء، ولم أكن أشعر بأيّ تردّد أمام هذا الالتزام الذي

(1) مدرسة لتعليم من يريدون الانخراط في سلك الكهنوت المسيحيّ.

(2) السِّيامة، وتدعى أيضاً «رِسامة»: طقسٌ دينيّ مسيحيّ يُمنح بموجبه رجل الدّين درجة كهنوتيّة.

Twitter: @ketab_n

لا عودة عنه؛ كنت مفعماً بالفرح ونفاد الصبر. لم يسبق لأيّ شابٍّ خاطب أن أحصى الساعات بشوق محموم أكثر احتداماً ممّا كنت أفعل؛ كنت لا أنام، وأحلم أنّني أُشرف على القُدّاس؛ ولا شيء عندي في العالم أجمل من أن يكون المرء كاهناً: كان من شأني أن أرفض وظيفة ملك أو شاعر. فطموحي لا يتجاوز ذلك.

أقول لك كلّ هذا لأبرهن لك كم أنَّ ما حدث لي ما كان ينبغي أن يحدث، وأيّ غواية غير قابلة للتفسير كنت ضحيّتها.

حلّ اليوم الموعود، فمشيت نحو الكنيسة بخطى في منتهى الخفّة حتّى حسبتُني مسنوداً في الهواء أو أنّ لي جناحَين على كتفيَّ. خُيّل لي أنّني ملاك واستغربت مظاهر رفاقي المتجهّمة والمهمومة، إذْ كان عددنا كبيراً. أمضيت اللّيل في الصلاة، وكنت في حالٍ أشبه ما تكون بالوجد. كان الأسقف العجوز الموقّر يبدو لي مثل الآب منحنياً على أبديّته، وكنت أرى السماء عبر قِباب المعبد.

أنت تعرف تفاصيل هذه الاحتفالية الدينية: التبريك، وتناول القربان بنوعَيه، ومسْح كفَّي اليدين بالزيت للموعوظين[1] الواصلين حديثاً، وأخيراً القدّاس مع الأسقف. لن أسهب في ذلك. آه! كم أنّ يعقوب على حقّ، وكم هو متهوّر ذلك الذي لا يعقد وعينَيه ميثاقاً![2] صدفةً رفعتُ رأسي الذي كنت تركته حتّى ذلك الحين منحنياً، ولمحت أمامي فتاة في غاية القرب إلى درجة يمكنني معها لمسها، رغم أنّها في الواقع كانت على مسافة كبيرة نسبيّاً وفي الجهة الثانية من الدرابزين. كانت تتحلّى بجمال نادر وبهاءِ ثياب ملكيّة. صرتُ كمن باتت تتساقط قشور من حدقتَيه.

(1) هم الأشخاص الذين يتلقّون تعليماً مسيحيّاً يؤهّلهم لنيل المعموديّة.

(2) «قد عاهدْتُ عينيَّ أنْ لا أتأمّلَ في عذراءَ» (سِفر أيّوب، 30-1).

Twitter: @ketab_n

وانتابني إحساسُ شخص ضرير بدأ فجأةً يستعيد بصره. انطفأ الأسقف بغتةً وهو الذي كان متألّقاً منذ قليل، وشحبت الشموع في شمعداناتها الذهبيّة مثل نجوم الصباح، وعمّ الكنيسةَ ظلام دامس. كانت المخلوقة الجذّابة ترتسم على تلك الخلفية الداكنة مثل تجلٍّ ملائكيّ؛ وبدت مضيئة من تلقاء نفسها، تمنح النور عوضَ أن تتلقّاه.

غضضتُ الطرف موطّداً العزم على عدم النظر كي أتخلّص من تأثير الأشياء الخارجية؛ ذلك لأنّ الشرود بدأ يتملّكني أكثر فأكثر، ولم أعد واعياً بما كنت أفعل تقريباً.

بعد دقيقة فتحتُ عينيّ من جديد لأنّني ظللت أراها عبر أهدابي، متلألئةً بألوان الطيف الشمسيّ، في غبش أرجوانيّ، تماماً كما يحدث عندما نحدّق في الشمس.

آه! كم كانت جميلة! عندما بحث الرسّامون الكبار عن الجمال المثاليّ في السماء، جلبوا إلى الأرض رسم مريم العذراء الإلهيّ، لكنّهم لن يقدروا حتّى على الدنوّ من هذه الحقيقة الأسطوريّة. ولا يمكن لقصائد الشعراء ولا لألواح الرسّامين أن تقدّم فكرة عنها. كانت ذات طول لافت مع قامةِ إلهةٍ وهيئتها؛ وشعرها الأشقر الناعم ينفصل في خصلتَين من أعلى رأسها تنسابان على صدغيها مثل نهرَين ذهبيَّين. كانت أشبه بملكة متوّجة، يمتدّ جبينها ذو البياض المزرقّ والشفّاف على قوسَي الأهداب شبْه السّمراء، وهو تميّز يزيد في أثر الحدقتين بلونهما القريب من خضرة البحر وبألَقهما وبريقهما الفاتنين. يا لهما من عينَين! تستطيعان بومضة واحدة تقرير مصير رجل؛ كان لهما حيويّة وصفاء وحدّة ورطوبة لامعة لم أشهد مثلها في عين إنسان؛ كانت تنبعث منهما أشعّة تشبه السهام فأراها تبلغ قلبي بوضوح. لا أدري إنْ كانت الشعلة التي تنيرهما متأتية من

Twitter: @ketab_n

السماء أم من الجحيم، ومن المؤكّد أنّها تأتي من أحدهما. هي ملاك أو شيطان، وربّما كانت الاثنين معاً؛ لا يمكن أن تكون من صلب حوّاء، أمّ الجميع. تتلألأ أسنانها الشرقية الأجمل في ابتسامتها الحمراء، ومع كلّ انثناءة لفمها تنحفر غمّازات صغيرة على الساتان الورديّ لخدّيها الرائعَين. أمّا أنفها فكان ذا نعومة وشموخ ملكيَّين تماماً، ويكشف عن نبل المحتد. تتراقص التماعاتُ عقيقٍ على الجلد الصقيل والململمّع عند كتفيها نصف العاريتين، بينما تنزل إلى صدرها صفوف جواهر شقراء كبيرة متلائمة ولونَ عنقها تقريباً. وبين حينٍ وآخر ترفع رأسها بحركة متموّجة لثعبان أو لطاووس ينفخ عنقه، فترسم رعشة خفيفة على الوشاح المطرّز تماماً والذي يحيط بها مثل مشبَّك من فضّة.

كانت ترتدي فستاناً مخمليّاً ذا لون أحمر برتقاليّ مثل عِرْق اللّؤلؤ، ومن كُمَّيها الواسعَين المبطّنَين بفرو السمّور تخرج يدان نبيلتان في منتهى الرقّة، بأصابع طويلة وممتلئة، وشفافية مطلقة، حتّى أنّها تترك الضوء يمرّ كما تفعل أصابع الفجر.

كلّ هذه التفاصيل ما زالت حاضرة بالنسبة لي كما لو أنّها تنتمي إلى البارحة، ومهما كنتُ في غاية الاضطراب، لا يفلت مني شيء: أدقّ التفاصيل والفروق، الخال الصغير الأسود في زاوية الذقن، الزغب غير المدرَك عند ملتقى الشفتين، مخمليّة الجبين، ظلّ الأهداب المرتعش على الخدَّين، كنت ألتقط كلّ شيء بجلاء مدهش.

كنت كلّما نظرت إليها شعرت بانفتاح أبواب في داخلي كانت قد أُغلقتْ حتّى تلك اللّحظة؛ كان هناك منافذ مسدودة تنفتح في كلّ الاتّجاهات وتتكشّف عن منظورات مجهولة؛ وهكذا بدأت الحياة تلوح لي بمظهر مختلف تماماً؛ لقد تفتّحتُ على نسق أفكارٍ جديدة مختلفة. كان

Twitter: @ketab_n

هناك قلق رهيب يعذّب قلبي، ويُخيَّلُ لي أنّ كلّ دقيقة تمرّ هي ثانية وقرن في آن. وفي تلك الأثناء كان الاحتفال يتقدّم، بينما كنت محمولاً بعيداً عن العالم الذي تحاصر مدخلَه رغباتي الوليدة، بعنف. فكنت أقول نعم في حين كنت أريد القَول لا، عندما يثور كلّ شيء في داخلي ويحتجّ على العنف الذي يمارسه لساني على روحي: كان هناك قوّة خفيّة تنتزع الكلمات من حنجرتي رغماً عنّي. ولعلّ هذا ما يجعل الكثيرات من الفتيات يتقدّمن نحو المذبح وقد عقدنَ العزمَ، بطريقة صاخبة، على رفض الزوج الذي أُجْبِرْن عليه، ولا تتمكّن، ولو واحدة منهنّ، من تنفيذ خطّتها. ولعلّ في هذا يكمن لجوء الكثيرات من المترهّبات الفقيرات إلى ارتداء الحجاب، رغم عزمهنّ القويّ على تمزيقه لحظة النطق بنذورهنّ. لا أحد يجرؤ على ارتكاب مثل هذه الفضيحة أمام الجميع أو تخييب آمال الكثير من الناس الحاضرين؛ كلّ تلك العزائم، وكلّ تلك النظرات تبدو ضاغطة عليك مثل طبقة من رصاص؛ يُضاف إلى ذلك أن كلّ الإجراءات قد تمّ اتخاذها بدقّة، وكلّ شيء تمّ تنظيمه مسبقاً بطريقة محكمة ولا رجوع فيها حتّى أنّ التفكير يستسلم إلى ثقل الأشياء وينهار تماماً.

كانت نظرة الحسناء الغريبة متبدّلة التعبير وفق تقدّم الاحتفال. فمن تعبير ناعم وملاطف في البداية، إلى مظهر ازدراء وعدم ارتياح كما لو أسيء فهمها.

بذلتُ جهداً كافياً لرفع جبل كامل، من أجل أن أصرخ بأنّني لا أريد أن أكون كاهناً؛ لكنّني لم أستطع تنفيذ ذلك؛ ظلّ لساني متسمِّراً في حَنَكي، واستحال عليَّ التعبير عن إرادتي بأدنى حركة سلبيّة. كنت في تمام الاستيقاظ، وفي حال تشبه حال الكابوس، حيث يريد المرء الصراخ بكلمة تتوقّف عليها حياته، دون أن يتوصّل إلى ذلك.

Twitter: @ketab_n

لاحتْ متأثّرةً بألمي البالغ، وكما لو أرادت تشجيعي، أرسلت لي غمزة محمّلة بوعود إلهيّة. كانت عيناها قصيدة تشكّل كلّ نظرة منهما نشيداً.

كانت تقول لي:

«إن أنتَ وافقتَ أن تكون لي، فسوف أجعلك أسعد من الربّ ذاته في فردوسه؛ وسوف تغار منك الملائكة. مزّقْ هذا الكفن المأتميّ الذي ستتغطّى به؛ أنا الجمال، أنا الشباب، أنا الحياة؛ تعال إليَّ، سوف نكون نحن جوهر الحبّ. ماذا عسى أن يقدّم لك «يهوه»[1] كتعويض؟ سوف ينساب وجودنا مثل حلم ولن يكون إلّا قبلة أبديّة.

«أرِقْ نبيذ هذا الكأس وسوف تكون حرّاً. سوف أرافقك إلى الجزر المجهولة؛ وتنام في حضني، فوق سرير من ذهب مُصْمَت[2] وتحت سُرادق من فضّة؛ ذلك أنّني أحبّك وأرغب في أخذك من إلهك، إلهك الذي تُريق له الكثيرُ من القلوب الكريمة سيولاً من الحبّ لا تصل إليه».

بدا لي أنّني كنت أستمع إلى هذه الكلمات على إيقاع في غاية العذوبة، إذْ كانت نظرتها تكاد تمتلك رنيناً، والجمل التي ترسلها إليَّ عيناها تدوّي في أعماقي كما لو أنّ فماً غير مرئيّ قد تلفّظ بها في روحي. كنت أشعر أنّني مستعدّ للتخلّي عن الربّ، بينما ظلّ قلبي يُكمل شكليّات الاحتفال بطريقة آليّة. أرسلت الحسناء نظرة ثانية كانت من التوسّل واليأس حتّى أنّ شفراتٍ قاطعة اخترقت قلبي، وأحسست بخناجر في صدري أكثر ممّا يمكن أن تعانيه أمٌّ من أوجاع الولادة.

وتمّ الأمر، صرت كاهناً.

لم يسبق لسحنة وجه بشريّ أن رسمتْ قلقاً بتلك الدرجة من الوجع؛

---

(1) اسم إله العبرانيّين كما ورد في التوراة.

(2) ذهب مُصمت: ذهب ممتلئ متماسك لا تجويفات فيه ولا فراغات.

Twitter: @ketab_n

حتّى إنّ الفتاة التي ترى خطيبها يسقط بجانبها ميتاً فجأةً، والأمّ أمام مهد طفلها الفارغ، وحوّاء الجالسة على عتبة الفردوس، والبخيل الذي يجد صخرة بدلاً من كنزه، والشاعر الذي ترك المخطوط الوحيد لأجمل كتاباته يسقط في النار، لا يمكن أن يكون لهم مظهرٌ أشدُّ ذهولاً وحزناً. هجر الدم وجهها الفاتن تماماً، وصارت أقرب إلى بياض الرخام؛ سقطت ذراعاها الجميلتان على امتداد جسمها، كما لو أنّ عضلاتهما قد انحلّت، فاستندت إلى دعامة عمود، إذْ أنّ ساقَيها كانتا ترتخيان وتخوران تحتها. أمّا أنا فقد توجّهتُ مترنّحاً نحو باب الكنيسة، كابياً، وجبيني غارق في عرَق أدمى من الصَّلْب؛ كنت أختنق؛ والقِباب تحطّ متمدّدةً على كتفيَّ، وكأنّ رأسي وحده يحمل ثقل القبّة كلّه.

وعندما كنت أتهيّأ لاجتياز العتبة، استحوذت يدٌ على يدي بغتةً: كانت يد امرأة! وأنا الذي لم تسبق لي ملامسة يد أنثى قطّ. كانت باردة مثل جلد ثعبان، وظلّ أثرُها فيَّ حارقاً مثل علامة حديد مُحَمَّى. لقد كانت هيّ ذاتها. «أيّها الشقيّ! أيّها الشقيّ! ماذا فعلتَ؟» قالت لي بصوت خافت؛ ثمّ اختفت بين الحشد.

مرّ الأسقف العجوز؛ ونظر إليّ بسحنة صارمة. ارتبكتُ ارتباكاً لا مثيل له؛ شحب لوني، احمرَّ، وأصابني الذهول. أشفق عليّ واحدٌ من زملائي فأمسك بي ورافقني؛ ولا شكّ أنّني كنت سأعجز وحدي عن الاهتداء إلى طريق المدرسة الإكليريكيّة. في منعطف أحد الطرقات، وبينما كان القسّ الشابّ يلتفت نحو الجهة الأخرى، اقترب منّي خادم زنجيّ ذو ثياب غريبة، ومن دون أن يتوقّف سلّمني حافظة صغيرة مرصّعة بزوايا ذهبيّة، مشيراً إليّ بإخفائها؛ فدسسْتها في كمّي وحافظت عليها حتّى انفردتُ بنفسي في حجرتي الضيّقة.

Twitter: @ketab_n

دفعتُ مشبك القفْل فلم أجد سوى ورقتين مع هذه الكلمات: «كلاريموند، في قصر كونتشيني». كنت آنذاك غير مطّلع كثيراً على مجريات الحياة، إلى درجة أنّني لم أكنْ أعرف من هي كلاريموند، رغم شهرتها، كما كنت أجهل تماماً موقع قصر كونتشيني. أمعنتُ في تخمينات كثيرة مشطّة؛ لكنّني في الحقيقة، ومن أجل التمكّن من رؤيتها، لم يكن يقلقني كثيراً أنْ تكون سيّدة نبيلة أو محظيّة لأحدهم.

هذا الحبّ الذي وُلِد حديثاً سرعان ما تجذّر بطريقة غير قابلة للتّلف؛ لم أفكر حتّى في محاولة اجتثاثه لشعوري بأنّها ستكون محاولة مستحيلة. هذه المرأة استولتْ عليّ تماماً، نظرة واحدة كانت كافية لتغييري؛ لقد نفختْ فيَّ إرادتها؛ لم أعدْ أعيش فيَّ، بل صرتُ فيها ومن خلالها أعيش. وهكذا بدأتُ أُسرف كثيراً في الشطط، فأقبّل الموضع الذي لمستْه من يدي، وأردّد اسمها لساعات كاملة. وصار يكفيني إغماض عينيّ حتّى أراها بوضوح كما لو كانت حاضرة حقّاً، وأعيد لنفسي تلك الكلمات التي قالتها لي عند مدخل الكنيسة: «أيّها الشقيّ! أيّها الشقيّ! ماذا فعلتَ؟» كنت مدركاً مدى فظاعة الوضع الذي أنا فيه، وتجلّتْ لي بوضوح كلّ الجوانب الكئيبة والمفزعة للحال التي أقدمت على التورّط فيها. أنَ تكون قسّيساً! فذلك يعني أن تكون عفيفاً، ولا تحبّ، ولا تميّز الجنس ولا العمر، وأن تنصرف عن أيّ جمال، وتفقأ عينَيك، وتزحف تحت الظلّ القارس لدير أو كنيسة، ولا ترى إلّا المحتضرين، وتسهر على الجثث المجهولة وترتدي ثوب الحداد الخاصّ بك من خلال جبّة الكاهن السوداء، بطريقة يمكن معها جعل ثوبك كفناً لنعشك!

كنت أشعر بالحياة تتدفّق فيَّ مثل بحيرة داخلية تمتلئ وتفيض؛ فإذا بدمي يخفق بقوّة في أوردتي؛ وفتوّتي المقهورة طويلاً تنفجر فجأةً مثل نبتة

Twitter: @ketab_n

المَقْر[1] التي تستغرق مائة عام كي تُزهر، وتتفتّح بقصفة رعد.

ما العمل لرؤية كلاريموند مرّةً أخرى؟ لم يكن في حوزتي أيّ مبرّر للخروج من المدرسة الإكليريكية، وأنا لا أعرف أحداً في المدينة؛ ولا يتوجّب عليَّ البقاء فيها، كنت أنتظر فقط أنْ يجدّدوا لي الرهبانية التي سأتولّى الإشراف عليها في المدينة. حاولتُ نزع قضبان النافذة لكنّها كانت على ارتفاع مرعب، وبما أنّني لا أملك سُلّماً، فقد كففتُ عن التفكير في الأمر. يضاف إلى ذلك أنّني لا أستطيع النزول إلّا ليلاً؛ فكيف عساني سأتصرّف عبر متاهة الطرقات المعقّدة؟ كلّ هذه الصعوبات، وقد لا تُعتبر كذلك بالنسبة لغيري، كانت جسيمة بالنسبة لي، أنا الطالب الإكليريكي المسكين، العاشق حديثاً، بلا تجربة، بلا مال، وبلا ثياب.

آه! لو لم أكنْ خوريّاً لتمكّنتُ من رؤيتها يوميّاً؛ ولصرتُ عشيقها وزوجها، ذلك ما كنت أردّده لنفسي في عماي؛ وبدلاً من أكون ملفوفاً في كفني الكئيب، تصير لي ثياب من حرير ومخمل، سلاسل ذهبيّة، وسيف، وريشات كتلك التي لدى الفرسان الشباب الوسيمين. ولكان شعري يتلاعب حول عنقي في خصلات متموّجة بدل أن يكون مهاناً بدائرة كبيرة محلوقة. ولكان لي شاربان صقيلان، ولكنت مقداماً. غير أنّ مجرّد ساعة أقضيها أمام مذبح، وبضع كلمات لا أكاد أنبس بها، تقصيني من عداد الأحياء إلى الأبد، ولقد ختمتُ بنفسي شاهدة قبري، وأوصدتُ بيدي مزلاج حبسي!

حاذيت النافذة. كانت السماء زرقاء على نحوٍ أخّاذ، والأشجار قد ارتدتْ فساتينها الربيعية؛ والطبيعة تزدهي بفرح هازئ. كانت الساحة ملأى بالناس؛ بعضهم يذهب وبعضهم يجيء؛ شبّان متأنّقون وفتيات

(1) المقر Aloès، وتسمّى أيضاً الألْوة والصَّبرة المرّة.

Twitter: @ketab_n

جميلات، في أزواج، يتوجّهون ناحية الحديقة والعرائش. رفاق يمرّون مردّدين أنغام الشمالة؛ كان هناك حركة، وحياة، وحيوية وبهجة لا تتمكّن كلّها من إخراجي من حِدادي وعزلتي إلّا بصعوبة. كان هناك أمّ شابّة، عند عتبة بابها، تلاعب ابنها؛ كانت تقبّل فمه الورديّ الصغير الذي لا يزال متلألئاً بقطرات حليب، وتتصرّف معه، وهي تغيظه، بألف سخافة صبيانية رائعة من تلك التي لا تقدر على إيجادها إلّا الأمهات وحدهنّ. أمّا الأب الذي يقف على مسافة قريبة فكان يبتسم بعذوبة لذلك الثنائيّ الفاتن، وذراعاه المكتوفتان تضغطان فرحه على قلبه. لم أتحمّل ذلك المشهد؛ أغلقت النافذة، وارتميت على فراشي مع شعور بكراهية وغيرة فظيعتين في قلبي، عاضّاً أصابعي ولحافي مثل نمر جائع منذ ثلاثة أيّام.

لست أدري كم يوماً مكثت كذلك؛ لكنّني، وأنا أستدير في حركة تشنّج ساخطة، لمحتُ رئيس القساوسة سيرابيون يتوسّط الغرفة واقفاً وينظر إليّ مليّاً. خجلت من نفسي، وتركت رأسي يسقط على صدري، ثمّ غطّيتُ عينيَّ بيديَّ.

«يا صديقي روموالد، هناك شيء خارق يحدث معك، قال لي سيرابيون بعد بضع دقائق من الصمت؛ سلوكك غير قابل للتفسير حقّاً! أنت الذي تُعتبر في غاية الورع والهدوء واللّطف، تتحرّك في حجَيرتك مثل بهيمة متوحّشة. انتبه يا أخي ولا تنصتْ إلى إيحاءات الشيطان؛ الروح الشرير الذي سخط من تكريس نفسك الأبديّ للربّ، يحوم حولك مثل ذئب فاتن اللّب ويبذل جهداً أخيراً لكي يجذبك إليه. وبدل الاستسلام للهزيمة عليك أن تحصّن نفسك بدرع من الصلوات، وترسٍ من إماتة الجسد، ثمّ تقاتل العدوّ ببسالة؛ وسوف تهزمه. التجربة ضرورية للفضيلة، والمرء يخرج أكثر رهافةً بعد تجرّع الكأس. لا ترتعب ولا تيأس؛ فأكثر الأرواح

Twitter: @ketab_n

حراسةً وأكثرها رسوخاً عاشت مثل هذه اللّحظات. صلِّ، صُمْ، تأمّلْ، وسوف ينسحب الروح الشرّير».

أعادتني موعظة القسّ سيرابيون إلى نفسي، واكتسبت بعض الهدوء. «جئتُ لأعلمك بتعيينك في رهبانية كـ...، قال لي، لأنّ الخوري الذي كان هناك مات للتوّ؛ والسيّد الأسقف كلّفني بمرافقتك لتولّي مهمّتك هناك؛ كنْ جاهزاً للغد». أجبت بإشارة من رأسي أنّني سوف أكون كذلك، فانسحب رئيس الدير. فتحت كتاب القدّاس وبدأت أرتّل بعض الصلوات؛ غير أنّ السطور سرعان ما تداخلت تحت عينيَّ؛ وتشوّشت سلسلة الأفكار في دماغي، وانزلق كتاب القُدّاس بين يديَّ من دون انتباه منّي.

أرحل غداً من دون رؤيتها! هذا يعني إضافة استحالة أخرى إلى كلّ الاستحالات التي صارت بيننا! يعني أن أفقد نهائياً كلّ أمل في التقائها، إلّا بحدوث معجزة! هل أراسلها؟ مع مَنْ سأرسل لها رسالتي؟ وعلى مَنْ سأنفتح، وبمنْ سأثق، وأنا بهذه الطباع السيئة؟ تملّكني قلق فظيع. ثمّ عدتُ إلى تذكّر ما قاله لي القسّ سيرابيون حول مكر الشيطان؛ ذلك أنّ غرابة هذه المغامرة، وجمال كلاريموند الخارق، وبريق عينَيها الفوسفوريّ، والانطباع الحارق الذي تتركه يدها، والاضطراب الذي أوقعتني فيه، والتغيير المفاجئ الذي حصل لي، وورعي الذي تلاشى في لحظة، كلّ ذلك يبرهن بوضوح على حضور الشيطان، ولعلّ تلك اليد المخمليّة لم تكن سوى القفّاز الذي غطّى به براثنه. هذه الأفكار أوصلتني إلى هلع كبير، فالتقطتُ كتاب القدّاس الذي سقط من بين ركبتيّ أرضاً وعدت إلى الصلاة.

في الغد، جاء سيرابيون لمرافقتي: كان هناك بغلتان عند الباب تنتظرانا

Twitter: @ketab_n

محمّلتَين بحقيبتَينا الضامرتَين؛ امتطى هو إحداهما وأنا الأخرى كيفما اتّفق. وأثناء اجتياز شوارع المدينة كنت أتطلّع باتّجاه كلّ النوافذ وكل الشرفات عساني أرى كلاريموند؛ لكنّ الصباح كان مبكّراً جدّاً، والمدينة لم تفتح عيونها بعد. كانت نظرتي تحاول التغلغل خلف واجهات وستائر كلّ القصور التي نمرّ أمامها. ولعلّ سيرابيون كان يعزو فضولي ذاك إلى الإعجاب الذي يثيره فيّ جمال الهندسة المعمارية، إذْ كان يخفّف من سرعة راحلته كي يفسح لي الوقت للمشاهدة. وأخيراً بلغنا بوّابة المدينة وبدأنا نرتقي التلّة. وعندما بلغتُ أعلاها التفتّ لأرى مرّة أخرى تلك الأمكنة التي تعيش فيها كلاريموند. كان هناك ظلّ سحابة يغطّي المدينة بأكملها؛ فكانت أسطحها الزرقاء والحمراء ممتزجة في لون عامّ معتدل، ينبثق منه هنا وهناك، دخان الصباح في ما يشبه ندائف رغوة. وبتأثير بصريّ متفرّد كان هناك مبنىً يرتسم بشقرة ذهبيّة تحت شعاع ضوء فريد، وكان هذا المبنى يفوق في ارتفاعه بقية المباني المجاورة التي غمرها البخار؛ ومع أنه كان على بعد أكثر من ميل فقد كان يبدو قريباً جدّاً. ويمكن للمرء تمييز أدقّ تفاصيله، من الأبراج الصغيرة، والمصاطب السطحية، وفتحات النوافذ، وصولاً إلى دوّارات الهواء التي لها شكل ذنب السنونوة.

سألت سيرابيون: «ما هذا القصر الذي أراه هنالك مضاء بشعاع من الشمس؟». فوضع يده فوق عينيه، وأجاب: «إنه القصر القديم الذي وهبه الأمير كونتشيني للمحظيّة كلاريموند؛ هناك تحدث أشياء مهولة».

وفي تلك اللّحظة، وما زلت أجهل إنْ كان الأمر حقيقة أم توهّماً، خُيّل لي أنّني رأيت على الشرفة انسياب شكل رشيق وأبيض تلألأ مدّة ثانية وانطفأ. كانت تلك كلاريموند!

آه ! أتراها تعرف أنّني كنت في تلك الساعة، ومن أعلى ذلك الدرب

Twitter: @ketab_n

الوعر الذي يبعدني عنها والذي يتوجّب عليّ ألّا أعود إلى نزوله ثانيةً، بكلّ ما ينتابني من احتدام وقلق، أحضن بعينيّ القصر الذي تسكنه، وأنّ لعبة ضوء هازئة تبدو وكأنّها تُدْنيه منّي، لكي تدعوني إلى دخوله سيّداً؟ الأرجح أنّها تعرف ذلك لأنّ روحها على درجة من الاقتران بروحي والتعاطف معها فلا يمكنها معها تجاهل أبسط الهزّات الانفعالية، وهذا الإحساس هو الذي دفع بها، وهي لا تزال متسربلة بغلالاتها اللّيليّة، إلى الصعود حتّى أعلى المصطبة، في ندى الصباح القارس.

بلغ الظلّ القصر، ولم يعد هناك سوى محيط ثابت من السطوح وتخشيبات السقوف، فلا يميّز المرء إلّا تموّجات غير متساوية. همز سيرابيون بغلته فاقتفت بغلتي سرعتَها، وسرعان ما حجبني منعطفُ دربٍ عن مدينة س... إلى الأبد، إذْ كان يتوجّب عليَّ ألّا أعود إليها. وبعد مسيرة ثلاثة أيّام عبر قرى كئيبة بما فيه الكفاية، رأينا من خلال الأشجار انبثاق الديك الذي يعلو ناقوس الكنيسة التي سأخدمها؛ وإثر اجتياز طرقات ملتوية بأكواخ من قشّ وبساتين على جانبيَها، بلغنا الواجهة التي لم تكن كثيرة البهاء. رواق مزخرف ببعض التعاريق وبركيزتَين أو ثلاث من الحجر الرمليّ المنحوت بفظاظة، وسقف قرميديّ ودعامات من الحجر الرمليّ كما هو شأن الأعمدة، ذلك كلّ ما في الأمر: إلى اليسار توجد المقبرة ملأى بأعشاب عالية يتوسّطها صليب كبير من الحديد؛ وإلى اليمين، وفي ظلّ الكنيسة تماماً، يوجد بيت كاهن الرعيّة. كان منزلاً على قدرٍ عالٍ من البساطة القصوى والنظافة المزعجة. دخلنا؛ كانت بضع دجاجات تلتقط حبوب شوفان نادرة؛ ويبدو أنّها كانت معتادة على أثواب الكهنة السوداء، فلم تجفل من حضورنا ولم تتحرّك إلّا قليلاً لتتركنا نمرّ. سمعنا نباحاً مبحوحاً وأجشّ، ثمّ رأينا كلباً مسنّاً يدخل مسرعاً.

Twitter: @ketab_n

كان ذاك كلب سَلَفي في الخدمة. عينه ذابلة، ووبره رماديّ، وعليه كلّ أعراض أقصى شيخوخة يمكن أن يبلغها كلب. داعبته قليلاً بيدي، وسرعان ما بدأ يمشي بجانبي بمظهر رضىً لا يوصف. وجاءت لمقابلتنا أيضاً امرأة مسنّة، كانت مدبّرة بيت الخوري السابق، وبعد أن أدخلتني إلى حجرة منخفضة سألتني إنْ كنت أنوي الاحتفاظ بها. فأجبتها بأنّني سأحتفظ بها، هي والكلب، وكذلك الدجاجات، وكلّ الأثاث الذي تركه لها مخدومها عقب موته، الأمر الذي أدخلها في فورة فرح، وزاد القسّ سيرابيون فدفع لها الجراية التي حدّدتْها مباشرةً.

بعد إكمال استقراري، عاد القسّ سيرابيون إلى المدرسة الإكليريكية. وهكذا بقيت وحدي بلا سند غير ذاتي. عاد التفكير في كلاريموند ينتابني بهوس، وعبثاً ما بذلت من جهود لطرد تلك الأفكار. ذات مساء، بينما كنت أتجوّل في ممرّات حديقتي الصغيرة بين صفَّي نبات الشمشاد، خُيّلَ لي أنّني رأيت عبر الخميلة شكل امرأة تتابع كلّ حركاتي، بينما تلمع بين الأوراق حدقتان بخضرة بحريّة؛ لكن ذلك لم يكن سوى وهم، وعندما مررت إلى الجانب الآخر من الممشى لم أجد سوى أثر لقدم على الرمل، وكانت من الصّغر بما يشير إلى أنّها قد لا تعدو أنْ تكون قدم طفل. كانت الحديقة مسوّرة بجدران عالية جدّاً؛ زرت كلّ الزوايا والخبايا ولم يكن هناك أحد. ولم أتمكّن قطّ من فهم هذه الحال رغم أنّها ليست بذاتِ بالٍ مقارنةً بالأشياء الغريبة التي ستحدث لي لاحقاً. بقيت أعيش على هذا المنوال منذ عام، مؤدّياً بدقّة كلّ الواجبات المتعلقة بوضعي، الصلاة، الصوم، وعظ المرضى ونجدتهم، أداء الصدقات إلى درجة حرمان نفسي من الضروريّات الأكثر إلحاحاً. غير أنّني كنت أشعر بجفاف عارم في داخلي، وبانسداد مصادر النعمة دوني. ولم أكن أتمتّع بتلك السعادة

Twitter: @ketab_n

التي يهبها إكمال الواجب المقدّس؛ كان فكري في مكان آخر، وكلمات كلاريموند تعود كثيراً لتتردّد على شفتيَّ مثل لازمة غير إرادية. يا أخي، تأملْ جيّداً هذا الأمر! فقط لأنّني رفعت نظرتي، ولمرّة واحدة، نحو امرأة، مرتكباً خطيئة في منتهى البساطة ظاهريّاً، كابدتُ لعدة أعوامٍ أسوأ أنواع الاضطراب: لقد تبلبلتْ حياتي إلى الأبد.

لن أشغلك أكثر بتلك الهزائم وتلك الانتصارات الداخلية التي كانت تعقبها دائماً انتكاسات أسوأ، وسوف أمرّ مباشرةً إلى حادثة مصيريّة. ذات ليلة هزّت بابي دقّات عنيفة فذهبت المدبّرة لتفتح، فارتسم على أشعة قنديل برْبارَا رجل ذو سحنة نحاسية وثياب تدلّ على الثراء لكنّها من طراز غريب، مع خنجر طويل. كانت أوّل حركة تبدر من المدبّرة هي الهلع؛ غير أنّ الرجل طمأنها، وقال لها إنّه يحتاج إلى رؤيتي فوراً بخصوص أمر له علاقة بخدمتي الكهنوتية. جعلته بربارا يصعد. كنت أتأهب للالتحاق بفراشي. قال لي الرجل إنّ سيّدته، وهي امرأة مرموقة، تشرف على الموت وترغب في حضور قسّيس. أجبت بأنّني مستعدّ لمرافقته؛ وهكذا تناولتُ كلّ ما ينبغي لمسْحة المرضى[1] ونزلت بسرعة فائقة. أمام الباب كان حصانان بسواد اللّيل يكدفان بحوافرهما نافدَي الصبر، وينفثان على صدرَيهما سيلَين طويلَين من البخار. أمسك لي بالمهماز وساعدني على امتطاء أحدهما، ثمّ قفز فوق الآخر مكتفياً بإسناد إحدى يديه على قربوس السرج. ضمّ ركبتَيه وأطلق العنان لحصانه الذي انطلق مثل سهم. أمّا حصاني الذي كان الرجل يمسك بلجامه، فقد بدأ بالركض أيضاً وحافظ على وتيرة متساوية تماماً. التهمنا الدرب؛ وكانت

(1) من الأسرار السبعة في الديانة المسيحية. تُقدّم لمن يكون مشرفاً على الموت، وتتمثّل في مسح جبينه ويديه بالزيت المقدّس.

Twitter: @ketab_n

الأرض تسرع تحتنا رمادية محزّزة، وظلال الأشجار السوداء تهرب مثل جيش منهزم. اجتزنا غابة في منتهى الحِلْكة والكثافة والبرد حتّى أنّني شعرت بقشعريرة رعب متأتّية من التطيّر تسري تحت جلدي. كانت شظايا الشرر التي تقتلعها حدوات حصانَينا من الحصى تترك وراءنا ما يشبه نثاراً ناريّاً، ولو أنّ أحدهم رآنا، أنا وحوذيّ عربتي، في تلك الساعة من اللّيل، لخُيّل له أنّنا شبَحان يمتطيان حصانين على درب الكابوس. كان وهج المستنقعات يخترق سبيلنا من وقت لآخر، وغربان الزرع تنْعق بأصوات مزعجة في عمق الغابة حيث تلمع متنائيةً عيونٌ فوسفورية لبعض القطط البرية. كان عُرْفَا الحصانَين يتشعّثان أكثر فأكثر، والعرق يتصبّب على جانبيهما، بينما تخرج أنفاسهما ضاجّةً ومضغوطة من منخرَيهما. غير أنّ مروّض الجياد، ومن أجل تنشيط الجوادَين من جديد بعد رؤيتهما يضعفان، كان يُطلق صرخة حلقيّة لا تمتّ لأصوات البشر بِصلة، فيُستعاد الركض باهتياج. وأخيراً هدأت الزوبعة؛ وانتصبتْ أمامنا، فجأةً، كتلة سوداء مبقَّعة بنقاط بيضاء؛ دوّتْ خطوات مطيّتَينا بضجيج أكبر فوق أرضية مصفّحة بالحديد، ثمّ دخلنا تحت قبّة تفتح شدقَيها الداكنَين بين برجين هائلَين. كان هناك هيجان كبير يهيمن على القصر؛ خدم يجتازون الباحات في كلّ الاتجاهات حاملين في أيديهم مشاعل، وأضواء تصعد وتنزل عبر مسطّحات الأدراج. ولمحت بغموضٍ هندسات معمارية شاسعة، وأعمدة، وأروقة مقنطرة، وأدراج مداخَل، ودرابزينات، في ورشات بناء باذخة لا يمكنها أن تكون إلّا ملَكية أو سحريّة خارقة. جاء غلام زنجيّ، وهو نفسه الذي سبق أن سلّمني حافظة كلاريموند وقد عرفته مباشرةً، ليساعدني في النزول، ثمّ تقدّمني كبيرُ خدَمٍ يرتدي ثياباً مخمليّة سوداء مع سلسلة ذهبيّة في ياقتها وعكاز عاجيّ في يدِه. كان هناك

Twitter: @ketab_n

دموع غزيرة تطفح من عينيه وتسيل على امتداد خدّيه وعلى لحيته البيضاء. «فات الأوان! قال وهو يهزّ برأسه، فات الأوان! يا سيّدي القسّ؛ لكنْ إن كنتَ لم تتمكّن من إنقاذ الروح، فتعال للسهر على الجسد المسكين». أمسك بي من ذراعي وقادني إلى قاعة المأتم؛ كنت بدوري، أبكي بمقدار بكائه، وذلك لأنّني أدركت أنّ الميتة ليست سوى تلك المحبوبة بجنون. كان هناك مركع خفيض مهيّأ بجانب فراشها؛ وشعلة مزرقّة تنوس فوق معلاق برونزيّ، تنشر عبر الغرفة كلّها إضاءة ضئيلة شاحبة، وتجعل بعض الزوايا البارزة لقطع أثاث أو أفاريز تخفق هنا وهناك عبر الظلال. على المائدة، وفي جرّة صغيرة منحوتة، توجد وردة بيضاء ذابلة سقطت أوراقها كلّها ما عدا واحدة صامدة، عند قاعدة الأصيص مثل دموع عطرة؛ وهناك أيضاً قناع أسود مهشّم، ومروحة يدويّة، وثياب تنكّرية من كلّ الأنواع، مبعثرة على الأرائك لتدلّ على أنّ الموت جاء إلى هذا المقرّ الفخم بغتةً ودون الإعلان عن حضوره. جثوتُ دون أن أجرؤ على رفع عينيّ نحو الفراش، وشرعت أتلو المزامير بحماسة شديدة، شاكراً الربّ أنّه وضع القبر بيني وبين فكرة هذه المرأة، حتّى أتمكّن من إضافة اسمه المقدس أخيراً إلى صلواتي. غير أن هذا الاندفاع بدأ يتباطأ وغرقت في أحلام اليقظة. هذه الغرفة لا تمتّ بصلة إلى غرفة موتَى. فبدل هواء الجثث المنفّر الذي اعتدت شمّه خلال التعامل مع الجثث، كان هناك بخارٌ متلاشٍ من خلاصات عطور شرقية، أو لست أدري أيّ رائحة نسائية عاشقة، تسبح بهدوء في الهواء الفاتر. كان ذلك الوميض الشاحب أقرب بالأحرى إلى نور ضعيف مهيّأً للذّات حسيّة أكثر منه إلى نور السّراج ذي الانعكاس الأصفر الذي يرتعش قرب الجثث. كنت أفكّر في القدر الفريد الذي جعلني أعثر من جديد على كلاريموند لحظة

Twitter: @ketab_n

افتقادها إلى الأبد، وأفلتّ تنهيدة ندم من صدري. خُيّل لي أنّ هناك مَنْ تنهّد أيضاً ورائي، والتفتُّ لا إرادياً. كان ذلك مجرّد صدى. وخلال تلك الحركة وقعت عيناي على فراش الموت الذي تحاشتاه حتّى الآن. كانت ستائر الدمقس الأحمر المشجّر، والمرفوعة بمهدّبات حلزونية الشكل، تُظهر الميتة ممدّدة على طولها ويداها مضمومتان على صدرها. كانت مغطّاة بحجاب من نسيج كتّاني أبيض من النصاعة إلى درجة أنّ نسيج البساط الأرجوانيّ الداكن يزيد في إبرازه، ومن الرهافة بحيث لا يخفي شيئاً من شكل جسدها الفاتن ويسمح بملاحقة تلك الخطوط الجميلة المتموّجة مثل عنق بجعة لم يتمكّن حتّى الموت من تصليبها. كانت تبدو أقرب إلى تمثال جبس صنعه نحّات ماهر لوضعه على قبر ملكة، أو فتاة نائمة هطلت عليها الثلوج.

لم أعد قادراً على الاحتمال؛ صار هواء المخدع يُثملني، والرائحة المهيّجة لوردة نصف ذابلة تصعد إلى دماغي، فأمشي بخطوات كبيرة في الغرفة متوقّفاً بعد كلّ دورة أمام الدكّة لتأمّل الميتة اللّطيفة تحت شفافية كفنها. كان هناك أفكار غريبة تخترق ذهني؛ تصوّرتُ أنّها لم تمت حقّاً، وأنّ الأمر لا يعدو كونها تتظاهر بذلك من أجل جلبي إلى قصرها والحديث عن حبّها. بل وصلتْ بي الحال ذات لحظة أنْ هُيِّئَ لي أنّني رأيتُ قدمها تتحرّك في بياض الأغطية، وطيّات الكفن المستقيمة تتشوّش.

بعد ذلك تساءلتُ: «وهل تكون كلاريموند حقّاً؟ ما هي حجّتي على ذلك؟ ألا يمكن لهذا الخادم الأسود أن يكون قد انتقل إلى خدمة سيّدة أخرى؟ لا شكّ أنّ الجنون وحده هو الذي جعلني أتأسّف وأرتبك بهذه الطريقة». غير أنّ قلبي أجابني خافقاً: «أكيد أنّها هي، أكيد أنّها هي». دنوتُ من الفراش وتمعّنتُ باهتمام مضاعف في موضوع ريبتي. هل

Twitter: @ketab_n

أعترف لكم؟ كان ذلك الكمال في أشكال الجسد رغم خضوعه لتطهير شبح الموت وقداسته، يربكني أكثر ممّا يجب، وكان ذلك الاضطجاع يلوح أقرب ما يكون إلى النوم إلى درجة أنّ إمكانية الوقوع في الخطأ تصير واردة. لقد نسيت أنّني جئت من أجل قدّاس مأتميّ، وتخيّلتُ أنّني قرين شابّ يلجُ غرفة خطيبته التي تغطّي وجهها خجلاً ولا تريد أن تكشف عن نفسها. انحنيتُ عليها داميَ الفؤاد، مستهاماً فرحاً، مرتجفاً خوفاً ولذّةً، وأمسكتُ بطرف اللّحاف؛ رفعته ببطءٍ كاتماً أنفاسي خشية أن أوقظها. كانت شراييني تختلج بقوّة جعلتني أحسّ بها تصفّر في صدغيّ، وجبيني يرشح عرقاً كما لو أنّني حرّكتُ بلاطة من مرمر. كانت هي كلاريموند حقّاً، تلك التي رأيتها في الكنيسة خلال سيامتي كاهناً؛ جذّابة كما في تلك المرّة، ولم يكن الموت يبدو معها إلّا غُنجاً إضافيّاً. وحتّى شحوب خدّيها، ولون شفتَيها الورديّ الأقلّ حيويّة، وأهدابها الطويلة المسدلة والمرتسمة بلونها الداكن على ذلك البياض، كانت تُكسبها تعبيراً عن عفّة كئيبة وألم تأمّليّ يزيدان في قوّة الإغراء بطريقة تفوق الوصف؛ كان شعرها الطويل المحلول، حيث كانت لا تزال توجد بضع أزهار زرقاء صغيرة مختلطة، يشكّل وسادة لرأسها، ويحمي بخصلاته عري كتفيها؛ وكانت يداها الجميلتان أصفى وأشفّ من القرابين، وقد تشابكتا في هيئة استراحة ورِعة وصلاة مضمرة، كأنّما تصحّح ما يمكن أن يُعدَّ مفرطاً في الإغراء، حتّى في الموت، من خلال ذلك الامتلاء الشهيّ والانصقال العاجيّ لمِعْصمَيها العاريَين اللّذين لم يُنزعْ عنهما سِواران من اللّؤلؤ. مكثت فترة طويلة مأخوذاً في تأمّل أخرس، وكنت كلّما نظرتُ إليها ازداد شكّي في أنّ الحياة قد غادرتْ حقّاً هذا الجسد الجميل إلى الأبد. ولست أدري إنْ كان الأمر متأتّياً من وهم أم من انعكاس المصباح، إذْ خيِّل لي أنّ الدم عاد

Twitter: @ketab_n

يتدفّق تحت ذلك الشحوب الكابد، وفي تلك الأثناء كانت تحافظ على الثبات الكامل. لمستُ ذراعها برفق؛ كانت باردة، ومع ذلك لم تكنْ أبرد من يدها يوم لامستْ يدي تحت بوابة الكنيسة. استعدتُ موقعي حانياً وجهي على وجهها وتاركاً ندى دموعي الفاتر يهطل على خدّيها. آه! ياله من إحساس مُرّ باليأس والعجز! يا لها من ليلة احتضار! تمنّيتُ لو أنّني تمكّنتُ من جمع حياتي في كومة لأعطيها إياها، وأنفخ في جثمانها الجليديّ هذه الشعلة التي تلتهمني. كان اللّيل يتقدّم، ولشعوري باقتراب لحظة الفراق الأبديّ، لم أستطع حرمان نفسي من لذّة قصوى حزينة تتمثّل في طبع قبلة على الشفتَين الميتتين لتلك التي امتلكت حبّي كلّه. يا لها من معجزة! ثمّة نَفَسٌ خفيف اختلط بنَفَسي، وردَّ فم كلاريموند على ضغط فمي: انفتحتْ عيناها واستعادتا بعض البريق، وتنهّدتْ، أفردتْ ذراعَيها ومرّرتْهما خلف عنقي مع نشوة لا توصف. «آه هذا أنت، يا روموالد، قالت بصوت واهن وعذب مثل تموّجات قيثار أخيرة؛ أخبرْني ماذا تفعل إذن؟ لقد انتظرتك طويلاً إلى حدّ الموت؛ لكنّنا الآن مخطوبان أحدنا للآخر، ويمكنني رؤيتك والذهاب إلى بيتك. وداعاً يا روموالد وداعاً! أحبّك؛ هذا كلّ ما أردت قوله لك، وأعيد إليك الحياة التي استدعيتَها لي لمدّة دقيقة بقبلتك؛ إلى اللّقاء قريباً».

انحنى رأسها إلى الخلف من جديد، لكنّها ظلّتْ تطوّقني بذراعيها كأنّها تمسك بي. هبّتْ زوبعة ريح هائجة فخلعت النافذة واقتحمت الغرفة؛ ارتعشت الورقة الأخيرة في الوردة البيضاء لبعض الوقت مثل جناح في طرف الساق، ثمّ انفصلتْ وطارت عبر النافذة المفتوحة حاملةً معها روح كلاريموند. انطفأ المصباح وسقطتُ على صدر الجميلة الميتة مغشيّاً عليّ.

Twitter: @ketab_n

عندما استعدتُ وعيي، كنت نائماً في فراشي، في غرفتي الصغيرة داخل دار الخوري، وكان الكلب العجوز التابع للخوري القديم يلحس يدي الممدودة خارج الغطاء. أمّا بربارا فكانت تتحرّك في الغرفة مع ارتجافة شيخوخة، تفتح جوارير وتغلقها، أو تحرّك مساحيق في كؤوس. وما إنْ رأتني أفتح عينيّ حتّى أطلقت صيحة فرح، فنبح الكلب وهزّ ذيله؛ لكنّني كنت من الضعف إلى درجة عدم القدرة على النطق بأيّ كلمة أو إتيان أيّ حركة. ولقد عرفت فيما بعد أنّني بقيت على هذه الحال ثلاثة أيّام كاملة، لا شيء يدلّ على بقائي حيّاً إلّا تنفّس خفيف لا يكاد يُدرك. تلك الأيّام الثلاثة لا تُحسب من حياتي، ولست أعلم إلى أين ذهب ذهني خلال كلّ ذلك الوقت؛ لم أحتفظ بأيّ ذكرى من ذلك. حكتْ لي بربارا أنّ الرجل نفسه ذا السحنة النحاسية الذي جاء يطلبني ليلاً، هو الذي أعادني صباحاً ممدّداً على محفّة مغلقة ثمّ عاد أدراجه بسرعة. وما إن بدأتُ أسترجع أفكاري حتّى أعدت تسلسل أحداث تلك اللّيلة المقدّرة. في البداية فكرت أنّني كنت ضحية خدعة سحريّة؛ غير أنّ ظروفاً حقيقيّة وملموسة سرعان ما دحضت هذا الافتراض. لم أكن قادراً على الاعتقاد أنّني كنت أحلم، لأنّ بربارا رأت مثلي ذلك الرجل صاحب الحصانين الأدهمَين، وقد وصفتْ هندامه وهيئته بدقّة. ومع ذلك لا يوجد من يعرف في الأنحاء قصراً تنطبق عليه أوصاف القصر الذي كنتُ التقيتُ فيه كلاريموند من جديد.

ذات صباحٍ رأيت القسّ سيرابيون يدخل. إذْ أعلمتْه بربارا بأنّني مريض فهُرِعَ مسرعاً. ومهما دلّ هذا الإسراع على العطف والاهتمام تجاهي، لم تشعرني زيارته بالانشراح الذي كان ينبغي أن تشعرني به. كانت نظرة القسّ سيرابيون تتضمن شيئاً ما نافذاً وفاحصاً يزعجني. أحسست

Twitter: @ketab_n

بالضيق والذنب أمامه. فهو أوّل من اكتشف اضطرابي الداخليّ، وأنا أحقد عليه بسبب نفاذ بصيرته.

كان يرشقني بحدقتَي الأسد الصفراوين ويغطس نظراته في روحي مثل مسبار وهو يسألني عن الجديد في ما يخصّ صحّتي بنبرة معسولة نفاقاً. ثمّ طرح عليّ بضعة أسئلة حول الطريقة التي أدير بها مقرّ الخوري، وإنْ كنتُ منشرحاً فيه، وكيف أمضي وقت الفراغ الذي تركته لي إدارة الخدمة الكهنوتية حرّاً، وهل تعرّفتُ على بعض الناس بين سكّان المكان، وما قراءاتي المفضّلة، وألف جزئيّة أخرى مشابهة. أجبت عن كلّ ذلك بأقصر طريقة ممكنة، وكان بدوره لا ينتظر انتهائي من إجابة ليمرّ إلى شيء آخر. ولا شكّ أنّ هذه المحاورة لا تربطها أيّ صلة بما كان يريد قوله. بعد ذلك، ومن دون أيّ مقدمات أو تحضيرات، وكما لو كان الأمر يتعلّق بخبر تذكّره للتوّ وخشيَ أن ينساه لاحقاً، قال لي بصوت واضح ومرتجّ رنّ في أذني مثل صُورِ يوم الحساب:

«المحظيّة الشهيرة كلاريموند ماتت مؤخّراً، إثر حفلة تهتّك دامت ثمانية أيّام وثماني ليالٍ. كان ذلك شيئاً رائعاً روعةً جهنّميّة. وبه تمّ إحياء دنسِ مآدبِ بالتازار وكليوبترا. في أيّ قرن نعيش يا إلهي! كان يقوم على خدمة المدعوّين عبيد سُمْر يتكلّمون لغة مجهولة، ولاحوا لي أقرب إلى عفاريت حقيقيّة؛ كسوة أبسط واحد فيهم كانت كافية لأن تُستخدم لباسَ احتفالٍ لأحد الأباطرة. لقد انتشرت في كلّ الأوقات حكايات في منتهى الغرابة حول كلاريموند هذه، وانتهى كلّ عشاقها نهاية بائسة أو عنيفة. قيل إنّها غول، مصّاصة دماء؛ لكنّني أعتقد أنّها بلزيبوت[1] نفسه».

سكت ثمّ تأمّلني جيّداً كما لم يفعل من قبل، لكي يرى الأثر الذي

---

(1) إله كنعاني– بعل الذباب– إله كلّ ما يطير؛ صار عند اليهود والمسيحيّين أمير الشياطين.

Twitter: @ketab_n

تركته كلماته فيَّ. لم أستطع إتيان أيّ حركة للدفاع عن نفسي لدى سماع اسم كلاريموند، وأدّى هذا الخبر المتعلّق بموتها، إلى جانب الألم الذي أحدثه لي بسبب تصادفه مع المشهد اللّيليّ الذي كنت شاهداً عليه، إلى دخولي في حالة ارتباك وهلع لاحا على وجهي، رغم محاولتي مُداراتهما. ألقى عليّ سيرابيون نظرة قلقة وصارمة؛ ثمّ قال لي: «يا بنيّ، يتوجّب عليّ تنبيهك، لك قدمٌ مرفوعة على هاوية، احذر السقوط فيها. لإبليس براثن طويلة، وحتّى القبور ليست دائماً أهلاً للثقة. قبر كلاريموند ينبغي أن يُختم بختم ثلاثيّ؛ إذْ ليست هذه، كما يُشاع، هي المرّة الأولى التي تموت فيها هذه المرأة. فلتكنْ في رعاية الربّ يا رومو الد!»

بعد هذه الكلمات، عاد سيرابيون نحو الباب بخطوات بطيئة، ولم أره فيما بعد أبداً؛ لأنّه سافر إلى س... بُعَيد هذا اللّقاء.

شُفيتُ تماماً وعدت إلى مشاغلي المعتادة. ظلّتْ ذكرى كلاريموند وكلمات القسّ العجوز دائمة الحضور في ذهني؛ وفي تلك الأثناء لم يطرأ أيّ حدث خارق لتأكيد توقّعات سيرابيون المأتميّة، وبدأت أعتقد أنّ مخاوفه وكذلك أسباب ذعري مبالغ فيها كثيراً؛ لكنّني رأيت في منامي رؤيا ذات ليلة. لم أكد أتجرّع أُولى جرعات النوم حتّى سمعت ستائر فراشي تُفتح وحلقاتها تنزلق على القضيب المعدنيّ الذي يحملها بضجّة صاخبة؛ نهضتُ بغتةً متّكئاً على مرفقي، ورأيت خيال امرأة تقف أمامي. عرفتُ كلاريموند فوراً. كانت تحمل في يدها مصباحاً من ذلك الشكل الذي يوضع في القبور، وكان نوره يضفي على أصابعها المشيقة شفافيةً ورديّة تتمدّد ضمن تدرّجات غير مدركة حتّى بلوغ البياض الأكمد واللّبنيّ لذراعها العارية. ولم يكن لها من ثياب إلّا كفن الكتّان الذي كان يغطّيها على فراش الموت، فكانت تمسك بطيّاته على صدرها، كما لو كانت

Twitter: @ketab_n

تشعر بالخجل لقلّة ما ترتديه، غير أنّ يدها الصغيرة لم تكن كافية؛ كانت في منتهى البياض إلى حدّ أنّ لون القماش كان يختلط بلون بشرتها تحت ضوء المصباح الشاحب. ولاحتْ وهي ملتفّة بذلك القماش الخفيف الذي يكشف كلّ تكويرات جسدها، أقرب إلى تمثال رخاميّ لمستحِمّة من عصر قديم منها إلى امرأة تنبض حياةً. وسواء كانت ميتة أم حيّة، تمثالاً أم امرأة، خيالاً أم جسداً، فقد كان جمالها هو نفسه تماماً؛ إلّا أنّ بريق حدقتَيها الأخضر كان أخفّ قليلاً، ولم يعد فمها القرمزيّ سابقاً ملوّناً إلّا بلون ورديّ ضعيف وفاتح مثل لون خدّيها تقريباً. أمّا الزّهَيرات الزرقاء التي عاينتُها في شعرها فكانت جافة تماماً وفقدت كلّ أوراقها تقريباً؛ كلّ ذلك لم يمنعها من أن تكون فاتنة، في منتهى الفتنة حتّى أنّني، ورغم فرادة المغامرة والطريقة الغامضة التي دخلتْ بها إلى الغرفة، لم أشعر بأيّ لحظة من الهلع.

وضعتِ المصباح على المائدة وجلستْ قرب فراشي، ثمّ قالت لي وهي تنحني نحوي، بذلك الصوت الفضّيّ والمخمليّ في آن، والذي لم أسمع مثله عند غيرها:

«لقد انتظرتك كثيراً يا عزيزي روموالد، ولعلّك ظننت أنّني نسيتك. غير أنّني جئت من مكان بعيد جدّاً، من مكان لم يسبق لأحد أن عاد منه: لا يوجد قمر ولا توجد شمس في البلاد التي جئتُ منها؛ ليست سوى فضاءات وظلال؛ لا دروب ولا منْعرجات؛ ما من أرض للقدم، وما من هواء للجناح؛ ومع ذلك ها أنذي، لأنّ الحبّ أقوى من الموت، وسوف ينتهي به الأمر إلى هزيمته. آه! كم شاهدتُ من وجوه كابية وأشياء فظيعة في رحلتي! يا للمشقّة التي تكبّدتْها روحي التي ولجت ذلك العالم بقوّة الإرادة، كي تستعيد جسدها وتستقرَّ فيه من جديد! يا لتلك الجهود التي

Twitter: @ketab_n

توجّب عليَّ بذلها قبل رفع اللّحد الذي غُطّيتُ به! انظرْ! كم أُدْمِيَ باطن يديّ المسكينتين من ذلك. قبّلْهما كي تشفيهما، يا حبّي الغالي!» ووضعتْ راحتَي يدَيها تباعاً على فمي؛ وفعلاً قبّلتُهما عدة مرّات، فكانت تنظر إليَّ أفعل بابتسامة تواطؤ يدقّ عن الوصف.

أعترف بعاري، لقد نسيت كلّ آراء القسّ سيرابيون والطبع الجديد الذي اكتسبتُه. سقطتُ بلا مقاومة وفي أوّل هجوم. لم أحاول على الأقلّ دفع الشيطان؛ كانت نعومة جسد كلاريموند تتغلغل في جسدي فأشعر برعشات شهوانية تجوب بدني. يا للبنت المسكينة! على الرغم من كلّ ما رأيتُ منها لا أكاد أصدّق أنّها كانت شيطاناً؛ أو على الأقلّ ليست لها هيئته، ولم يسبق لشيطان إخفاء براثنه وقرنَيه بطريقة أفضل. كانت قد طوتْ كعبَيها تحتها ومكثت مقرفصةً على حافّة الفراش في وضعيّة مفعمة بدلال لامبالٍ. وكانت تمرّر يدها الصغيرة، بين الفينة والأخرى، عبر شعري وتلفّه في خصلات كما لو كانت تجرب قصّات حلاقة جديدة مواتية لوجهي. كنت أستسلم لذلك مع مسايرة يتخلّلها الكثير من الشعور بالإثم، بينما هي ترافق كلّ ذلك بثرثرة فاتنة. وثمّة أمر جدير بالملاحظة، هو أنّني لم أكن أشعر بأيّ استغراب إزاء مثل هذه المغامرة الخارقة ومع هذه السهولة في الرؤية بخصوص تقبّل الأحداث الأكثر غرابة باعتبارها عاديّة جدّاً، فلم أكن أرى في ذلك سوى أحداثٍ طبيعية تماماً.

«كنتُ أحبّكَ منذ زمن طويل قبل رؤيتك، يا عزيزي روموالد، وكنت أبحث عنك في كلّ مكان. كنتَ حلمي، وتمكّنتُ من لَمحك في الكنيسة في اللّحظة المقدّرة؛ قلتُ فوراً: «إنّه هو!» ألقيتُ إليك بنظرة وضعتُ فيها كلّ الحبّ الذي كنتُ قد عرفتُ، والذي أعرف، والذي يُنتظر أن يكون

Twitter: @ketab_n

لي تجاهك؛ نظرة كفيلة برجم كاردينال، وتركيع ملك عند قدميَّ وأمام كلّ بطانته. لكنّك بقيت هادئ الأعصاب وفضّلت إلهك عليَّ.

«آه! كم أغار من الربّ الذي أحببتَه ومازلتَ تحبّه أكثر منّي!

«كم أنا بائسة، كم أنا بائسة! لن أتمكّن أبداً من امتلاك قلبك لي وحدي، أنا التي بعثْتَني من الموت بقبلة، كلاريموند الميتة، التي تخلع بسببك أبواب المقبرة وتأتي لتكرّس لك حياة لم تسترجعها إلّا لتجعلك سعيداً!»

كانت تتخلّل كلماتها كلّها ملامسات هاذية دوّختْ حواسّي وعقلي إلى درجة أنّني لم أخشَ، من أجل مواساتها، أن أتلفّظ بتجديف مرعب، وأن أقول لها إنّني أحبّها بمقدار ما أحبّ الربّ.

توهجتْ حدقتاها ولمعتا مثل حجرَي عقيقٍ أخضر. «صحيح! صحيح حقّاً! بمقدار محبة الربّ! قالت وهي تطوّقني بين ذراعيها الجميلتين. بما أنّ الأمر كذلك سوف تأتي معي، سوف تتبعني أنّى أردتُ. سوف تتخلّى عن أثوابك السوداء القبيحة. سوف تكون أكثر الفرسان شمَماً وأكثرهم إثارة للحسد، سوف تكون عشيقي. أنْ تكونَ العشيق المعلن لكلاريموند التي رفضتْ أحد البابوات، هذا أمر جميل! آه ! إنّها الحياة الجميلة والسعيدة، والوجود الذهبيّ الجميل الذي سوف نحياه! متى نرتحل، يا رجلي النبيل؟

- غداً! غداً! صرختُ في هذياني.

- غداً، فليكنْ ذلك! كرّرتِ القول. سوف يكون لي متّسع من الوقت لتغيير زينتي، لأنّ هذه خفيفة قليلاً ولا تلائم السفر. يتوجّب عليَّ أيضاً أن أخبر أناسي الذين يظنّون أنّني ميتة حقّاً ويتأسّفون بها في وسعهم. سوف يكون كلّ شيء جاهزاً؛ المال والثياب والعربات؛

Twitter: @ketab_n

سوف أمرّ لآخذك معي في مثل هذه الساعة. إلى اللّقاء يا قلبي العزيز».

ثمّ لامستْ جبيني بطرفي شفتيها. انطفأ المصباح، وانغلقت الستائر، ولم أعدْ أرى شيئاً؛ وحلّ بي نوم ثقيل، نوم بلا أحلام جعلني مخدَّراً حتّى صباح الغد. استيقظت متأخّراً أكثر من العادة، وظلّتْ ذكرى تلك الرؤيا المتفرّدة تربكني طيلة النهار؛ وانتهى بي الأمر إلى إقناع نفسي بأنّها كانت مجرّد وهم متبخّر من مخيلتي المهتاجة. مع ذلك كانت الأحاسيس من القوّة بحيث يصعب الاعتقاد بأنّها لم تكن حقيقيّة، وهذا ما جعلني ألتحق بفراشي مع بعض المخاوف ممّا قد يحدث، طالباً من الربّ أن يُبعد عني الأفكار السيّئة ويحمي طهارة نومي.

وسرعان ما نمت بعمق، وتواصل حلمي. تباعدت الستائر، ورأيت كلاريموند، ليس كما في المرّة الأولى، شاحبة في كفنها الشاحب وبنفسج الموت على خدّيها، بل مرحة، رشيقة وأنيقة، في ثياب سفرٍ رائعة من مخمل أخضر مزخرف بضفائر ذهبيّة ومشمّر جانبياً ليكشفَ عن تنورة من الساتان. كان شعرها الأشقر يفلت في ضفائر سميكة من تحت قبّعة واسعة من اللّباد الأسود ذات ريشات بيضاء ملتفة بطريقة نزويّة؛ وكانت تمسك في يدها سوطاً صغيراً ينتهي طرفه بصفّارة ذهبيّة. لامستني به قليلاً وقالت لي: «إذاً! أيّها النؤوم الجميل، أهذه طريقتك في تجهيز نفسك للسفر؟ كنت أحسب أنّني سأجدك واقفاً. انهضْ بسرعة، ليس لدينا متّسع للوقت لإضاعته». فقفزت خارج السرير.

«هيّا، ارتدِ ثيابك ولْننطلق، قالت وهي تريني بإصبعها رزمة صغيرة جلبتْها معها؛ الخيل تضجر وتعضّ على اللّجام عند الباب. لولا تأخّرك لكنّا قطعنا عشرة أميال حتّى الآن».

Twitter: @ketab_n

ارتديت ثيابي بمنتهى السرعة، وكانت تمدّ لي بنفسها قطع الثياب، مقهقهةً على ارتباكي، وموضّحةً لي استخداماتها عندما أخطئ. مشّطتْ شعري وعند الانتهاء قدّمتْ لي مرآة جيب صغيرة من كريستال البندقية، مؤطّرة بفتائل فضّية، وقالت لي: «كيف ترى نفسك؟ هل تودّ توظيفي في خدمتك فرّاشاً؟»

لم أعدْ كما عهدْتُني، ولم أتعرّف على نفسي. لم أعد أشبهني إلّا كما يشبه تمثالٌ ناجزٌ كتلةً من الحجر. كان وجهي القديم لا يشبه إلّا تخطيطاً أوليّاً فظّاً للوجه الذي تعكسه المرآة. بدوتُ جميلاً، ولقد دغدغ خيلائي هذا التحوّل بشكل محسوس. فهذه الثياب الأنيقة وهذه السترة الغنية المزركشة، جعلتا منّي شخصاً آخر مختلفاً تماماً، حتّى أنّني أعجبتُ بقوّة بعض أذرعة القماش المفصّلة بطريقة معيّنة. كانت روح كسوتي تتغلغل في جلدي، وبعد عشر دقائق أحسست بنوع من الغرور.

ذرعت الغرفة في بضع دورات حتّى أتمكّن من بعض الراحة. كانت كلاريموند تنظر إليّ بهيئة ملاطفة أمومية وتلوح راضية جدّاً عن عملها. «هيّا يكفي صبيانيّة، علينا أن ننطلق، يا عزيزي روموالد! نحن ذاهبان بعيداً ولن نتمكّن من الوصول». ثمّ أمسكتْ بي من يدي وجرّتني. كانت كلّ الأبواب تنفتح أمامها حالَ لمسها لها، ومررنا أمام الكلب دون أن نوقظه.

عند الباب وجدنا مرغيريتون؛ وهو الحوذيّ الذي سبق له أن أوصلني؛ كان يمسك بأعنّة ثلاثة أحصنة دهماء مثل الأولى، أحدها لي، والثاني له، والثالث لكلاريموند. ولا بدّ أنّ هذه الخيول من سلالة جِياد إسبانيا، وولدتْ من أفراسٍ لقّحها النسيم؛ لأنّها كانت تركض بسرعة الريح، كان القمر الذي طلَع خلال انطلاقنا ليضيء دربنا يتقدّم في السماء

Twitter: @ketab_n

مثلِ عجلة انفصلت عن مركبتها؛ كنّا نشاهده عن يميننا يقفز من شجرة إلى أُخرى ويلهث من أجل الركض وراءنا. وسرعان ما بلغنا سهلاً حيث كانت تنتظرنا، قرب غابة أشجار صغيرة، عربة تجرّها أربعة أحصنة قويّة؛ امتطيناها، فجعلها الحوذية تسرع بعدْوٍ جنونيّ. كانت إحدى ذراعيّ تطوّق كلاريموند وإحدى يدَيها مثنيّة في يدي؛ كانت تسند رأسها إلى كتفي، وأنا أشعر برقبتها شبه العارية تلامس ذراعي. لم يسبق لي قطّ أنْ أحسستُ بمثل هذه السعادة الحيّة. كنت قد نسيت كلّ شيء في تلك اللّحظة ولم يعد تذكّر وظيفتي كقسّيس يختلف عن تذكّر ما قمت به عندما كنتُ لا أزال في بطن أمي، وذلك لقوّة ما بثّه فيَّ الروح الشرّير من فتنة. وابتداءً من تلك اللّيلة ازدوجتْ طبيعتي بمعنى من المعاني، وصار يوجد في داخلي رجلان لا يعرف أحدهما الآخر. تارةً أظنّني قسّيساً يحلم كلّ ليلة أنّه سيّد نبيل، وطوراً أحسبني سيّداً نبيلاً يحلم أنّه قسّيس. لم أعد قادراً على تمييز حلم البارحة، ولا على معرفة أين تبدأ الحقيقة وأين ينتهي الوهم. السيّد الشابّ النبيل المزهوّ بنفسه والدّاعر يسخر من القسّيس، والقسّيس يكره انحلال السيّد الشابّ. لوْلَبَان متداخلان مختلطان دون أن يتلامسا أبداً، هما ما يمثّل جيّداً هذه الحياة ذات الرأسَين والتي هي حياتي. ولا أعتقد، رغم غرابة هذا الوضع، أنّني لامستُ الجنون ولو للحظة واحدة. لقد حافظتُ دائماً على إدراك حياتيّ الاثنتَين بوضوح تامّ. غير أنّ هناك واقعاً غير معقول لم أتمكّن من تفسيره لنفسي: إنّه وجود إحساس الأنا نفسه لدى رجلين في منتهى الاختلاف. كان ذلك عاهة لم أنتبه إليها سواء في اعتقادي أنّني خوري قرية...، الصغيرة، أو السنيور رومو الدو، بصفته عاشقَ كلاريموند.

يبقى أنّني كنتُ، أو على الأقلّ كنت أعتقد، أنّني في البندقية؛ لم أتوصّل

Twitter: @ketab_n

بَعدُ إلى تمييز دقيق بين ما هو وهْم وما هو واقع في هذه المغامرة العجيبة. كنّا نسكن قصراً كبيراً من الرخام، مشيّداً على القناة، تملؤه الجداريّات والتماثيل، مع لوحتين للفنّان تيتيسانو[1] خلال مرحلته الأجمل، في غرفة نوم كلاريموند، في قصر جدير بملكٍ حقّاً. كان لكلَينا جندولُه وربابنتُه بكسوتهم الموحّدة الحاملة لشعارَينا، وغرفة موسيقى وشاعر. إذْ كانت كلاريموند تفهم الحياة بطريقة باذخة، ولها شيء من كليوباترا في طباعها. أمّا أنا فقد كنت أتصرّف مثل ابن أمير، وأتباهى كما لو كنت منتمياً إلى عائلة أحد الحواريّين الاثني عشر، أو أحد مؤلّفي الأناجيل الأربعة في جمهورية فينيسيا؛ وكان من شأني ألّا أحيد عن دربي لأترك الدوج[2] يمرّ، ولا أعتقد أنّ هناك إنساناً قد وُجد، منذ إبليس الذي سقط من السماء، أكثر عجرفة ووقاحة منّي. كنت أرتاد الريدوتو[3]، وأشارك في ألعاب جهنّميّة. وأخالط أفضل طبقة في العالم، من أبناء العائلات المفلسة إلى نساء المسرح، والنصّابين، والمتطفّلين وهواة المبارزة. لكنْ، ورغم حياة الإسراف تلك، بقيت وفيّاً لكلاريموند. كنت أحبّها بشغف. كان بمقدورها أن تثير الرغبة بعد شبعٍ وأن تفرض الثبات محلّ التقلّب. امتلاك كلاريموند يعني امتلاك عشرينَ عشيقة، امتلاك كلّ النساء، نظراً لما كانت تمتاز به من حركة، وتبدّل واختلاف عن ذاتها؛ حرباء حقيقيّة! فهي قادرة على جعلك تشاركها في اقتراف الخيانة التي كان يمكنك ارتكابها

(1) تيتسيانو فيتشيليو Tiziano Vecellio رسّام إيطالي (1488–1576) يُعرف بالفرنسية باسم تيتيان Titien .

(2) الدّوج (ويُلفظ بالإيطالية «دوجه») Doge هو الرئيس المنتخب في جمهوريتَي البندقية وجنوة قديماً.

(3) الريدوتّو Ridotto : قاعة ألعاب كان يرتادها نبلاء البندقية والأجانب، وكانت توجد في قصر داندولو Dandolo (بين 1768 و1774)، وهو ما يدلّ على أنّ المؤلف يضع أحداث قصّته خلال القرن الثامن عشر.

Twitter: @ketab_n

مع أخريات، مع تقمّصِ طباع المرأة التي تبدو مثيرة لإعجابك وهيئتها ونوعِ جمالها. كانت تردّ على حبّي مضاعفاً مائة مرّة. وعبثاً حاول النبلاء، وحتّى شيوخ مجلس العَشرة[1]، مراودتها بعروض باهرة. لا بل إنّ أحد أفراد عائلة الدوج فوسكاري ذهب إلى حدّ عرض الزواج عليها؛ لكنّها رفضت كلّ شيء. كانت تملك ما يكفي من الذهب؛ ولم تعد راغبة إلّا في الحبّ، حبّ فتيّ، نقيّ، توقظه هي، ويتعيّن أنْ يكون الأوّل والأخير. وكان يمكنني أنْ أكون في أتمّ السعادة لولا كابوس لعين كان ينتابني كلّ ليلة، ويخيّلُ لي فيه أنّني خوري قرية يمارس إماتة الجسد والتوبة عن انحرافات النهار. وبالنظر إلى طمأنينتي المتأتّية من اعتيادي على وجودي معها، بدأتُ أُقلع عن التفكير في الطريقة الغريبة التي تعرّفتُ بها على كلاريموند. مع ذلك كانت أقوال القسّ سيرابيون عنها تعود إلى ذاكرتي في بعض الأحيان ولا تقتصر على مجرّد بعث القلق في نفسي.

منذ بعض الوقت لم تعد كلاريموند معافاة كما كانت؛ إذْ صارت سحنتها تخمد يوماً بعد يوم. ولم يفهم الأطباء الذين استُدعوا لمعاينتها أيّ شيء عن مرضها، ولم يكن بوسعهم فعل أيّ شيء. فكانوا يصفون بعض الأدوية التافهة ولا يعودون البتة. وفي تلك الأثناء كانت تزداد شحوباً ظاهراً للعيان وتتملّكها البرودة أكثر. كان لها تقريباً البياض والموت ذاتهما اللّذان كانا يغشيانها في تلك اللّيلة المشهودة داخل القصر المجهول. فكنت أتأسّف لرؤيتها تذوي ببطء على تلك الطريقة. أمّا هي فكانت تتأثّر لألمي، فتبتسم لي بلطف وحزن، وبتلك الابتسامة القدَرية لمَن يعرفون أنّهم سيموتون.

---

(1) مجلس العشرة *Consiglio dei Dieci* هو مجلس سرّيّ أُنشئ في البندقية وتطور حتّى صار، خلال القرن الثامن عشر، يمثّل السلطة التنفيذية الفعلية في الجمهورية.

Twitter: @ketab_n

ذات صباح كنت جالساً قرب سريرها، أتناول فطوري على مائدة صغيرة حتّى لا أغادرها ولو لدقيقة واحدة. وأثناء قَطْعي لثمرةٍ جرحتُ إصبعي بالصدفة جرحاً بالغاً. انبثق الدم بسرعة في خيوط أرجوانية، وانطلقت بضع قطرات نحو كلاريموند. لمعت عيناها، واتّخذ مظهرها هيئة فرح شرس ومتوحّش لم يسبق لي أنْ شهدتُ له مثيلاً. قفزتْ من السرير بخفّة حيوانية، خفّة قرد أو قطّ، وانقضّتْ على جرحي تلعقه بشهوة حسيّة لا يمكن وصفها. كانت تبتلع الدم بجرعات صغيرة، ببطء واهتمام بالغ، مثل شخص ذوّاقة يتذوّق نبيذاً من خيريث الأندلسية أو من سيراكوزا الإيطالية؛ كانت تغمز بعينيها نصف غمزة، وقد صار بؤبؤا عينيها الأخضرَين مستطيلين بدل استدارتهما. وبين الفينة والفينة تنقطع عن المصّ لكي تقبّل يدي، ثمّ تعود إلى ضغط شفتيها على شفتَي الجرح من أجل استخراج بضع قطرات حمراء أخرى. وعندما أدركتْ أنّ الدم لم يعد يخرج، نهضت بعينَين مبلّلتين ولامعتَين، وأكثر تورّداً من فجرٍ في شهر أيّار، وجهها مكتنز ويدها فاترة ورطبة، وعلى العموم أجمل ممّا كانت من قبلُ وفي حال مكتملة من الصحّة.

«لن أموت! لن أموت! قالت وهي تكاد تُجنّ من الفرح وتتعلّق بعنقي؛ أستطيع أنْ أحبّك وقتاً أطول. حياتي في حياتك، وكلّ ما هو أنا يأتي منك. بضع قطرات من دمك الغنيّ النبيل، والأثمن والأنجع من كلّ إكسير في العالم، أعادتْ لي وجودي».

شغل بالي هذا المشهد فترة طويلة وأوحى لي بشكوك غريبة إزاء كلاريموند، وفي المساء نفسه عندما أعادني النوم إلى بيت الخوري، رأيت القسّ سيرابيون أكثر صرامة وقلقاً من أيّ وقت مضى. نظر إليّ باهتمام وقال لي: «لم تكتفِ بفقدان روحك وها أنتذا ترغب في خسارة

Twitter: @ketab_n

جسدك. أيّها الشابّ المنكود الحظّ، في أيّ فخّ سقطت!» صدمتني النبرة التي قال بها هذه الكلمات القليلة صدمة عميقة؛ لكنّ هذا الانطباع، رغم قوّته، سرعان ما تبدّد، وجاءت أكثر من مناسبة لتمحوه من ذاكرتي. مع ذلك، ذات مساء، رأيت كلاريموند في مرآتي التي لم تقسُ هي موضعها الخادع، وهي تضع مسحوقاً في كوب النبيذ المتبّل الذي اعتادتْ تحضيره بعد الأكل. تناولتُ الكوب، وتظاهرتُ بتقريبه من شفتيّ، ثمّ وضعته على إحدى قطع الأثاث متظاهراً بأنّني سوف أكمل شربه فيما بعد وفق رغبتي، وانتهزتُ فرصةً أشاحت فيها الجميلة بظهرها لأسكب المحتوى تحت المائدة. بعد ذلك انسحبتُ إلى غرفتي ونمت عاقداً العزم على عدم النوم ومراقبة سير الأحداث. لم أنتظر طويلاً؛ إذْ دخلتْ كلاريموند في قميص نوم، وبعد التخلّص من برقعها تمدّدتْ على الفراش بجانبي. وعندما تأكّدتْ تماماً من أنّني كنت نائماً، عرّتْ ذراعي وأخرجتْ إبرة ذهبيّة من شعرها؛ ثمّ شرعت تهمس:

«قطرة، قطرة واحدة حمراء ليس أكثر، حبّة ياقوت على طرف إبرتي!... بما أنّك مازلت تحبّني، ينبغي ألّا أموت... آه! أيّها الحبّ المسكين! سأشرب دمك الأحمر الأرجوانيّ الفاقع. نمْ، يا ثروتي الوحيدة؛ نمْ، يا إلهي، يا طفلي؛ لن أؤلمك، لن آخذ من حياتك إلّا ما يكفي حتّى لا تنطفئ حياتي. لو لم أكن أحبّك إلى هذا الحدّ لأمكنني التصميم على امتلاك عشّاق آخرين أستنزف أوردتهم؛ لكنّني منذ أن عرفتك عفْتُ كلّ الناس... آه! يا للساعد الجميل! كم أنّه مفتول! كم أنّه أبيض! لا يمكنني التجرّؤ على وخز هذا الوريد الأزرق الجميل أبداً». كانت تقول ذلك وهي تبكي وأنا أحسّ بدموعها تهمي على ذراعي التي تمسك هي بها بين يديها. وأخيراً قرّ قرارها ووخزتني وخزة خفيفة بإبرتها وشرعت

Twitter: @ketab_n

تمتصّ الدم السائل منها. وعلى الرغم من أنّها لم تشرب إلّا قطرات قليلة فقد تملّكها الخوف من إنهاكي، فلفّتْ حول ذراعي ضمادة صغيرة بعد أن مسحت الجرح بمرهم جعله يندمل فوراً.

لم يعد بإمكاني الشكّ، كان القسّيس سيرابيون محقّاً. لكنّني، رغم هذه القناعة، لم أتمكّن من التوقّف عن حبّ كلاريموند، وكان من شأني أنْ أعطيها بطيبة خاطر كلّ الدم الذي تحتاجه للمحافظة على وجودها المفتعل. وعلى أيّة حال، لم أكنْ أشعر بخوف كبير؛ فالمرأة كانت تصدّ مصّاص الدماء الذي فيها، وما سمعته ورأيته كان يطمئنني تماماً؛ وكانت أوردتي آنذاك غنيّة لا يمكن استنزافها بسهولة ولم أكن بصدد المساومة على حياتي قطرةً قطرة. كان من شأني أن أجرح ذراعي بنفسي وأقول لها: «اشربي! وليتسلّلْ حبّي في جسدك مع دمي!». كنت أتحاشى أيّ تلميح إلى المخدّر الذي سكبتْه في كوبي وكذلك استخدام الإبرة، وعشنا في أكمل وفاق. مع ذلك ظلّت وساوسي الكهنوتية تعذّبني أكثر ممّا سبق، ولم أعد أعرف أيّ طريقة جديدة للإنهاك يتوجّب عليّ ابتكارها من أجل قهر جسدي وإماتته. ومهما كانت كلّ هذه الرؤى لا إرادية ولم أشارك فيها البتة، لم أكن أجرؤ على لمس المسيح بيدين كانتا على هذه الدرجة من النجاسة وروح مدنّسة بمثل هذا الفجور سواء أكان حقيقيّاً أم متوهَّماً. ومن أجل تحاشي السقوط في هذه الهلوسات المضنية، حاولت منع نفسي من النوم، فكنت أحافظ على جفنيّ مفتوحتَين بواسطة أصابعي، وأمكث واقفاً مع الجدران، مقاوماً النوم بكلّ قواي؛ غير أن رمل النعاس سرعان ما كان يتدحرج في عينيّ، وعندما أدرك أنّ كلّ مقاومة صارت غير مجدية، أترك ذراعيّ تسقطان من الإحباط والإرهاق، فيعود التيّار إلى جرّي نحو الضفاف الخادعة. كان سيرابيون يعِظني بحدّة ويلومني بقسوة على

Twitter: @ketab_n

ميوعتي وضعف حميّتي. ذات يوم وبينما كنت مضطرباً أكثر من العادة، قال لي: «لكي تتخلّص من هذا الهاجس، لا توجد إلّا وسيلة واحدة، ومهما كانت في غاية الصعوبة يتوجّب استخدامها: آخر الدواء الكيّ. أعرفُ أين دُفنتْ كلاريموند؛ ينبغي أنْ ننبش قبرها وأنْ ترى بنفسك في أيّ حال مزرية يوجد موضوع حبّك؛ وهكذا لن تبقى تحت وسوسة فقدان روحك من أجل جثّة مقزّزة مزّقتها الديدان وتوشك على التحوّل إلى كومة غبار؛ لا شكّ أنّ هذا سيعيدك إلى ذاتك». أمّا بالنسبة لي فقد بلغ منّي التعب من هذه الحياة المزدوجة حدّاً جعلني أوافق: أردتُ أنْ أعرف نهائيّاً مَنْ كان ضحيّة وهم؛ الكاهن أم السيّد النبيل، فقرّرت أن أقتل في داخلي أحدهما لصالح الآخر أو أقتلهما معاً لأنّ مثل تلك الحياة لم تعد تطاق. تزوّد القسّ سيرابيون بمعول وعتلة رافعة وفانوس، وفي منتصف اللّيل توجّهنا نحو مقبرة...، التي يعرف جيّداً طبيعتها ومخطّطها. وبعد تقريب ضوء الفانوس الكامد من الشّواهد المحفورة على عدّة قبور، وصلنا في نهاية المطاف إلى حجرٍ شبْه محجوب بأعشاب عالية ومتآكل بفعلِ طحالب ونباتات طفيليّة، حيث تهجّينا هذه البداية المنقوشة:

هنا تثوي كلاريموند
التي كانت في حياتها
أجمل مَنْ في العالم.

....

«ههنا بالضبط»، قال سيرابيون الذي وضع الفانوس على الأرض ودسّ العتلة في فجوة الحجر وبدأ يرفعه. استسلم الحجر، فشرع يستخدم المعول. كنت أنظر إليه وهو يعمل، مسودّاً وصامتاً أكثر من اللّيل نفسه. أمّا هو فكان منحنياً على عمله الجنائزيّ، ينضح عرقاً، ويلهث، حتّى

Twitter: @ketab_n

إنّ أنفاسه المضغوطة بدتْ كأنّها حشرجات محتضر. كان المشهد غريباً، ولو رآنا أحدهم من الخارج لاعتبرنا نبّاشي قبور وسارقي أكفان، أكثر منّا كهنة في خدمة الربّ. كان لحميّة سيرابيون شيء من القسوة والوحشية يجعله أشبه بشيطان منه بمبشّر أو ملاك، ولم يكن وجهه ذو القسمات الغليظة والصارمة، والمرتسمة بعمقٍ نتيجةَ انعكاس ضوء الفانوس، ليبعث على الطمأنينة. أحسست بعرق جليديّ ينضح من أطرافي، وكان شعري ينتصب بألم فوق رأسي؛ كنت في داخلي أتأمّل فعل سيرابيون القاسي باعتباره تدنيساً مقيتاً للمحرّمات، وتمنّيتُ لو أنّ مثلّثاً ناريّاً خرج من خاصرة الغيوم الداكنة التي كانت تتحرّك بتثاقل فوقنا، ليحوّله إلى غبار. كانت طيور البوم الجاثمة على أشجار السرْو تأتي، وقد أزعجها ضوء الفانوس، لتسوط زجاجه بثقل أجنحتها المغبرّة مطلقةً نعيقاً ناحباً؛ وكانت الثعالب تضْبَح في البعيد، وألف ضجّة مشؤومة تنبعث من الصمت. وفي الأخير صدم معول سيرابيون التابوتَ الذي دوّى خشبُه بصوت مكتوم ذي رنين، مثل ذلك الصوت الفظيع الذي يصدره العدم عندما نلمسه؛ قلَبَ غطاء التابوت، ولمحتُ كلاريموند شاحبة مثل الرخام، مضمومة اليدَين؛ وكفنها الأبيض لا يشكّل سوى طيّة واحدة من رأسها إلى قدمَيها. كان هناك قطرة صغيرة حمراء تلمع مثل وردة عند زاوية فمها الذي نصَلَ لونه. استشاط سيرابيون غضباً لدى رؤيته هذا المشهد: «آه! ها أنتِذي، يا شيطانة، يا عاهرة فاسقة، يا مصّاصة الدم والذهب!» ثمّ رشّ الجسم والتابوت بالماء المقدّس، ورسم إشارة الصليب على التابوت بمرشّته. ولم يكد الندى المقدّس يلامس كلاريموند المسكينة حتّى تحوّل جسدها الجميل إلى غبار؛ ولم يتبقَّ منها إلّا خليط بلا شكل محدّد من الرماد والعظام نصف المتكلّسة. «هي ذي

Twitter: @ketab_n

عشيقتك، يا سيّد روموالد، قال القسّ القاسي وهو يريني ذلك الرميم الحزين، أما زال يغويك الذهاب للنزهة على ضفاف اللّيدو وبحيرات فوزينه[1] برفقة جميلتك؟» أحنَيت رأسي؛ لقد حلّ خراب كبير في داخلي للتوّ. عدتُ إلى بيت الخوري، وانفصل السيّد روموالد، عشيق كلاريموند، عن الخوري المسكين، بعد أنْ لازمه طويلاً في رفقة مفعمة بالغرابة. لكنّني، خلال اللّيلة اللّاحقة، رأيت كلاريموند؛ قالت لي، كما في المرّة الأولى عند بوّابة الكنيسة: «أيّها الشقيّ! أيّها الشقيّ! ماذا فعلْتَ؟ لَمَ أصغيت إلى ذلك القسّ الغبيّ؟ ألَمْ تكنْ سعيداً؟ وماذا فعلْتُ لك، حتّى تنتهك قبري المسكين وتعرّي بؤسَ عدمي؟ لقد انقطع الآن كلّ تواصل بين روحَينا وجسدَينا. وداعاً، سوف تندم عليّ». وتلاشت في الهواء مثل دخان، ولم أرها مجدّداً.

واحسْرتاه! لقد قالت الحقيقة: ندمتُ عليها أكثر من مرّة وما زلت نادماً إلى الآن. لقد كلّفني سلام روحي غالياً؛ ولم تكن محبّة الربّ فائضة عن اللّزوم من أجل تعويض حبّها. تلك هي، يا أخي، حكاية شبابي. لا تنظر أبداً إلى امرأة وسرْ دائماً بعينَين ثابتَين على الأرض، إذْ أنّك، مهما تكن طاهراً وهادئاً فستكفي دقيقة لتجعلك تخسر الأبديّة.

(1) في إيطاليا، بجوار فينيسيا.

Twitter: @ketab_n

الفارس المزدوج[1]

من الذي يجعل الشقراء إدفيج على هذه الدرجة من الحزن؟ ماذا عساها تفعل جالسة على انفراد، ذقنها في يدها ومرفقها على ركبتها، أشدّ غمّاً من اليأس، أشد شحوباً من تمثال الجبس الذي يبكي على قبر؟

دمعة كبيرة تسيل من زاوية جفنها على زغب خدّها، دمعة واحدة، لكنّها لا تجفّ أبداً؛ تماماً مثل قطرة الماء التي تنضح من أعالي الصخرة وتأتي على الصوّان بمرور الزمن، تلك الدمعة الوحيدة، المترقرقة بلا انقطاع من عينيها إلى قلبها، شقّتْها واخترقتها تماماً.

إدفيج، يا إدفيج الشقراء، ألم تعودي مؤمنة بالمسيح المخلّص الوديع؟ هل تشُكّين في غفران القدّيسة الطاهرة مريم العذراء؟ لمَ لا تكفّين عن وضع يديك الصغيرتين الشفّافتين، النحيلتين والرقيقتين مثل أيدي جنّيات الأساطير، على خاصرتك؟ ستصيرين أمّاً؛ تلك كانت أعزّ أمنية لديك؛ زوجك النبيل، الكونت لودبروغ نذر مذبحاً من الفضّة الخالصة وحُقّة قربان من الذهب الصافي لكنيسة سان-أوتبير إذا أنجبت له ابناً.

يا للأسف! يا للأسف! قلبْ إدفيج المسكينة مخترق بسيوف الألم السبعة؛ وهناك سرّ فظيع يثقل على روحها. منذ بضعة أشهر، حلّ شخص غريب بالقصر؛ كان الطقس رهيباً تلك اللّيلة: الأبراج تهتزّ في هياكلها، دوّارات الريح تنتحب، النار تزحف في المدفأة والريح تخبط الزجاج مثل متطفّل مِلحاح يريد الدخول.

(1) نُشرت للمرّة الأولى في مجلّة *Le Musée des familles*، في عدد تمّوز 1840.

Twitter: @ketab_n

كان ذلك الشخص الغريب جميلاً مثل ملاك، لكنّه كان مثل ملاك حطّ أرضاً؛ كان يبتسم بلطف وينظر بلطف، ومع ذلك كانت تلك النظرة وتلك الابتسامة تجعلان المرء يتجمّد من الرعب، وتبعثان فيه الهلع الذي يحسّ به لدى انحنائه على هاوية. كان لطفاً فاسقاً، سقاماً خادعاً مثل خداع النمر المترصّد فريستَه، كلّ ذلك كان يرافق كلّ حركاته؛ إذْ أنّه كان يبهر بطريقة الثعبان الذي يفتن الطائر.

ذلك الغريب كان مبتزّاً؛ سحنته المسفوعة تشير إلى أنّه عرف سموات أخرى؛ قال إنّه يأتي من أعماق بوهيميا[1]، ويطلب الضيافة لتلك اللّيلة فقط.

مكث تلك اللّيلة، ثمّ أياماً أُخرى ثمّ لياليَ أُخرى، لأنّ العاصفة لم تهدأ، والقصر القديم يهتزّ فوق أسسه كما لو أنّ الزوبعة شاءت قلعَه من جذوره وإسقاطَ تاجِ فتْحاتِه العليا المتتابعة في مياه السيل المزبدة.

ولكي يسْحرَ الوقت كان ينشد قصائد غريبة تعكّر القلب وتشحن بأفكار ساخطة، وطيلة إنشاده يقف غراب أسود مبرْنق ولامع مثل السبج على كتفه؛ كان يوقّع النّغم بمنقاره الأبنوسيّ ويبدو كأنّه يصفّق له بجناحيه.- تشحب إدفيج، تشحب مثل زنابق ضوء القمر: تحمرّ إدفيج، تحمرّ مثل ورود الفجر، وتتراجع إلى الخلف في أريكتها الكبيرة، واهنة، شبْه ميتة، منتشية كما لو أنّها استنشقت العطر المُهلك، عطرَ تلك الزهور القاتلة.

وفي نهاية المطاف تمكّن المبتزّ من الرحيل؛ إذْ أشرقت السماء بابتسامة صغيرة زرقاء. ومنذ ذلك اليوم، لم تعد إدفيج، إدفيج الشقراء، تقوم

(1) بوهيميا: منطقة تاريخيّة في أوروبا الوسطى. تحتلّ الأجزاء الغربية ومعظم الأجزاء الوسطى من جمهورية التشيك.

Twitter: @ketab_n

بشيء آخر غير البكاء في زاوية النافذة.

إدفيج هي الآن أمٌّ؛ لها طفل جميل في منتهى البياض والحمرة. وكان الكونت العجوز لودبروغ قد أوصى السبّاك بتجهيز المذبح المسبوك من الفضّة الخالصة، وأعطى الصائغ ألف قطعة ذهبيّة، في صرّة من جلد أيّل الرنّة، كي يصنع حُقّة القربان؛ وسوف تكون واسعة وثقيلة ويمكنها استيعاب كمّية كبيرة من النبيذ. والخوري الذي سيفرغها يمكنه القول إنّه شرّيب جيّد.

الطفل في منتهى البياض والحمرة، لكنّه يمتلك نظرة الغريب السوداء: لقد تأكّدتْ أمه من ذلك. آه! يا لإدفيج المسكينة! لمَ أطلْتِ النظر إلى الغريب صاحب القيثارة والغراب؟...

عمّد الكاهنُ الطفل؛ -وأُعْطِيَ اسم أولوف، اسم جميل حقّاً!- وصعد المنجّم إلى أعلى برج كي يقرأ طالعه.

كان الطقس صحواً وبارداً: ومثل فكّ ذئبٍ ذي أسنان بيضاء حادّة، كان هناك مقطع جانبيّ لجبال مغطّاة بالثلوج تعضّ ذيل فستان السماء؛ فيما كانت النجوم الكبيرة الشاحبة تلمع في بهرة اللّيل الزرقاء مثل شموس من فضّة.

قاس المنجّم الارتفاع، سجّل السنة واليوم والدقيقة؛ أجرى حسابات طويلة بالحبر الأحمر على ورق طويل من الرّق كلّه منجّم بعلامات سحريّة؛ عاد إلى حجرته ثمّ صعد من جديد إلى السطح، لا شكّ أنّه لم يخطئ في حساباته، مسألة الولادة عنده صحيحة مثل ميزان دقيق لوزن الأحجار الكريمة؛ مع ذلك أعاد حساباته: كلّا، لم يخطئ.

الكونت الصغير أولوف له نجمان، أحدهما أخضر والثاني أحمر، أخضر مثل الأمل، وأحمر مثل الجحيم؛ أحدهما ملائم، والآخر كارثيّ.

Twitter: @ketab_n

هل سبق يا ترى أنْ كان لطفلٍ نجمٌ مزدوج؟

دخل المنجّم، بسحنة صارمة ومتصنّعة إلى غرفة النفْساء وقال وهو يمرّر يده العظميّة في تجعّدات لحيته، لحية الساحر:

«أيّتها الكونتيسة إدفيج، وأنتَ أيّها الكونت لودبروغ، هناك تأثيران تحكّمَا في ولادة ابنكما الأثير أولوف: أحدهما جيّد والثاني سيّئ؛ ولذا كان له نجم أخضر وآخر أحمر. إنّه يخضع إلى طالع مزدوج؛ وسوف يكون سعيداً جدّاً أو تعيساً جدّاً، لا أعلم أيهما سيتغلّب؛ ربّما الاثنان معاً».

أجاب الكونت لودبروغ المنجّم: «سوف ينتصر النجم الأخضر». غير أنّ إدفيج كانت تخشى من أعماق قلب الأمّ أنْ تكون الغلبة للأحمر. أعادت وضع ذقنها في يدها وكوعها على ركبتها، وعادت إلى البكاء عند زاوية النافذة. لم يعد لها من شاغل، بعد إرضاع طفلها، سوى أن تشاهد، عبر النافذة، سقوط الثلج في نُدَف كثيفة وسريعة، كما لو تمَّ نتف ريش الأجنحة البيضاء لكلّ الملائكة في الأعالي.

بين الفينة والأخرى يمرّ غراب أمام زجاج النافذة، ناعقاً ونافضاً ذلك الغبار الأبيض. وذلك ما يجعل إدفيج تفكّر في الغراب المتفرّد الذي كان يقف دائماً على كتف الرجل الغريب ذي نظرة النمر الهادئة، وابتسامة الأفعى الفاتنة. فتنهمر دموعها مسرعة من عينيها إلى قلبها، قلبها الذي أصيب تماماً.

الطفل أولوف غريب حقّاً: كأنّما يوجد في بشرته الصغيرة البيضاء المحمرّة طفلان بطبعَين مختلفين؛ ففي يوم، يكون هادئاً مثل ملاك، وفي يوم آخر يكون شرساً مثل شيطان، فيعضّ ثدي أمّه، ويمزّق بأظافره وجه مربّيته.

أمّا الكونت العجوز لودبروغ فيضحك داخل لحيته الرمادية ويقول

Twitter: @ketab_n

إنّ أولوف سوف يكون جنديّاً جيّداً وإنّ له مزاجاً قتاليّاً. ذلك أنّ أولوف طفل ظريف لا يطاق: تارةً يبكي وطوراً يضحك؛ وهو نزِق مثل القمر، غريب الأطوار مثل امرأة؛ يذهب ويعود ويتوقّف فجأةً دون سبب ظاهر، يتخلّى عمّا بدأ فيه ويتوخّى السكون المطلق بعد الصخب المقلق؛ ومهما كان وحده فإنّه يبدو منهمكاً في حوار مع مخاطب لامرئيّ! وعندما يُسأل عن سبب كلّ ذلك الهياج، يجيب بأنَّ النجم الأحمر يعذّبه.

وسرعان ما بلغ أولوف الخامسة عشرة. صارت طباعه غير مفهومة أكثر؛ ورغم جمال مظهره كان ذا تعابير محيّرة؛ كان أشقر مثل أمّه مع كلّ ملامح أهل الشّمال؛ لكن تحت جبينه الأبيض مثل ثلج لم يحزّزه بَعدُ مزلج الصيّاد ولم تدنّسه قدم الدبّ، وهو فعلاً جبين السلالة القديمة لآل لودبروغ، تبرق بين جفنين برتقاليّتين عين ذات رموش طويلة سوداء، عين سبج ملتمعة بالاضطرام الوحشيّ للشغف الإيطاليّ، نظرة مخمليّة، قاسية ومتكلّفة اللّطف مثل مبتزّ بوهيميا.

كم أنّ الشهور تطير، وأسرع منها الأعوام! هيَ ذي إدفيج تثوي الآن تحت الأقواس المعتمة لسرداب آل لودبروغ، بجانب الكونت العجوز وهو يبتسم في نعشه لتأكّده أنّ اسمه لم ينقرض. كانت من الشحوب في حياتها بحيث لم يغيّرها الموت كثيراً. على قبرها يوجد تمثال جميل نائم، بيدين مضمومتين، وقدمين على كلبة سلوقية من رخام، في رفقة وفيّة للموتى. ولا أحد يعرف ماذا قالت إدفيج عندما أزِفتْ ساعتها، غير أنّ الكاهن الذي كان يتلقّى اعترافاتها صار شاحباً أكثر من المُحتَضَرة.

واليوم يبلغ أولوف، الابنُ الأسمر والأشقر لإدفيج المأسوف عليها، عشرين عاماً. وهو ماهر في كلّ التمارين؛ فلا أحد يبرع في القوس مثله، وبإمكانه شقّ السهم الذي انغرز لتوّه مرتعشاً في قلب الهدف؛ كما يستطيع

Twitter: @ketab_n

ترويض الخيول الأكثر وحشيّة من دون شكيمة أو مهماز.

ولم ينظر يوماً إلى امرأة أو فتاة إلّا وظفَرَ بقلبها؛ لكن لا واحدة من كلّ من أحببنه كانت سعيدة. ذلك أنّ عدم التكافؤ المشؤوم في طباعه يتعارض وكلَّ تحقيق للسعادة بينه وبين امرأة. كان نصفٌ منه يشعر بالشغف والآخر يُبدي البغض؛ مرّة يكون النصر للنجم الأخضر، ومرّة للنجم الأحمر. ذات يوم يقول: «يا عذروات الشمال البيضاوات، أيّتها المتلألئات والنقيّات مثل جليد القطب؛ يا حدقات ضوء القمر؛ يا خدوداً متدّرجة اللّون بنضارة شفق القطب الشماليّ!» بينما يهتف في يوم آخر: «يا بنات إيطاليا المذهّبات بالشمس، أيّتها الشقراوات مثل برتقالة! يا قلوباً من لهيب في صدور من برونز!» والمحزن أكثر، أنّه يكون صادقاً في الحالَين.

وا أسفاه! أيّتها المسكينات القانطات، أيّتها الظلال الحزينة المنتحبة، لن تتمكّن حتّى من لومه، فأنتنّ تعرفن جيّداً أنّه أشد بؤساً منكنّ؛ وقلبه أرضٌ لا تنفكّ تدوسها أقدام المتصارعَين المجهولَين، وكلاهما، كما في صراع يعقوب والملاك[1]، يسعى إلى كسر ركبة خصمه.

ولو أنّ أحدهم قصد المقبرة، تحت الأوراق المخمليّة العريضة لآذان الدبّ ذات الحزوز العميقة، أو تحت شجيرات البروَق ذات الفروع الخضراء الموبوءة، أو بين الشوفان الهائج والقرّاص، لوجد أكثر من حجر مهجور لا يبكي عليه إلّا ندى الصباح.

مينا، دورا، تكلا! هل التراب ثقيل على نهودكنّ الناعمة وأجسادكنّ الفاتنة؟

---

(1) صراع يعقوب مع الملاك هو حلقة معقّدة من «العهد القديم»، في الفصل 32 من سفر التكوين، أدّت إلى العديد من التفسيرات والمناقشات.

Twitter: @ketab_n

ذات يوم نادى أولوف حوذيّ عربته الوفيّ ديتريش؛ وطلب منه تسريج حصانه.

«سيّدي، انظر كيف يتساقط الثلج، وكيف تهبّ الريح وتحني ذرى الصنوبر إلى مستوى الأرض؛ ألا تسمع في البعيد عواء الذئاب الهزيلة، ونزيب[1] الأيائل المحتضرة مثل أرواح مطهريّة تائهة؟

- ديتريش، أيّها الحوذيّ الوفيّ، سوف أنفض الثلج مثل زغب يلتصق بمعطف، وأعبر تحت تقويسات الصنوبر بإحناء عفرة خوذتي قليلاً. أمّا بالنسبة للذئاب فسوف تنفلّ على معدن هذه البدلة، وبذؤابة سيفي سوف أنقّب في الجليد لأعثر على أيّل بائس يتأوّه ويبكي بدموع حرّى بحثاً عن الطحالب المزهرة التي لا يتوصّل إلى بلوغها».

انطلق الكونت أولوف دو لودبروغ، وهما اسمه وكنيته منذ موت الكونت العجوز، على صهوة أحسن حصان، برفقة كلبيه العملاقين، مورغ وفنْريس[2]، ذلك أنّ السيّد الشابّ ذا الجفون البرتقالية كان على موعد، وربّما كانت الفتاة القلقة تنحني الآن على الشرفة المنحوتة، رغم البرد والريح الشمالية، وتحاول تمييز ريشة قبّعة الفارس عبر بياض السهل، من أعلى البرج الصغير المخروطيّ والحادّ.

تقدّم أولوف عبر الحقول الريفية، على صهوة حصانه الضخم الشبيه بفيل، ناخزاً جنبيه بضربات المهماز؛ اجتاز البحيرة التي حوّلها البرد إلى مجرّد كتلة جليديّة ترصّعها الأسماك بزعانف ممدودة مثل تحجّر في عجينة مرمر؛ حدوات الحصان الأربع المزوّدة بخطّافات معقوفة تنهش السطح القاسي بقوّة؛ فيما ضباب ناجم عن عرَقه وتنفّسه يغطّيه ويتبعه؛ فيبدو

(1) النزيب: هو صوت الأيّل.

(2) استعار المؤلّف للكلبين اسم مورغ Murg، وهو نهر يجري في ألمانيا، من روافد الرّاين، واسم فنريس Fenris، وهو ذئب مخيف في الميثولوجيا الإسكندنافية.

Twitter: @ketab_n

كأنّه يركض في غيمة؛ أمّا الكلبان مورغ وفنريس فكانا على الجانبين من سيّدهما، ينفثان دفعات طويلة من الدخان عبر خطمَيهما النازفين مثل حيوانات أسطوريّة.

هي ذي غابة الصنوبر؛ وكأنّها أشباح تمدّ أذرعتها المثقلة والمحمّلة بأغطية بيضاء؛ ثقل الثلج يحني أكثرها جدّة وطراوة: تبدو كأنّها متوالية من الأقواس الفضّية. الرعب الأسود يقطن في هذه الغابة حيث تتّخذ الصخور أشكالاً عملاقة، وحيث كلّ شجرة تبدو جذورها وكأنّها تحضن وكْر تنانين خدِرَة. لكن أولوف لا يعرف الذّعر.

بدأ الدرب يضيق أكثر فأكثر، فتتعانق أغصان الصنوبر الكئيبة بطريقة لا يمكن فكّها؛ ولم تكن لتلوح سوى فرجات نادرة تسمح برؤية سلسلة الهضاب المثلّجة التي تظهر جانبياً من خلال تموّجات بيضاء على السماء السوداء الكدِرة.

من حسن الحظّ أنّ الحصان موبس فرس قويّ من شأنه حمل أودن العملاق[1]؛ ولن يوقفه أيّ عائق؛ فهو يقفز فوق الصخور، ويجتاز المستنقعات، ومن وقت إلى آخر يستخرج من الأحجار التي يصدمها حافره تحت الثلج خيطاً من شرر سرعان ما ينطفئ.

«هيّا بنا، يا موبس، تشجّعْ! لم يبق لك إلّا اجتياز السهل الصغير وغابة البتولا؛ وسوف تلاطف يد جميلة عنقك الصقيل، وفي إسطبل دافئ سوف تتناول الشعير المغربل والشوفان بكميّات كبيرة».

ما أجمل مشهد غابة البتولا! كلّ الأغصان مبطّنة بوَبَر من جليد، الأفنان الدقيقة ترتسم باللّون الأبيض على ظلمة الجوّ: كأنّما هي سلّة

(1) أودن Odin : الاسم الاسكندنافي للإله الجرماني فوتان Wotan . له، مثل أغلب الآلهة في ميثولوجيا البلدان الشماليّة، التي يُعدّ هو أكبرها، وظائف عديدة، فهو إله الموتى والحرب والمعرفة.

Twitter: @ketab_n

كبيرة من فتائل مجدولة، عروق فضّة متشعّبة، مغارة بكلّ رواسبها الكلسيّة المتحجّرة. إنّ الأغصان المتشابكة والأزهار الغريبة التي يرسمها الجليد على واجهات البلّور لا تقدّم رسوماً أكثر تعقيداً وتنوّعاً.

«سيّدي أولوف، كم أبطأتَ! خفتُ أنْ يكون دبّ الجبل قد قطع عليك الطريق أو أنْ تكون الجنّيات قد دعونك للرقص، قالت فتاة القصر وهي تدعو أولوف إلى الجلوس على أريكة السنديان قرب المدفأة. لكنْ، لِمَ جئتَ إلى موعد الغرام مع مُرافق؟ أكنت خائفاً من اجتياز الغابة بمفردك؟

- عن أيّ مرافق تتحدّثين، يا زهرة روحي؟ قال أولوف لفتاة القصر وهو في منتهى الذهول.

- أقصد الفارس صاحب النجم الأحمر الذي دأبْتَ على جلبه معك دائماً. ذلك الذي وُلد من نظرة المغنّي البوهيمي، الروح النحسة التي تتملّكك؛ تخلّصْ من فارس النجم الأحمر، وإلّا فلن أصغي أبداً إلى كلامك العاشق؛ لا يمكنني أنْ أكون امرأة لرجلين في آن».

وعبثاً ما فعل أولوف وما قال، لم يتمكّن حتّى من تقبيل خنصر برنْدا الورديّ؛ ارتحل غير راضٍ بتاتاً ومقرّاً العزم على مواجهة فارس النجم الأحمر إنْ تمكّن من لقائه.

ورغم الاستقبال الصارم الذي خصّصته له برنْدا، عاد أولوف في الغد ليسلك طريق البرج الصغير المخروطيّ الشكل: فالعشّاق لا يتبادلون النفور بسهولة.

وفي طريقه كان يخاطب نفسه قائلاً: «لعلّ برنْدا مجنونة؛ ثمّ ماذا عساها تقصد بفارسها صاحب النجم الأحمر؟»

كانت العاصفة من أعنف العواصف؛ الثلج يدوّم ولا يكاد يتيح

Twitter: @ketab_n

التمييز بين الأرض والسماء. وهناك تجمّع لولبيّ لرفّ غربان، كانت رغم نباح فنريس ومورغ المتقافزَين في الهواء للإمساك بها، تحوم بشؤم فوق الريشة التي تعلو قبّعة أولوف. وفي مقدّمة رفّ الغربان كان يوجدُ ذلك الغراب اللّامع مثل السبج والذي كان يوقّع النغم على كتف المنشد البوهيميّ.

توقّف فنريس ومورغ فجأةً: تشمّم منخراهما المتحرّكان الهواءَ بقلق؛ لقد تشمّمَا حضورَ عدوّ. لا يمكن أن يكون ذئباً ولا ثعلباً؛ فالذئب والثعلب لا يشكّلان سوى لقمة سائغة لهذين الكلبين الجريئين.

سُمع وقع خطوات، وسرعان ما لاح في منعطف الدرب فارس يمتطي حصاناً عملاقاً ويتبعه كلبان ضخمان.

كان يمكنك أن تحسبه أولوف. كان مسلّحاً مثله تماماً، مع معطف مزخرف بشخوص ترمز إلى شعار النّسَب نفسه؛ لكنّ الفارق الوحيد يتمثّل في كون خوذته مزدانة بريشة حمراء بدل أنْ تكون خضراء. كان الطريق من الضيق بحيث يستوجب من أحد الفارسين التراجع إلى الوراء.

«يا سيّد أولوف، تراجعْ إلى الوراء حتّى أمرّ، قال الفارس ذو واقية الوجه المسدلة. إنّني أقوم برحلة طويلة؛ وهناك من ينتظرني، لا بدّ أنْ أصل.

- أُقسم بشارب أبي، أنت الذي سوف تتراجع إلى الخلف. أنا ذاهب إلى موعد غراميّ، والعشّاق مستعجلون»، أجاب أولوف واضعاً يده على مقبض سيفه.

استلّ الشخص المجهول سيفه، وبدأت المعركة. كان السيفان ينقضّان على البدلتين المزرّدَتين بالمعدن الصّلب، فينبعث منهما شرر

Twitter: @ketab_n

مفرقع؛ وسرعان ما صار السيفان، رغم جودة مسقاهما، مثلومَين مثل منشارَين. وكان يمكن للمرء أن يحسب المتصارعَين، من خلال دخان حصانَيهما وضباب تنفسّهما اللّاهث، حدّادَين زنجيَّين منكبَّين بضراوة على قطعة حديد محمرّة. كان الحصانان، وقد حرّكهما الهياج نفسه الذي تملّك سيّدَيهما، يتبادلان عضّ عنقيهما حيث الأوردة، ويقتطعان مزقاً من الصدر؛ كانا يتحرّكان هائجَين بقفزات فجائيّة عنيفة، وينتصبان على القائمتين الخلفيّتين ويستخدمان حوافرهما مثل قبضات مغلقة؛ كانا يتبادلان ضرباً مبرّحاً بينما يتضارب فارساهما فوقهما؛ أمّا الكلاب فلم تعد سوى عواء وعضّ.

كانت قطرات الدم التي ترشح عبر الزرد المتشابك لشكّتَي المتقاتلَين وتسقط فاترة على الثلج، تترك عليه حُفَراً صغيرة ورديّة. وبعد لحظات بدت تلك القطرات كما لو أنّها تسقط من غربال بسبب تواترها وتسارعها. كان الفارسان جريحَين.

الشيء الغريب أنّ أولوف كان يحسّ بالطعنات التي يوجّهها للفارس المجهول؛ كان يتألّم من الجروح التي يتسبّب بها ومن تلك التي يتلقّاها: أحسّ ببرد شديد في صدره، كما لو كان رمحاً ينفذ سنانه إلى القلب، مع أنّ درعه لم تُصَب بأيّ اعوجاج عند موضع القلب: كان جرحه الوحيد يتمثّل في طعنة في لحم الذراع اليمنى. يا لها من مبارزة متفرّدة حيث المنتصر يتألّم كما يتألّم المنهزم، وحيث التسديد والتلقّي أمران لا يختلفان.

بعد أن استجمع أولوف قواه استطاع بضربة خلفيّة أن يُطيّر خوذة خصمه القويّة.- يا للهول! ماذا رأى ابن إدفيج ولودبروغ؟ لقد رأى نفسه أمام نفسه: ولو كان هناك مرآة لكانت أقلّ دقّة. لقد تقاتل مع شبحه الشخصيّ، مع فارس النجم الأحمر؛ أطلق الشبح صرخة مدويّة

Twitter: @ketab_n

واختفى.

عاد رفّ الغربان اللولبيّ الشكل محلّقاً نحو السماء وتابع أولوف الشجاع طريقه؛ ولدى عودته في المساء إلى قصره، كان يُردِف وراءه فتاة القصر التي رغبت في الإصغاء إليه هذه المرّة. وبما أنّ فارس النجم الأحمر لم يعد موجوداً، فقد قرّرت أن تترك هذا الاعتراف يسقط من بين شفتيها الورديّتين إلى قلب أولوف، رغم ما يكلّفه هذا الاعتراف من مساس بالحياء. كان اللّيل صافياً وأزرقَ، رفع أولوف رأسه باحثاً عن نجمه المزدوج كي يريه لخطيبته: لم يعد هناك إلّا النجم الأخضر، لقد اختفى الأحمر.

عندما دخلت برنْدا سعيدة بهذه الأعجوبة التي نسبتها للحبّ، نبّهت الفتى أولوف إلى أنّ سبج عينيه الأسود تحوّل إلى اللّون اللّازورديّ، وهو لون يدلّ على علامة التصالح السماويّ. ولا شكّ أنّ السيّد لودبروغ العجوز كان يبتسم مرتاحاً تحت لحيته البيضاء في قاع قبره؛ ذلك أنّه رغم عدم ذكره للأمر فقد سبق لعينَي أولوف أن دفعتاه إلى التفكير.- أمّا طيف إدفيج فهو في منتهى السعادة، ذلك أنّ ابن السيّد لودبروغ النبيل تمكّن أخيراً من التغلّب على التأثير الخبيث لِلعَين البرتقالية والغراب الأسود والنجم الأحمر: الإنسان صرعَ الروح الشريرة الحَضون.

هذه الحكاية تبيّن كيف أنّ لحظة نسيان واحدة، ونظرة واحدة مهما كانت براءتها، يمكن أن يكون لهما تأثيرهما.

فيا أيّتها الفتيات، لا تلقين بنظراتكن على المبتزّين البوهيميّين المُنشِدين الذين يردّدون أشعاراً مُثمِلة وشيطانية. أنتنّ أيّتها الفتيات، لا تثقنَ إلّا بالنجم الأخضر؛ وأنتم يا من تعانون من بؤس الإزدواجيّة، قاتلوا العدوّ الداخليّ، الفارس الخبيث، بشجاعة، حتّى لو توجّب عليكم ضرب

Twitter: @ketab_n

ذواتكم وجرح أنفسكم بسيوفكم الشخصيّة.

وإذا سألتم من الذي جلب لنا هذه الأسطورة من النرويج، فإنّه بجعة؛ طائر أبيض جميل ذو منقار أصفر، اجتاز «الفيورد»[1]، عائماً تارةً ومحلّقاً طوراً.

(1) الفيورد (fjord في الإملاء النرويجيّ القديم وfiord في الحديث): وادٍ متاخم لبحر، تغزوه المياه البحريّة ما إن تنحسر عنه طبقات الجليد.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

قَـدَم المومياء[1]

بسبب العطالة، دخلتُ إلى محلّ أحد تجّار الأشياء العتيقة النادرة الذين يُسمَّون تجّار العاديّات باللّهجة الباريسية التي يصعب فهمها بالنسبة لبقيّة فرنسا.

لعلّك ألقيت يوماً نظرة، عبر زجاج النافذة، على بعض تلك الدكاكين التي ازداد عددها منذ أن انتشرت دُرْجة اقتناء الأثاث القديم، وصار أبسطُ صرّاف يعتقد أنّه مجبر على امتلاك غرفته العائدة إلى القرون الوسطى.

وهو محلٌّ يجمع عادةً بين دكّان الخردة ومحلّ بائع السجّاد والنُّجود، ومختبر الخيميائي، وورشة الرسّام؛ وفي هذه الكهوف السرّية حيث تمرّر المصاريع نوراً ضعيفاً حذراً، لا يوجد ما هو عتيق حقّاً إلّا الغبار؛ فنسيج العناكب فيها أكثر أصالة من التخاريم الزخرفية الواسعة الفتحات، وشجرة الإجاص العجوز، هنا، أجَدّ من الأكاجو الذي وصل البارحة من أمريكا.

كان دكّان العاديّات لتاجري هذا مستودعاً حقيقيّاً لِمَا هبّ ودبّ من أدوات هي من سقْط المتاع؛ حتّى لتبدو كلّ القرون وكلّ البلدان قد تواعدت فيه؛ مصباح أتْروريّ[2] من طين أحمر ينتصب فوق خزانة من طراز بول[3] ذات خشب من الأبنوس المجرّح بقوّة بأسلاك نحاسية؛

---

(1) نُشرت للمرّة الأولى في مجلّة *Le Musée des familles*، عدد أيلول 1840.

(2) من أترووريا، كانت تقع قديماً غربيّ إيطاليا.

(3) أندريه–شارل بول André-Charles Boulle (1642–1732): نجّار أبنوس في عهد =

Twitter: @ketab_n

وهناك دوقة من عهد لويس الخامس عشر تمدّ بلامبالاة ساقيها الشبيهتين بقائمتَي ظبية تحت مائدة سميكة تعود إلى عهد لويس الثالث عشر، مع أشكال لولبية من خشب السنديان وَمنحوتات تختلط فيها أوراق الأشجار والمخلوقات الخرافيّة.

وفي إحدى الزوايا درع محارب مرصّع من ميلانو يلمع عند وسطه الموشّح؛ تماثيل حبّ وحوريّات من الخزف، تماثيل صينية، أقماع بورسلين مجزّعة ذات لون أخضر فاتح، فناجين من الخزف السكسوني، وخزف فاخر من صنع مدينة سيفْر الفرنسية، تغصّ بها الرفوف والزوايا.

على الرفوف المسنّنة لخزائن الأطباق تلمع صحون كبيرة من اليابان، ذات رسوم حمراء وزرقاء ونافرة بحزوز ذهبيّة، متجاورة مع فخّاريات أخرى للخزّاف برنار باليسي[1] تمثّل أحناشاً وضفادع وعظايات ناتئة.

ومن الخزائن المخلوعة تخرج شلّالات من حرير اللّمباس الصيني مطعّمة بالفضّة وسيول من السندس المزخرف تخترقه حبَيبات ضوئية متأتّية من شعاع شمسيّ مائل؛ وبورتريهات من كلّ العصور تبتسم عبر برنيقها الأصفر داخل إطارات باهتة بهذا القدر أو ذاك.

كان التاجر يتبعني حذراً عبر الممرّات الملتوية بين أكوام الأثاث، مخفّضاً بيده الانطلاق المجازف لأذيال ثيابي، مراقباً مرفقَيّ بيقظة تاجر العاديّات والمرابي.

كان وجه التاجر متميّزاً: جمجمة ضخمة مصقولة مثل ركبة، تحيط بها هالة هزيلة من الشعر الأبيض يزيد في إبرازها لون البشرة المورّد، فيكسبه ذلك ملامح مزيّفة لسذاجة أبوية يعدّلها قليلاً لمعان عينيه الصغيرتين

= لويس السابع عشر ولويس الثامن عشر، صار طراز الأثاث أيضاً يحمل اسمه.

(1) برنار باليسي Bernard Palissy (حوالى 1510–1589): خزّاف وزخرفيّ وعالم وكاتب، فرنسي.

Twitter: @ketab_n

الصفراوين اللّتين ترتعشان في محجريهما مثل ليرتين ذهبيّتين فوق الزئبق. وكان لأنفه المعقوف ظلٌّ أقنى يذكّر بالنوع الشرقي أو اليهودي. أمّا يداه الضامرتان الرقيقتان المعرّقتان والمملوءتان بعروق ناتئة مثل أوتار مقبض الكمان، بأظافرهما المخلبيّة التي تشبه نهايات الأجنحة الغشائية لدى الخفافيش، فكانتا تتميّزان بحركة اهتزاز مقلقة تظهر مع الشيخوخة؛ غير أنّ تينك اليدين المهتزّتين برجفة عصبيّة دائمة تصيران أصلب من فكّي كلّابة حديدية أو من كلّابة سرطان البحر عندما يتعلّق الأمر برفع غرض ثمين، مثل كوبِ عقيق، أو كأس من فينيسيا أو طبق كريستال من بوهيميا؛ كان لهذا العجوز الطريف مظهر أشبه ما يكون بالمظهر الحاخاميّ والقبْلانيّ، بحيث كان من الممكن حرقه انطلاقاً من هيئته، قبل ثلاثة قرون.

«ألن تشتري منّي شيئاً اليوم يا سيّدي؟ هوذا خنجر من مالي، معقوف ذو شفرة تتموّج مثل شعلة لهب؛ انظر إلى هذه الحزوز لتقطير الدم، وهذه التسنينات في الاتّجاه المعكوس من أجل قلع الأحشاء أثناء استخراج الخنجر، إنّه سلاح فتّاك، وذو ميزات جميلة ومن شأنه أن يزيّن مجموعاتك التذكارية؛ هذا السيف ذو المقبضين جميل جدّاً، ويعود إلى جوزيبه ديلا هيرا، وهذا السيف الطويل والثقيل ذو الصدفة المثقّبة، يا له من شغل متقن!

- كلّا يكفيني أسلحة وأدوات مجازر؛ أرغب في تمثال صغير، أيّ شيء يمكنني استخدامه لتوظيب الأوراق، لأنّني لم أعد أستسيغ كلّ هذه التماثيل البرونزية الرخيصة التي يبيعها الورّاقون ونجدها متكرّرة فوق كلّ المكاتب».

وبدأ راصد الكنوز القزم العجوز ينقّب بين أغراضه القديمة، فعرض

Twitter: @ketab_n

أمامي قطعاً برونزية عتيقة أو ادّعى أنّها كذلك، وقطعاً من الدهْنج[1]، وتماثيل صغيرة لآلهة هندية أو صينية، تمثّل بوذا من اليشْب، أو تجسيداً لبراهما أو فيشنو في منتهى الصيانة والنظافة يمكنها أن تستخدم في هذه المهمّة غير الإلهية والمتمثّلة في توظيب صحف ورسائل.

كنت متردّداً بين التنّين الخزفيّ المزخرف بالثآليل بفمه المزيّن بأسنان معوّجة وحزوز شائكة، وبين تمثال مكسيكيّ صغير شنيع جدّاً، يمثّل بشكل طبيعيّ إله الحرب ويتزيليبوتزيلي، عندما لمحت قدماً فاتنة حسبتها للوهلة الأولى قطعة من فينوس القديمة.

كان لها تلك اللُّوَينات الجميلة الشقراء والصهباء التي تضفي على برونز فلورنسا ذلك المظهر الدافئ والمتألّق، وهو أفضل بكثير من النوع الزنجاريّ المسحة، الذي تتّصف به قطع البرونز الاعتيادية التي يمكن حسبانها تماثيل في طور الانحلال: كان هناك لمعان صقيل يرتعش على أشكالها المستديرة والمجلوّة بفعل عشرين قرناً من القُبَل العاشقة؛ وقد تكون برونزاً من كورنثة، عملاً من أعمال الحقبة الأجمل، وربّما من سبْك ليسيب![2]

«هذه القدم تلائمني»، قلت للتاجر الذي نظر إليّ بمظهر ساخر وماكر وهو يمدّ لي الغرض المطلوب حتّى أتمكّن من فحصه بطريقة أفضل.

فوجئت بخفّتها؛ لم تكن قدماً من معدن، بل كانت من لحم حقيقيّ، كانت قدماً محنّطة، قدم مومياء: وإذا دققنا النظر عن قرب نستطيع تمييز حبَيبات الجلد وأثر بصمة شبه غير مرئيّة تركه عليها نسيج الضمادة. كانت الأصابع دقيقة، هشّة، تنتهي بأظافر سليمة، صافية وشفّافة مثل

(1) الدّهنج malachite: نوع من الأحجار يتكوّن من كربونات النحاس الطبيعيّ غير المحتوية على الماء.

(2) ليسيب السكيوني Lyssipe de Sicyone نحّات إغريقيّ (395– 305 ق م.).

Twitter: @ketab_n

أحجار العقيق؛ كان الإبهام، المنفصل قليلاً، يتعارض، لحسن الحظ، مع مستوى الأصابع الأخرى على الطريقة القديمة، ويكسبه نوعاً من التحرّر، ورشاقة قدم طائر؛ وكان باطن القدم الذي لا تكاد تشوبه بضع حزّات غير مرئية، يُظهر أنّه لم يمسس الأرض قطّ، ولم يكن في اتصال إلّا بأرقّ حصائر قصب النيل وأنعم سجّادات جلود الفهود.

«هاها! تريد قدم الأميرة هرمونتيس»[1] قال التاجر وهو يضحك ضحكة غريبة ويثبت فيّ عينيه اللّتين تشبهان عينَي بومة: هاهاها! من أجل توظيب الأوراق! فكرة أصيلة، فكرة فنّان؛ لا شكّ أنّ الفرعون العجوز سيُفاجأ حقّاً لو أخبره أحدهم بأنّ قدم ابنته الحبيبة سوف تُستخدم بصفتها ضاغطة أوراق، بينما كان يأمر بحفر جبل من الصوان كي يضع التابوت المثلّث المرسوم والمذهّب، مغطّى كلّه بالكتابة الهيروغليفية مع رسوم جميلة تمثّل محاسَبة الأرواح، أضاف التاجر القصير الغريب الأطوار بصوت نصف مسموع وكأنّه يحدّث نفسه.

- بكم ستبيعني هذا الجزء من المومياء؟

- آه! بأغلى ما يسعني ذلك، لأنّها قطعة رائعة؛ ولن يرضيني أن تحصل عليها بأقلّ من خمسمائة فرنك: لا شيء أندر من ابنة فرعون.

- بالتأكيد هي ليست من القطع العاديّة؛ لكن كم تريد في نهاية المطاف؟ أنبّهك أولاً إلى أنّني لا أملك سوى خمس ليرات ذهبيّة. وعليه فلن أشتري سوى ما لا يزيد ثمنه على خمس ليرات ذهبيّة.

- قدَم الأميرة هرمونتيس بخمس ليرات ذهبيّة هذا قليل، قليل جدّاً في الحقيقة، هي قدَم أصلية، قال التاجر وهو يهزّ رأسه ويرسم

(1) استعار الكاتب للأميرة اسم «أرمنت»، مدينة في صعيد مصر، على مقربة من الأقصر، سمّاها الإغريق «هرمونتيس» بشيء من التحوير لاسمها الأصليّ.

Twitter: @ketab_n

حركة دائرية ببؤبؤَيه.

«هيّا، خذها، وأتكرّم عليك مجّاناً بغلافها أيضاً، أضاف وهو يلفّها في قطعة بالية من الدمقس؛ غلاف جميل جدّاً، دمقس حقيقيّ، دمقس هندي لم يُعَدْ صبغُه قط؛ إنّه متين وناعم»، هكذا ظلّ يتمتم ممرّراً أصابعه على القماش المخدوش، ببقيّةٍ عادة تجارية تجعله يمتدح حتّى مثل هذه القطعة التافهة مع أنّه حكم عليها بأنْ تُعطى مجّاناً.

أدخل القطع الذهبيّة في ما يشبه كيس نقود من القرون الوسطى يحمله في زنّاره، مكرّراً:

«قدَم الأميرة هرمونتيس مستخدمة بصفتها ضاغطة أوراق!»

بعد ذلك ثبّت فيَّ محجريه الفوسفوريين وقال لي بصوت حادّ مثل مواء قطّ بلع للتوّ حسكة سمك:

«لن يكون الفرعون العجوز راضياً؛ كان يحبّ ابنته، ذلك السيّد العزيز.

- تتحدّث عنه وكأنّك كنت من معاصريه؛ ومهما كنتَ متقدّماً في السنّ فأنت لا تنتمي إلى عصور الأهرامات»، أجبته ضاحكاً عند عتبة المحلّ.

عدت إلى البيت فرحاً جدّاً بما اقتنيت.

ولكي أستفيد فوراً ممّا اشتريت، وضعت قدم الأميرة الإلهية هرمونتيس على كومة ورق تضمّ بدايات قصائد، تشطيبات فسيفسائية غير قابلة للقراءة: بدايات مقالات، رسائل منسيّة وموضوعة في بريد دُرجي، وتلك أخطاء كثيراً ما يقترفها شاردو الذهن؛ وكانت النتيجة رائعة، غريبة وررومنطيقيّة.

ولشدّة فرحي بهذه الزينة الجديدة، نزلت إلى الشارع، وذهبت أتنزّه

Twitter: @ketab_n

بصرامة ملائمة وكبرياء رجل يتفوّق على كلّ الناس الذين يحاذيهم بميزة لا توصف، هي امتلاك قطعة من الأميرة هرمونتيس، ابنة الفرعون.

شعرت بأنّ تفاهة عارمة تلفّ كلّ مَن لا يملكون مثلي ضاغطةَ أوراق مصرية بتلك الدرجة من الصيت التاريخيّ؛ وبدا لي أنّ أصدق انشغال لدى رجل حصيف هو أن يمتلك على مكتبه قدم مومياء.

ومن حسن الحظ أنّ التقائي ببعض الأصدقاء جاء ليلهيني عن شغف المتملّك الجديد؛ فذهبت لتناول العشاء معهم، إذْ كان سيصعب عليّ أن أتعشّى وحيداً.

عندما عدت في المساء بدماغ متحجّر من نشوة الشرب دغدغتْ نفحة عطر شرقية غامضة جهازي التنفّسي بلطف؛ كانت حرارة الغرفة قد خفّفت النطرون والقار والمرّ التي غمر بها محنّطو الجثث جسد الأميرة، كان عطراً ناعماً رغم نفاذه، عطراً لم تتمكّن أربعة آلاف سنة من تبخيره.

كان حلم مصر هو الأبديّة: لروائحها متانة الصوّان، وديمومته كذلك.

وسرعان ما تناولتُ عدّة جرعات من الكوب الأسود للنوم؛ ظلّ كلّ شيء معتماً لساعة أو ساعتين، وكان النسيان والعدم يغرقانني بأمواجهما الداكنة.

وفي تلك الأثناء أضيئت عتمتي الذهنية، وبدأت الأحلام تلامسني بطيرانها الصامت.

انفتحت عيون روحي، ورأيت غرفتي كما كانت فعلاً: كان يمكنني الاعتقاد أنّني مستيقظ، غير أنّ إدراكاً غامضاً كان ينبئني باحتمال حدوث شيء ما غريب.

ازدادت رائحة المرّ كثافة، وشعرتُ بصداع خفيف أرجعتُه بطريقة

Twitter: @ketab_n

منطقية جدّاً إلى بضعة أقداح من الشمبانيا كنّا احتسيناها نخب الآلهة المجهولة ونجاحاتنا المستقبليّة.

رحتُ أجول بنظري في غرفتي مع شعور غير مبرّر بالانتظار؛ كان الأثاث مرتّباً في أمكنته، والمصباح يشتعل في محمله مظلّلاً قليلاً بالبياض اللّبنيّ لزجاجته البلّورية التي فقدت بعض لمعانها؛ وكانت الرسوم المائية تلمع عبر زجاجها المصنوع في بوهيميا؛ والستائر تتدلّى بوهن: كان كلّ شيء يبدو نائماً وهادئاً.

مع ذلك، وبعد لحظات، بدَا هذا الداخل الهادئ جدّاً مقبلاً على الارتباك، كان خشب البيت يقرقع خفْية؛ وفجأةً أرسلت الحطبة المطمورة تحت الرماد نفثة غاز زرقاء، بينما لاحت أقراص المشاجب أقرب إلى عيون معدنية متنبّهة مثلي للأشياء التي ستحدث.

حطّ بصري صدفةً على المائدة التي كنت وضعت عليها قدم الأميرة هرمونتيس.

وبدل أن تكون ثابتة كما هو شأن أيّ قدم محنّطة منذ أربعة آلاف سنة، رأيتها تتحرّك، تتشنّج وتنطّ على الأوراق مثل ضفدعة مذعورة: كان يمكن الاعتقاد أنّها في اتّصال ببطارية فولتية؛ كنت أسمع بوضوح تلك الضجّة بلا صدى التي يُصدرها كعبها الصغير الصلب مثل ظلف غزال.

بدأت أشعر بقِلّة الرضى عما اقتنيت، لا سيّما أنّني من محبّي ضاغطات الأوراق الثابتة وليس من الطبيعي رؤية الأقدام تتجوّل بلا سيقان، حتّى أنّني بدأت أحسّ بما يشبه الرعب إلى حدّ بعيد.

فجأةً رأيت طيّةً في إحدى ستائري تتحرّك، وسمعت وقع خطى يشبه من يقفز حجْلاً على رجل واحدة. ولا بدّ أنْ أعترف بأنّني أحسست بجسمي تتناوبه الحرارة والبرودة؛ وأنّ ريحاً مجهولة تنفخ على ظهري،

Twitter: @ketab_n

وشعري الذي انتصب أطاح بغطاء رأسي اللّيليّ على بعد خطوتين أو ثلاث.

انفرجت الستائر، ورأيت أغرب وجه يمكن تخيّله وهو يتقدّم.

كانت فتاة، سمراء غامقة السمرة، مثل الراقصة الهندية أماني[1]، ذات جمال آسر وتذكّر بالشخصيّة المصرية الأصيلة؛ كانت عيناها مرسومتين على شكل لوزتين مع زوايا مرفوعة وحاجباها في منتهى السواد إلى حدّ التحوّل إلى الزرقة، وكان أنفها منحوتاً بدقّة، يكاد يكون إغريقياً برقّته، يجعل الرائي يحسبها تمثالاً برونزياً من كورنثة، لولا بروز الوجنتين والاكتناز الأفريقي نسبيّاً للفم وهما الدليلان، دون أدنى شكّ، على المجموعة الإثنيّة الهيروغليفيّة[2] لضفاف النيل.

كانت ذراعاها الرقيقتان المخروطتان مثل سواعد البُنَيّات، مطوَّقتَين بما يشبه الأغلال المعدنية والأطواق الزجاجية؛ وكان شعرها مضفوراً على شكل أشرطة، وعلى صدرها يتدلّى تمثال إلهة مجبولة من خزف أخضر يدلّ سوطها المتفرّع إلى سبعة فروع على أنّها إيزيس، راعية الأرواح؛ تلمع على جبينها صفيحة ذهب وبقايا زينة تنبثق تحت المسحة النحاسية لخدّيها.

أمّا زيّها فكان في منتهى الغرابة.

تخيّلْ تنّورة من الشرائط مزركشة بكتابات هيروغليفية سوداء وحمراء، منشّاة بالزفت وتبدو كأنّها تعود إلى مومياء تمّ تجريدها حديثاً من أقمطتها.

سمعتُ، من خلال إحدى القفزات الذهنية المعتادة في الأحلام، ذلك

(1) في العام 1838 زارت باريس فرقة رقص هندية، وحضر تيوفيل غوتييه عرض الراقصة أماني Amani برفقة الشاعر جيرار دو نرفال Gérard de Nerval (1808–1855) وكتبا عنها بافتتان.

(2) كذا! في الأصل، وكما هو معلوم فما من مجموعة أثنيّة أو سلالة هيروغليفيّة.

Twitter: @ketab_n

الصوت النشاز والأبحّ لتاجر العاديّات الذي ظلّ يكرّر، مثل لازمة رتيبة، تلك الجملة التي نطق بها في دكّانه مع نبرة في غاية الإلغاز:

«لن يكون الفرعون العجوز راضياً؛ كان يحبّ ابنته كثيراً، ذلك السيّد العزيز».

هناك جزئيّة غريبة لم تبعث فيّ الاطمئنان أبداً، إذْ لم يكن للشبح إلّا قدم واحدة، بينما كانت الثانية مبتورة عند الكعب.

توجّهتُ إلى المائدة حيث تهتزّ قدم المومياء وتختلج مع تزايد في السرعة. وعندما بلغت الموضع اتّكأت على الحافّة، ورأيتُ نشأة دمعة تلمع في عينيها.

ومع أنّها لم تتكلّم، تبيّنتُ تفكيرها بوضوح: كانت تنظر إلى القدم، لأنّها قدمها فعلاً، بتعبير يدلّ على حزن مغناج كلّه لطف، غير أنّ القدم كانت تقفز وتركض هنا وهناك كما لو كانت مدفوعة بنوابض معدنية.

مدّت يدها مرتين أو ثلاثاً كي تمسك بها، لكنّها لم تنجح في ذلك.

عندئذ نشأ بين الأميرة هرمونتيس وقدّمها التي بدت موهوبة بحياة مستقلّة، حوارٌ غريب جدّاً بالقبطيّة القديمة كما كانت تُستخدم قبل حوالى ثلاثين قرناً، في المَدافن الملكيّة لبلاد السارّ: ومن حسن حظّي أنّي كنت في تلك اللّيلة متذكّراً القبطيّة بمهارة.

قالت الأميرة هرمونتيس بنبرة صوت عذب ومتموّج مثل ناقوس بلّوريّ صغير:

«هكذا إذاً! يا قدَمي الصغيرة العزيزة، تهربين منّي دائماً رغم ما كنت أبذله معك من عناية. كنت أغمرك بالماء المعطّر، في حوض من المرمر؛ وأصقل كعبك بحجر الخُفّان المغمّس في زيت النخيل، وكانت أظافرك تقصّ بمقلام من ذهب وتُصقل بقطعة من سنّ فرس النهر، كنت أعتني

Twitter: @ketab_n

باختيار أخفاف مطرّزة ومرسومة ذات طرف مثنيّ تثير غيرة بنات مصر كلّهن؛ كانت في أصابعك خواتم تجسد الجُعل المقدّس، وكنت تنتعلين أحد أخفّ المداسات التي تتمنّاها قدَم كسول».

أجابت القدم بنبرة حرِدة ومكتئبة:

«تعرفين جيّداً أنّني لم أعد أنتمي إليك، لقد تمّ بيعي وشرائي؛ والتاجر العجوز كان على دراية بما يفعل، ما زال حاقداً عليك لرفضك الزواج منه: وهذه حيلة أعدّها لك.

«العربي الذي خلّع تابوتك الملكيّ في البئر الباطنية لمقبرة مدينة طيبة كان مرسَلاً من طرفِه، كان يرغب في منعك من الذهاب للمشاركة في اجتماع شعوب الظلمات، في المدن السفلى. هل لديك خمس قطع ذهبيّة لكي تعيدي اقتنائي؟

- كلّا، مع الأسف! لقد سُرق منّي كلّ شيء؛ أحجاري الكريمة وخواتمي وأكياس نقودي من الذهب والفضّة، أجابت الأميرة هرمونتيس وهي تتنهّد.

- أيّتها الأميرة، هتفتُ عندئذ، لم يسبق لي أبداً احتجاز قدَم أيّ شخص بطريقة ظالمة: ورغم أنّك لا تملكين اللّيرات الخمس التي دفعتُها مقابل القدم، فأنا أعيدها إليك بطيبة خاطر؛ سوف يُحزنني جعل شخص محبّب إلى النفس مثل الأميرة هرمونتيس في صورة عرجاء».

بدأتُ هذه الخطبة بنبرةِ عصر الريجانس والتروبادور، ما قد يعني أنّه قد فاجأ المصرية الجميلة.

التفتتْ نحوي بنظرة اعتراف بالجميل، ولمعت عيناها ببريق مزرقّ.

تناولت قدمها التي استسلمت هذه المرّة، مثل امرأة ستلبس مَداسها، وضبطتْها على ساقها بمهارة فائقة.

Twitter: @ketab_n

بعد انتهاء هذه العملية، مشت خطوتين أو ثلاثاً في الغرفة، كما لو كانت تتأكّد أنّها لم تعد عرجاء.

«آه! كم سيكون أبي فرحاً، وهو الذي تأسّف كثيراً بسبب ما لحقني من تشويه، وأخضع شعباً كاملاً للعمل، يوم مولدي، ليحفر لي قبراً يكون في غاية العمق كي يقدر على حفظي كاملة حتّى اليوم المقدَّر الذي توزن فيه الأرواح في آمنْتي[1].

«تعال معي إلى والدي، سوف يستقبلك استقبالاً حسناً، لأنّك أعدْت لي قدمي».

وجدتُ الاقتراح طبيعياً جدّاً؛ ارتديت مبْذلاً[2] مشجّراً، أضفى عليّ هيأة فرعونية حقّاً؛ وانتعلت بسرعة بابوجاً تركياً، وقلت للأميرة هرمونتيس أنّني جاهز لمرافقتها.

تولّت هرمونتيس، قبل المغادرة، نزع تمثال الإلهة الخزفيّ الأخضر من ياقتها ووضعتْه على الأوراق المبعثرة التي كانت تغطّي الطاولة.

«من العدل، قالت مبتسمة، أن أعوّض لك ضاغطةَ أوراقك».

ناولتني يدها التي كانت ناعمة وباردة مثل جلد ثعبان، وانطلقنا.

أسرعنا بعض الوقت بسرعة سهم في بيئة سائلة ورماديّة حيث كانت خيالات غير مكتملة تمرّ عن اليمين وعن اليسار.

وللحظةٍ لم نشاهد سوى الماء والسماء.

بعد بضع دقائق، بدأت تظهر مسلاّت وبوّابات هياكل فرعونية ومداخل يحاذيها أبو الهول ترتسم في الأفق.

---

(1) كلمة تقريبية يستخدمها المؤلف لما يمكن أن يعادل مآل الارواح بعد الموت لدى الفراعنة. ويشير الشّراح إلى أنّ فكرة يوم الحساب التي يشير إليها غوتييه غير موجودة حقّاً في الثقافة الفرعونيّة.

(2) روب دو شامبْر.

Twitter: @ketab_n

لقد وصلنا.

قادتني الأميرة أمام جبل من الصوّان الورديّ، حيث كانت توجد فتحة ضيّقة وواطئة إلى درجة يصعب معها تمييزها عن تشقّق الأحجار لولا وجود مسلّتين مبرقعتين بمنحوتات.

أضاءت هرمونتيس مشعلاً وشرعت تمشي أمامي.

كانت ممرّات محفورة في الصخر مباشرةً؛ ولا شكّ أنّ الجدران، المغطّاة بلافتات هيروغليفية ومواكب تطواف شعائرية، قد شغلتْ آلاف السواعد خلال آلاف السنين؛ وكانت هذه الأروقة في منتهى الامتداد وتؤدّي إلى غرف مربّعة، تتوسّطها آبار نزلنا إليها بواسطة مثبّتات أو سلالم حلزونية؛ وهذه الآبار قادتنا إلى غرف أخرى تنطلق منها أروقة أخرى مبرقشة بدورها بصقور وثعابين ملتفّة في شكل دائريّ وعكاكيز وعصيّ معقوفة ورموز صوفية، وهو عمل خارق لا ينبغي لأيّ عين حيّة أنْ تراه، سلسلة لا تنتهي من الأساطير الصوّانية التي لا يقرؤها إلّا الموتى أثناء رحلة الخلود.

أخيراً نفذنا إلى قاعة في منتهى الاتّساع والضخامة والإفراط إلى درجة استحالة إدراك تخومها؛ على مدى البصر تمتدّ صفوف الأعمدة الضخمة التي تتراقص بينها نجوم ذات ضوء أصفر: وتلك النقط اللّامعة كانت تكشف عن أعماق لا حدود لها.

كانت الأميرة هرمونتيس لا تنفكّ تُمسك بيدي وتحيّي بيدها وبلطف معارفها من المومياوات.

اعتادت عيناي على ذلك النور الغسقيّ، وبدأتا تميّزان الأشياء.

رأيت ملوك السلالات السردابية جالسين على عروش: كانوا شيوخاً كباراً ضامرين، مغضّنين، شبيهين بورق الرَّق، مسوّدين بالنفط والقار،

Twitter: @ketab_n

معتمرين قبّعات فرعونية من ذهب، مدرّعين بصدريّات وواقيات عنق، منجَّمين بأحجار كريمة مع عيون ثابتة مثل عيني أبي الهول ولحى طويلة بيّضتها ثلوج القرون: خلفهم تقف رعيّتهم المحنّطة في وضعيّات متصلّبة وقسريّة كما في الفنّ المصريّ، محافظةً إلى الأبد على الوقفة المنصوص عليها في الدستور الهيروغليفيّ؛ وخلف الرعيّة كانت تموء القطط، وتخفق طيور أبي منجل بأجنحتها، وتضْغب التماسيح[1]، هذه الحيوانات كلّها التي هي من تلك الحقبة لكنّها صارت أضخم بسبب لفّها بشرائط.

كان الفراعنة كلّهم حاضرين، خوفو، وسنْفرو، وبسْماتيك، وسنوسرْت، وأمنْحوتب؛ كلّ الزنوج المهيمنين على الأهرام والسيرنجات[2]؛ وعلى مصطبة أعلى يجلس الملك كرونوس[3] وإكسيكسوتروس الذي عاصر الطوفان، وتوبال قايين الذي سبقه.

طالت لحية إكسيكسوتروس إلى درجة أنّها التفّت سبع مرّات حول مائدة الصّوان التي كان يستند إليها حالماً وغافياً.

وأبعد من ذلك، وسط بخار غباريّ، وعبر ضباب الأبدية، ميّزتُ بغموض، الملوك الإثنين والسبعين السابقين على آدم مع شعوبهم الإثنين والسبعين الذين اختفوا إلى الأبد.

بعد أن تركتْ لي الأميرة هرمونتيس بعض الدقائق للتمتّع بهذا المشهد المدوِّخ، قدّمتني إلى والدها الفرعون، الذي حيّاني بإشارة مهيبة من رأسه.

«لقد استعدتُ قدمي! لقد استعدتُ قدمي! صاحت الأميرة مصفّقة بيديها الصغيرتين مع كلّ علامات الفرح الجنونيّ، هذا السيّد هو الذي

(1) ضغيب التمساح وضُغابه: صوته.

(2) اسم إغريقي للمدافن الملَكيّة في طيبة.

(3) يمزج غوتييه بالأسماء الفرعونية اسماً آتياً من الميثولوجيا الإغريقية (كرونوس هو إله الزمن فيها)، ولا يخفى الطابع الخياليّ في تقديمه فرعوناً معاصراً للطوفان باسم إكسيكسوتروس.

Twitter: @ketab_n

أعادها إليّ».

وردّدت سلالات كيمي، وسلالات نهازي، وكلّ الأمم السوداء والسمراء والنحاسية البشرة، في جوقة واحدة:

«الأميرة هرمونتيس استعادت قدمها».

وتأثّر إكسيكسوتروس نفسه:

رفع جفنيه المثقلَين، ومرّر أصابعه في شاربَيه، ووجه إليّ نظرته المحمّلة بالقرون.

أقسم بأومس، كلب الجحيم، وبتماي، ابنة الشمس والحقيقة، هوذا شابّ شجاع وفاضل، قال الفرعون وهو يمدّ نحوي صولجانه الذي ينتهي بزهرة لوتس.

«ماذا تطلب كمكافأة؟»

ونظراً لأنّي كنت قويّاً بتلك الجرأة التي تُكسبنا إيّاها الأحلام، وحيث لا شيء يبدو مستحيلاً، طلبت منه يد هرمونتيس: وجدت أنّ اليد مقابل القدم تمثّل مكافأة طباقيّة لا تخلو من بعض الذوق.

فتح الفرعون عينيه الزجاجيتين على وسعيهما وقد فوجئ بمزحتي وطلبي.

«من أيّ بلد أنت وما عُمرك؟

- أنا فرنسي، وعمري سبعة وعشرون عاماً، أيّها الفرعون الموقّر.

- سبعة وعشرون عاماً! ويرغب في الزواج من الأميرة هرمونتيس التي تبلغ من العمر ثلاثين قرناً!» هتف كلّ الملوك وكلّ حشود الأمم المصطفّة هناك في حلقات، في وقت واحد.

بدت لي هرمونتيس هي الوحيدة التي لم تجد مطلبي غير مناسب.

«لو كان لك ألفا عام على الأقلّ، عاد الملك العجوز يقول، لوافقت

Twitter: @ketab_n

على تزويجك بالأميرة، غير أنّ الفارق شاسع جدّاً، يضاف إلى ذلك أنّنا نريد لبناتنا أزواجاً يدومون، وأنتم لم تعودوا قادرين على حفظ أنفسكم: فآخر مَن جيء بهم قبل قرابة الخمسة عشر قرناً لم تبق منهم إلّا قبضة رماد؛ انظرْ، لحمي صلب مثل البَزَلْت، وعظامي قضبان حديد.

«سوف أحضر يوم نهاية العالم بالجسد والوجه اللّذين عشت بهما في حياتي؛ وابنتي هرمونتيس سوف تدوم أكثر من تمثال من البرونز.

«عندئذ تكون الريح قد بدّدت آخر حبّة من غبارك، وحتّى إيزيس نفسها التي نجحت في العثور على أشلاء أوزوريس، سوف تجد صعوبة في إعادة تركيب كيانك.

«انظرْ كم أنّني لا أزال قويّاً وكم أنّ ساعديّ متماسكان»، قال وهو يهزّ يدي على الطريقة الإنجليزية فيكاد يقطع أصابعي بخواتمها.

شدّني بقوّة إلى درجة أنّني استيقظت، ولمحت صديقي ألفْريد يسحبني من ذراعي ويهزّني كي يوقظني.

«آه يا لك من محبّ للنوم! هل ينبغي نقلُك إلى قلب الشارع وإطلاق ألعاب ناريّة على أذنيك؟

«الوقت تجاوز منتصف النهار، ألا تتذكّر أنّك وعدتني بالمجيء كي ترافقني إلى مشاهدة اللّوحات الإسبانية للسيّد أغوادو؟

- يا إلهي! لم أتذكّر ذلك، أجبت وأنا أرتدي ثيابي؛ سنذهب: الدعوة موجودة عندي على مكتبي».

وتقدّمت فعلاً كي أتناولها؛ لكن عليكم أن تقدّروا مدى دهشتي عندما رأيت التمثال الخزفيّ الأخضر الصغير الذي وضعته الأميرة هرمونتيس بدل قدم الأميرة التي اشتريتُها البارحة.

Twitter: @ketab_n

ممثلان من أجل دور واحد[1]

1
موعد في الحديقة الإمبراطوريّة

كنّا نقترب من الأيّام الأخيرة في شهر تشرين الثاني: الحديقة الإمبراطورية في فيينا مقفرة، وريح شمالية قاسية تزوبع الأوراق ذات لون الزعفران والملفوحة بأولى موجات البرد؛ بينما كانت شُجَيرات الورد في أحواض الزهور، وقد طوّحت بها الريح وكسرتها، تترك أغصانها في الوحل. إلّا أنّ الممرّ الكبير كان جافّاً وسالكاً بفضل الرمل الذي يغطّيه. ورغم التلف الذي أصاب الحديقة الإمبراطورية بسبب مقْدم الشتاء، فإنّها لم تخلُ من جمال كئيب. كان الممرّ الطويل يمدّ أقواسه الصهباء بعيداً جدّاً ليكشف في نهايته وبشكل غامض أفقاً من الهضاب الغارقة أصلاً في السديم المزرقّ والضباب المسائي؛ وفيما هو أبعد من ذلك يمتدّ المشهد إلى نهرَي البراتر والدانوب: إنّه متنزّه مُعَدّ كما يتمنّاه شاعر[2].

كان هناك شابّ يحثّ الخطى في ذلك المسلك بعلامات نفاد صبر واضحة؛ وكانت بدلته ذات الأناقة الأقرب إلى بدلات المسرح، تتمثّل في سترة مخمليّة طويلة سوداء اللّون من نوع الريدنغوت ذات أزرار مذهّبة مطرزة بالفرو، وبنطال من نسيج محبوك رمادي اللّون، وجزمة ليّنة ذات شرّابة ترتفع إلى منتصف الساق. يمكن أن يكون بين السابعة والعشرين

(1) نُشرت للمرّة الأولى في مجلّة *Le Musée des familles*، عدد تمّوز 1841.

(2) هذه الفقرة انتحلها غوتييه من عمل لجيرار دو نرفال: «حبّ في فيينا».

Twitter: @ketab_n

والثامنة والعشرين من العمر؛ كانت ملامحه الشاحبة والمنسجمة مفعمة بالنعومة، وتكمن بعض علامات السخرية في طيّات عينيه وزاويتَي فمه؛ ولا بدّ أنّه، في الجامعة التي يبدو أنّه تخرّج منها للتوّ إذْ أنّه لا يزال يعتمر القبّعة ذات أوراق السنديان الطلّابية، قد أزعج أبناء البورجوازية غير المتعلّمة وتميّز في صفّ الصبْيان والثعالب[1].

وتُظهر المساحة الصغيرة التي اقتصرت عليها نزهته أنّه كان ينتظر أحداً، أو بالأحرى واحدةً، لأنّ الحديقة الإمبراطورية في فيينا، خلال شهر تشرين الثاني، لا تكون ملائمة أبداً لمواعيد الأعمال.

وبالفعل لم يطل الوقت حتّى ظهرت فتاة في آخر المسلك: كانت تعتمر قبّعة حرير سوداء تغطّي شعرها الكثيف الأشقر وقد ملّست رطوبة المساء خصلاته الطويلة بعض الشيء؛ فيما تبدّلت سحنة وجهها ذات بياض الشمع البكر عادةً، بتدرّجات أقرب إلى ورود البنغال وذلك بفعل قرصات البرد. ولأنّها كانت متكوّمة وملتفّة في ثوبها الفضفاض المزيّن بفرو سمّور، فقد لاحت تشبه إلى حدّ كبير تمثال «البرّيدة» (أو «الصّرِدَة»)[2]، وكان يتبعها كلب من جنس البربيت ذو وبر طويل مجعّد، كان بمثابة تمويه مناسب يمكن الوثوق بتسامحه وتكتّمه.

- تصوّرْ يا هنريش، قالت الفييناويّة الجميلة وهي تمسك ذراع الشابّ، مرت عليّ أكثر من ساعة وأنا مرتدية كلّ ثيابي وجاهزة للخروج، بينما عمّتي لا تكفّ عن مواعظها حول مخاطر الفالس،

---

(1) مصطلحان مستعاران من نرفال أيضاً حول الجامعات الألمانية: «الصّبْيان» Burschen هم التلامذة الجدد، ويصير الواحد منهم «ثعلباً» Fuchs بعد تسجيله وانضمامه لإحدى الجمعيّات وخضوعه لعدّة تجارب ومغامرات في المدينة.

(2) «البرّيدة» *La Frileuse*: تمثال شهير للنحّات الفرنسي جان–أنطوان هودون Jean-Antoine Houdon (1741–1828).

Twitter: @ketab_n

ووصفات حلويّات عيد الميلاد وطهي سمك الشبّوط الطازج. خرجتُ بتعلّة اقتناء جزمة رماديّة لست في حاجة إليها. لكن كلّ هذه الأكاذيب الصغيرة أقوم بها من أجلك، يا هنريش، ولا أكاد أتوب عنها حتّى أعود من جديد؛ ويا لها من فكرة جعلتك تخوض في مجال المسرح؛ أمن أجل هذا قمتَ بدراسة اللاّهوت مطوّلاً في هايدلبرغ! كان أهلي يحبّونك، ولولا قرارك لكنّا متزوّجَين اليوم. ولكُنّا، بدل لقاءاتنا المسروقة تحت الأشجار الجرداء في الحديقة الإمبراطورية، جالسَين جنباً إلى جنب قرب مدفأة سكسونية، داخل غرفة استقبال مغلقة جيّداً، متحدّثَين عن مستقبل أبنائنا: ألا ترى أنّ من شأن ذلك أن يكون مصيراً سعيداً يا هنريش؟

– نعم، يا كاتي، سعيداً جدّاً، أجاب الشابّ وهو يضغط تحت الساتان والفرو على الذراع البضّة للحسناء الفييناوية؛ لكنْ، ما العمل؟ إنّه طالع لا يُقهر؛ المسرح يجذبني؛ أحلم به نهاراً وأفكّر فيه ليلاً؛ أشعر بالرغبة في معايشة إبداعات الشعراء، فيخيّل إليّ أنّ لي أكثر من حياة واحدة. كلّ دور أؤدّيه يقدّم لي حياة جديدة؛ وكلّ أنواع الشغف التي أعبّر عنها أعيشها؛ فأنا هاملت، عطيل، كارل مور[1]: عندما يكون المرء كلّ ذلك يصعب عليه الاستسلام لوضعية متواضعة مثل وظيفة قسّ في قرية.

– هذا جميل جدّاً؛ لكن تعرف جيّداً أنّ عائلتي لن ترغب أبداً في صهرٍ ممثّل.

– بالتأكيد، لا، لن ترغب في ممثّل غامض، فنّان بائس متنقّل، لعبة

---

(1) كارل مور Karl Moor : صعلوك وقاطع طرق، طيّب القلب، بطل مسرحية شيلر Schiller «قُطّاع الطرق» *Die Räuber* (1781).

Twitter: @ketab_n

في أيدي مديري المسارح والجمهور. أمّا ممثّل كبير، مسربَل بالمجد والتصفيق، وراتبه أفضل من وزير، فمهما كان تشدّد العائلة فهي سوف ترغب فيه. عندما أجيء كي أطلب يدك في عربة خيل صفراء يمكن لبرنيقها أن يكون مرآة للجيران المندهشين، في حين يتولّى خادم كبير مزيّن بشرائط خفْضَ مرقاة العربة من أجلي، هل تظنّين، يا كاتي، أنّهم سيرفضونني؟

- لا أظنّ ذلك... لكنْ من يجزم، يا هنريش، أنّك قد تتوصّل ذات يوم إلى ذلك؟... أنت موهوب؛ غير أنّ الموهبة لا تكفي، يتطلّب الأمر الكثير من التوفيق أيضاً. عندما تصير ذلك الممثّل الكبير الذي تتحدّث عنه، يكون أجمل وقت في شبابنا قد مرّ، عندئذ هل ستبقى راغباً في الزواج من العجوز كاتي، والحال أنّ في إمكانك حبّ أميرات المسرح الفرحات والمتزيّنات بشكل فاتن؟

- هذا المستقبل، أجاب هنريش، هو أقرب مما تتصوّرين؛ لديّ التزام مغرٍ مع مسرح بورت دو كارينتي، وكان مديره في غاية الرضى على الطريقة التي أدّيت بها دوري الأخير، حتّى إنّه قدم لي مكافأة بألفَي تالر[1].

- نعم، تابعَت الفتاة بنبرة جادّة، دور الشيطان في المسرحية الجديدة؛ أعترف لك، يا هنريش، أنّني لا أحبّ رؤية مسيحيّ يضع قناع عدوّ البشرية وينطق بكلمات تجديفية. ذلك اليوم، كنت ذاهبة لرؤيتك في مسرح كارينتي، وفي كلّ لحظة كنت متخوّفة من خروج نار جهنّميّة حقيقيّة من الفتحات الأرضية التي كنت تنغمر فيها داخل زوبعة من الشمالة. عدت إلى البيت مضطربة ورأيت أحلاماً

(1) عملة ألمانية قديمة.

Twitter: @ketab_n

مريعة.

- كلّ ذلك مجرّد أوهام، يا كاتي الطيبة؛ وعلى أيّة حال غداً يكون العرض الأخير، ولن أعود إلى ارتداء البدلة السوداء والحمراء التي تكرهينها كثيراً.

- هذا أفضل! لأنّني لم أعد أعرف ما هي أنواع القلق الغامضة التي تعصف بذهني، وأخشى ألّا يكون هذا الدور النافع لأمجادك نافعاً لخلاصك؛ أخشى أيضاً أن تكتسب عادات سيئة مع هؤلاء الممثّلين الملعونين. أنا متأكّدة أنّك لم تعد تؤدّي صلواتك، وأراهن أنّك أضعت الصليب الصغير الذي أهديتك إياه.

سارع هنريش إلى تبرئة نفسه برفع طيّة ثوبه؛ كان الصليب الصغير لا يزال يلمع على صدره.

وأثناء هذا الحوار بلغ العاشقان شارع تابور بمدينة ليوبولدشتات، أمام دكان الإسكافيّ الشهير بجودة جزماته الرمادية؛ وبعد حديث قصير عند العتبة، دخلت كاتي يتبعها كلبها البربيت الأسود، دون أن تنسى قبل ذلك تسليم أصابعها الجميلة الرقيقة لضغط يد هنريش.

حاول هنريش اقتناص المزيد من ملامح عشيقته بين الأحذية الظريفة والجزمات الطريفة المصففة بتناظر على العلاّقات النحاسية في الواجهة؛ غير أنّ الضباب كان قد بيّض مربّعات الزجاج بأنفاسه الرطبة، فلم يتمكّن إلّا من تمييز خيال غامض؛ عندئذ اتّخذ قراراً بطوليّاً فدار حول نفسه وانطلق بخطوة إلى حانة «النسر ذي الرأسين».

Twitter: @ketab_n

2

حانة النسر ذي الرأسين

في ذلك المساء كان الحضور كبيراً في حانة «النسر ذي الرأسين». كانت الجماعة من أكثر الجماعات اختلاطاً في العالم، ولا شكّ أن مخيّلَتي كالو[1] أو غويا[2] مجتمعتَين، ما كان بإمكانهما إنتاج مثل ذلك المزيج الغريب من النماذج المميّزة. كانت حانة النسر ذي الرأسين من تلك الأقبية السعيدة التي احتفى بها هوفمان[3]، بدرجاتها التي كانت من التآكل والتزيّت والانزلاق، حتّى أن المرء لا يكاد يضع قدمه على الدرجة الأولى حتّى يجد نفسه في الداخل فوراً، بكوعين على الطاولة وغليون في الفم، ما بين قدح بيرة وكأس نبيذ جديدة.

وعبر الغيمة الكثيفة التي تمسك بك في البداية من حلقك وعينيك، ترتسم، بعد بضع دقائق، كلّ أنواع الوجوه الغريبة.

كانوا من الفالاك، بقفاطين وقلنسوات استراخان، وصُرْباً، وهنغاريين ذوي شوارب سوداء طويلة، وألبسة مزركشة بقيطان حريرية ومعدنية، وبوهيميين ذوي سحنات نحاسية، وجباه ضيّقة، ووجوه

---

(1) جاك كالو Jacques Callot : رسّام ونحات فرنسي (1592–1653) تميّز بالطابع الفنطازيّ لأعماله.

(2) فرانثيسكو غويا Francisco Goya : رسّام إسباني (1746– 1828) تميّز برسومه الفظّة والرؤيوية. عكس فنّه الاضطرابات السياسية والاجتماعية في عصره، ومارس قطيعة أسلوبية بشّرت بالرومنطيقيّة وأعلنت عن بداية الرسم الحديث.

(3) إرنست هوفمان Ernst Hoffmann : كاتب وموسيقار ألماني (1776–1822) عُرف بكتاباته الفنطازيّة، ترك أثره الشديد في أوروبا وفي مؤلّف هذه القصص.

Twitter: @ketab_n

محدّبة، وألمانيين شرفاء بسترات ريدنغوت طويلة ذات عُرى مزخرفة بطريقة بريندبورغ، وتتاريين مغبوني العيون على الطريقة الصينية؛ كلّ الشعوب التي يمكن تخيّلها. وكان الشرق ممثّلاً بتركي سمين مقرفص في زاوية، يدخّن تبغ اللّاذقية[1] بسلام في غليون ذي خرطوم مصنوع من خشب كرز مولدافيا، مع محْرق مجبول من طين أحمر وحافّة عنبر أصفر.

كان كلّ هؤلاء البشر، المستندون إلى موائد، يأكلون ويشربون: المشروب يتمثّل في بيرة قويّة ومزيج من النبيذ الأحمر الجديد مع نبيذ أبيض أعتق؛ أمّا الأكل فهو شرائح من لحم العجل الباردة، وجامبون أو حلويات.

حول الموائد تدور بدون توقّف إحدى رقصات الفالس الألمانية الطويلة التي تُحْدث في المخيلات الشمالية ما يحدثه الحشيش والأفيون على الشرقيّين؛ كان أزواج الراقصين يمرّون ويعودون بسرعة؛ والنساء شبه مغمى عليهنّ من المتعة على سواعد مراقصيهنّ، على إيقاع معزوفة فالس للانير[2]، فيَكْنسْنَ بتنانيرهنّ سُحُب دخان الغلايين وينعشن وجوه الشاربين. وعلى المشرب يوجد بعض المرتجلين المورلاك[3] يرافقهم عازف ربابة وينشدون نوعاً من الأغاني الحزينة التي يبدو أنّها تروق كثيراً لحوالى دزينة من الوجوه الغريبة يعتمر أصحابها طرابيش ويرتدون جلود خرفان.

توجّه هنريش إلى آخر القبو نحو مائدة سبقه إليها ثلاثة أو أربعة

---

(1) تبغ يميل لونه إلى السواد، كان يُستورَد من مدينة اللاذقية السورية، ويُدخّن في أرجاء الامبراطورية العثمانية.

(2) يوزيف لانير Joseph Lanner (1802–1843) : موسيقار كان سيّد الفالس في فيينا قبل يوهان شتراوس.

(3) سكّان شمال دلماسيا.

Twitter: @ketab_n

أشخاص من ذوي الملامح الباشّة والمزاج الرائق.

- عجباً، هذا هنريش! هتف أكبر الجماعة سنّاً؛ انتبهوا لأنفسكم يا أصدقائي: *fœnum habet in cornu*[1]. أتعْلَم أنّك كنت حقّاً في هيئة شيطان تلك اللّيلة: لقد أخفتني تقريباً. كيف عسانا نتخيّل أنّ هنريش الذي يحتسي البيرة مثلنا ولا يتأخر أمام تناول شريحة قديد بارد، يكتسب مثل تلك الملامح السامّة والشرسة والمستهترة، ويكفيه الإتيان بإيماءة واحدة لينشر القشعريرة في القاعة كلّها؟

- آه! بالتأكيد! ذلك ما يجعل هنريش فنّاناً كبيراً، ممثّلاً عظيماً. ما من مجد في تمثيل دور يكمن في طباعك؛ النصر بالنسبة لفتاة مغرية هو أن تلعب أدواراً ساذجة بطريقة متفوّقة.

جلس هنريش بتواضع، وطلب قدحاً كبيراً من النبيذ الممزوج، وتواصل الحوار حول الموضوع نفسه. ولم يكن هناك سوى الإعجاب والثناء.

- آه! لو تفرّج عليك العظيم فولفغانغ غوته! قال أحدهم.

- أرِنَا قدميك، قال الآخر: أنا متأكّد من أنّ لك قدماً ظلفاء[2].

كان الشاربون الآخرون قد انتبهوا إلى هتافات الإعجاب وبدؤوا ينظرون إلى هنريش نظرات جديّة، وهم في غاية السرور لنيلهم الفرصة لأن يستكشفوا عن قرب رجلاً متميّزاً. وكان الشبّان الذين عرفوا هنريش سابقاً في الجامعة ولا يكادون يتذكّرون إلّا اسمه، يقتربون منه ويصافحونه بحرارة كما لو كانوا من أصدقائه الحميمين. وكانت أجمل راقصات الفالس يرشقنه لدى مرورهنّ بأرقّ نظرة من عيونهنّ

(1) لاتينيّة، من بيت شعري لهوراس. كان يقال «إنّ لفلان علَفاً على قرنه» أي أنّه ساخط (كان من العادات القديمة وضع العلف على قرون الثيران الشرسة).

(2) هكذا يُصوّر الشيطان في الفولكلور المسيحيّ.

Twitter: @ketab_n

الزرقاء المذبّلة.

وحده رجل جالس إلى المائدة المجاورة لم تكن تبدو عليه المشاركة في الحماسة العامّة؛ كان رأسه مائلاً إلى الخلف وهو يدقّ بأصابعه ساهماً لحنَ مسيرةٍ عسكرية على قعر طاقيته، وبين الفينة والأخرى يرسل صوتاً أقرب إلى همهمة مريبة جدّاً.

كان مظهر ذلك الرجل من أغرب المظاهر، رغم أنّه يُعتبَر بورجوازياً شريفاً من فيينا، ويملك ثروة معقولة؛ كانت عيناه الرماديّتان تتلوّنان بقليل من الخضرة وترسلان بريقاً فوسفورياً مثل عيون القطط. وعندما تنفرج شفتاه الشاحبتان والمسطّحتان تكشفان عن أسنان ناصعة البياض، حادّة ومنفصلة، أي من نوع أسنان أكلة لحوم البشر الأكثر افتراسًا؛ أمّا أظافره الطويلة، اللّامعة والمتقوّسة، فكانت نسبيّاً أقرب إلى براثن؛ غير أنّ هذا المظهر لم يكن ليلوح إلّا عبر لمحات سريعة؛ إذْ إنّ وجهه، حالمَا تركّز عليه العين، يعود بسرعة فائقة إلى المظهر البورجوازيّ والسمِح لتاجر فييناوي منسحب من أعمال التجارة، وهكذا يلوم المرء نفسه على تسرّعه في الارتياب واتّهام وجه في منتهى البساطة والابتذال بالخسّة والشيطنة.

كان هنريش مصدوماً في داخله من لامبالاة الرجل؛ فذلك الصمت الاحتقاريّ كان ينزع قيمة المدائح التي أسبغها عليه رفاقه الصاخبون. ذلك الصمت كان صمتَ خبيرٍ عجوز، عارف ومتمرّس، لا تغرّه المظاهر، وسبق له رؤية ما هو أهمّ في زمانه.

لم يتمكّن آتاماير، وهو أصغر أفراد الفرقة، وأكثرهم تحمّساً لهنريش، من تحمّل تلك السيماء الباردة، فتوجّه للرجل الغريب الأطوار كما لو كان يُشهّده على هذا الإثبات الذي قدّمه:

Twitter: @ketab_n

- أليس صحيحاً يا سيّدي أنّه لا يوجد أحد مثّل دور مفيستوفيليس[1] أفضل من صديقي هذا؟

- أوه! قال الرجل غير المعروف وهو يحلق ببؤبؤيه الأخضرين المزرقّين ويصرّ على أسنانه الذّرِبَة، إنّ السيّد هنريش شابٌ موهوب وأنا أقدّره عالياً؛ لكنْ من أجل تمثيل دور الشيطان ينقصه الكثير.

وانتصب فجأةً:

- هل سبق لك رؤية الشيطان، يا سيّد هنريش؟

طرح هذا السؤال بنبرة كانت من الغرابة والتهكّم حتّى أن كلّ الحضور شعروا بقشعريرة تعبر ظهورهم.

- من شأن ذلك أن يكون ضروريّاً جدّاً لصدقيّة تمثيلك. البارحة كنتُ في مسرح بورت دو كارينتي، ولم ترضِني ضحكتك؛ كانت ضحكة ولد خبيث، هذا أكثر ما يمكن القول عنها. إليك الطريقة المثلى للضحك، عزيزي السيّد هنريش الصغير.

بناء على ذلك، وكأنّه يريد أن يكون قدوة له، أطلق قهقهة كانت من الحدّة والصرير والتشنّج أنّ الجوقة ورقصات الفالس توقّفت لتوّها؛ وتساقط بلّور نوافذ الحانة. ولبضع دقائق تابع السيّد المجهول هذه القهقهة القاسية والعصبيّة حتّى أنّ هنريش ورفاقه، رغم ارتعابهم، لم يتمكّنوا من الامتناع عن تقليدها.

وعندما استرجع هنريش أنفاسه، ظلّت قباب الحانة تردّ بما يشبه الصدى المتناقص، آخر نغمات تلك الضحكة الحادّة والفظيعة، في حين لم يعد الرجل الغريب موجوداً.

(1) شخصيّة الشيطان في مسرحية «فاوست» *Faust* لغوته.

Twitter: @ketab_n

3

مسرح بورت دو كارينتي

بعد مرور بضعة أيّام على هذا الحادث العجيب، نسيه هنريش تقريباً، ولم يعد يتذكّره أكثر من مزحة برجوازيّ ساخر، وكان يمثّل دوره الشيطانيّ في المسرحيّة الجديدة.

على المقعد الأوّل المخصّص للجوقة كان يجلس غريب الحانة، ومع كلّ كلمة ينطق بها هنريش، يحرّك رأسه ويرمش بعينيه ويفرقع لسانه على سقف حلقه ويُظهر علامات قويّة على نفاد الصبر، متمتماً بصوت خافت: «سيّئ! سيّئ!»

وكان مجاوروه المدهوشون والمصدومون بصنيعه، يصفّقون ويقولون:

- هوذا سيّد في منتهى الصعوبة والتشدّد!

مع نهاية الفصل الأوّل، وقف الغريب كما لو أنّه اتّخذ قراراً فجائياً، وتخطّى النقّارات والطبل الكبير والطبل الأفريقيّ، واختفى داخل الباب الصغير الذي يصل بين الجوقة الموسيقية والمسرح.

كان هنريش في انتظار رفع الستار، يتجوّل في الكواليس، وما إن بلغ آخر جولته الصغيرة حتّى ارتعب، وهو يلتفت، من رؤية شخص غريب واقف وسط الممرّ الضيّق، ويلبس مثله تماماً، ينظر إليه بالتماع خارق لعينين مخضرّتين في عمق العتمة!، وأسنان حادّة، بيضاء، منفصلة تضفي نوعاً من الشراسة على ابتسامته المستهزئة.

لم يفُتْ هنريش التعرف على غريب حانة النسر ذي الرأسين أو بالأحرى، الشيطان متجسّداً؛ فقد كان هو فعلاً.

Twitter: @ketab_n

- آه! آه! أيّها السيّد الصغير، تريد تمثيل دور الشيطان! كنتَ في منتهى الركاكة خلال الفصل الأول، وستقدّم عنّي صورة سيئة جدّاً لسكّان فيينا الطيّبين. ستسمح لي بتعويضك هذا المساء، وبالنظر إلى كونك قد تزعجني سأرسل بك إلى الطبقة السفلى الثانية.

ميّز هنريش للتوّ ملاك الظلمات وشعرَ بالضياع؛ وضع يده آليّاً على صليب كاتي الصغير الذي لا يفارقه أبداً، وحاول طلب النجدة والهمس بصيغة تعويذته؛ غير أنّ الرعب كان يخنقه، ولم يتمكّن سوى من إصدار حشرجة ضعيفة. ضغط الشيطان ببراثن يديه على كتفَي هنريش وأسقطه بالقوّة على الأرضية؛ ثمّ دخل إلى الخشبة، مع اقتراب دوره مثل ممثّل محترف.

ذلك الأداء القاطع، القارض، السامّ والشيطانيّ حقّاً، فاجأ الجمهور أوّلاً.

- كم أنّ قريحة هنريش متفتّحة اليوم! تصاعد الهتاف من كلّ صوب.

لكنّ ما أحدث تأثيراً قويّاً تمثّل في تلك الضحكة الحادّة مثل صرير منشار، ضحكة الملعون المجدّف بمسرّات الفردوس. لم يسبق لأيّ ممثّل أنْ بلغ تلك الدرجة من قوّة التهكّم، وتلك الدرجة من العمق في الأداء الآثم: كان الحضور يضحكون ويرتعدون. كلّ القاعة تلهث من الانفعال، شرر فوسفوريّ ينبعث من تحت أصابع الممثّل المخيف، نثار لهيب يتطاير بين قدميه، أضواء الثريّا تشحب، أنوار المسرح ترسل بروقاً محمرّة ومخضرّة؛ ولا أدري أيّة رائحة كبريتية عمّت القاعة؛ كان المتفرّجون في حالة تشبه الهذيان، فيما تنهال رعود من التصفيق الحادّ متزامنة مع كلّ جملة ينطق بها ميفيستوفيليس الذي كثيراً ما كان يستبدل بعض أبيات الشاعر بأبيات من ابتكاره، وكان استبدالاً موفّقاً دائماً ومقبولاً بأريحيّة.

Twitter: @ketab_n

أمّا كاتي التي أرسل لها هنريش بطاقة للجلوس في شرفة من شرفات المسرح، فقد كانت في قلق عارم؛ لم تتمكّن من التعرّف على عزيزها هنريش؛ كانت تحدس بغموض أنّ هناك مكروهاً ما، بفضل تلك الروح التنبؤية التي يهبها الحبّ، تلك الرؤيا الثانية بالروح.

انتهى العرض في فورة فرح غامر. وبعد إسدال الستار تعالى صراخ الجمهور مطالباً بظهور ميفيستوفيليس من جديد. فجرى البحث عنه دون طائل؛ غير أنّ عاملاً في المسرح جاء يخبر المدير بالعثور على السيّد هنريش في الطبقة السفلى الثانية ولعلّه كان قد سقط عبر إحدى الفتحات الأرضية. كان هنريش غائباً عن الوعي: فتمّ نقله إلى مسكنه، ولدى تخليصه من ثيابه لوحظ وجود خدوش عميقة مفاجئة على كتفيه كما لو أنّ نمراً حاول خنقه بين قائمتيه. لقد حفظه صليب كاتي الفضّي الصغير من الموت، أمّا الشيطان المتأثّر بفعل الصليب فقد اكتفى برميه في أقبية المسرح.

استغرقت نقاهة هنريش وقتاً طويلاً: وما إنْ تحسنت حاله حتّى جاء مدير المسرح وعرض عليه عقداً مغرياً، لكنّ هنريش رفضه، إذْ أنّه لم يعد راغباً في المجازفة بخلاصه مرّة أخرى، بل صار مدركاً أنّه لن يتمكّن أبداً من مضاهاة بديله المخيف.

بعد مرور عامين أو ثلاثة، وإثر حصوله على ميراث صغير، تزوّج كاتي الجميلة، وجلس الإثنان جنباً إلى جنب قرب مدفأة سكسونية، داخل غرفة استقبال مغلقة جيّداً، يتحدّثان عن مستقبل أبنائهما.

وما زال عشّاق المسرح يتحدّثون بإعجاب عن تلك السّهرة الرائعة، ويندهشون من نزق هنريش الذي تخلّى عن المسرح بعد ذلك النجاح المنقطع النظير.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

آرّيا مارتشيلا

ذكرى من پومپي[1]

كان هناك ثلاثة شبّان، هم ثلاثة أصدقاء، ذهبوا في رحلة إلى إيطاليا خلال السنة الماضية، فزاروا متحف الستودي[2]، في نابولي، حيث جُمِّعَتْ مختلف الموادّ العتيقة التي تمّ التنقيب عنها بين حفريات پومپي وهركولانوم[3].

انتشروا عبر القاعات وشرعوا يشاهدون لوحات الفسيفساء وقطع البرونز والجداريّات المقتلعة من حيطان المدينة الميتة، وتشتّتوا وفق أمزجتهم، وكلّما رأى أحدهم أمراً مثيراً للفضول نادى رفيقَيه بصيحات فرح، ما يثير استنكار الإنجليز الصّموتين والبورجوازيين الرصينين المنكبّين على تصفّح دفاترهم.

غير أنّ أصغر الثلاثة، وقد توقّف أمام واجهة بلورية، كان يبدو كأنّه لا يسمع هتاف صديقَيه، بسبب انغماسه في تأمّل عميق. وما كان يتفحّصه بكثير من الاهتمام هو قطعة رماد سوداء متجمّدة تحمل أثرَ تجويف: يمكن القول إنّها أقرب ما تكون إلى جزء من قالب تمثال، تهشّم بفعل

---

(1) نُشرت للمرّة الأولى في مجلّة *Revue de Paris*، عدد آذار 1852.

(2) «ستُوْدي» Studii : الدراسات. هذه التسمية آتية من الاسم القديم للمتحف الوطنيّ الذي كان يحمل اسم «قصر الدراسات» (جامعة) في بداية القرن السابع عشر، ثمّ تحوّل إلى متحف سنة 1777.

(3) هركولانوم Herculanum : واحدة من المدن الأربع التي أتى عليها بركان فيزوف.

Twitter: @ketab_n

الذوبان؛ ولا شكّ أنّ عينَ فنّان متمرّسة كان من شأنها أن تتعرّف بيسرٍ على شكل صدر مدهش وخاصرة ذات أسلوب لا يقلّ أصالة عن تماثيل الإغريق. ومن المعروف، وأبسط دليل سياحي مطبوع يوضّحه لك[1]، أنّ ذلك الطفح من الحمم البركانية الذي بَرَد حول جسد امرأة، حافظ على تكويراتها الجذّابة. وبفضل نزوة الهيجان البركانيّ الذي دمّر أربع مدن، تمكّن هذا الشكل المثير، بعد تحوّله إلى غبارٍ منذ ما يقرب من ألفَي سنة، من الوصول إلينا؛ لقد اخترقت استدارةُ عنقٍ عدّة قرونٍ بينما اختفتْ عدّة امبراطوريات من دون أنْ تخلّفَ أثراً! هذا الختْم الجماليّ الذي طُبع بالصدفة على حمم بركان، لم يتلاشَ مع الزمن.

وعندما رأى صديقَا أوكتافيان أنّه مصرّ على الاستغراق في تأمّلاته عادَا إليه، وما إنْ لمسه ماكس من كتفه حتّى جعله يختلج مثل رجل فوجئ في أمر سرّي. وطبعاً لم يكنْ أوكتافيان قد سمع ماكس أو فابيو يأتيان.

«هيّا يا أوكتافيان، قال ماكس، لا تتوقّفْ هكذا لمدّة ساعات أمام كلّ خزانة، وإلّا فإنّنا سنفوّت موعد القطار، ولن نتمكّن من رؤية پومپَي اليوم.

- ماذا كان رفيقنا يُعاين يا ترى؟ أضاف فابيو وهو يقترب. آه! الأثر الذي وُجد في بيت آرّيوس ديوميديه[2]». ثمّ ألقى على أوكتافيان نظرة سريعة وحادّة.

(1) استقى المؤلّف الكثير من التفاصيل من رحّالة قدامى مثل القسّ دومينيك رومانيلّي Domnique Romanelli، وفرانسوا مازوا François Mazois، صاحب كتاب «آثار پومپَي» *Les ruines de Pompéi*.

(2) تفاصيل ينقلها المؤلّف من كتابات رومانيلّي ومازوا المشار إليها أعلاه، مع تأثّر بالأوّل، حتّى أنّ «الفتاة»، كما سمّاها مازوا، الذي اقتفى غوتييه خطاه في البداية، تصبح في الصفحة القادمة «سيّدة»، وذلك محاكاةً لرومانيلّي الذي افترض أنّها ربّة ذلك البيت.

Twitter: @ketab_n

احمرّ وجه أوكتافيان قليلاً، وأمسك بيد ماكس، وانتهت الزيارة من دون أيّ حادث آخر. ولدى خروج الأصدقاء الثلاثة من المتحف استقلّوا عربة كورّيكولو[1] نقلتهم إلى محطة سكّة الحديد. وتعتبر هذه العربة، بعجلاتها الكبيرة الحمراء، ومقاعدها المزيّنة بمسامير نحاسية، وحصانها النحيل والممتلئ حيوية، والمسرّج مثل بغلة إسبانية، والراكض بعدْوٍ مترافقٍ مع وثبٍ فوق البلاط البركانيّ الكبير، عربة من الشهرة بحيث لا نحتاج إلى وصفها هنا، يضاف إلى ذلك أنّنا لسنا هنا بصدد كتابة انطباعات عن رحلة إلى نابولي، بل مجرّد حكاية عن مغامرة غريبة وعصية على التصديق، رغم أنّها حقيقيّة.

سكّة الحديد المؤدّية إلى پومپَي تحاذي البحر على نحو شبْه دائم، حيث تأتي موجات الزبد اللّولبيّة لتنتشر على رمل مسودّ يشبه فحماً مغربَلاً. فهذه الضفّة متكوّنة فعلاً من طفح حمم ورماد بركانيّ، وتنتج، بلونها الغامق، تناظراً مع زرقة السماء وزرقة الماء؛ وبين كلّ هذا الألق تبدو الأرض وحدها هي التي تتمسك بالظلّ.

والقرى التي يتمّ اجتيازها أو محاذاتها، مثل بورتيتشي التي غدت شهيرة بفضل أوبرا السيّد أوبير[2]، وكذلك ريزينا، وتوري دال غريكو، وتوري دال آنونتسياتا، التي نلمح لدى مرورنا بيوتها ذات الأقواس والأسطح ذات المصاطب، تتميّز، رغم كثافة أشعّة الشمس وبياض الكلس وقت الهاجرة، بما يشبه تجويفات دالة على صخور بركانية، أو مناجم حديدية كما في مانشستر وبرمنغهام؛ فالغبار فيها أسود وهناك

(1) الكورّيكولو Corricolo واسطة نقل في نابولي.

(2) «خرساء بورتيتشي» *La Muette de Portici* أوبرا فرنسية لأوبير Auber عُرضت للمرّة الأولى في 29 شباط 1828، وحقّقت شهرة آنذاك. موضوعها انتفاضة شعب بورتيتشي (ميناء في نابولي بإيطاليا) على الهيمنة الإسبانية.

Twitter: @ketab_n

سُخام دقيق جدّاً يلتصق بكلّ شيء؛ فيشعر المرء أنّ مصهر بركان فيزوف يلهث ويدخّن على بعد خطوتين.

نزل الأصدقاء الثلاثة في محطة پومپي متضاحكين حول الخليط العتيق والحديث الذي يقفز للذهن مباشرةً من مثل هذه الكلمات: محطّة قطار پومپي. إنّها مدينة إغريقية-رومانية ورصيف سكّة حديد!

اجتازوا الحقل المزروع بشجَيرات قطن ترفرف عليها بعض النُّدَف البيضاء، وهو حقل يفصل سكّة الحديد عن موقع المدينة المنبوشة، واتّخذوا دليلاً من حانة خارج الأسوار القديمة، أو بدقّة أكثر، فإنّ الدليل هو الذي أخذهم. وهذه آفة يصعب تجنّبها في إيطاليا.

كان النهار من تلك النهارات السعيدة المعتادة كثيراً في نابولي، حيث تتّخذ الأشياء، من خلال بريق الشمس وشفافية الهواء، ألواناً تبدو خرافية في الشمال، وتبدو منتمية بالأحرى إلى عالم الحلم أكثر من انتمائها للواقع. وكلّ من شاهد مرّة واحدة ذلك الضوء المجبول من ذهب ولازَوَرْد يحمل منه في ضبابه الشخصيّ حنيناً لا يشفى منه.

كانت المدينة العائدة إلى الحياة، بعد أن نفضتْ زاوية من كفن الرماد، تلوح بتفاصيلها العديدة تحت ضوء النهار الباهر. وكان بركان فيزوف يرسم في الخلفيّة قمته المخدّدة بحزوز حمم زرقاء، ورديّة، وبنفسجية لوّحتْها الشمس بسمرة ذهبيّة. وكان هناك ضباب خفيف، لا يكاد يلمح عبر الضوء، يرسم قلنسوة حول ذروة الجبل الجرداء؛ وللوهلة الأولى كان يمكن للمرء اعتباره من تلك الغيوم التي تظلّل جبين الذرى العالية حتّى خلال الطقس الأكثر صفاء. ومع زيادة الاقتراب منه يمكن مشاهدة خيوط رقيقة من البخار الأبيض تخرج من أعلى الجبل وكأنّها تخرج من ثقوب في مجمرة عطور، ثمّ تجتمع لاحقاً في بخار خفيف. كان البركان

Twitter: @ketab_n

الرائق المزاج في ذلك اليوم يدخّن غليونه بهدوء، ولولا مثال پومپي المطمورة عند قدميه، لما أمكن اعتباره ذا طباع أشرس من تلّة مونتمارتر[1]؛ في الجانب الآخر، توجد هضاب جميلة ذات خطوط متموّجة ومثيرة مثل أوراك نساء، تسدّ الأفق؛ وأبعد من ذلك يوجد البحر الذي كان قديماً يجلب المراكب ذات صفَّي المجاذيف وكذلك المراكب ثلاثية صفوف المجاذيف حتّى أسوار المدينة، وهو يجرّ خطّ أفقه الوديع.

مظهر پومپي من الأكثر إدهاشاً؛ فالقفزة المفاجئة من القرن التاسع عشر إلى الوراء تدهش حتّى الأذهان الأكثر ابتذالاً والأقلّ قدرة على الفهم؛ تكفي خطوتان لنقلك من الحياة القديمة إلى الحياة الحديثة، ومن المسيحية إلى الوثنية؛ لذلك عندما شاهد الأصدقاء الثلاثة تلك الشوارع التي ظلّت فيها أشكال حياة مندثرة في حال سليمة، أحسّوا، رغم اطّلاعهم السابق على بعض الكتب والرسوم ذات العلاقة، بمشاعر غريبة بمقدار ما كانت عميقة. وكان أوكتافيان بوجه خاصّ يبدو مندهشاً ويتبع الدليل آليّاً بخطى مسرنمة، من دون إصغاء إلى المدوّنة الاصطلاحية الرتيبة والمحفوظة عن ظهر قلبٍ من طرف ذلك البائس الذي كان يستعرضها مثل درس.

كان ينظر بعين فزعة إلى أثلام العربات المحفورة على البلاط الخرافيّ للشوارع، وهي أثلام تبدو منتمية إلى الأمس القريب بسبب جدّة آثارها؛ وإلى تلك الكتابات المدوّنة بحروف حمراء، بواسطة فرشاة سريعة، على حيطان الأسوار: لافتات عروض فنيّة، طلبات استئجار، صيَغ نذوريّة، شعارات، وإعلانات من كلّ الأنواع، وكلّها مثيرة للفضول، تماماً

(1) تقع تلّة مونمارتر La butte Montmartre في القسم الشماليّ من باريس وتشكّل إطلالة جميلة وهادئة على المدينة.

Twitter: @ketab_n

كما يمكن أن تلوح قطعة من جدار باريسيّ يتمّ العثور عليها بلافتاتها وخزائنها الحائطية، بعد ألفَي سنة، في نظر شعوب المستقبل المجهولة؛ ويعاين أيضاً تلك البيوت ذات السطوح المنهارة التي تُمكّن بنظرة واحدة من رؤية كلّ تلك الأسرار المنزلية الداخلية، وكلّ تلك التفاصيل العائلية التي يهملها المؤرخون وتحمل الحضارات أسرارها معها؛ وتلك الينابيع المائية التي لم تكد تجفّ، وذلك الميدان الذي فوجئ بالكارثة خلال تحضيرات العروض، وما زالت أعمدته، وعوارضه المقطوعة والمنحوتة تماماً تنتظر، في صفاء أضلاعها الناتئة، نَصبها في مواضعها؛ وتلك المعابد المنذورة إلى آلهة انتقلت إلى التصنيف الأسطوريّ والتي لم يكن بين مرتاديها يومذاك أيّ ملحد؛ وتلك الدكاكين التي لا ينقصها إلّا التاجر؛ وتلك الحانات التي لا تزال تُرى على رخامها بقعة دائرية تركتها أكواب الشاربين؛ وتلك الثكنة ذات الأعمدة المدهونة باللّون الصلصاليّ الأمغر والزنجفير[1] وقد جرّحها الجنود برسوم كاريكاتورية لمقاتلين، وتلك المسارح المزدوجة المتجاورة لعروض المسرحيات والأناشيد، والتي كان يمكنها استئناف عروضها لولا أنّ الفرقة التي كانت تؤمّنها، وقد تحوّلت إلى حالة طينيّة، لم تعد مكترثة، ربّما، بتطيين سدّادة برميل الجعة أو سدّ شقّ في الجدار، مثل غبار الإسكندر أو قيصر، وفق تأمّلات هاملتْ السوداويّة[2].

صعد فابيو إلى منصّة مسرح العروض التراجيدية فيما تسلّق أوكتافيان وماكس أعلى المدرّجات، وهناك بدأ يلقي، بحركات تعبيرية قويّة، بعض المقاطع الشعرية التي كانت تخطر بذهنه، ما أثار هلع العظايات التي

---

(1) أوكسيد الرصاص الأحمر.

(2) إشارة إلى مشهد المقبرة في مسرحية «هاملت».

Twitter: @ketab_n

صارت تتشتّت مختلجة الأذناب ومختفية في شقوق مداميك الأساس المقوّضة؛ ومع أنّ أصص البرونز أو الصلصال المخصصة لارتداد الصوت لم يعدْ لها وجود، فقد دوّى صوته، من دونها، بطريقة لم تكنْ أقلّ امتلاء وتموُّجاً.

قادهما الدليل بعد ذلك، عبر المساحات المزروعة التي تغطّي الأجزاء المطمورة من پومپي، إلى المدرّج الموجود في الطرف الثاني من المدينة. ساروا تحت تلك الأشجار التي تتمدّد جذورها في سطوح المباني المدفونة، فتُخلخلُ قرميدَها، وتفْلق سقوفها، وتصدّع أعمدتها، ثمّ مرّوا عبر الحقول حيث توجد بقُولٌ معتادة تثمر فوق روائع فنية، كصور مادية للنسيان الذي ينشره الزمن على أجمل الأشياء.

لم يفاجئهم المدرّج. إذْ سبقت لهم رؤية مدرّج فيرونا الأكثر اتّساعاً وحفظاً أيضاً، كما كانوا يعرفون جيّداً مخطّط تلك الميادين القديمة المخصّصة للمصارعة تماماً كما يعرفون ساحات مصارعة الثيران في إسبانيا التي تشبهها كثيراً إلّا في متانة البناء وجمال الموادّ.

عادوا إذن أدراجهم، وبلغوا شارع الحظّ عبر درب مختصر، مستمعين للدّليل بآذان غير صاغية، وهو يسمّي لهم كلّ بيت يمرّ به بالاسم الذي أعطيَ له لدى اكتشافه، ووفق خصائص مميّزة له: بيت ثور البرونز، بيت الحيوانات، بيت السفينة، معبد الحظّ، بيت ميلياغر، حانة الحظّ عند زاوية شارع القنصلية، أكاديمية الموسيقى، الفرن العاديّ، الصيدلية، دكان الجرّاح، الجمارك، مسكن كاهنات الآلهة، نُزل آلبينوس، والتيرموبولس، وهكذا دواليك حتّى البوّابة التي تؤدّي إلى طريق المقابر.

هذه البوّابة المبنيّة بالآجرّ، والمغطّاة بتماثيل، وقد تلاشت زينتها، تُظهر في قوسها الداخليّ مزلقَين عميقَين مخصّصَين لاستقبال باب زلّاق على

Twitter: @ketab_n

طريقة البرج الرئيسيّ في حصون القرون الوسطى، في نوع من الاستحكام الدفاعيّ الخاصّ.

«مَنْ كان يتصوّر، قال ماكس لصديقَيه، أن تكون پومپَي المدينة الإغريقية اللّاتينية، ذات بوّابات على هذه الدرجة من الطراز القوطيّ بمسحة رومنطيقيّة؟ هل تتخيّلان فارساً رومانيّاً تأخّر عن العودة وهو ينفخ في بوقه أمام هذه البوّابة كي يرفعوا له الباب الزلّاق، مثل غلام من القرن الخامس عشر؟

- لا جديد تحت الشمس، أجاب فابيو، وحتّى هذه المقولة نفسها ليست جديدة، بما أنّ الملك سليمان هو الذي نطق بها.

- ربّما كان هناك جديد تحت القمر! تابع أوكتافيان يقول وهو يضحك بسخرية حزينة.

- عزيزي أوكتافيان، قال ماكس الذي توقّف خلال هذا الحوار القصير أمام نقش محفور كإعلان على السور الخارجيّ، هل ترغب في رؤية معارك مصارعين؟ هي ذي اللّافتات: «معركة وصَيد، يوم 5 نيسان بعد الظهر، سوف ترفع الصواري، عشرون ثنائيّاً من المصارعين سوف يتواجهون خلال فترة ما بعد الظهيرة، وإذا كنتَ تخشى على نضارة سحنتك، فعليك أن تطمئنّ، إذْ سيتمّ مدّ الستائر؛ إلّا إذا كنتَ تفضّل الذهاب إلى المدرّج في ساعة مبكّرة، فهناك سوف يتواجه هؤلاء المصارعون لتبادل نحر أعناقهم صباحاً، يكون ذلك في الصباح، ولا مراعاة ممكنة أكثر من ذلك».

ومع هذا الحوار المازح كان الأصدقاء الثلاثة يسيرون محاذين ذلك الدرب المحاط بالقبور، ومن شأنه بمقياس مشاعرنا الحديثة أن يكون شارعاً مشؤوماً بالنسبة لمدينة، غير أنّه لم يكن ليثير المعاني الكئيبة نفسها

Twitter: @ketab_n

بالنسبة للقدامى، فقبورهم لا تضمّ جثثاً مريعة بل قبضة رماد، كفكرة مجرّدة عن الموت. كان الفنّ يجمّل تلك القبور، وكما يقول غوته فقد كان الوثنيّ يزيّن النواويس والمَرامد بصور من الحياة.

وربّما كان ذلك هو ما جعل ماكس وفابيو يزوران هذه الأضرحة المأتميّة بفضول جذِل وامتلاء سعيد بالوجودِ لم يكن من شأنهما الشعور بهما في مقبرة مسيحية، إذْ كانت هذه الأضرحة في غاية البهجة وقد ذهّبتْها أشعة الشمس، فلاحتْ، في تموقعها على طرَفي السبيل، كأنّما تواصل تشبّثها بالحياة من دون أنْ توحي بأيّ نوع من أنواع النفور البارد، أو الرعب الفنطازيّ الذي تتسبّب به أضرحتنا الكئيبة. توقّفَا عند قبر ماميّا، الكاهنة العمومية، حيث نبتت شجرة، من فصيلة السرو أو الحور؛ وجلسَا في بناء التريكلينيوم[1] نصف الدائريّ المخصّص لوجبات المآتم، ضاحكَين مثل وريثَين جديدَين؛ وقرآ بمزاح ماجن ما كُتِبَ على شواهد قبور نيفوليجا، ولابيون، وعائلة آرّيا، وكان أوكتافيان يتبعهما وهو يبدو أكثر تأثّراً من صديقَيه غير المباليَين بمصير هؤلاء الموتى قبل ألفَي عام.

وهكذا بلغوا دارة آرّيوس ديوميديه وهي من أفخم مساكن پومپي. يتمّ الصعود إليها بدرجات من الآجرّ، وبعد اجتياز الباب المدعوم بعمودين جانبيَّين صغيرين، يجد المرء نفسه في باحة تشبه الصّحن الذي يتوسّط البيوت الإسبانية والموريسكية[2]، والذي كان القدامى يدعونه

(1) التريكلينيوم Triclinium : غرفة طعام في المساكن الرومانية تحتوي ثلاث أرائك مرتّبة بشكل نضوة أو حدوة فرس.

(2) الموريسكيّون (بالإسبانيّة Los Moriscos وبالفرنسيّة Les Morisques) هم المسلمون الذين بقوا في إسبانيا بعد 1492، أي بعد سقوط جميع الممالك المسلمة، وقد أُجبروا على التنصّر أو الهجرة على أثر خرق الملوك الكاثوليكيّين المواثيق المبرمة مع عبد الله الصغير، والتي تمنح أولئك المسلمين الحقّ في البقاء على ديانتهم رغم هزيمتهم. وكانوا يشكّلون أقليّة كبيرة في مملكة بلنسية ووادي إيبرو وشرقيّ الأندلس.

Twitter: @ketab_n

إمبليفيوم[1] أو كافوديوم؛ وهناك أربعة عشر عموداً من الآجر مغطاة بالجصّ، تشكّل، من الجهات الأربع، رواقاً أو باحة بأعمدة مغطّاة، شبيهة برواق الأديرة، حيث يمكن العبور تحتها دون خشية المطر. بلاط هذه الباحة فسيفساء من الآجرّ والمرمر الأبيض، ذو أثر ناعم ولطيف على العين. في الوسط، توجد بركة رخامية رباعيّة الأضلاع، ما زالت موجودة حتّى الآن، وتستقبل مياه الأمطار التي ترشح من سطح الرواق. - يشعر المرء بأحاسيس فريدة عند الدخول بهذه الطريقة إلى الحياة القديمة والمشي بجزمة مبرنقة على رخام أتت عليه صنادل وأخفاف معاصري أوغسطس وتيبيريوس.

رافقهم الدليل للتجوّل في القاعة الصيفية المفتوحة على واجهة البحر من أجل استنشاق النسائم العليلة. ففي هذه القاعة كان يتمّ الاستقبال والقيلولة خلال الساعات الحارقة، عندما يهبّ النسيم الأفريقيّ القويّ محمّلاً بالخدر الكئيب والزوابع. أدخلهم إلى البازيليك، بهو طويل مهيّأ ليوزّع الضوء على الشقق، وهناك كان الزوّار والزبائن ينتظرون مناداة المدوِّن عليهم؛ رافقهم الدليل بعد ذلك إلى مصطبة الرخام الأبيض حيث ينفتح المشهد على البساتين الخضراء والبحر الأزرق؛ ثمّ أراهم النيمفوم أو قاعة الحمّام، بأسوارها المطلية باللّون الأزرق، وأعمدة الجصّ، وبلاطها الفسيفسائيّ وحوضها المرمريّ الذي استقبل أجساداً كثيرة فاتنة تلاشت مثل الظلال؛ والكُوبيكولوم أو الردهة الجنائزيّة، حيث طفَتْ أحلام كثيرة جاءت من الباب العاجيّ، وكانت مضاجعه المحفورة في الجدار مغلقة بكونوبوم أو ستارة ما زالت حلقاتها البرونزية تثوي على

---

(1) إمبلوفيوم impluvium : مكان مكشوف داخل فناء المنازل الرومانية القديمة يضمّ بركة لجمع مياه المطر.

Twitter: @ketab_n

الأرض، ثمّ القاعة الرباعية الأعمدة أو قاعة الاستراحة، ومصلّى الإله البيتيّ لار[1]، ومكتب الأرشيف، والمكتبة، ومتحف اللّوحات، والخِدْر أو جناح النساء، المكوّن من غرف صغيرة تهدّمتْ جزئيّاً، وما زالت جدرانها الداخلية تحافظ على آثار رسوم وزخارف عربية مثل خدود لم تُمسحْ عنها الزينة بشكل جيّد.

بعد هذه المعاينات، نزلوا إلى الطابق السفليّ، ذلك أنّ الطبقة الأرضية أوطأ من ناحية الحديقة منها من ناحية طريق المقابر؛ اجتازوا ثماني قاعات مطليّة باللّون الأحمر القديم، إحداها محفورة بكوىً معمارية مثل تلك التي يمكن للمرء أن يراها داخل قاعة السفراء في قصر الحمراء، ووصلوا أخيراً إلى ما يشبه كهفاً أو بيتاً للمؤن، وقد دلّتْ عليه بوضوح ثمانية دنان من الخزف مرفوعة على الحائط، ولا شكّ أنّها تعطّرتْ في السابق بنبيذ كريت وفاليرنا وماسيك، كما بأناشيد هوراس[2].

كان هناك شعاع ضوء يمرّ عبر منفذ ضيّق مسدود بنبات القُرّاص فيغيّر لون أوراقه المخترقة بالضوء إلى زمرّد وزبرجد، وهذه الجزئية الطبيعية الزاهية كانت تبتسم بالمناسبة عبر كآبة المكان.

«هاهنا، قال الدليل بصوته اللّامبالي الذي لا تكاد نبرته تتوافق ومعنى كلماته، تمّ العثور، بين سبعة عشر هيكلاً عظميّاً، على هيكل السيّدة الذي يُعرض قالبه في متحف نابولي. كانت لها خواتم ذهبيّة، وظلّتْ مِزَق قميصها الناعم ملتصقة بالرماد المضغوط الذي حافظ على شكلها».

أحدثتْ الجمل البسيطة التي نطق بها الدليل تأثّراً حادّاً لدى أوكتافيان. وجعل الدليلَ يُريه المكان الدقيق حيث اكتُشِفتْ تلك البقايا

---

(1) لار Lare : إله البيت عند الرومان.

(2) كثيراً ما يذكر هوراس (هوراتيوس) أسماء هذه الخمور ولا سيّما نبيذ ماسيك وفاليرنا.

Twitter: @ketab_n

الثمينة، ولولا العرقلة المتأتّية من حضور صديقَيه، لأسلم نفسه لحماسة مبالغ فيها؛ كان صدره ينتفخ وعيناه تخضلاّن بنداوة خفيّة: كانت تلك الكارثة التي محتها عشرون قرناً من النسيان، تثير مشاعره مثل مصيبة حديثة العهد تماماً؛ ولم يكنْ لموتِ عشيقةٍ أو صديقٍ أنْ يُحزنه أكثر من ذلك؛ وهكذا، وبينما كان ماكس وفابيو يشيحان بظهرَيهما، انهمرتْ منه دمعة متأخّرة بقرنَين من الزمن، على الموضع الذي هلكتْ فيه تلك المرأة، التي شعر تجاهها بحبّ استعاديّ، مخنوقةً بالرماد الحامي للبركان.

«كفانا ما تعاطينا من علم آثار! هتف فابيو؛ لا نريد تحرير بحثٍ حول جرّة أو آجرّة من عصر يولَيوس قيصر كي نصير أعضاء في أكاديمية إحدى المقاطعات، هذه الذكريات الكلاسيكية تثير معدتي. فلنذهب لتناول العشاء، إنْ أمكن ذلك، في تلك الحانة الرائعة حيث أخشى ألّا يقدّموا لنا سوى شرائح بقر متحجّرة وبيضٍ طازج باضه الدجاج قبل موت بلينيوس[1].

- لن أقول كما قال بوالو:

«الأحمق يُبدي، أحياناً، رأياً مهمّاً»[2]

قال ماكس ضاحكاً، فقد تكون في ذلك مجانبة للصواب؛ غير أنّ هذه الفكرة لا تخلو من صواب. رغم أنّه كان من الأجمل إعداد الوليمة هنا،

(1) الكاتب بلينيوس Gaius Plinius (23–79 م.، ويُدعى بلينيوس القديم، أو الأكبر، تمييزاً له عن سميّه بلينيوس الأصغر، 61–114 م). مات خلال ثورة بركان فيزوف. ونقلاً عن ابن شقيقه، مات بلينيوس تحت رماد فيزوف قرب نابولي، في إيطاليا، خلال ثورة البركان سنة 79 التي غمرت مدينتَي پومپي وهيركولانيوم. وفي حين كان كلّ الناس يهربون افتتن بلينيوس بالظاهرة وسعى إلى الاقتراب منها. فقضى نحبه بعد أن ترك مؤلّفاً مهمّاً لمعرفة العصور القديمة بعنوان «التاريخ الطبيعيّ» *Naturalis Historia* في سبعة وثلاثين مجلّداً.

(2) يدرج المؤلف هنا بيتاً غير دقيق من منظومة «فنّ الشعر» *Art poétique* لبوالو Boileau، وفي الأصل: «المغرور يُبدي، أحياناً، رأياً مهمّاً».

Twitter: @ketab_n

في تريكيلينيوم أو صالة طعام ما، مع استرخاء على الطريقة القديمة، وخدمة يوفّرها عبيد، على طريقة لوكولوس أو تريمالتشو[1]. صحيح أنّني لا أرى الكثير من محار بحيرة لوكران؛ وما من سمك ترْس أو سلطان ابراهيم من البحر الأدرياتيكي؛ ولا وجود لخنزير أبوليا في السوق؛ أمّا الخبز والكعك المعسّل فهما يوجدان في متحف نابولي بصلابة الحجر وبجانب قوالبهما الصدئة؛ تبقى المعكرونة النيئة، والمرشوشة بمهروس جبنة الكاتشو-كافالّو، رغم رداءتها، أفضل من العدم. ما رأي العزيز أوكتافيان؟

لم يسمع أوكتافيان أيّ جملة من هذه المحاورة المتعلّقة بالأكل، إذْ كان يتأسّف كثيراً لكونه لم يكن موجوداً في پومپَي يوم هيجان فيزوف حتّى يتمكّن من إنقاذ السيّدة ذات الخواتم الذهبيّة والفوز بحبّها مكافأة له على ذلك. ولم ينتبه فجأةً إلّا للكلمتين الأخيرتين اللّتَين نطق بهما ماكس، ونظراً لعدم رغبته في الحوار، فقد أظهر كيفما اتّفق إشارة موافقة، وهكذا عادت مجموعة الأصدقاء إلى طريق المضائف محاذين الأسوار.

أُعدّت المائدة تحت ما يشبه رواقاً مفتوحاً وملحقاً بالحانة، وكانت أسواره المجعّدة بالكلس، مزيّنة بلوحات رديئة من اختيار المضيف: سلفاتوره روزا، إسبانيوليه، الفارس ماسيمو وأسماء أخرى مشهورة من مدرسة نابولي للرسم، وقد رأى أنّ من واجبه تعظيمها.

«أيّها المضيف الموقّر، قال فابيو، لا تنهك فصاحتك بلا طائل. نحن لسنا من الإنجليز، ونفضّل الفتيات على اللّوحات القديمة. عليك

(1) لوكولوس Lucullus : جنرال روماني من هذه المرحلة التاريخية كان ذوّاقة في مجال الأكل. تريمالتشو Trimalcio (تريمالسيون Trimalcion عند الفرنسيّين): من شخصيّات «ساتيريكون» *Satyricon*، رواية بيترونه Petrone (14–66 م). الساخرة. ويجسّد ترايمالتشو حديث النعمة، الوصوليّ، النفّاج.

Twitter: @ketab_n

بالأحرى أن ترسل إلينا قائمة خمورك مع تلك الحسناء السمراء، ذات العينين المخمليّتَين، والتي لمحتها على الدرج».

أدرك المُضيف أنّ زوّاره لا ينتمون إلى الطراز القابل للخداع، فانصرف عن تمجيد رواق فنونه لتمجيد قبو خموره. بدايةً، هو يمتلك كلّ الخمور المتأتّية من أفضل الكروم: شاتو-مارغو، غراند-لافيت العائد من الهند، سيلري دو مُوات، هوشماير، سكارليت-واين، بورتو، وجعة بورتر، جعة آليه وكذلك جعة زنجبيل، لاكريما-كريستي أو دمعة المسيح، أبيض وأحمر، وكابري وفاليرنا.

«ماذا! لديك نبيذ فاليرنا[1]، يا حيوان، وتضعه في آخر القائمة؛ تجلدنا بلائحة خمرية مملّة، قال ماكس واثباً على عنق المضيف بحركة هيجان هزليّ؛ ألا تتحلّى بانحياز للمنتج المحليّ؟ أنت إذن غير جدير بالعيش في هذا الجوار العريق؟ أخبرْني هل نبيذك الفاليرنيّ طيّب على الأقلّ؟ هل تمّ تخزينه في الدنان في عصر القنصل بلانكوس؟

- لا أعرف القنصل بلانكوس، ونبيذي ليس مخزّناً في دنان، لكنّه معتّق وثمن الزجاجة منه عشر كرلانات[2]»، أجاب المضيف.

مال النهار وحلّ اللّيل، ليل رائق شفّاف، أكثر صفاءً بالتأكيد من ظهيرة لندن؛ كان للأرض درجاتِ ألوان لازورديّة وللسماء انعكاسات فضّية ذات اعتدال لا يمكن وصفه؛ وكان الهواء من الهدوء إلى درجة أنّ شعلة الشموع الموضوعة على المائدة لم تكنْ تنوس أصلاً.

اقترب من المائدة فتىً عازف ناي وظلّ واقفاً، مثبّتاً عينيه في الضيوف الثلاثة، في هيئة كأنّها منقوشة، وبدأ ينفخ في مزماره ذي الألحان العذبة

(1) نبيذ إيطالي باسم المدينة التي تصنعه.

(2) نقد إيطالي قديم.

Twitter: @ketab_n

والشجيّة، بعض تلك الأغاني الشعبية الملحّنة بالنغمة الصغرى، بسحرها الأخّاذ.

لعلّ هذا الفتى ينحدر رأساً من عازف الناي الذي كان يتقدّم خطى دويليوس[1].

«عشاؤنا ينتظم بطريقة قديمة بما فيه الكفاية؛ لا تنقصنا إلّا راقصات من كاديث[2] وأكاليل من لبلاب، قال فابيو وهو يسكب كأساً دهاقاً من نبيذ فاليرنا.

- أشعر بقدرة قريحتي على ذكر الكثير من الأمثال اللّاتينية كما في حلقات النشر المتسلسل في جريدة «لي ديبا»؛ وأستذكر مقاطع من قصائد غنائية، أضاف ماكس.

- احتفظْ بها لنفسك، صاح أوكتافيان وفابيو، وقد انتبها في الوقت المناسب؛ لا شيء يتسبّب في عسر الهضم مثل اللّاتينية على مائدة الطعام».

ولم يتأخّر الحوار بين هؤلاء الشبّان، مع سيجار في الفم، ومرفق على المائدة، محملقين في عدد من القناني الفارغة، لا سيّما عندما يكون النبيذ مثملاً، لم يتأخّر في التعريج على موضوع النساء. وهكذا عرض كلّ واحد مذهبه، وهذا ملخّص تقريبيّ لذلك.

لا يهتمّ فابيو إلّا بالجمال والشباب. فهو شهواني وإيجابي ولا يكتفي بالأوهام وليست له أيّ أحكام مسبقة إزاء الحبّ. ويمكن أن يتساوى

---

(1) دويليوس Duilius : حاكم روماني خلال الحرب البونيقية الأولى 261 ق م. تمثّلتْ مكافأة انتصاره الأوّل على القرطاجيّين في تمكينه طيلة حياته من مرافقين له من عازفي الناي وحمَلَة المشاعل.

(2) كاديث Cádiz مدينة وميناء في إسبانيا، أسّسها الفينيقيّون وسمّوها «غاديس» في 1104 ق م.

Twitter: @ketab_n

إعجابه بفلاّحة أو دوقة، المهمّ أن تكون جميلة؛ والجسد هو الذي يثيره أكثر من اللّباس؛ وكان يسخر كثيراً من بعض أصدقائه العاشقين لبضعة أمتار من الحرير والدنتيلا، ويقول إنّ من المنطقيّ أكثر أن يكون التعلّق بمعروضات تاجر أقمشة. وهذه الآراء التي تبدو منطقية في العمق، وهو لا يخفيها، تجعله يظهر بمظهر إنسان منحرف.

أمّا ماكس الذي يعتبر أقلّ من فابيو ميلاً إلى الفنّ، فهو لا يحبّ إلّا المشاريع الصعبة، والمغامرات الغرامية المعقّدة، فكان يبحث عن حالات صعبة وذات مقاومة كي يتمكّن من التغلّب عليها، وعن عفافٍ يفتنه، ويتصرّف مع الحبّ مثل مباراة شطرنج، بنقلات يتمّ التأمّل فيها مطوّلاً، وتأثيرات مؤجّلة، ومفاجآت واستراتيجيات جديرة ببوليب[1]. وعندما يكون في أحد الصالونات، ينتقي المرأة الأقلّ انجذاباً إليه كي تكون هدفاً لهجوماته، ويشعر بلذة فائقة عندما يجعلها تنتقّل من النفور إلى الحبّ عبر مراحل انتقالية ماهرة؛ كما إنّه يعتبر فرض نفسه على الأرواح التي كانت تشمئزّ منه، وقهر العزائم المتمرّدة على سطوته، من أعذب الانتصارات. وعلى شاكلة بعض الصيّادين الذين يجوبون الحقول والغابات والسهول تحت المطر والشمس والثلج، مع متاعب مفرطة وحماسة لا تخمد، من أجل طريدة هزيلة قد يرفضون أكلها في أغلب الأحيان، فإنّ ماكس يكفّ عن الاهتمام بطريدته حال بلوغها، ويعود إلى البحث من جديد.

أما أوكتافيان، فهو يعترف بأنّ الواقع لا يغريه البتّة، ليس لأنّه مال إلى أحلام المراهقة المجبولة بالزنابق والورود مثل قصيدة غزلية للشاعر

(1) باليونانية بُولِيبِيُوس، مؤرّخ وسياسيّ إغريقيّ. كان جنرالاً ورجل سياسة ومؤرّخاً ومنظّراً سياسيّاً. وهو صاحب كتاب «التاريخ العامّ للجمهورية الرومانية»، يذكر فيه تاريخ روما منذ غزو الغاليّين (القرن الرابع ق. م). إلى غزو قرطاج وكورنثه ونومنسيا، وهو يعدّ مرجعاً نفيساً لدراسة تاريخ الحروب البونيقية.

Twitter: @ketab_n

دوموستييه[1]، لكنَّ هناك حول كلّ ما هو جميل كثيراً من التفاصيل النثرية المنفّرة؛ كثيراً من الآباء الثرثارين والموسّمين؛ وأمّهات متأنّقات، يحملن زهوراً طبيعية على شعور مصطنعة؛ وأبناء عمومة حُمْر الوجوه ويضمرون بوحاً؛ وخالات سخيفات عاشقات لكلاب صغيرة. ويكفي بالنسبة له وجود صورة بالحفر المائيّ، نقلاً عن هوراس فيرنيه، أو دولاروش، معلّقة على جدار إحدى النساء، حتّى تُخمد عنده أيّ شغف ناشئ. وكثيراً ما يكون شاعريّاً أكثر منه عاشقاً، فيطلب شرفة في الإيزولا بيلا على بحيرة ماجور[2]، خلال ليلة مقمرة، إطاراً لموعد. ويرغب لو تمكّن من عزل حبّه عن بيئة الحياة المشتركة ونقل مَشاهده إلى النجوم. لذلك تعلّق تباعاً بعلاقات غرامية مستحيلة وجنونية مع كلّ النماذج النسائية الكبرى التي خلّدها الفنّ أو التاريخ. وعلى غرار فاوست، أحبّ هيلانة الطروادية، وتمنّى لو أنّ تموّجات القرون تأتي إليه بأحد تلك التجسيدات الرائعة للرغبات والأحلام البشرية التي، وإنْ كانت لامرئية بالنسبة للعيون العادية، فهي لا تنفكّ مستمرّة في المكان والزمان. وهكذا أعدّ حريماً مثاليّاً يشمل سميراميس، وآسبازي، وكليوبترا، وديانا بواتييه، وجانّ دو أراغون. ويحدث له أحياناً أن يعشق تماثيل أيضاً. وذات يوم، لدى مروره في المتحف أمام فينوس التي أنجزها ميلو، صاح: «أوه! من عساه يعيد إليك ذراعَيكِ كي تتمكّني من تهشيمي على صدرك المرمري!» وفي روما أدّتْ به رؤية شعر كثيف ذي خصلات، منبوش من قبر قديم، إلى الوقوع

(1) ديموتييه Demoustier (1760—1801): كاتب فرنسيّ، مؤلّف «رسائل الى إيميلي حول الميثولوجيا» *Letters à Émilie sur la mythologie*، كان يضمّن نثره قصائد غزلية في منتهى الضّحالة. كما كان يدّعي أنه من سلالة راسين ولافونتين.

(2) بحيرة ماجور أو البحيرة الكبرى Le lac Majeur، تمتدّ على مئتين واثني عشر كيلومتراً في كلّ من إيطاليا وسويسرا، وهي معروفة بمنتجعاتها السياحيّة.

Twitter: @ketab_n

في حال غريبة من الهذيان؛ ولقد حاول، بعد حصوله على شعرتَين أو ثلاث من حارس أغراه بسعرٍ عالٍ، وتقديم تلك الشعرات إلى مسرنمة ذات اقتدار، أنْ يبعث خيال تلك المرأة الميتة وشكلها؛ غير أنّ السائل الناقل كان قد تبخّر بعد كلّ تلك السنين، ولم تتوصّل الرؤيا إلى الخروج من الظلمات الأبدية.

وكما خمّن فابيو أمام واجهة المتحف، فقد هيّج الأثر الملتقط من قبو دارة آرّيوس ديوميديه، اندفاعات خرقاء لدى أوكتافيان نحو أنموذج مثاليّ استرجاعيّ؛ فقد كان يحاول الخروج من الزمان ومن الحياة، ونقل روحه إلى عصر تيتوس[1].

انسحب كلّ من ماكس وفابيو إلى غرفتيهما، وما لبثَا أن ناما بتأثير من نشوة نبيذ فاليرنا. أمّا أوكتافيان الذي عمد مراراً إلى ترك كأسه ممتلئة أمامه، حتّى لا يترك المجال لسكرة ماجنة أنْ تربك النشوة الشاعرية التي كانت تغلي في دماغه، فقد أحسّ من خلال اضطراب أعصابه أنّ النوم لن يأتيه، وخرج من المضافة بخطوات بطيئة كي ينعش جبينه ويهدّئ أفكاره بهواء ليليّ.

ومن دون وعي منه، حملتْه قدماه نحو المدخل المؤدّي إلى المدينة الميتة، فحرّك الرّتاج الخشبيّ الذي يغلقه وتقدّم كيفما اتّفق داخل الأنقاض.

كان القمر ينير البيوت الشاحبة بألقه الأبيض، مقسّماً الشوارع إلى قسمَين من الضوء الفضيّ ومن العتمة المزرقّة. كان ذلك الضوء اللّيليّ، مع ألوانه المُدَارِية، يخفي خراب البنايات. فتحْتَ نور الشمس الساطع، لا يمكن للمرء أنْ يميّز الأعمدة المبتورة وواجهات المباني المشقّقة والأسطح المنهارة بفعل هيجان البركان؛ كانت الأقسام الغائبة تكتمل

(1) تيتوس Titus : الإمبراطور الروماني الذي حدثتْ في عهده ثورة بركان فيزوف.

Twitter: @ketab_n

من خلال الألوان المعتدلة، ويكفي شعاع مباغت، مثل لمسة مشاعر في مشروع لوحة فنية، لكي يشير إلى كلّ منهار. كأنّ عفاريت اللّيل الصموتة قد أصلحت المدينة المتحجّرة لعرض يخصّ حياة فنطازيّة.

وبلغ الأمر بأوكتافيان أنْ تخيّل أحياناً تسلّل بعض الأشكال الآدمية الغامضة في العتمة؛ غير أنّها كانت تتلاشى بمجرّد بلوغها القسم المُضاء. وكان هناك وشوشات وضجّة غير محدّدة تخفق في الصمت. أرجع متجوّلنا كلّ ذلك إلى تزغلل محتمل في عينيه، وإلى طنين في أذنيه،- ويمكن أن يكون أيضاً مجرّد ارتباك بصريّ، أو تنهيدة من النسيم البحريّ، أو هروب عظاية أو حنش بين نبات القرّاص، فكلّ شيء يعيش في الطبيعة بما في ذلك الموت، وكلّ شيء يصدر ضجّة بما في ذلك الصمت. ومع ذلك كان يشعر بقلق غير إراديّ، رجفة خفيفة، يمكنها أن تكون ناجمة عن هواء اللّيل البارد، تجعل جلده يقشعرّ. التفت مرتين أو ثلاثاً؛ فلم يشعر بعزلة أكبر ممّا كانت عليه حاله قبل قليل في المدينة المهجورة. أيكون صديقاه قد خامرتهما الفكرة نفسها وصارا يبحثان عنه بين الخرائب؟ وتلك الأشكال التي لمحها لمحاً؟ وتلك الضجّة غير الواضحة لخطوات، هل تكون لماكس وفابيو وهما يمشيان ويتحدّثان ثمّ يختفيان عند زاوية منعطف؟ كان أوكتافيان يدرك مرتبكاً أنّ هذا التفسير الطبيعيّ تماماً ليس صحيحاً، وأنّ استدلالاته حول ذلك لا تقنع سواه. امتلأت العزلة والعتمة بكائنات لا مرئية صار وجوده يقلقها؛ كان يسقط وسط سرّ خفيّ، وبات يظهر أنّ هناك من ينتظر ابتعاده كي يتابع. تلك كانت الأفكار المُشطّة التي تجول بذهنه وتأخذ الكثير من غموض الوقت والمكان وتفاصيل أخرى كثيرة مُنذرة، يمكن أن يتفهّمها أولئك الذين وجدوا أنفسهم ليلاً بين آثار ممتدّة.

Twitter: @ketab_n

لدى مروره أمام بيتٍ عاينَه خلال النهار، وصار القمر يرسل عليه أشعّته المباشرة، رأى رواقاً في حال سليمة فأراد تدقيق تناسقه: أربعة أعمدة من الطراز الدوريّ[1] المضلَّع حتّى منتصف الارتفاع، وجذع العمود يبدو ملفوفاً بها يشبه قماشَ جوخٍ قرمزيّاً فاتحاً، يسند زخرفة متموّجة في أعلى الإفريز متعدّدة الزينة، تبدو كما لو أنّ الرسّام المزوّق قد أنهاها بالأمس؛ في الجانب الداخليّ للباب كلب حراسة مولوسيّ من لاكونيا[2] مرسوم بالورنيش ومرفق بتدوين: «انتبه للكلب»[3]، كان ينبح على القمر وعلى الزوّار بضراوة ينطق بها الرسم. على العتبة الفسيفسائية توجد كلمة «آفي»[4]، بحروف أوسكيّة[5] ولاتينية تحيّي الضيوف بنبرتها الودية. ولم تكنْ الجدران الخارجية، المطلية باللّون الصلصاليّ الأمغر والأحمر، مصدّعة. ويرتفع البيت بطابق إضافيّ، وسطح القرميد، المحزّز بقاعدة برونزية، يعرض مظهره السليم على زرقة السماء الخفيفة حيث كانت تشحب بعض النجوم.

كان هذا الترميم الغريب الذي تمّ بين الظهيرة والمساء من قبل مهندس معماريّ مجهول، يعذّب أوكتافيان كثيراً، وهو المتأكّد من رؤية هذا البيت في النهار نفسه في حال يرثى لها من الخراب. ولقد اشتغل المرمّم الغريب بسرعة فائقة، ذلك أنّ المساكن المجاورة كانت بالمظهر الحديث والقريب العهد ذاته؛ وكانت كلّ الأعمدة مغطّاة بتيجانها؛ ولا ينقص جدران الواجهات اللّامعة حجر، أو آجرّة، أو غشاء جصّ أو

(1) مرحلة إغريقية.

(2) منطقة من اليونان القديمة.

(3) باللّاتينية في الأصل: Cave canem.

(4) باللاتينية: Ave، وتعني «سلام» بمعنى التحيّة.

(5) إيطالية قديمة.

Twitter: @ketab_n

قشرة دهان، ويمكن، عبر فجوة أعمدة الواجهة، لمح غار ورديّ وأبيض، وآس وأشجار رمّان، حول بركة رخام الباحة. لقد أخطأ كلّ المؤرخين: ثورة البركان لم تحدث، أو إنّ عقرب الزمن قد تأخرت بعشرين ساعة قرنيّة على مزولة الأبدية.

تساءل أوكتافيان، الذي فوجئ إلى حدّ بعيد، عمّا إذا كان ينام واقفاً ويسير في حلم. تساءل حقّاً ليعرف إنْ لم يكنْ الجنون وحده هو الذي يُرقّص هلوسات أمامه؛ لكنّه أُكره على التحقّق من أنّه لم يكنْ نائماً ولا مجنوناً.

لقد حدث تغيُّرٌ فريد في الجوّ؛ هناك لوَينات ورديّة غامضة تختلط، عبر نصول بنفسجيّ، بالضياء المزرقّ للقمر؛ كانت السماء تنجلي على الحافات؛ حتّى ليمكن الاعتقاد أنّ النهار سيبزغ. أخرج أوكتافيان ساعته؛ كانت تشير إلى منتصف اللّيل. وخشية أن تكون قد توقّفتْ، دفع نابض الجرس فدقّ اثنتي عشرة مرّة؛ الساعة منتصف اللّيل حقّاً، ومع ذلك كان الصحو يزداد والقمر يذوب في الزرقة المضيئة باطّراد؛ كانت الشمس تشرق.

وهكذا تمكّن أوكتافيان الذي اختلطت عنده كلّ الأفكار المتعلّقة بالزمن، من الاقتناع بأنّه لا يتنزّه في پومپَي ميتة، جثة باردة لمدينة تمّ كشف نصفها من كفنها، بل في پومپَي حيّة، شابّة، سليمة، لم تتدفّق عليها سيول فيزوف من الأوحال الحارقة.

حدثت معجزة فوق التصوّر ونقلتْه، وهو الفرنسيّ القادم من القرن التاسع عشر، إلى عصر تيتوس، ليس بالروح بل بالواقع، أو إنّها أعادتْ إليه من الماضي السحيق مدينة مهدّمة مع سكّانها المفقودين؛ إذْ أنّ رجلاً يرتدي ثياباً على الطريقة القديمة لاح خارجاً للتوّ من بيت مجاور.

Twitter: @ketab_n

كان هذا الرجل ذا شعر قصير ولحية حليقة، ويرتدي قميصاً داكناً ومعطفاً ضارباً إلى الرماديّ شُمّرت أطرافه لكي لا تعيق مشيته؛ كان يمشي بخطوة سريعة، بل حثيثة، ومرّ بجانب أوكتافيان دون أن يراه. في ساعده سلّة منسوجة من الحلفاء وهو يتّجه إلى فوروم نونديناريوم[1]؛ كان عبداً، دافوسَ[2] عاديّاً ذاهباً إلى السوق؛ لا مجال للخطأ في ذلك.

سُمِعت ضجّة عجلات، ودخلت إلى الشارع عربة نقل قديمة محمّلة بالبقول تجرّها ثيران بيضاء. وبجانب الثيران المقرونة كان يمشي راعي بقر عاريَ الساقين الملفوحتين بالشمس، ينتعل خفّاً، ويرتدي ما يشبه قميصَ كتّان منتفخاً عند الحزام؛ وهناك قبّعة قشّ مخروطية الشكل ملقاة خلف ظهره وممسوكة برباط عند الرقبة، سامحةً برؤية رأسه الذي لا يشبه رؤوس اليوم، وجبينه الخفيض المخترَق بعُقد قاسية، وشعره الأسود المجعّد، وأنفه المستقيم، وعينيه الهادئتَين مثل عيون ثيرانه، وعنقه الذي يشبه عنق هرقل ريفيّ. كان يهمز حيواناته بشدّة بواسطة المنخس، مع هيئة تمثال يمكنه أن يغمر آنغر[3] بالنشوة.

لمح الراعي أوكتافيان وبدا مُفاجأً، لكنّه تابع طريقه؛ التفت مرّة، وقد لا يكون وجد تفسيراً لمظهر هذه الشخصيّة الغريبة بالنسبة إليه، لكنّه اكتفى، في غبائه الريفيّ المسالم، بترك كلمة اللّغز لمن هم أمهر منه.

وظهر أيضاً مزارعون ريفيّون، يسوقون أمامهم حميراً محمّلة بقرَب من النبيذ، ويصدر عنها رنين أجراس برونز؛ كانت سيماؤهم تختلف عن سيماء مزارعي اليوم اختلاف الميدالية عن الفلس.

---

(1) نونديناريوم Nundinarium (لاتينيّة): المكان المخصّص للأسواق.

(2) دافوس Davus هو الاسم المعتاد للعبد في المسرحيّات الكوميدية اللاتينية.

(3) آنغر Ingres : رسّام فرنسي (1780– 1867).

Twitter: @ketab_n

ظلّت الحياة تزدحم تدريجيّاً مثل إحدى لوحات الديوراما[1] التي تبدأ مقفرة، ثمّ ينشّطها تغيير الإضاءة ببروز شخوص كانوا غير مرئيّين حتّى تلك اللّحظة.

لقد تغيّرت طبيعة الأحاسيس التي كانت تخالج أوكتافيان. قبل قليل، في ظلام اللّيل الخادع، كان ضحيّة ذلك الضيق الذي لا يقدر عليه حتّى الشجعان، وسط ظروف مقلقة وفنطازيّة لا يستطيع العقل تفسيرها. ثمّ تحوّل رعبه الغامض إلى اندهاش عميق؛ لم يعد قادراً على الشكّ، بسبب وضوح الإدراك، في شهادة حواسّه، ومع ذلك فإنّ ما كان يراه غير قابل للتصديق تماماً. - ولأنّه ظلّ غير كامل الاقتناع فقد كان يسعى، من خلال معاينة التفاصيل الصغيرة الواقعية، إلى البرهنة لنفسه أنّه ليس ضحيّة هلوسة.- وليست تلك شياطين تتابع أمام عينيه، فضوء الشمس الساطع كان ينيرها بواقعية لا يمكن دحضها، وظلالها التي كان يمدّدها ضوء الصباح ترتسم على الأرصفة والأسوار.

لم يفهم أوكتافيان ما يحدث له، وكان مفتوناً في الحقيقة لرؤية أحد أحبّ أحلامه يتحقّق، فلم يعد يقاوم مغامرته، وانساق مع كلّ تلك العجائب، من دون الزعم أنّه متأكّد من ذلك؛ وقال لنفسه إنّه بموجب وجوده تحت تأثير قوّة غريبة تمكّنه من عيش بضع ساعات في قرن آفل، لن يضيع وقته في البحث عن حلّ لمشكلة غير قابلة للفهم، وتابع طريقه ببسالة، متطلّعاً ذات اليمين وذات الشمال إلى هذا المشهد الذي يُعدّ في منتهى القِدم وفي منتهى الجدّة بالنسبة إليه. لكنْ، إلى أيّ مرحلة من حياة بومبي تمّ نقله يا ترى؟ هناك كتابة تابعة لقيّم المدينة[2]، منقوشة

(1) الدّيوراما لوحة تصوّر مشاهد وشخصيّات يحسبها المشاهد حيّة أو متحرّكة بفعل التلاعب بالإضاءة.

(2) ناظر الأبنية والملاعب والمسؤول عن تموين المدينة في عهد الرومان.

Twitter: @ketab_n

على أحد الأسوار، توضّح له، من خلال أسماء الشخصيّات العامة، أنّ العصر هو في بداية حكم تيتوس،- أي في العام 79 من تاريخنا. اخترقت روح أوكتافيان فكرة مباغتة؛ لا شكّ أنّ المرأة التي أُعجب بأثر قالبها في متحف نابولي، ما زالت حيّة، نظراً لكون ثورة بركان فيزوف التي قضتْ فيها حدثت في شهر آب من هذه السنة نفسها؛ يمكنه إذن العثور عليها، ورؤيتها، والتحدّث إليها... ربّما كانت الرغبة المجنونة التي أحسّ بها أمام مظهر ذلك الرماد المقوْلب حول تكويرات إلهيّة، ستتحقّق أخيراً، إذْ لا يتعيّن أنْ يكون هناك مستحيل أمام حبّ كانت له قوّة العودة بالزمن إلى الوراء، وقضاء الساعة نفسها مرّتَين في الساعة الرملية للأبدية.

وبينما كان أوكتافيان يغوص في هذه التأمّلات، كان هناك صبايا جميلات يقصدن الينابيع، ماسكاتٍ بأطراف أصابعهنّ البيضاء جراراً متوازنة على رؤوسهنّ؛ ونبلاء رومان يتوجّهون إلى ساحة الفوروم بأثوابهم الفضفاضة البيضاء المقصّبة بشرائط قرمزية، يتبعهم موكب من زبائنهم. المتبضّعون يسرعون حول الدكاكين المميّزة بلافتات منحوتة ومرسومة، ويذكّر صغر أحجامها وكذلك أشكالها بالدكاكين الموريسكية في الجزائر؛ وفوق معظم هذه الحوانيت الصغيرة ينتصب قضيب مجيد من الصلصال المشويّ والملوّن، مع نقش: **هنا تسكن السعادة**، وهو ما يدلّ على الحذر المتطيّر من العين الشريّرة؛ بل إنّ أوكتافيان لاحظ أيضاً وجود حانوت تعاويذ يعرض قروناً وأغصانَ مرجانٍ متشعّب وتماثيل لبريّابوس[1] مجبولة من الذهب، وهي لا تزال توجد في نابولي اليوم، من أجل توقّي الجتّاتورا[2]، ومن الأقوال الشائعة في أنّ التطيّر يدوم أكثر من

(1) بريّابوس Príapos : إله إغريقي يرمز إلى الخصوبة والفحولة.

(2) العين الشرّيرة، ويؤمن بها سكّان نابولي. وقد ألهمت المؤلّف قصّة أخرى ينتهي بها هذا الكتاب بعنوان «جتّاتورا».

Twitter: @ketab_n

التديّن.

مع تعقّب الرصيف الذي يحاذي كلّ شارع في پومپي، وهو بذلك ينزع عن الإنجليز رغد هذا الابتكار، وجد أوكتافيان نفسه وجهاً لوجه مع شابّ جميل، في سنّه تقريباً، يرتدي زيّاً زعفرانيّ اللّون، ويتغطّى بمعطف من صوف ناعم أبيض، مرِن مثل الكشمير. بدا مندهشاً لدى رؤيته أوكتافيان، معتمراً القبّعة العصرية الفظيعة، محزَّماً في سترة ريدنغوت هزيلة، محبوس الساقين في سروال والقدمين في جزمتين لامعتين، تماماً مثلما قد تدهشنا، في جادّة غَنْد بباريس، رؤية هنديّ أحمر من شعب الإيواي، أو بوتوكودو[1] مع ريشاته، وأساوره التي هي من براثن دبّ، ووشْمه الباروكيّ.

لكنّه، وباعتباره شابّاً مهذّباً، لم ينفجر ضاحكاً في وجه أوكتافيان، ونظراً لعطفه على هذا البربريّ المسكين التائه في هذه المدينة الإغريقية-الرومانية، فقد قال له بصوت مفخّم ورخيم:

«آدفينا، سالفي.»[2]

لم يكن من المستغرب أن يعمد أحد سكّان پومپي تحت حكم الإمبراطور الإلهيّ تيتوس، ذي الجبروت والمهابة، إلى التكلّم باللّاتينية، ومع ذلك اختلج أوكتافيان لدى سماعه هذه اللّغة الميتة في فم حيّ. وعندئذ ارتاح لأنّه كان متفوّقاً في النقل عن اللّاتينيّة، وحصل على جوائز في المسابقة العامّة. ولم يستخدم اللّاتينية التي تعلّمها في الجامعة إلّا في هذه المناسبة الوحيدة، وباستدعاء ذكرياته المدرسية أجاب على تحيّة مواطن پومپي الفتى بأسلوب كُتُب تدريس اللّاتينية، أي بطريقة جليّة بما

(1) بوتوكودو Botocudo : اسم قبيلة هندية في البرازيل يأتي اسمها من الأقراص (البوتوك) التي يضعونها في شفاههم وفي آذانهم.

(2) «مرحباً أيّها الغريب».

Twitter: @ketab_n

فيه الكفاية، لكنْ مع لكنة باريسية جعلت الفتى يبتسم.

«ربّما كان من الأسهل لك أن تتكلّم الإغريقية، قال فتى پومپي؛ أنا أيضاً أجيد هذه اللّغة، لأني أزاول دراستي في أثينا.

– ما أعرفه من الإغريقية أقلّ بكثير من اللّاتينية، أجاب أوكتافيان؛ أنا من بلاد الغاليّين، من باريس، من لوتيس[1].

– أعرف هذه البلاد. جدّي حارب في بلاد الغال تحت إمرة يوليوس قيصر العظيم. لكنْ، ما هذا الزيّ الغريب الذي ترتديه؟ الغاليّون الذين رأيتهم في روما لم يكونوا يلبسون هكذا».

ارتأى أوكتافيان أن يُفْهِم فتى پومپي أنّ عشرين قرناً قد مرتْ منذ غزو يوليوس قيصر لبلاد الغال، وأنّ العالم تغيّر فعلاً؛ لكنّه فقد ما يعرف من اللّاتينية، رغم أنّ ما كان يعرفه قليل.

«اسمي روفوس هولكونيوس، وبيتي هو بيتك، قال فتى پومپي؛ إلّا إذا كنتَ تفضّل حريّة الحانة: هناك استضافة جيّدة في حانة آلبينوس، قرب باب رَبْض أوغستوس فيليكس، وفي نُزل سارينوس، ابن بيبليوس، قرب البرج الثاني؛ وإذا ما رغبتَ فأنا مستعدّ لأنْ أكون دليلك في هذه المدينة المجهولة بالنسبة إليك. أنتَ تعجبني أيّها الغريب الشابّ، رغم أنّك حاولت اللّعب على احتمال سذاجتي عندما زعمْتَ أنّ الإمبراطور تيتوس الذي يحكم اليوم مات منذ ألفَي عام، وأنّ الناصريّ الذي تولّى السفلة الموالون له، والمدهونون بالقطران، مهمّة إضاءة حدائق نيرون[2]

(1) لُوتَيس Lutèce هو الاسم القديم لباريس.

(2) هذه الإشارة إلى إعدام المسيحيّين الذين اعتبرهم نيرون مسؤولين عن حريق روما لم تكن أمراً مستغرباً في القرن التاسع عشر: فقبل أعمال جيروم كاركوبينو Jérôme Carcopino («دراسات في التاريخ المسيحيّ» *Études d'histoire chrétienne*، 1953) كان هناك اعتقاد بانتشار المسيحية في پومپي قبل ثورة بركان فيزوف سنة 79.

Twitter: @ketab_n

له، سيجلس وحيداً على العرش سيّداً في السماء المقفرة التي هوى منها الآلهة الكبار. أقْسم ببولوكس![1] أضاف يقول وهو يلقي بنظره على إعلان أحمر منقوش عند زاوية أحد الشوارع، لقد جئتَ في الوقت المناسب، هناك عرض لمسرحيّة بلاتو «لاكاسينا»[2]، وقد تمّ إخراجها مؤخّراً؛ وهي كوميديا عجيبة وهزليّة من شأنها أن تسلّيك، وإنْ لم تفهم إلّا الإيماءات. اتبعني، موعد عرضها يقترب؛ سوف أجعلك تجلس على مقعد الضيوف والأجانب».

وتوجّه روفوس هولكونيوس نحو المسرح الكوميديّ الصغير الذي زاره الأصدقاء الثلاثة خلال النهار.

سلك الفرنسيّ وفتى پومپَي شوارع نبع الخصب، والمسارح، وحاذَيَا الكليّة ومعبد إيزيس، وورشة نحّات التماثيل، ثمّ دخلا إلى الأوديون أو المسرح الهزليّ، عبر مدخل جانبيّ. وبفضل توصية هولكونيوس تمّ جلوس أوكتافيان قرب البروسنيوم، وهو موضع يشبه مقصورات صدر المسرح في مسارح اليوم. وسرعان ما التفتت كلّ الأنظار إليه مع فضول متعاطف وسرَى همسٌ خفيض عبر المدرج.

لم تبدأ المسرحية بعد؛ فانتهز أوكتافيان الفرصة لمعاينة القاعة. كانت الدرجات نصف الدائرية والتي تنتهي من كلّ جانب بقائمة أسد رائعة منحوتة من حمم بركان فيزوف، تتقدّم متوسّعة عبر فسحة فارغة تعادل ردهة المسرح عندنا، لكنّها محدودة أكثر ومبلّطة بفسيفساء رخام إغريقيّ؛ وهناك درجة أوسع كانت تشكّل، من مسافة إلى أخرى، منطقة مميّزة،

---

(1) بولوكس Pollux : هو في الميثولوجيا الإغريقيّة بطل أسطوريّ في عداد الآلهة.

(2) عُثِرَ في خرائب پومپَي على «فيشة»، وهي قطعة تصنع من موادّ مختلفة وتحلّ محلّ النقود، وتعادل بطاقة الدخول الى المسرح. وقد كُتب عليها اسم المسرحيّ اللّاتينيّ بلاوتوس Tutus Plautus وعنوان مسرحيّته «لاكاسينا».

Twitter: @ketab_n

وأربعة سلالم متوافقة مع المخارج الجانبية وصاعدة من الأرضيّة إلى قمة المدرّج لتقسّمه إلى خمس زوايا أكثر اتّساعاً في أعلاها ممّا هي عليه في أسفلها. وكان المتفرّجون يصلون بسهولة إلى مقاعدهم بفضل بطاقاتهم المتمثّلة في صفائح عاجيّة صغيرة سُجّلَ عليها، حسب الأرقام الترتيبيّة، الصفّ، والزاوية والدرجة، مع عنوان المسرحية واسم مؤلفها. وكان هناك صفوف منفصلة مخصّصة لكلٍّ من القضاة، والنبلاء، والرجال المتزوّجين، والشبّان، والجنود الذين تظهر خوَذهم البونزية اللّامعة. - كان المشهد جذّابا بما يضمّ من توغات[1] جميلة ومعاطف بيضاء واسعة حسنة الطيّ، معروضة على الدرجات الأولى ومتعارضة وتنوّعَ زينة النساء الجالسات في الأعلى، والقبّعات المستديرة لأبناء الشعب وقد أُبعدوا إلى المقاعد العليا، قرب الأعمدة التي تسند السقف، والتي تترك مجالاً عبر فجواتها لرؤية سماء كثيفة الزرقة مثل حقل لازورديّ في حفل أثينيّ؛ وكان هناك مطر خفيف من ماء معطّر بالزعفران، ينزل من الأفاريز في قطَيرات لا تُرى، فتعطّر الجو وتنعشه. فكّر أوكتافيان في انبثاق الروائح الكريهة التي تعيب جوّ مسارحنا غير المريحة إلى درجة تسمح باعتبارها أمكنة تعذيب، وتوصّل إلى أنّ الحضارة لم تتقدّم كثيراً.

تراجعت الستارة المسنودة برافدة عرضانيّة إلى خلفيّة الأوركسترا، واستقرّ العازفون في منصّتهم، ولاح مقدّم المسرحية مرتدياً زيّاً مضحكاً وعلى رأسه قناع مشوّه، حوَّله هو إلى قبّعة.

بعد أنْ حيّا المقدّم الحضورَ وطلب التصفيق، بدأ بعرض تهريجيّ موجز. قال: «المسرحيات القديمة تشبه النبيذ الذي يزداد قيمة مع مرّ السنين، ومسرحية «لاكاسينا»، المحبّبة لكبار السنّ، لا ينبغي أن

(1) التوغا Toga : ثوب روماني فضفاض.

Twitter: @ketab_n

تكون أقلّ من ذلك بالنسبة لبقيّة الشبّان؛ الجميع يمكنهم التمتّع بها: البعض لأنّهم يعرفونها، والآخرون لأنّهم لا يعرفونها. يضاف إلى ذلك أنّ المسرحية قد أعيد إخراجها بعناية، ولا بدّ من الإصغاء إليها بروح متحرّرة من كلّ همّ، من دون التفكير في الديون، ولا في الدائنين، فما من عمليّات توقيف من داخل المسرح؛ إنّه يوم سعيد، والطقس جميل، والألسيون[1] يحلّق فوق الفوروم». بعد ذلك قدّم تحليلاً للمسرحية التي سيقدّمها الممثّلون مع تفاصيل تدلّ على أنّ عنصر المفاجأة لا يدخل كثيراً في تمتّع القدامى بالمسرح: فحكى كيف أنّ الشيخ ستالينو، عاشق أمته الجميلة كاسينا، يريد تزويجها لمُزارعه أولمبيو، كزوج مُتَغاضٍ سوف يحلّ هو محلّه في ليلة العرس؛ وكيف أنّ ليكوستراتا، زوجة ستالينو، تعمل على إفشال فسق زوجها الفاجر، بتزويج كاسينا لسائس الخيول كالينوس، حتّى تتمكّن من إنجاح حبّ ابنها؛ وأخيراً الطريقة التي ظنّ بها ستالينو المخدوع أنّ عبداً شابّاً جيء به إليه متنكّراً هو كاسينا، أمّا هذه الأخيرة، التي تمّ الاعتراف بها حرّة ومن ولادة بريئة، فتتزوّج الابن الذي تحبّه ويبادلها الحبّ.

كان الشابّ الفرنسي يتفرّج بلا انتباه على الممثّلين، مع أقنعتهم المزوّدة بأفواه من البرونز، وهم يبذلون جهودهم على المسرح؛ وكان العبيد يهرعون هنا وهناك ليتظاهروا بالعجلة؛ والشيخ يهزّ برأسه ويمدّ يديه المرتعشتين؛ والسيّدة ذات النبرة العالية والمظهر الشرس والمزدري تنفخ في أهميّتها وتخاصم زوجها، وسط استمتاع القاعة.- كان كلّ أولئك الشخوص يدخلون ويخرجون عبر ثلاثة أبواب موجودة في الجدار الخلفيّ وتتّصل بمجمّع الممثّلين.- ويحتلّ بيت ستالينو زاوية من المسرح،

(1) طائر بحريّ أسطوريّ.

Twitter: @ketab_n

ويقابله بيت صديقه القديم آلسيسيموس. وهذا الديكور، رغم جودة رسمه، كان يمثّل بالأحرى فكرةً عن مكانٍ وليس المكان نفسه، كما في كواليس المسرح الكلاسيكيّ الغامضة.

عندما بدأ موكب الزواج الذي يضمّ كاسينا المزيّفة يظهر على المسرح، عمّ انفجار بالضحك، على غرار ذاك الذي ينسبه هوميروس للآلهة، كلَّ مقاعد المدرّج، وحرّكتْ رعود من التصفيق أصداء المكان؛ غير أنّ أوكتافيان لم يكن ينصت ولم يكن ينظر.

لقد لمح للتوّ، في الصفوف المخصّصة للنساء، مخلوقة ذات جمال رائع. ومنذ تلك اللّحظة تلاشت الوجوه الجذّابة التي لفتت انتباهه، مثل تلاشي النجوم أمام فوبي[1]؛ غاب كلّ شيء، اختفى كلّ شيء كما في حلم؛ وحجب ضبابٌ كلَّ المقاعد والدرجات المكتظّة بالبشر، وباتت أصوات الممثّلين الصاخبة تبدو كأنّها تضيع في بعيد لانهائيّ.

لقد استقبل في قلبه ما يشبه صدمة كهربائية، وصار يحس بأنّ شرراً يتطاير من صدره عندما تلتفت نظرة تلك المرأة نحوه.

كانت سمراء شاحبة؛ شعرها المتموّج والمجعّد، والأسود مثل اللّيل، يرتفع قليلاً فوق الصدغين، على الطريقة الإغريقية، وفي وجهها الأكمد تلمع عينان داكنتان عذبتان، ومشحونتان بتعبير غير محدّد من الحزن الشهوانيّ والملل المشبوب؛ فمها المقوّس باستخفافٍ عند زاويتَيه، يحتجّ باضطرام متوقّد على بياض قناعها الهادئ؛ ورقبتها تقدّم تلك الخطوط الرشيقة الخالصة التي لم نعد نجدها إلّا في التماثيل. وكانت ذراعاها عاريتين حتّى الكتفين، ومن أعلى نهديها المزهوَّين، والرافعَين قميصها الورديّ المائل إلى البنفسجيّ، تنطلق طيّتان يسهل اعتبارهما من حفر

(1) فوبي Phoebé : ابنة أورانوس (السماء) وغايا (الأرض) شخصيّة أسطوريّة إغريقية.

Twitter: @ketab_n

فيدياس أو كليومان[1] على الرخام.

رؤية ذلك الصدر باستداراته الفائقة الدقّة ونحته الخالص أدّتْ إلى اضطراب مغناطيسيّ في نفس أوكتافيان؛ وبدا له أنّ تلك التكويرات تتطابق تماماً والقالبَ المفرغ في متحف نابولي، والذي رمى به إلى حال محتدمة من أحلام اليقظة، وهتف به صوت من أعماق قلبه أنّ تلك المرأة هي فعلاً المرأة التي اختنقت برماد فيزوف في دارة آرّيوس ديوميديه. أيّة معجزة جعلته يراها حيّة تحضر عرض مسرحية «لاكاسينا» لبلاوتوس؟ لم يجهد نفسه بالبحث عن تفسير؛ وإلّا كيف كان، هو نفسه، حاضراً هناك؟ تقبّل حضوره كما في الحلم عندما نتقبّل تدخّل أشخاص موتى منذ وقت طويل ومع ذلك يتصرّفون كما لو كانوا أحياء؛ زدْ على ذلك أنّ انفعالاته لم تكن لتسمح له بتحليل عقلانيّ. عجلة الزمن، بالنسبة إليه، خرجت من محورها، وساقته رغبته الغالبة إلى اختيار مكانه في القرون المنصرمة! كان يقف وجهاً لوجه مع فكرته الوهميّة الأصعب إدراكاً، لأنّها استعاديّة. كانت حياته تمتلئ دفعة واحدة.

أدرك، وهو ينظر إلى ذلك الوجه المغرق في صمته وفي شغفه، في برودته وفي احتدامه، في موته وفي حيويّته، أنّه أمام حبّه الأوّل والأخير، كأس نشوته العليا؛ أحسّ بذكريات كلّ النساء اللّائي اعتقد أنّه أحبّهنّ تتلاشى مثل ظلال خفيفة، وبروحه تعود بكراً من كلّ انفعال سابق. لقد اختفى الماضي.

في تلك الأثناء كانت حسناء پومپي، وهي تسند ذقنها إلى كفّ يدها، ترسل نحو أوكتافيان، مع تظاهرها بالانتباه للعرْض، تلك النظرة المخمليّة من عينيها اللّيليّتين، فتصله النظرة ثقيلة وحارقة مثل انبثاق

(1) من نحّاتي الإغريق.

Twitter: @ketab_n

رصاص ذائب. ثمّ انحنتْ على أذن فتاة جالسة بجانبها.

انتهى العرض؛ وبدأ الجمهور ينصرف عبر المخارج الجانبية.

رفض أوكتافيان خدمات دليله هولكونيوس واندفع عبر أوّل مخرج صادفته خطاه. ولم يكد يبلغ الباب حتّى حطّت يد على ذراعه، وقال له صوت أنثويّ بنبرة خفيضة، لكن مع حرص على ألا تفوته أيّ كلمة:

«أنا تيشي نوفوليجا، الخادمة المؤتمنة على ملذّات آرّيا مارتشيلا، ابنة آرّيوس ديوميديه. سيّدتي تحبّك، اتبعني».

كانت آرّيا مارتشيلا قد صعدت للتوّ إلى محفّتها التي يحملها أربعة من العبيد السوريّين الأقوياء المكشوفين حتّى الخصر بحيث تلتمع جذوعهم البرونزية في الشمس. انفرجت ستارة المحفّة، وقامت يد شاحبة، تزيّنها خواتم، بإشارة وديّة نحو أوكتافيان، كما لو كانت تريد تأكيد كلام الخادمة. ثمّ انسدلت طيّة الستارة الأرجوانية، وابتعدت المحفّة على إيقاع خطوات العبيد.

عمدتْ تيشي إلى جعل أوكتافيان يمرّ عبر دروب ملتوية، مع اجتياز الشوارع بوضع القدم بشكل خفيف على الأحجار المتباعدة التي تربط ما بين الأرصفة والتي تتدحرج بينها عجلات المركبات، فيتوجّه عبر المتاهة بدقّة من يعرف المدينة. لاحظ أوكتافيان أنّه كان يجتاز أحياء من پومپي لم تكتشفها الحفريّات، وبالتالي فقد كانت مجهولة تماماً بالنسبة إليه. هذه الحال الغريبة، من بين حالات أخرى كثيرة، لم تدهشه. فقد قرّر عدم الاندهاش من أيّ شيء. وفي كلّ هذا المشهد الخارق القديم، والذي من شأنّه أن يجعل بائع عاديّات يُجَنّ من الفرح، لم يكن يرى إلّا العين السوداء العميقة لآرّيا مارتشيلا، وذلك الصدر الرائع المنتصر على القرون، والذي شاء الدمار نفسه أن يحافظ عليه.

Twitter: @ketab_n

بلغا باباً موارباً، سرعان ما انفتح وانغلق، ووجد أوكتافيان نفسه في باحة تحيط بها أعمدة رخام إغريقية من النسق الإيوني[1]، مدهونة حتّى منتصف ارتفاعها بلون أصفر فاقع، مع تاج عمود ينتهي بزينة حمراء وزرقاء؛ وهناك شريط زخرفة من نبات الزراوند يُدلّي أوراقه الكبيرة الخضراء على شكل قلب في نتوءات المعمار مثل زخرفة عربية حقيقيّة، وقرب بركة تحيط بها النباتات، يوجد طائر نُحام ورديّ واقف على قائمة واحدة، زهرة من ريش بين زهور نباتية.

كانت الجدران مزيّنة بلوحات جدارية تمثّل هندسات نزويّة أو مشاهد فنطازيّة. رأى أوكتافيان كلّ تلك التفاصيل بنظرة سريعة، لأنّ تيشي سلّمته إلى العبيد المكلفين بحوض الاستحمام والذين أخضعوه، رغم تلهّفه، إلى كلّ مراحل الاستحمام القديمة. فبعد مروره بمختلف درجات الحرارة المتبخّرة، وتحمّل مكْشط التنظيف، والشعور بموادّ التجميل والزيوت المعطّرة تسيل على جسده، أُلبِسَ قميصاً أبيض، وأعيد إلى تيشي التي أمسكتْ بيده وقادته إلى قاعة أخرى في منتهى الزينة.

على السقف توجد رسوم لمارس وفينوس وإله الحبّ، مرسومة بصفاء في التصوير، وألق في الألوان، وحريّة في اللّمسات، تدلّ على أثر فنّان كبير وليس مجرّد مزوّق يعمل تحت الطلب؛ وهناك لوحة تتكوّن من أيائل وأرانب وطيور تتلاعب بين الأوراق، تهيمن رسومها فوق طبقة تلبيس من الرخام البصليّ[2]؛ أمّا فسيفساء البلاط، وهي عمل رائع، لعلّه يعود إلى سوسيموس دو بيرغام، فيمثّل نقوشاً بارزة لمأدبة، وقد تمّ تنفيذها بمهارة فنّية قادرة على الخداع.

(1) النسق الايوني هو واحد من أساليب البناء اليونانية يمتاز بالتاج المزيّن بحليتين حلزونيّتين جانبيّتين.

(2) الرخام البصليّ هو رخام رماديّ متموّج الخطوط بحيث يشبه مقطع بصلة.

Twitter: @ketab_n

داخل القاعة، وعلى بيكلينيوم، أي سرير لشخصين، كانت آرِّيا مارتشيلا متّكئة في وضعية مثيرة ورائقة تذكّر بالمرأة النائمة لفيدياس على زخارف مدخل البارثينون[1]؛ كان حذاؤها المطرّز باللّؤلؤ أسفل السرير، فيما قدمها الجميلة الحافية، التي هي أصفى وأبيض من المرمر، تتمدّد على طرف غطاء خفيف وناعم مرميّ عليها.

حول خدّيها الشاحبين يرتعش في الضوء قرطان مصنوعان على شكل ميزان ويحملان لآلئ في كلّ كفّة؛ وعلى صدرها قلادة كريّات ذهبيّة تجسّد بذوراً ممدّدة على شكل إجاصة، تتحرّك على صدرها نصف المكشوف بسبب طيّة مهملة في المشمال[2] ذي اللّون التبنيّ المزيّن برسم إغريقية سوداء؛ وهناك شُرَيطة سوداء وذهبيّة تلمع في شعرها الأبنوسيّ وتتخلّله حسب المواضع، إذْ أنّها غيّرتْ ثيابها بعد عودتها من المسرح؛ وحول معصمها، وبصورة تذكّر بأفعى الصلّ حول ذراع كليوباترا، ثعبان ذهبيّ ذو عينين من أحجار كريمة، يلتفّ عدّة مرّات محاولاً عضّ ذيله.

قرب السرير المزدوج، توجد مائدة صغيرة ذات قوائم على شكل عنقاء خرافية، مطعّمة بالصدف والفضّة والعاج، وقد حُمِّلتْ بعدد من المأكولات المقدّمة في صحون فضّية وذهبيّة أو من الصلصال المرصّع برسوم ثمينة. ويُرى فيها طائر تُدْرُج يثوي في ريشه، وعدّة فواكه تَحُولُ مواسمُ ظهورها دون تلاقيها معاً.

كان كلّ شيء يشير إلى انتظار ضيف؛ فهناك أزهار يانعة تنتثر على

(1) من الإغريقية القديمة Parthenon ويعني «الفتاة» أو «العذراء»، وهو معبد كان مخصّصاً للإلهة الإغريقية أثينا، حامية المدينة وإلهة الحرب والحكمة، ويوجد في الأكروبول. شيّده المهندس المعماريّ إيكتينوس وزيّنه النحات فيدياس Phidias، بمبادرة من بيريكليس Periklés الذي كان يحكم أثينا آنذاك.

(2) المِشْمال: ملحفة كانت تشتمل بها نساء الإغريق.

Twitter: @ketab_n

الأرضية، ودنان نبيذ مغمورة في جرار مملوءة بالثلج.

أشارت آرِّيا مارتشيلا على أوكتافيان بالاستلقاء بجانبها على البيكلينيوم أو السرير المزدوج وتناوُلِ قسطه من الطعام؛ تناول الشابّ كيفما اتّفق، وهو في حالة من نصف الجنون الناجمة عن المفاجأة والحب، بعض اللّقَيمات من الصحون التي كانت تقدّمها له إماء آسيويات قصيرات، ذوات شعور مجعّدة وأثواب قصيرة. لم تكن آرّيا تأكل، لكنّها كانت أحياناً تُدْني من شفتيها كوباً ملوّناً بألوان لبنيّة خفيفة ومملوءاً بنبيذ أرجوانيّ غامق يشبه الدم المتخثّر؛ وكانت كلّما شربتْ صعد من قلبها الذي لم يخفق منذ سنين، إلى خدّيها الشاحبَين، بخارٌ ورديّ غير محسوس؛ مع ذلك كانت ذراعها العارية التي لامسها أوكتافيان وهو يرفع كوبه باردة مثل جلد ثعبان أو رخام قبر.

«آه! عندما توقّفْتَ في متحف الستودي لتأمّل قطعة الطين اليابس الذي يحافظ على شكلي، قالت آرِّيا مارتشيلا وهي ترمق أوكتافيان بنظرة طويلة رطبة، وانطلقتْ أفكارك نحوي بحرارة، أحسّتْ روحي بذلك في هذا العالم الذي أطفو فيه غير مرئيّة بالنسبة للعيون الفظّة؛ الإيمان يصنع الإله، والحبّ يصنع المرأة. لا يمكن لامرأة أنْ تكون ميتة حقّاً إلّا إذا لم تعدْ محبوبةً؛ رغبتك أعادتْ لي الحياة، الاستحضار القويّ الذي بذله قلبك ألغى المسافات التي كانت تفصل بيننا».

كانت فكرة الاستحضار العاشق التي عبّرت عنها الفتاة تندرج ضمن معتقدات أوكتافيان الفلسفية، وهي معتقدات لا نختلف فيها عنه كثيراً.

لا شيء يموت فعلاً، كلّ شيء يوجد دائماً؛ ولا أحد بإمكانه القضاء نهائياً على ما وُجد ذات مرّة. كلّ فعل، كلّ كلمة، كلّ شكل، كلّ فكرة هوَتْ في الأوقيانوس الكونيّ للأشياء تُنتج فيه دوائر تتقدّم متوسّعةً

Twitter: @ketab_n

حتّى تخوم الأبدية. الصورة الماديّة لا تتلاشى إلّا لدى النظرات المبتذلة، والأطياف التي تنفصل عنها تعمّر اللّانهاية. ما زال البطل باريس يخطف هيلانة في منطقة مجهولة من الفضاء. وما زال مركب كليوباترا، قادس، ينفخ أشرعته الحريريّة على زرقة نهر طرسوس آخرَ مثاليّ. وثمّة عقولٌ مشبوبة وقويّة استطاعت أنْ تجلب إليها قروناً مندثرة ظاهريّاً، وأن تجعل شخصيّات ميتة في نظر الجميع تعيش من جديد. اتّخذ فاوست ابنة تيندار عشيقة له، ونقلها إلى قصره القوطيّ، من أعماق هاديس، هاوية العالم السفليّ الغامضة. وها إنّ أوكتافيان قد عاش للتوّ يوماً في عهد تيتوس ليكون محبوباً من آرّيا مارتشيلا، ابنة آرّيوس ديوميديه، النائمة في هذه اللّحظة قربه على سرير عتيق في مدينة يحسبها الجميع مهدَّمة.

«بسبب اشمئزازي من النساء الأخريات، أجاب أوكتافيان، ونتيجةً لأحلام يقظتي التي لا تُهزم والتي كانت تقودني نحو نماذجها الساطعة عبر القرون مثل كواكب محرّضة، أدركتُ أنّني لن أحبَّ أبداً إلّا خارج الزمان والمكان. كنتُ أنتظركِ أنتِ، وذلك الأثر الواهي الذي حافظ عليه فضول البشر، وضعني، بفضل سرّه المغناطيسيّ، في صلةٍ بروحك. لستُ أدري إنْ كنتِ حلماً أم حقيقة، شبحاً أم امرأة، أأنا مثل إيكسيون أحضن غيمة في صدري المخدوع[1]، أم أنّني ضحية عملية سِحر دنيئة، غير أنّ ما أعرفه جيّداً هو أنّك سوف تكونين حبّي الأوّل والأخير.

- فليستمعْ إيروس، ابن أفروديت، إلى وعدك لي، قالت آرّيا مارشيلا وهي تحني رأسها على كتف حبيبها الذي رفعه بعناق عاشق. آه! ضمّني إلى صدرك الفتيّ، غطّني بأنفاسك الدافئة، أحسّ بالبرد

(1) في الأسطورة الإغريقية، حاول ايكسيون إغواء يونون فأرسل إليه زفس غيمة لها شكل الإلهة.

Twitter: @ketab_n

لبقائي كلّ هذا الوقت الطويل بلا حبّ». وهكذا صار أوكتافيان يحسّ في مواجهة قلبه بارتفاع ذلك الصدر الجميل وانخفاضه، وكان في الصباح نفسه يبدي إعجابه بقالبه من خلال واجهة خزانة متحف؛ كانت نضارة ذلك الجسد الجميل تتغلغل فيه عبر ثيابه وتجعله يلتهب. وكانت الشُّرَيطة الذهبيّة والسوداء قد انفصلتْ عن رأس آرّيا التي باتت مشبوبة العاطفة، وانتشر شعرها مثل نهر أسود على المخدّة الزرقاء.

كان العبيد قد نقلوا المائدة. ولم تعدْ تُسمع سوى غمغمات مبهمة من القُبل والآهات. وكانت طيور السُّمانَى المدجّنة غير المكترثة بهذا المشهد العاشق تنقر على بلاط الفسيفساء بقايا المأدبة مُطلقةً صيحات صغيرة.

فجأةً انزلقت حلقات البرونز في ستارة الباب الذي يغلق الغرفة، ولاح على العتبة شيخ ذو هيئة صارمة يلتفّ في معطف واسع داكن اللّون. كانت لحيته البيضاء مفصولة ضمن حدَّين مثل لحى الناصريّين أتباع المسيح، ويبدو وجهه مخدّداً من تعب إماتة الجسد: كان صليبٌ صغير من خشب أسود يتدلّى من رقبته ولا يدع مجالاً للشكّ حول عقيدته: كان ينتمي إلى ملّة، حديثة العهد آنذاك، تلامذة المسيح.

ارتبكتْ آرّيا مارشيلا، لدى رؤيته، وخبّأتْ وجهها تحت طيّة من معطفها مثل طائر يضع رأسه تحت جناحه في مواجهة عدوّ لا يمكنه تحاشيه، ومن أجل التخلّص من هول رؤيته على الأقلّ؛ في حين كان أوكتافيان يتّكئ على مرفقه ويثبت نظرته في الشخص المزعج الذي يدخل بهذه الطريقة المباغتة في سعادته.

«آرّيا، آرّيا، قال الشخص المتقشّف بنبرة لائمة، ألمْ يكفكِ زمن حياتك مجوناً، أكان لا بدّ لعشقك الدنيء أنْ يتمادى إلى القرون التي ليست لك؟

Twitter: @ketab_n

ألا يسعك ترك الأحياء في فلَكهم، إذن لم يبردْ رمادك منذ اليوم الذي متِّ فيه من دون توبة، تحت هطول نيران البركان؟ لم تتوصّل ألفا سنة من الموت إلى تهدئتكِ إذن، وما زالت ذراعاك الضاريتان تسحبان إلى صدرك المرمريّ، الخالي من القلب، هؤلاء المساكين المعتوهين المنتشين بشراب المحبة.

- آريوس، عفوك، يا أبتاه لا ترهقني باسم تلك الديانة الكئيبة التي لم تكن ديانتي قطّ؛ أنا أؤمن بآلهتنا القديمة التي كانت تحبّ الحياة والشباب والجمال واللّذّة؛ لا تُعِدْني إلى العدم الشاحب. دعني أتمتّع بهذا الوجود الذي أعاده لي الحبّ.

- اخرسي أيّتها الكافرة، لا تحدّثيني عن آلهتك الشيطانية. اصرفي هذا الرجل المقيّد بإغراءاتك النجسة؛ لا تجذبيه مجدّداً خارج دائرة حياته التي حدّدها الربّ؛ عودي إلى يمبوس الوثنية مع عشّاقك الآسيويّين، أو من الرومان أو الإغريق. وأنت أيّها المسيحي الشابّ، اهجرْ هذه المرأة الشبح التي من شأنها أنْ تلوح لك أبشع من آمبوز وفوركياس[1]، لو تمكّنتَ من رؤيتها كما هي».

أراد أوكتافيان أنْ يتكلّم، وقد شحب لونه وتجمّد من الرعب، غير أنّ صوته ظلّ محبوساً في حنجرته، حسب تعبير فرجيل[2].

«هل ستطيعينني يا آرّيا؟ صاح الشيخ العجوز الطويل بحسم.

- كلّا، أبداً»، أجابت آرّيا، وقد لمعت عيناها واتّسع منخراها وارتجفت شفتاها، وهي تحضن جسد أوكتافيان بذراعَي التمثال الجميلتين

(1) آمبوز Empouse وفوركياس Phorkyas من الشخصيّات الفنطازيّة المتوحّشة في مسرحيّة «فاوست» الثانية لغوته.

(2) تعبيراً عن الذهول والدهشة، يقول فرجيل في «الإنياذة» (النشيد الثالث، 48): «توقّف صوتي في حنجرتي».

Twitter: @ketab_n

الباردتَين، الصلبتَين والصارمتَين مثل الرخام. كان جمالها الهائج والمغتاظ بفعل الصراع يشعّ ببريق خارق للطبيعة في تلك الحظة القصوى، وكأنّها أرادتْ بذلك أنْ تترك لعاشقها الشابّ ذكرى لا مفرّ منها.

«هيّا، أيّتها الشقيّة، تابع الشيخ المسنّ، ينبغي اللّجوء إلى الوسائل الكبرى، وإعادة عدمك ملموساً ومرئيّاً إلى هذا الطفل المفتون»، ثمّ نطقَ، بصوت ملؤه الوصايا، بصيغة تعزيم ما لبثتْ أنْ أسقطتْ من خدَّي آرّيا تلك اللّوَينات الأرجوانية التي كان قد بعثها فيها كوب النبيذ.

في تلك اللّحظة دقّ جرس بعيد في إحدى القرى المحاذية للبحر أو الأكواخ الضائعة في ثنايا الجبل، ليُسْمِع الدفعات الأولى من السلام الملائكيّ.

ولسماع هذا الصوت، خرجت تنهيدة احتضار من الصدر المحطّم للمرأة الشابّة. أحسّ أوكتافيان بارتخاء الذراعين اللّتين كانتا تحيطان به؛ وتجمّع القماش الذي كان يغطّيها في كومة كما لو أنّ التكويرات التي كانت تشدّه قد انهارت، ولم يعد المتجوّل اللّيليّ البائس ليرى بجانبه، على فراش المأدبة، سوى قبضة من رماد مختلطة ببضعة عظام متكلّسة، تلمع بينها أساور وحلي ذهبيّة، وبقايا لا شكل لها، ربّما كانت كما تمّ اكتشافها أثناء تكنيس بيت آرّيوس ديوميديه.

أطلق صيحة رهيبة وفقد وعيه.

لقد اختفى الشيخ. وكانت الشمس تشرق، ولم يبقَ من القاعة التي كانت مزيّنة قبل قليل بالكثير من الروعة، إلّا آثار مدمّرة.

بعد نوم أثقله الإفراط في الشرب ليلة البارحة، استيقظ ماكس وفابيو مذعورَين، وكان همّهما الأوّل مناداة رفيقهما الذي كانت غرفته مجاورة

Twitter: @ketab_n

لغرفتهما، بصرخة من صرخات لمّ الشتات الهزلية المستخدمة أحياناً خلال الرحلات. لم يجبهما أوكتافيان، لأسباب وجيهة. وبما أنّ فابيو وماكس لم يستلما أيّ ردّ منه فقد دخلا إلى غرفة صديقهما، وشاهدا الفراش غير مستخدم.

«لعلّه نام على كرسيّ، قال فابيو، عاجزاً عن الالتحاق بمرقده؛ فهو قليل التحمّل، أوكتافيان العزيز؛ ولعلّه خرج باكراً كي يبدّد أبخرة الخمر بفضل نداوة الصبح.

- لكنّه لم يشرب كثيراً، أضاف ماكس متأمّلاً. كلّ هذا يبدو لي غريباً بما يكفي. فلنذهب للبحث عنه».

جاب الصديقان، بمعيّة الدليل، كلّ الشوارع والمفترقات وساحات پومپي وأزقّتها، ودخلوا إلى كلّ البيوت المثيرة للفضول، حيث افترضوا أن يكون أوكتافيان موجوداً فيها ومنكبّاً على نسْخ رسم أو نقل نقش، وانتهى بهم الأمر إلى العثور عليه فاقداً وعيه ممدّداً على الفسيفساء المخلّعة لغرفة صغيرة شبه منهارة. بذلوا جهداً كبيراً لجعله يستعيد وعيه، وعندما استعاده، لم يقدّم أيّ توضيح آخر عدا أنّه خطر بباله مشاهدة پومپي تحت ضوء القمر، وأنّه أصيب بإغماء لن يكون له على الأرجح عواقب وخيمة.

عادت المجموعة الصغيرة إلى نابولي عبر سكّة الحديد كما جاءت، وفي المساء، كان ماكس وفابيو يتفرّجان، داخل مقصورتهما في سان كارلو، بمساعدة إضافية من منظار مقرِّب، على كوكبة من الحوريّات يقفزن في باليه، على طريقة أماليا فيراريس الراقصة الشهيرة آنذاك، وكنّ يرتدين، تحت تنانيرهنّ الشاش، سراويل شنيعة خضراء وحشية تجعلهنّ يشبهن ضفادع لسعتها رتيلاء سامّة. وكان أوكتافيان الشاحب، بعينيه المشوّشتين وتماسكه المرهق، لا يبدو مبالياً بما يحدث على المسرح، لفرط عجزه، بعد

Twitter: @ketab_n

مغامرات اللّيل الرائعة، عن استعادة الإحساس بالحياة الواقعية.

ومنذ تلك الزيارة إلى پومپَي ظلّ أوكتافيان يعيش ضحيّة كآبة مكدّرة، لم تفلح بَشاشة صديقَيه ومزاحهما إلّا في مفاقمتها بدلاً من تخفيفها؛ كانت صورة آرّيا مارشيلا تلاحقه دائماً، ولم تتمكّن خاتمة حظّه الجميلة من إتلاف فتنتها.

ونظراً إلى عجزه عن التماسك، عاد سرّاً إلى پومپَي وتجوّل، كما في المرّة أولى، عبر الآثار، تحت ضوء القمر، وقلبه يخفق بأمل أخرق، غير أنّ الهلوسة لم تتجدّد؛ لم يرَ إلّا عظايات تهرب فوق الحجارة، لم يسمع إلّا صَئِيَّ طيور ليليّة مفزوعة؛ لم يلتقِ مرّة أخرى بصديقه روفوس هولكونيوس؛ لم تأتِ تيشي لتضع يدها الرقيقة على ذراعه؛ لقد ظلّتْ آرّيا مارشيلا في الرماد، بكلّ عناد.

وكوسيلة أخيرة، تزوّج أوكتافيان مؤخّراً من شابّة إنجليزية فاتنة، تهيم به حبّاً. وهو رجل رائع بالنسبة لزوجته؛ مع ذلك تشعر إيلين، بغريزة القلب التي لا يخدعها شيء، أنّ زوجها يحبّ امرأة أخرى، لكنْ مَنْ عساها تكون؟ هذا ما لم تستطعْ كشفَه رغم التجسّس الشديد. ذلك أنّ أوكتافيان لا يُنفق على راقصة؛ وفي الحياة اليومية لا يخاطب النساء إلّا بمجاملات معتادة؛ بل إنّه ردّ ببرود على مبادرات متقدّمة من أميرة روسية، شهيرة بجمالها وغُنجها. وحتّى فتْح دُرْج سرّيّ، خلال غياب زوجها، لم يقدّم لشكوك إيلين أيَّ دليلٍ على خيانة. وكيف عساها تدرك أنّها تغار من مارشيلا، ابنة آرّيوس ديوميديه، الذي أعتقه الامبراطور تيبيريوس؟

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

تقمُّص[1]

لم يكنْ أحدٌ قادراً على فهم المرض الذي كان يتأكّل أوكتاف دو سافيل ببطء. لم يكن يلازم الفراش بل كان يقضي نسق حياته بطريقة اعتيادية؛ فما من شكوى تخرج من بين شفتيه قَطّ، ومع ذلك كان يذبل بشكل واضح للعيان. وحتّى عندما سأله الأطبّاء الذين اضطرّ إلى مراجعتهم بطلبات ملحّة من ذويه ومن أصدقائه، لم يُشر إلى أيّ ألم محدّد، ولم يكتشف فيه العلم أيّة أعراض منذرة: فصدره يردّ بصوت ملائم لدى فحصه بسماعة الطبيب، ولا تكاد الأذن، عند وضعها على قلبه، تُفاجَأ بنبض أبطأ أو أسرع من اللّازم؛ لم يكن يسعل، ولا يشكو من حمّى، غير أنّ الحياة كانت تنسحب منه وتفلت عبر أحد تلك الخروق اللّامرئية التي تملأ الإنسان كما قال تيرينتيوس[2].

يحدث أحياناً أن تجعله حالة من الإغماء الغريب يشحب ويبرد مثل الرخام. حتّى ليمكن الاعتقاد، لدقيقة أو دقيقتين، أنّه ميت؛ ثمّ يعود رقّاص التوازن وقد تحرّر من التعطيل، بعد أنْ أوقفه إصبع غريب، إلى سالف حركته، حينئذ يلوح أوكتاف كأنّه يستيقظ من حلم. لقد أُرسِل إلى مشافي المياه المعدنية؛ غير أنّ حوريات المياه المعدنية الحارّة لم يستطعن فعل أيّ شيء بالنسبة إليه. وأعقبتْ ذلك زيارة إلى نابولي لم تُحدثْ نتيجة

(1) نُشرت للمرّة الأولى في صحيفة *Le Moniteur universel*، في الأعداد من 29 شباط إلى 3 نيسان 1856.

(2) بوبليوس تيرنتيوس آفر *Publius Terentius Afer*، شاعر ومسرحي كوميديّ. ولد في قرطاج نحو 190 ق. م وتوفّي سنة 159 ق. م

Twitter: @ketab_n

أفضل. فحتى تلك الشمس الجميلة التي طالما بولغ في التغنّي بها، بدتْ له سوداء مثل لوحة ألبريشت دورر[1] المحفورة؛ كان الخفّاش الذي كُتِبَتْ على جناحه كلمة «مالنخوليا»، يسُوط تلك الزرقة المتلألئة بجناحيه الغشائيّين المغبرّين ويرفرف بين الضوء وبينه؛ ولقد أحسّ بالتجمّد على رصيف لامارجيلينا، حيث كان الصعاليك نصف العراة يَنْشَوُون ويُكْسِبون جلودهم زنجار البرونز.

وهكذا عاد إلى شقّته الصغيرة في شارع سان لازار واستعاد ظاهرياً عاداته القديمة.

كانت تلك الشقّة مريحة التأثيث تماماً كما يمكن أنْ يكون مسكن عازب. لكنْ، وبما أنّ داخل البيت يكتسب مع مرور الوقت مظهر ساكنه، وربّما فكره أيضاً، لم يلبث مسكن أوكتاف أنْ بدأ يتكدّر شيئاً فشيئاً؛ شَحُب دمقس الستائر ولم يعد يسرّب إلّا ضوءاً رمادياً. كما كانت الباقات الكبيرة من أعشاب الفوانيا التزيينية تذبل على الأرضية الأقلّ بياضاً للسجّادة؛ وكان ذهب الأُطر على أطراف بعض اللّوحات المائية والتخطيطات الأولية لفنّانين متميّزين قد بدأ يحمرُّ تدريجياً تحت غبار عنيد؛ والوهن يصيب النار فتنطفئ وتدخّن وسط الرماد. وساعة بول[2] العتيقة المرصعة بالنحاس والأصداف الخضراء تحجز ضجّة تكتكاتها، فيما كان صوت ناقوس الساعات الضجِرة يتكلّم بصوت خفيض كما يفعل الناس عادةً في غرفة مريض. كانت الأبواب تصطفق صامتة، وحتّى خطوات الزوّار

(1) ألبريشت دورر Albrecht Dürer : رسّام ألماني (1471–1528)، ترك عمله *Melencholia* («الكآبة») تأثيراً عميقاً في الرومنطيقيّين مثل غوتييه وهوغو ونرفال.

(2) نسبة الى أندريه–شارل بول André-Charles Boule (1642–1732): نجّار الأبنوس الخاصّ بلويس السابع عشر والثامن عشر، ويدلّ اسم الصانع على الأسلوب الذي تميّز بالترصيع بالذهب أو النحاس.

Twitter: @ketab_n

النادرين كانت تخمد على البساط الوبريّ، والضحك يتوقّف من تلقاء نفسه لدى دخوله إلى تلك الغرف الكئيبة، الباردة والمعتمة، حيث، بالمقابل، لا شيء ينقص من البذخ العصريّ. كان جان، خادم أوكتاف، يتسلّل إليها مثل ظلّ، تحت ذراعه منفضة ريش، وطبق على يده، لقد تأثّر بكآبة المكان من دون أنْ يعلم، فانتهى به الأمر إلى فقدان ثرثرته. - على الجدران تتدلّى، على هيئة تذكارات، قفّازات ملاكمة، وأقنعة وسيوف تدريب؛ غير أنّه كان من السهل فهْم أنّها لم تُلمس منذ زمن طويل؛ وهناك كتب تمّ تناولها ورميها بعدم اكتراث، تتوزّع على كلّ الأثاث، كما لو كان أوكتاف قد أراد، من خلال تلك القراءة الآليّة، حجب فكرة متسلّطة. وهناك رسالة تمّ الشروع في كتابتها، وقد اصفرّت ورقتها، تبدو كأنّها كانت تنتظر إكمالها منذ أشهر، قابعة مثل عتاب أخرس يتوسّط المكتب. ومع أنّ الشقة مسكوَنة فقد كانت تبدو مقفرة. الحياة غائبة عنها، ولدى دخول المرء إليها يستلم على وجهه تلك النفثة من الهواء البارد التي تخرج من القبور عندما تُفتح.

في هذا المسكن الكئيب الذي لم تغامر بدخوله أيّة امرأة ولو بطرف جزمتها، كان أوكتاف يجد من الراحة ما لا يجده في أيّ مكان آخر، يلائمه كلّ هذا الصمت والحزن والتخلّي؛ صخب الحياة الجذِل يفزعه، رغم بذْله بعض الجهود أحياناً للمشاركة فيه؛ لكنّه كان يعود أكثر كآبة من الحفلات التنكّرية أو الحفلات الراقصة أو لقاءات العشاء التي يجرّه إليها أصدقاؤه؛ لذلك لم يعد يقاوم ذلك الألم الغريب، وصار يترك الأيّام تنقضي بلامبالاةِ إنسانٍ لا يراهن على الغد. لم يعد يُهيء أيّ مشروع، لانتهاء إيمانه بالمستقبل، ولقد أرسل ضمنياً إلى الربّ تقاعده من الحياة، في انتظار موافقته عليه. ومع ذلك، إنْ كنتَ تتخيّل وجهاً هزيلاً مجوّفاً،

Twitter: @ketab_n

وسحنة شاحبة، وأطرافاً منهكة، ودماراً داخليّاً كبيراً، فستكون مخطئاً؛ فلا يكاد المرء يلحظ بعض الهالات السوداء تحت العينين، وبعض التدرّجات البرتقالية حول المحجرين، وبعض اللّيونة حول الصدغين تخدّدها أوردة مزرقّة. لكنّ شرارة الحياة لم تعد تلمع في عينيه اللّتين فقدتَا العزم والرغبة. وتلك النظرة الميتة في ذلك الوجه الفتيّ تشكّل تناقضاً غريباً وتُحدث أثراً أصعب ممّا يحدثه المرض العاديّ من سحنة شديدة النحول وعينين تشعّان بالحمّى.

كان أوكتاف، قبل وَهنِهِ الأخير، بمثابة الفتى الجميل، كما يُقال، وهو ما زال كذلك: بشعر أسود كثيف ذي خصلات وفيرة متراكمة بنعومتها ولمعانها على جانبَي الصدغين؛ وعينين واسعتين مخمليّتين، مع زرقة ليليّة، وهدبين مثنيّين، تلتمعان أحياناً بشرارة رطبة؛ في أوقات الراحة، وعندما لا ينعش أيّ شغف تينك العينين، فإنّهما تلفتان الانتباه إلى تلك السكينة الرائقة التي تتميّز بها عيون الشرقيّين، عندما ينتشون بالقيلولة على باب مقهى في سميرنا[1] أو القسطنطينية، بعد تدخين نارجيلاتهم. لم تكن سحنته زاهية قطّ، بل كانت أشبه ما تكون بسحنات جنوبي أوروبا ببياضها الزيتونيّ المخضرّ والتي لا يظهر مفعولها إلّا تحت الأنوار؛ كانت يده ناعمة ورقيقة، وقدمه صغيرة ومقوّسة. كان يتأنّق في لباسه من دون استباق الموضة أو اللّحاق بها متأخّراً، ويدرك بشكل رائع كيفية إبراز مزاياه الطبيعية. وعلى الرغم من عدم ادّعائه الأناقة أو الفروسية، فإنّ نادي الفروسية ما كان ليرفضه لو تقدّم لعضويّته.

فكيف حدث أنّ شابّاً فتيّاً، جميلاً وغنيّاً، مع دوافع كثيرة ليكون سعيداً، قد استنفد قواه بهذه الطريقة البائسة؟ ستقول إنّ أوكتاف كان

---

(1) إزمير حاليّاً.

Twitter: @ketab_n

يعاني من الضجر، وإنّ الروايات المنتشرة في زمنه قد أفسدت دماغه بأفكار سقيمة، وإنّه لم يعد يؤمن بشيء، ولم يتبقَّ له من شبابه ومن ثروته المبدّدة في حفلات مجون جنونية، إلّا الديون؛ كلّ هذه الفرضيات تفتقر إلى الصواب. لم ينغمس أوكتاف في الملذّات كثيراً، وبالتالي لا يمكن أن يكون قد بلغ مرحلة القرف؛ لم يكن من أتباع دُرجة الكآبة والسأم ولا من المتأثّرين بأبطال الروايات ولا من الحالمين أو الملحدين أو الإباحيّين أو المبذّرين؛ ظلّت حياته حتّى هذه المرحلة تجمع بين الدراسة والتسلية، على غرار بقية الشبّان؛ كان يحضر درس السوربون صباحاً، وفي المساء يقف على درج الأوبرا مشاهداً مرور الجميلات. ولم تُعرف له علاقة بفتاة من مرمر[1] أو دوقة، وكان ينفق عائداته دون أن يترك أهواءه تمسّ رأسماله، ما أكسبه احترام كاتبه العدل؛ إذن فهو شخص سويّ، وأعجز من أنْ يرمي بنفسه في جبل مانفريد الجليديّ[2] أو يشعل موقد إسكوس[3]. أمّا بالنسبة للسبب في حالته الفريدة التي يقف العلم عاجزاً أمامها، فلا نجرؤ على الاعتراف به، إذْ لا يمكن تصديقه في باريس القرن التاسع عشر، ولذا نترك مجال الاعتراف لبطلنا بصفته الشخصيّة.

بما أنّ الأطباء العاديين لم يفهموا شيئاً من هذا المرض الغريب،

(1) هذا التعبير الذي يعتبر اليوم غامضاً يدلّ على نجاح مسرحية «بنات من مرمر» *Filles de marbre* من تأليف تيودور باريير Théodore Barrière ولامبير تيبوست Lambert Thiboust، كانت قد عُرضت سنة 1853 وكتب عنها تيوفيل غوتييه. وكانت هذه الميلودراما قد اعتُبرتْ ردّاً على «غادة الكاميليا» *La Dame aux camellias* لألكسندر دوما الإبن. وتوصف فيها المحظيّة بكونها مخلوقة بلا مشاعر، و«فتاة من مرمر».

(2) مانفريد Manfred : تلميح لمشهد من دراما شعرية لبايرون بالاسم ذاته، حيث يصعد مانفريد إلى قمّة جبل «يونْغفراو» بنيّة الانتحار.

(3) تلميح الى انتحار الشاعر الرومنطيقي فيكتور إسكوس Victor Escousse (1813–1832) بثاني أوكسيد الكربون.

Twitter: @ketab_n

إذْ لم يحصل بعد إخضاع الروح للتشريح، تمّ اللّجوء في نهاية المطاف، إلى طبيب متفرّد، عائد من الهند بعد إقامة طويلة هناك، وصار معروفاً بتحقيق حالات شفاء رائعة.

أبدى أوكتاف خشية من زيارة الطبيب، لحدسه بوجود حدّة ذهن عليا قادرة على اختراق سرّه، ولم يوافق على استقبال السيّد بالتازار شيربونو إلّا نزولاً تحت إلحاح أمّه اللّجوج.

عندما دخل الطبيب، كان أوكتاف متمدّداً على أريكة؛ مخدّة تسند رأسه، وثانية تدعم مرفقه، وثالثة تغطّي قدميه، مع غندورة[1] تغطّيه بطيّاتها اللّيّنة والرقيقة؛ كان يقرأ أو بالأحرى يمسك بكتاب، لأنّ عينيه كانتا متوقّفتين عند صفحة من الكتاب من دون النظر إليها. كان وجهه شاحباً، لكنْ، وكما سبق لنا القول، لم يكنْ يبدي أيّ خوَر صحيّ واضح. وأي تشخيص سطحيّ لا يمكنه إدراك الخطر الذي يعاني منه هذا المريض الشابّ، حتّى إنّ منضدته كانت تحفل بعلبة سيجار بدل القوارير وأجهزة القياس والجرعات والمغليّات، وغيرها من اللّوازم التي ينصّ عليها دستور الصيدلة والأدوية في مثل هذه الحال. لم تكد قسماته الصافية، رغم بعض التعب، تفقد شيئاً من لطفها، وباستثناء الوهن العميق وقنوط النظرة اليائسة، كان يمكن لأوكتاف أنْ يبدوَ متمتّعاً بصحّة اعتيادية.

ومهما يكن من لامبالاة أوكتاف، فقد استرعى انتباهه المظهر الغريب للطبيب. كان للسيّد بالتازار شيربونو ملامح وجه هارب من إحدى حكايات هوفمان[2] يتجوّل في الواقع المندهش من هذا التكوين المضحك. كان وجهه الشديد السُّمرة يبدو ضحيّة جمجمة ضخمة جعلها تساقط

(1) الغندورة (كتبها المؤلّف بتسميتها الأفريقيّة الشماليّة) ثوب منزليّ بلا كُمَّين.

(2) إرنست هوفمان مؤلّف حكايات فنطازيّة ألمانيّ، سبق التّعريف به.

Twitter: @ketab_n

الشعر أكبر بكثير. جمجمة صلعاء، مصقولة مثل العاج، وقد حافظت على لونها الأبيض بينما اكتسب الوجه- القناع، بعد تعرّضه لأشعّة الشمس، وبفضل تراكب طبقات لفْحِها، مظهرَ سنديانة عجوز، أو رسماً لوجه اسودّ بفعل الدخان. ويزداد عرض عظامه وتجويفاتها ونتوءاتها، بقوّة تجعل القليل من اللّحم الذي يغطّيها مع كثرة الغضون المجعّدة، أشبه ما يكون بجلد مرطّب ومركّب على رأس ميت. والشعرات القليلة الرمادية التي ما زالت تتسكع عند مؤخرة الجمجمة، وقد اجتمعت في ثلاث خصلات رفيعة، اثنتين منها تنتصبان فوق الأذنين، فيما تنطلق الثالثة من الرقبة لتتلاشى عند نهاية الجبين، تجعل المرء يتأسّف على استخدام «باروكة» الشعر المستعار القديمة بخصلاتها الطوال الملفوفة، أو الشعر الكثيف العصريّ، وتتوّج بشكل مضحك ذلك المظهر الشبيه بكسّارة البندق. لكنّ ما يلفت الانتباه حقّاً لدى الطبيب ولا يمكن مقاومته، يتمثّل في عينيه؛ ففي وسط ذلك الوجه الذي دبغته السنّ، وتكلّس تحت سموات متأججة، واستنفدته الدراسة، حيث ترتسم متاعب العلم ومتاعب الحياة ضمن تجاعيد عميقة، ومع تغضّن مشعّ في المآقي، وطيّات مضغوطة أكثر من أوراق كتاب، تتلألأ حدقتان بلون زرقة الفيروز، فيهما صفاء وألق وفتوّة لا يمكن تصوّرها. كانتا نجمتين زرقاوين تلمعان داخل محجرين أسمرَين وغشاءَين متّحدين في المركز، تذكّر دائرتاهما الوحشيّتان نوعاً ما بالريش المنتظم في هالة حول الحدقة الجهراء[1] لدى طائر البوم. حتّى ليذهب الاعتقاد بالمرء إلى أنّ هذا الطبيب، وبواسطة بعض أعمال السّحر التي تعلّمها من البراهمة[2] أو البنديت[3]، قد تمكّن

(1) أو الخفشاء: أي التي لا تبصر إلّا في الليل.

(2) أفراد طبقة الكهنوت العليا عند الهندوس، نسبة إلى «براهما»، اسم الإله في هذه الديانة.

(3) عالم دين في الهند.

Twitter: @ketab_n

من سرقة عينَي طفل وثبّتهما في وجهه الشبيه بوجه جثّة. كانت نظرة المسنّ تشير إلى أنّ عمره في العشرينات؛ بينما كانت نظرة الشابّ تشير إلى أنّه في الستّين من عمره.

كانت بدلته هي البدلة المعتادة للطبيب: سترة وسروال من القماش الأسود، صدريّة حريرية من اللّون نفسه، وعلى قميصه تلوح قطعة ألماس كبيرة، قد تكون هديّة من أحد أمراء الهند أو أثريائها. غير أنّ ثيابه كانت تطفو كما لو كانت معلّقة على مشجب، وترسم طيّات عمودية تجعلها عظام الفخذ وعظام قصبتَي الساقَين تنكسر ضمن زوايا قائمة عندما يجلس الطبيب. لم تكْفِ الشمس المفترسة في الهند للتسبّب في هذا الهزال الهائل. والأرجح أنّ بالتازار شيربونو قد أخضع نفسه، ضمن هدف تدريبيّ، إلى طقوس الصوم عند نُسّاك الهند، وجلس على جلد غزالة قرب الزهّاد الممارسين لليوغا بين أربعة مواقد مضطرمة؛ غير أنّ هذا النقص في القوت لا يشير إلى أيّ مظهر من مظاهر الضعف. كان هناك ألياف صلبة ومتمدّدة على يديه، مثل أوتارٍ على مقبض الكمنجة، تربط ما بين العُظَيمات المجرّدة من اللّحم في سلاميّات الأصابع وتجعلها تتحرّك دون صرير زائد.

جلس الطبيب على المقعد الذي دلّه عليه أوكتاف قرب الأريكة، ممدّداً مرفقيه مع حركات تدلّ على عادة متأصّلة في الجلوس على الحصائر. وبتلك الجلسة كان السيّد شيربونو يُعرض بظهره عن الضوء الذي كان مسلّطاً على وجه مريضه، في وضعيّة ملائمة للمعاينة كثيراً ما يلجأ إليها الفاحصون، مفضّلاً أن يَرى على أنْ يُرى. ورغم أنّ وجه الطبيب كان مغموراً بالظلّ وأعلى جمجمته اللّامعة والمستديرة مثل بيضة ضخمة لنعامة، يرسل شعاعاً من ضوء، فقد كان أوكتاف يميّز لمعان البؤبؤين

Twitter: @ketab_n

الأزرقين الغريبين اللّذين يبدوان مشحونين ببريق ذاتيّ مثل الأجسام الفوسفورية: كان ينبثق منهما شعاع حادّ وصافٍ يستقبله المريض الشابّ في عمق صدره مع شعور بحكّة وحرارة ناجمتين عن ذلك الناسك.

«إذنْ يا سيّدي، قال الطبيب بعد لحظة صمت لاح فيها يلخّص الأعراض التي تعرّف عليها خلال معاينته السريعة، توصّلتُ حتّى الآن إلى أنّ حالك لا علاقة لها بمرض معتاد؛ أنت لا تشكو من أيّ مرض من الأمراض المصنّفة، ذات الأعراض المعروفة جيّداً، والتي يتمكّن الطبيب من معالجتها أو مفاقمتها؛ لذا وبعد التحدّث إليك قليلاً لن أطلب ورقة لأسجّل فيها وصفة مسكّنات من سجلّ الأدوية، وأوقّع في أسفلها توقيعاً طلسميّاً ليحملها خادمك إلى الصيدلية المجاورة».

ابتسم أوكتاف بوَهَنٍ، كما لو كان ذلك لشكر السيّد شيربونو الذي وفّر عليه أدوية منفّرة وغير مجدية.

«لكنْ، تابع الطبيب يقول، لا تسرع بالفرح لأنّك لا تعاني من تضخّم في القلب، أو سلّ في الرئتين، أو ليونة في النخاع الشوكيّ، أو دفق مَصْليّ في الدماغ، أو حمى تيفوئيدية أو عصبية، فكلّ هذا لا يعني أنّك في صحّة جيّدة. ناولني يدك».

ذهب الاعتقاد بأوكتاف إلى أنّ السيّد شيربونو سيجسّ نبضه، وانتظر أنْ يراه يُخرج ساعته ذات الثواني، فشمّر كُمّ غندورته كاشفاً عن رسغه ليمدّه آليّاً نحو الطبيب. ودون أنْ يبحث السيّد شيربونو بإبهامه عن ذلك النبض السريع أو البطيء الذي يشير إلى وضعيّة ساعة الحياة لدى الإنسان، أمسك في يده السمراء التي تشبه أصابعها كمّاشات سرطان، بيد الشابّ النحيفة والمُعَرَّقة والرطبة؛ جسّها، دعكها، وعجنها بمعنى ما، كما لو كان ينوي التواصل مغناطيسيّاً مع مريضه. ومع أنّ أوكتاف

Twitter: @ketab_n

كان متشكّكاً في مجال الطبّ، لم يتوصّل إلى منع نفسه من الشعور بنوع من الانفعال القلِق، إذْ بدا له أنّ الطبيب كان يستلّ منه روحه من خلال ذلك الضغط، حتّى إنّ الدم غادر وجنتيه تماماً.

«سيّدي العزيز أوكتاف، قال الطبيب تاركاً يد الشابّ، وضْعُك أخطر ممّا تتصوّر، وحتّى العلم، على الأقلّ كما تمارسه الرتابة الأوروبية العجوز، لا يستطيع أنْ يقدّم لك شيئاً، لم تعد لديك عزيمة في العيش، وروحك تنفصل تدريجياً عن جسدك؛ أنت لا تعاني من وسواس مرضيّ، ولا من ليبيمانيا[1]، ولا من نزعة انتحار سوداوية. - كلّا! - حالة نادرة وعجيبة، يمكنك، إنْ لم أحلْ دون ذلك، أنْ تموت من دون أيّ آفة داخلية أو خارجية يمكن تقديرها. لكنّك طلبتني في الوقت المناسب، فالروح لم تعد ممسكة بالجسم إلّا عبر خيط رفيع؛ غير أنّنا سنتمكّن من تحويله إلى عقدة جيّدة.

وفرك الطبيب يديه فرحاً ومقطّباً بابتسامة شقّتْ الغضون في طيّات وجهه الألف.

«يا سيّد شيربونو، لست أدري إنْ كنتَ ستشفيني، مع أنّي لست راغباً في ذلك على أيّة حال، لكنْ يتوجّب عليّ الاعتراف بأنّك استطعت من أوّل محاولة إدراك سبب الوضع الغريب الذي أنا فيه. يبدو لي أنّ جسدي صار قابلاً للاختراق، تاركاً أناي تفلت منّي كما يترك الغربال الماء يفلت من ثقوبه. أشعر أنّني أذوب في الكلّ الشموليّ، وصار يصعب عليّ تمييز نفسي في الوسط الذي أغطس فيه. فالحياة التي أستكملها، وفق ما يتيسّر لي، بالتمثيل الإيمائيّ المعتاد حتّى لا أُحزن أهلي وأصدقائي، تبدو لي في غاية البعد عنّي، حتّى أنّني في بعض اللّحظات أشعر بخروجي من

(1) اللّيبيمانيا Lypémanie نوع من الكآبة.

Twitter: @ketab_n

الدائرة الإنسانية: أروح وأغدو بالدوافع التي كانت تسوقني في الماضي، والتي ما زال دفعها الآليّ يدوم حتّى الآن، لكنْ من دون المشاركة في ما أفعل. أجلس إلى المائدة في الأوقات المعتادة، وأبدو كأنّني آكل وأشرب، مع أنّني لا أشعر بأيّ مذاق لأكثر الأطباق تتبيلاً وأكثر الخمور كحولاً؛ يبدو لي ضوء الشمس شاحباً مثل ضوء القمر، وللشموع شعلة سوداء. يتملّكني البرد في أسخن أيّام الصيف؛ وأحياناً يتملكني صمت داخليّ كما لو أنّ قلبي توقّف عن الخفقان وتوقّفت النوابض الداخلية لسبب مجهول. لا شكّ أنّ الموت لا يختلف عن هذه الحال لو وصفه الموتى.

- أنت تشكو، تابع الطبيب يقول، من استحالة عيش مزمنة، مرض معنويّ تماماً وهو مُتَفَشٍّ أكثر ممّا يُعتَقَد. الفكر قوّة قادرة على القتل مثل حمض السِّيانيدر، مثل شرارة قارورة ليدن[1]، وإن لم تكن آثار خرابها في متناول وسائل التحليل الضعيفة التي يمتلكها العلم المتاح. أيّ غمّ أنشب منقاره المعقوف في كبدك؟ من ارتفاع أيّ طموح سرّيّ سقطتَ محطّماً ومسحوقاً؟ أيّ يأس مُرّ تجترّه في سكونك؟ أتكون شهوة السلطة هي التي تعذبّك؟ هل تخلّيتَ إرادياً عن هدف فوق قدرة البشر؟ ما زلتَ في بداية الشباب بالنسبة لكلّ ذلك؛ هل خانتك امرأة؟

- كلّا يا دكتور، أجاب أوكتاف، لم أتشرّف حتّى بهذه النعمة.

- ومع ذلك، تابع السيّد بالتازار شيربونو، أقرأ في عينيك الكابيتين، وفي حركات جسدك اليائسة، وفي نبرة صوتك الصمّاء، عنوان مسرحية لشكسبير، بوضوح كما لو أنّه رُسِمَ بحروف من ذهب على كعبِ كتاب مجلّد.

(1) قارورة ليدن هي أوّل اختراع لحفظ الطاقة في دوائر كهربائية في العام 1745.

Twitter: @ketab_n

- وما هي هذه المسرحية التي أترجمها دون أنْ أعلم؟ قال أوكتاف، وقد بدا فضوله يستيقظ رغماً عنه.

- إنّها مسرحيّة *Love's labour's Lost*، تابع الطبيب بلكنة صافية تدلّ على إقامة مطوّلة في المستعمرات الإنجليزية من الهند.

- هذا يعني، إنْ لم أخطئ، «متاعب حبّ ضائعة».

- بالضبط».

لم يجب أوكتاف؛ تلوّنت وجنتاه بحمرة خفيفة، ومن أجل استعادة رباطة جأشه شرع يلعب بشرّابة حزامه. كان الطبيب قد حطّ ساقاً على ساق، ما أنتج أثراً يشبه العظام المتصالبة المنحوتة على القبور، وأمسك قدمه بيده على الطريقة الشرقية. كانت عيناه الزرقاوان تغوصان في عينَي أوكتاف وتستجوبانهما بنظرة ملحّة وناعمة.

«هيّا، قال السيّد بالتازار شيربونو، عليك أنْ تكاشفني، أنا طبيب الأرواح، وأنت مريضي، وكما يفعل القسّيسُ الكاثوليكيّ مع التائب عن أخطائه، فأنا أطالبك باعتراف كامل، ويمكنك فعل ذلك من دون الجثوّ على ركبتيك.

- وما جدوى ذلك؟ إذا افترضتُ أنّك قد حزرت جيّداً، فلن تخفّ آلامي بالحديث عنها. لا أشكو من ألم يتطلّب الثرثرة، وما من قدرة بشرية، بما في ذلك قدرتك، ستقْدر على شفائي.

- ربّما»، قال الطبيب وهو يستقرّ تماماً في أريكته، كمَنْ يهيّئ نفسه للإصغاء إلى بوح طويل نوعاً ما.

«لا أريد منك، عاد أوكتاف إلى القول، أنْ تتّهمني بالعناد الصبيانيّ، ولا أنوي أن أترك لك، من خلال تمسّكي بالصّمت، فرصة لراحة ضميرك أمام موتي؛ لكنْ، بما أنّك تلحّ، سأروي لك حكايتي؛ لقد

Twitter: @ketab_n

حزرتَ جوهرها، ولن أجادلك حول تفاصيلها. لا تنتظرْ شيئاً متميّزاً أو حالماً كما في الروايات. هي مغامرة بسيطة جدّاً، مشتركة كثيراً، ومبتذلة تماماً؛ لكنْ، وكما تقول أغنية هاينريش هاينه[1]، منْ تحْدث له يجدها دائماً جديدة، ومنها يتحطّم قلبه. في الحقيقة أنا أخجل بقولِ مثل هذا الكلام المبتذل لرجل عاش في البلدان الأكثر غرابة والأكثر خيالاً وتخييلاً.

- لا تخشَ شيئاً؛ المشترك هو الذي يكون خارقاً أكثر بالنسبة لي، قال الطبيب مبتسماً.

- إذاً، أيّها الطبيب، أنا أشرف على الموت بسبب الحبّ».

2

كنتُ موجوداً في فلورنسا في نهاية صيف ..١٨٤ تقريباً، وهو أفضل فصل لرؤية فلورنسا. كنت على سعة من الوقت والمال ورسائل التوصية، وكنت وقتها شابّاً صاحب مزاج جيّد، لا يطلب غير التسلية. أقمت على ضفّة اللّونغ-آرنو، واستأجرت عربة خيل، وانسقت إلى تلك الحياة الفلورنسية العذبة التي تفتن الغريب كثيراً. في الصباح، كنت أذهب لزيارة بعض الكنائس والقصور أو المتاحف، كما يحلو لي، ومن دون استعجال، حتّى لا أصاب بسوء هضم الروائع الفنية وهو ما يصيب السيّاح المتسرّعين في إيطاليا بغثيان الفنّ؛ تارة أشاهد أبواب بيوت التعميد البرونزية، وطوراً منحوتة بيرسيه لبنفونوتو[2] في لوجّا

(1) هاينريش هاينه Heinrich Heine (1797–1856) شاعر وناقد وصحفيّ ألماني شهير، يُعدّ من أهمّ الشعراء الألمان الرومانطيقيّين. وتعود شهرته أيضاً إلى تأليفه الكثير من القصائد الغنائية التي لحّنها لاحقاً بعض عظماء الموسيقى مثل فرانتس شوبرت وروبرت شومان ويوهانس برامس.

(2) «بيرسيه يمسك برأس ميدوزا» منحوتة برونزية لبنفونوتو تشيلّيني Benvenuto Cellini تمّ تدشينها سنة 1554 وتعتبر من روائع عصر النهضة.

Twitter: @ketab_n

ديه لانتسي؟[1]، وبورتريه الفورنارينا في متحف الأوفيتزي[2]، أو فينوس التي نحتها كانوفا في قصر بتّي[3]، لكنّني لا أشاهد أكثر من شيء واحد في كلّ مرّة. بعد ذلك أتناول الغداء في مقهى دوناي، فأتناول قهوة مثلّجة، وأدخّن بضعة سيجارات، وأتصفّح الجرائد، ثمّ أعود إلى بيتي من أجل القيلولة بعد أن تكون بائعات الزهور الجميلات المعتمرات قبّعات كبيرة من القشّ والواقفات أمام المقهى، قد جعلن عرى سترتي مزهرةً، بموافقتي أو غصباً عني؛ في الساعة الثالثة تأتي عربة الخيول لتأخذني وتنقلني إلى منتزه الكاتشيني. والكاتشيني في فلورنسا يعادل غابة بولونيا في باريس، مع فارق أنّ الجميع هنا يعرفون بعضهم بعضاً، وأنّ المفترق يشكّل صالوناً في الهواء الطلق، حيث تُستبدل الأرائك بالعربات التي يتمّ توقيفها وتنظيمها ضمن نصف دائرة. وهناك تستقبل النساء المتبرّجات والمستلقيات على وسائد، عشاقهنّ والمهتمّين بهنّ، والمُتغَندرين، والملحقين بالقنصليّات الذين يقفون خافضين قبّعاتهم عند الاقتراب. لكنّك تعرف كلّ هذا جيّداً كما أعرفه أنا. – هناك تُخطّط مشاريع السهرة، وتُجرى المواعيد، وتأتي الإجابات، وتُقْبَل الدعوات؛

(1) «لوجّا ديه لانتسي» Loggia dei Lanzi : مبنىً ذو قبّة وأقواس شُيّد في فلورنسا بين 1376 و1382، تُشاهَد فيه عدّة تماثيل آتية من متحف الأوفيتزي المُجاور له.

(2) «بورتريه امرأة شابّة أو لا فورنارينا *Ritratto di giovane donna (La Fornarina)* لوحة تعود فترة بين 1518 و1519 تُنسب إلى فنّان النهضة الإيطالية رافائيل Raphaël . ومتحف الأوفيتزي Galleria degli Uffizi في فلورنسا يضمّ الكثير من أشهر روائع التراث الفنّي القديم، أنشئ سنة 1765 في قصر يحمل الاسم ذاته. ويشير الشرّاح إلى عدم دقّة ملعومات غوتييه بهذا الصدد، فلوحة «بورتريه امرأة شابّة» كانت منذ البداية في قصر باربريني Barberini بروما، وليس في لوجّا ديه لانتسي كما نقرأ في نصّه.

(3) أنطونيو كانوفا Antonio Canova (1757–1882) نحّات إيطالي، وقصر بتّي هو قصر فلورنسي كبير من طراز النهضة جاء اسمه من صاحب بنك كان يدعى لوقا بيتّي Luca Pitti .

Twitter: @ketab_n

هي مثل بورصة للذّة تنعقد بين الثالثة والخامسة، تحت ظلال الأشجار الجميلة، تحت ألطف سماء في العالم. وكلّ شخص يريد ان يُعَدّ مرموقاً نسبيّاً عليه أنْ يظهر يوميّاً في منتزه الكاتشيني. ولم أكن أقوى على الغياب، وفي المساء بعد تناول العشاء، كنت أذهب إلى أحد الصالونات، أو إلى البيرغولا، عندما تكون المغنّية جديرة بالاستماع إليها.

«بتلك الطريقة أمضيت واحداً من أسعد شهور حياتي؛ غير أنّ تلك السعادة لم يكن مقدّراً لها أن تدوم. ذات يوم لاحت عربة خيول رائعة في منتزه الكاتشيني. كانت من إنتاج صناعة المرْكبات في فيينا، روعة من روائع لورنتسي، مصقولة ببرنيق متلألئ، مزخرفة بشعار ملَكيّ تقريباً، وكان يجرّها أجمل حصانين لم يُلمح مثلهما في هايدبارك أو في سان جيمس في الدراوينغ روم التابعة للملكة فكتوريا، وقد أسرجهما على طريقة دومون[1] وبأفضل ما يكون، حوذيّ في أوج الشباب يرتدي سروال ركوب من جلد أبيض وسترة فروسيّة خضراء؛ وكان نحاس عُدّة الحصانين، وعلبتا محورَي العجلتين، ومقابض الأبواب، تلمع كلّها مثل الذهب وترسل بروقاً إلى الشمس؛ كانت كلّ الأنظار تتابع هذا العربة المتألقة التي ذهبتْ، بعد أنْ رسمتْ على الرمل خطّاً منحنياً لا يقلّ دقّة عما يرسمه البركار، لتصطفّ قرب العربات. لم تكن العربة فارغة، كما خمّنتَ جيّداً؛ غير أنّ سرعة الحركة لم تسمح إلّا بتمييز طرف جزمة ممّددة على وسادة المقدّمة، وطية شال عريضة وقرص مظلّة مهدّبة بحرير أبيض. أغلقتْ المظلّة وشوهدتْ امرأة تتألق بجمال لا نظير له. كنت أمتطي حصاني وتمكّنت من الاقتراب بما يكفي حتّى لا تفوتني أدنى

(1) طريقة دومون Daumont وكذلك D'Aumont (نسبة إلى الفرنسيّ لويس دومون Louis d'Aumont)، طريقة في قرن العربات المجرورة بالخيول لا يتمتّع فيها الحوذيّ بمقعد في مقدّم العربة بل يمتطي حصاناً يقوده هو والأحصنة الأخرى المرتبطة به بحبال.

Twitter: @ketab_n

جزئيّة من هذه الرائعة البشرية. كانت الغريبة ترتدي فستاناً بلون أقرب إلى خضرة مائية مطعّمة بالفضّة تجعل كلّ امرأة تبدو سوداء مثل خُلد عندما تكون سحنتها لا تشكو من عيب -هي وقاحةُ شقراءَ واثقة من نفسها. كان قماش من الكريب[1] الصيني الأبيض، المنفوش بزركشات من اللّون نفسه، يغطّيها بدثاره اللّين والمجعد بطيّات صغيرة، مثل قميص فيدياس[2]. وكانت هالة الوجه تتمثّل في قبّعة من قشّ فلورنسا الأكثر نعومة، مزخرف بزهور أذن الفار وبنباتات مائية رهيفة ذات أوراق صغيرة تميل إلى الخضرة المزرقّة؛ أمّا قطعة الحلي الوحيدة فتتمثّل في عظاية ذهبيّة مزخرفة بالفيروز وتحيط بذراعها التي كانت تمسك بمقبض المظلّة العاجيّ.

«عذراً، أيّها الطبيب العزيز، على هذا الوصف، الشبيه بما تنشره مجلّات الأزياء، يأتيك من عاشق تكتسي هذه التفاصيل الصغيرة بالنسبة إليه أهميّة كبيرة. من جانبَي جبينها الأبيض والأصفى من ثلج بكر يهطل ليلاً فوق أعلى قمّة في جبال الألب، تنزل في شريطين وافرين، ضفيرتان من الشعر الأشقر المجعّد الذي تشكّل حلقاته ما يشبه أمواجاً ضوئية؛ ويظهر هدبان طويلان ودقيقان مثل تلك الخيوط الذهبيّة التي كان صانعو المنمنمات في القرون الوسطى يجعلونها تشع حول رؤوس ملائكتهم، ليحجبا جزئيا حدقتيها بلونهما الأزرق المخضر والشبيه بالبريق الذي يخترق جبال الجليد بفعل مؤثّرات معيّنة متأتية من الشمس؛ فمها المرسوم بمنتهى الإتقان، يعرض تلك اللّوينات الأرجوانية التي تغسل شقوق أبواق فينوس الصّدَفية، وخدّاها يشبهان وردتين بيضاوين

(1) قماش حريري رقيق وجعد.

(2) فيدياس Phidias : نحّات أثيني عاش بين العامين 490 و430 تقريباً قبل الميلاد. كان يشرف على نحت التماثيل في البارثينون وعلى تزيينه، وهو مَن نحتَ تمثال زفس.

Twitter: @ketab_n

خجولتين من شأنهما بثّ الخفر في اعتراف العندليب أو قبلة الفراشة؛ ما من فرشاة بشرية بإمكانها نقل تلك السحنة الممعنة في عذوبتها ونداوتها وشفافيتها الأثيرية التي لا تبدو ألوانها متأتّية من الدم الفظّ الذي يحمّر أليافنا؛ وحدها خيوط الاحمرار الأولى في مطلع الفجر على ذرى سييرا نيفادا، والفارق اللّحميّ في درجة ألوان بعض أنواع زهرة الكاميليا البيضاء عند ظُفَيرات بتلاتها، ورخام باروس[1] مستشَفّاً عبر ستار ورديّ من الشاش، هي التي يمكنها أنْ تعطي عنها فكرة بعيدة. كان المتاح لمحه من رقبتها ما بين شرائط القبّعة وأعلى الشال يتلألأ ببياض متقزّح، حول الحوافّ، بموجات بريق حجر عين الهرّ[2] الكريم. هذا الرأس البهيّ لا يأسر بطريقة رسمه أوّلاً، بل بدرجات امتزاج ألوانه، على غرار أعمال مدرسة البندقية، رغم أنّ قسماتها كانت تعادل في صفائها ورهافة قسماتها الوجوه القديمة المنحوتة في عقيق الجزْع المنقوش[3].

«وكما نسي روميو روزالين[4] بمرأى جولييت، فقد نسيتُ بدوري حبيباتي السابقات لدى ظهور هذا الجمال الأسمى. استعادت صفحات قلبي بياضها: اختفت منها كلّ الأسماء وكلّ الذكريات. لم أكن لأفهم كيف تمكّنت من العثور على بعض الانجذاب إلى تلك العلاقات المبتذلة التي لا تتلافاها إلّا قلّة قليلة من الشبّان، ولقد لمتُ نفسي عنها مثل خيانات آثمة. ومنذ ذلك اللّقاء المحتوم بدأتُ حياة جديدة.

«غادرت المركبة منتزه الكاتشيني وسلكت درب المدينة، حاملةً معها

---

(1) باروس Barus: إحدى جزر السيكلاد اليونانية (سانتوريني، باروس، وناكسوس)، التي قدّمت مناجمها لفنّاني الإغريق القدامى أفضل أنواع الرخام لصنع التماثيل.

(2) الأوبال أو حجر عين الهر: حجر لبنيّ كريم متغيّر الألوان.

(3) نوع من العقيق يعرف بخطوط متوازية مستديرة مختلفة الألوان، يُنقش ويُتّخذ حلية.

(4) حبيبته الأولى.

Twitter: @ketab_n

تلك الرؤيا الباهرة؛ أدنَيتُ حصاني من حصان شابّ روسي ودود جدّاً، جوّاب بِحار، مخالط للناس في كلّ صالونات أوروبا الكوسموبوليتية، كما كانت له دراية بأشهر الرحّالة في أوساط علية القوم؛ نقلتُ الحوار نحو الغريبة، وعلِمْتُ أنّها الكونتيسة براسكوفي لابِنْسكا، ليتوانية من محتد أصيل وذات ثروة فائقة، وزوجها يخوض غمار حرب القوقاز منذ سنتين.

«لا فائدة من ذكر ما استخدمتُ من مهارات دبلوماسية كي أحظى باستقبال الكونتيسة لي، وقد جعلها غياب الكونت أكثر تحفّظاً في مكان الاستقبال والتعارف؛ وفي الختام تمّ قبولي. كان هناك أميرتان وأربع بارونات مسنّات لا يمكن تخمين أعمارهنّ يتولّين الاعتناء بي وفق أخلاقهنّ القديمة.

«كانت الكونتيسة لابنسكا قد استأجرت فيلّا رائعة، كانت سابقاً تعود إلى آل سالفياتي، وهي على بعد نصف ميل من فلورنسا، وفي بضعة أيّام تمكّنتْ من تثبيت كلّ الرفاهية العصرية في ذلك المنزل الريفّي القديم، دون أن تمسّ بجماله الصارم وأناقته الجادّة. كان هناك بوابات كبيرة مزخرفة تندمج بإتقان في الأقواس القوطيّة الطراز؛ وتتناسق أرائك وأثاث من الطراز القديم مع الجدران المغطّاة بخشب أسمر أو بجداريات ذات ألوان مخفّفة لتناسب ألوان السجّاد العتيق؛ فما من لون في منتهى الجدّة وما من بريق ذهبيّ قويّ يزعج العين، والحاضر لا يتنافر مع الماضي. فالكونتيسة كانت تبدو سيّدة قصر بشكل طبيعيّ حتّى ليبدو القصر القديم كأنّه شُيِّد من أجلها عمداً.

«وإذا كنتُ قد فُتنتُ بجمال الكونتيسة المشرق، فإنّ افتتاني بروحها التي كانت في منتهى الندرة والرقّة والأريحية، فاقت ذلك بكثير، بعد بضع

Twitter: @ketab_n

زيارات؛ كانت عندما تخوض في موضوع مهمّ، تأتي روحها إلى بشرتها، إنْ صحّ التعبير، وتصير مرئيّة. كان بياضها يشعّ مثل جبس مصباح بفعل شعاع داخليّ: يوجد في سحنتها ذلك اللّمعان الفوسفوريّ، وتلك الرجفات الضوئية التي يتحدّث عنها دانتي عندما يصف بهاء الفردوس؛ يمكن القول إنّها ملاك يرتسم بوضوح على الشمس. كنت أمكث مبهوراً ومنتشياً ومتبلّداً. وعندما تتوجّب عليّ الإجابة حتماً، ولأنّني كنت أستغرق في تأمّل جمالها، مسلوب اللّبّ برنين صوتها السماويّ الذي يجعل من كلّ كلمة موسيقى تفوق الوصف، أتلعثم ببضع كلمات غير منسجمة لا شكّ أنّها تقدّم لها أسوأ فكرة ممكنة عن مدى ذكائي؛ حتّى إنّها، في بعض المرّات، تصدر ابتسامة غير منظورة ذات تهكّم وديّ، تمرّ مثل لمعة ورديّة على شفتيها الفاتنتين، بسبب بعض الجمل التي تكشف اضطرابي العميق أو حماقتي التي لا شفاء منها.

«لم أقل لها بَعدُ شيئاً عن حبّي؛ فأنا أمامها أغدو بلا فكر، بلا قوّة، بلا شجاعة؛ كان قلبي يدقّ كأنّه يريد الخروج من صدري والجثوّ عند ركبتَي سيّدته. عزمتُ عشرين مرّة على توضيح أفكاري، غير أنّ خجلاً لا يقاوَم كان يمسك بي؛ كان أدنى برود أو تحفّظ من قبَل الكونتيسة يتسبّب لي برعدات قاتلة، شبيهة بتلك التي تصيب المحكوم بالإعدام عندما يكون رأسه على النطع وهو ينتظر اختراق شرارة البلطة عنقه. كانت تخنقني تشنّجات عصبية، ويغرق جسمي في حمّام عرق. كنت أحمرّ خجلاً، وأشحب وأخرج من دون أن أقول شيئاً، مع صعوبة في إيجاد الباب، مترنّحاً مثل رجل ثمِل على درجات المدخل.

«لدى خروجي أستعيد مداركي وأرسل في الريح أحرّ المدائح. أوجّه لمعبودتي الغائبة ألف بوح بالحبّ بفصاحة لا تقاوم. وأتساوى في هذه

Twitter: @ketab_n

المناجاة الخرساء مع شعراء الغزل الكبار. فلا نشيد الإنشاد لسليمان، مع عطوره الشرقية المدوّخة وغنائيّته المهووسة بالحشيش[1]، ولا سونيتات بترارك مع رقّتها الأفلاطونية ولطفها الأثيريّ، ولا «أنترميتزو» هاينريش هاينه[2]، مع حساسيته العصبية والهاذية، كان بوسعها أنْ تقترب من فيض روحي الذي لا ينضب بينما تنضب حياتي. وفي نهاية كلّ مناجاة يخيّل إليّ أنّ الكونتيسة المنهزمة ستنزل من السماء على قلبي، وفي أكثر من مرّة شبكت ذراعيّ حول صدري معتقداً أنّني سأضمّها.

«كنت مسكوناً بها إلى حدّ إمضاء ساعات في الهمس، على شكل صلوات حبّ، بهاتين الكلمتَين: براسكوفي لابِنسكا، مستشعراً جاذبية لا توصف في هذه النبرات الصوتية التي تبدو تارةً كأنّها تنفرط ببطء مثل الجواهر، ومنطوقة طوراً بذلاقة محمومة من لسان عابد تزيد صلاته في تحميسه. وفي مرّات أخرى، كنت أرسم الاسم المحبوب على أجمل أوراق الرّق، مع تنقيب إضافيّ في مخطوطات العصر الوسيط حول فنّ الخط، عن لمسات ضوء ذهبيّة، وزخارف زهرية لازورديّة، وتشجيرات خضراء. وكنت أمضي في هذا الكدّ بدقّة مشبوبة وإتقان صبيانيّ تلك الساعات الطويلة التي تفصل بين زياراتي للكونتيسة. ولم أكن قادراً على القراءة أو الانشغال بأيّ شيء كان. لا شيء كان يشغلني غير براسكوفي، حتّى أنّني لم أكنْ أفتح الرسائل التي تصلني من فرنسا. وفي العديد من المرّات بذلتُ جهوداً كي أخرج من هذه الحال؛ حاولت تذكّر قواعد

(1) أشار الشرّاح إلى هذا الإقحام الاستفزازيّ من قبل غوتييه. انظر طبعة غاليمار، سلسلة Folio-classique، ص 226، الحاشية 16.

(2) بهذا العنوان الموسيقيّ، *Intermezzo*، نشر هاينريش هاينه (سبق التعريف به) مجموعة شعريّة ترجمها إلى الفرنسيّة جيرار دو نرفال. وتشير المفردة بالأصل إلى فاصل موسيقيّ أو غنائيّ يرافقه أحياناً رقص كان يوضع بين أقسام عمل مسرحيّ أو غنائيّ طويل.

Twitter: @ketab_n

الإغواء المسلَّم بها لدى الشباب، والمناورات التي يستخدمها جماعة فالمون في مقهى باريس ودون-جوانات نادي فرسان السباق؛ لكنّني خلال التطبيق يخذلني قلبي، وأتحسّر لأنّني لا أمتلك، مثل جوليان سوريل، بطل ستاندال، رزمة رسائل شعرية تدريجية أنسخها لإرسالها إلى الكونتيسة. بقيت مكتفياً بالحبّ، أهب نفسي كلّها من دون المطالبة بمقابل، من دون أمل ولو كان بعيداً، ذلك أنّ أحلامي الأكثر جسارة كانت لا تكاد تجرؤ على ملامسة الأنامل الورديّة لبراسكوفي بشفتيها. ولا شكّ أنّ المترهْبن الجديد في القرن الخامس عشر، بجبينه الخاشع على درجات المذبح، والفارس الجاثي في شكّته المعدنية الصلبة، ما كانا يكنّان لصورة العذراء عبادة أكثر خشوعاً».

أنصت السيّد بالتازار شيربونو إلى أوكتاف باهتمام عميق، ذلك أنّ حكاية الشابّ بالنسبة إليه لم تكن مجرّد حكاية رومنسية، ولقد قال وكأنّه يحدّث نفسه في إحدى المرّات التي توقّف فيها الراوي: «نعم، هوذا التشخيص الدقيق للحبّ في درجة الهوى، هو مرض غريب ولم أصادفه إلّا مرّة واحدة، في شاندرناغور، عند فتاة من طائفة المنبوذين تعلّقت ببرهميّ؛ ولقد ماتت من جرّاء ذلك الحبّ، المسكينة، لكنّها كانت متوحّشة، أمّا أنت يا سيّدي أوكتاف، فمتحضّر، وسوف نشفيك». بعد إغلاقه للقوسين، أشار بيده إلى السيّد دو سافيل كي يتابع؛ وطوى ساقه على فخذه مثل قائمة مفصليّة لجرادة، بطريقة تجعله يسند ذقنه بركبته، وظلّ على هذه الوضعية المستحيلة على غيره، لكنّها كانت تبدو مريحة بالنسبة إليه.

«لا أريد أنْ أزعجك بتفاصيل آلامي السرّية، تابع أوكتاف؛ أصل الآن إلى مشهد حاسم. ذات يوم، وقد عجزت عن تعديل رغبتي الملحّة

Twitter: @ketab_n

في رؤية الكونتيسة، استبقتُ ساعة زيارتي المعتادة؛ كان الطقس عاصفاً وثقيلاً. لم أجد السيّدة لابنسكا في الصالون. كانت قد استقرّت تحت رواق تسنده أعمدة رشيقة، وينفتح على باحة تتيح النزول إلى الحديقة؛ ولقد أمرتْ بجلب آلة البيانو مع أريكة وبعض كراسي الأسل؛ وكان هناك أحواض ملآى بزهور زاهية، لا توجد في أماكن أخرى زهور بتلك النداوة والعبق مثلما توجد في فلورنسا، تعجّ بها مساحات ما بين الأعمدة، فتُشبع بأريجها نفحات النسيم النادرة التي كانت تُقبل من الآبينيني[1]. ومن خلال فتحات الأقواس يمكن للمشاهد أن يلمح أشجار الطقسوس ونبات الشمشاد المشذّب لتزيين الحديقة، ومن هناك ترتفع بضع سرْوات معمّرة، وتظهر بعض منحوتات الرخام الأسطوريّة مع الذوق المتكّلف في أسلوب باشيو باندينيللي أو لاماناتو[2]. في البعيد، وفوق الارتسام الشبحيّ لمدينة فلورنسا، تتكوّر قبّة كاتدرائية سانتا ماريا دال فيوري، ويبرز البرج المربّع لقصر فيكيو.

«كانت الكونتيسة بمفردها، متمدّدة على أريكة الأسل؛ لم تسبق لي رؤيتها على تلك الدرجة من الجمال؛ كان جسدها اللّامبالي، وقد أضنته الحرارة، يستحمّ مثل جسد حوريّة بحريّة في رغوة بيضاء لمئزر حمّام من موسلين الهند وقد أحاطت به، من أعلاه إلى أسفله، زركشة فائرة تشبه السُّجُف الفضّية على أطراف الموجة؛ وثمّة مشبك معدنيّ مطعّم بالعاج من خراسان يغلق عند الصدر ذلك الفستان الخفيف بخفّة القماش الفضفاض الذي يتطاير حول تمثال أثينا المنتصرة وهي ترتدي صندلها. ومن كمَّيها المفتوحين عند المفصد، مثل المدقّة في كأس الزهرة، تخرج ذراعاها بلون

(1) سلسلة جبال تمتدّ على مسافة تقدّر بألف كيلومتر من شمال إيطاليا إلى جنوبها على طول الساحل الشرقي.

(2) من نحّاتي عصر النهضة.

Twitter: @ketab_n

أنقى من المرمر الذي ينحت منه صانعو التماثيل الفلورنسيّون نسَخاً من التماثيل القديمة؛ ويأتي وشاح أسود عريض معقود حول الخصر، وقد تدلّى طرفاه، ليبرز التباين الشديد مع كلّ ذلك البياض. غير أنّ ما يمكن أن يُحسب على الحزن، في تباين تدرّج الألوان المنسوب عادةً للحِداد، يجد بهجته في رأس الخفّ الشركسي الصغير، وكان دون جوانب ومن الجلد الأزرق، وقد نُقش بزخارف صفراء، إذْ كان طرفا الخفّ ينتصبان تحت آخر طيّات الموسلين.

«كان شعر الكونتيسة الأشقر، بضفراته المتفخة كما لو رفعَها هبوب، يكشف جبينها الناصع، بينما يشكّل صدغاها الشفّافان ما يشبه الهالة، حيث يتلألأ النور في شرارات ذهبيّة.

«بالقرب منها، وعلى كرسيّ، كانت قبّعة كبيرة من تبن الأرزّ تخفق في الريح، مزيّنة بشرائط سوداء طويلة تشبه شرائط الفستان، وثمّة قفّازان من السويد لم يتمّ استخدامهما. لدى رؤيتي، أغلقت براسكوفي الكتاب الذي كانت تطالعه- أشعار ميكيفيتش[1]-، وأشارت لي بحركة ترحيب صغيرة من رأسها؛ كانت بمفردها: ظرف ملائم ونادر. جلستُ قبالتها على المقعد الذي أشارت إليه. خيّم بيننا، لعدّة دقائق، نوع من أنواع الصمت التي تغدو شاقّة إذا طالتْ. لم أجد ما يسعفني من تلك الصيَغ الجاهزة للحوار؛ كنت أشعر باضطراب في رأسي، وكانت شعلات لهيب تصعد من قلبي إلى عينيّ، بينما حبّي يصرخ بي: «لا تُضِعْ هذه الفرصة الخارقة».

«لا أتصوّر ماذا كنت سأفعل لو أنّ الكونتيسة خمّنت سبب اضطرابي

(1) آدم ميكيفيتش Adam Mickiewicz (1798-1855): شاعر وطنيّ بولنديّ وكاتب مقالاتٍ ومترجم وناشر وكاتِب سياسيّ. كان ممثّلاً رئيساً للحقبة الرومانطيقية البولندية، أقام في فرنسا لفترة وعلّم في «كوليج دو فرانس».

Twitter: @ketab_n

فاستوت قليلاً مادّةً نحوي يدها الجميلة، كما لو كانت تريد إغلاق فمي.

«لا تنبس بأيّ كلمة يا أوكتاف؛ أنت تحبّني، وأنا أعرف ذلك، أحسّ به، أصدّقه؛ لا ألومك أبداً فالحبّ لا يخضع للإرادة. ولا شكّ أنّ نساء أخريات أكثر صرامة سيُظهرن شعوراً بالإهانة؛ أمّا أنا فأرثي لحالك، لأنّني لا أستطيع أنْ أحبّك، ويحزنني أنْ أكون سبب شقائك.- أتأسّف لحصول لقائك بي، وألعن النزوة التي جعلتني أغادر فينيسيا إلى فلورنسا. كنت آمل في البداية أنْ يتوصّل برودي الدائم تجاهك إلى إرهاقك وإبعادك؛ غير أنّ الحبّ الحقيقيّ الذي أرى علاماته كلّها في عينيك لا يمكن أنْ يصدّه أيّ شيء. ولا يجعلنّك لطفي تزرع أيّ وهم في داخلك، أو أيّ حلم، ولا تعتبرْ شفقتي عليك تشجيعاً لك. هناك ملاك ذو درع من ألماس، وسيف متّقد، يحميني من أيّة غواية، بأفضل من الديانة، وبأفضل من الواجب، وبأفضل من الفضيلة؛ وهذا الملاك، هو حبّي: أعشق الكونت لابنسكي. وأنا سعيدة بعثوري على الهوى في الزواج».

«انبجس سيل دموع من تحت جفنيّ لدى سماعي هذا الاعتراف القويّ في صراحته، ووفائه، وحيائه النبيل، وأحسست في داخلي بانكسار نابضِ حياتي.

«وقفتْ براسكوفي متأثّرة، وبحركة إشفاق نسائية رشيقة، مرّرتْ محرمتها القطنية على عينيّ:

«هيا، لا تبكِ، قالت لي، أمنعك من ذلك. حاول التفكير في شيء آخر، تخيّلْ أنّني سافرت نهائياً، أنّني متّ؛ اِنْسَني. سافرْ، اِعملْ، شارك في أعمال خيريّة، ساهمْ بنشاطٍ في الحياة الإنسانية ابحثْ عن العزاء في فنّ أو في حبّ..».

«قمتُ بحركة إنكار.

Twitter: @ketab_n

«أتعتقد بأنّك ستتعذّب أقلّ إذا واصلتَ رؤيتي؟ تابعت الكونتيسة القول؛ تعال، سوف أستقبلك دائماً. الربّ يطالبنا بالصفح عن أعدائنا؛ فكيف ستتعامل بطريقة أسوأ مع من يحبّوننا؟ مع ذلك يبدو لي الغياب علاجاً أنجع. وبعد سنتين يمكننا التصافح بلا مجازفة، من طرفك»، أضافت وهي تحاول الابتسام.

«في الغد غادرتُ فلورنسا؛ لكنْ لم تتمكّن دراستي ولا أسفاري ولا مرور الزمن، من تقليل آلامي، وأحسُّ بأنّني أموت: فلا تمنعني من ذلك، أيّها الطبيب!

- هل عدت إلى رؤية الكونتيسة براسكوفي لابنسكا؟ قال الطبيب الذي كانت عيناه الزرقاوان تلمعان بشكلٍ غريب.

- كلّا، أجاب أوكتاف، لكنّها في باريس». ومدّ إلى السيّد بالتازار شيربونو بطاقة منقوشة كُتِبَ عليها:

«الكونتيسة براسكوفي لابِنسكا تكون في بيتها يوم الخميس».

3

بين المتنزّهين النادرين الذين كانوا آنذاك يجوبون شارع غابريال في الشانزيليزيه، انطلاقاً من السفارة العثمانية حتّى الإيليزيه بوربون[1]، مفضّلين على الزوبعة الغباريّة والقرقعة الأنيقة للطريق الكبيرة المعبّدة، الانعزالَ والصمتَ والهدوءَ النديّ في هذه الطريق المزروعة بالأشجار من أحد جانبيها وبالبساتين من الجانب الآخر، يوجد قليلون ممّن لم يتوقّفوا، حالمين مع شعور بالإعجاب ممزوج بالحسد، أمام منزل شاعريّ غامض، حيث تبدو الثروة، وهذا أمر نادر، تؤوي السعادة.

---

(1) اسم أقدم لقصر الإليزيه في فرنسا.

Twitter: @ketab_n

مَن لم يحصل معه قطْع سيره أمام سياج منتزه، والإطالة في مشاهدة الفيلّا البيضاء عبر أجمات الاخضرار، ثمّ الابتعاد بقلب مغتمّ، كما لو كان حلم حياته مخبّأ خلف تلك الأسوار؟ وبالعكس فإنّ مساكن أخرى، عندما تتمّ مشاهدتها من الخارج بالطريقة نفسها، توحي لك بحزن يتعذّر وصفه؛ فالضجر والتخلّي واليأس تجمّد الواجهة بألوانها الرمادية وتصفرّ ذرى الأشجار نصف العارية؛ وتلوح التماثيل مصابة ببرص الطحالب، وتذوي الأزهار، ويخضرّ ماء البرك، وتغزو الأعشاب الطفيلية الممرّات رغم المجرفة؛ وتسكت الطيور، إنْ وُجدتْ.

كانت الحدائق الموجودة أسفل الممشى مفصولة بحفرة واسعة وتمتدّ ضمن مساحات متفاوتة الاتساع حتّى تبلغ القصور التي تنفتح واجهتها على شارع فوبور- سان-هونوريه. والقصر الذي نتحدّث عنه ينتهي عند الحفرة بكومة تراب للرّدم يسند جداراً من صخور كبيرة تمّ اختيارها لعدم الاتّساق الغريب في أشكالها، فكانت تنتصب من كلّ جانب بطريقة الكواليس لتؤطّر بخشونتها الفظّة وكتلتها الداكنة ذلك المشهد الأخضر النديّ المحصور بينها.

في تعرّجات تلك الصخور، تجد نباتات الصبّار، والصقلاب القرمزي، والأوفاريقون، وكاسرات الحجر، وأبو قالس، والمخلّدات، ولُخْنيس جبال الآلب، ولبلاب إيرلندا، ما يكفيها من أرض صالحة للنبات كي تغذّي جذورها وتنشر اخضرارها المتنوّع على الصخور الخشنة؛ وما كان لرسّام أن يبتكر في المنظور الأوّل للوحته جاذباً لبقيّة عناصر اللّوحة أفضل من ذلك.

كانت الجدران الجانبية التي توصد هذا الفردوس الأرضيّ تختفي وراء ستارة من نباتات معرّشة، زراوند، شرخ الفلك الأزرق، الجرَيس،

Twitter: @ketab_n

صريمة الجذْي أو زهرة العسل، الجصّية، وسْتارية الصين، وبيريبلوكا اليونان التي تنطلق مخالبها وخيوطها المبرومة وسيقانها لتتشابك مع وشيعة خضراء، ذلك أنّ السعادة نفسها لا ترغب في أنْ تكون سجينة؛ وبفضل هذا الترتيب كانت الحديقة أشبه بفرجة في غابة أكثر منها روضة ضيّقة محاصرة بأسيجة الحضارة.

إلى الخلف قليلاً من كتل الحجارة، كانت تتجمّع بضع أشجار ذات مظهر أنيق، وإيراق كثيف، تتناقض أوراقها على نحو جذّاب: إيلنْطُس أو شجرة السماء اليابانية، تويا كَنَدا، بلان فيرجينيا، دردار أخضر، صفصاف أبيض، ميس البروفانس، وتفوقها ارتفاعاً أرزيّتان أو ثلاث. بعد الأشجار تمتدّ أرض معشّبة من فصيلة النسيلة أو الزوان المعمّر، وما من ذؤابة عشبة فيها تعلو أكثر من غيرها، حشيش أنعم وألْيَن من مخملِ معطفِ ملكة، ومن هذا المثل الأعلى للاخضرار الزمرّديّ الذي لا يمكن الحصول عليه إلّا في انجلترا أمام مدخل القصور الريفيّة الإقطاعية، مثل سجّاد طبيعيّ ناعم الملمس ترغب العين في ملامسته وتخشى القدم دوْسه، بساط نباتيّ لا يمكن أن يتدحرج عليه، نهاراً، تحت أشعة الشمس إلّا الغزالة المدجّنة و«البايبي» ابن الدوقة في لباس الدانتيلّا، بينما تتسلّل إليه ليلاً، تحت ضوء القمر، تيتانيا من الويست إيند، ويدها مشتبكة بيد أوبيرون المنهمك بتقليب كتاب عن «البيريج والباروتينيج»[1].

هناك ممشىً من الرمل المغربَل، خشية أن يتسبّب صفْق صدفة، أو نتوء

---

(1) تيتانيا Titiana وأوبيرون Oberon من شخصيّات «حلم ليلة صيف» *A Midsummer Night's Dream* لشكسبير. والكتاب الذي يشير إليه غوتييه بعبارة مزيج من الفرنسيّة والإنجليزية: « livre du peerage et du baronetage » هو واحد من تلك المصنّفات المثمّنة من قبَل الأرستقراطية البريطانية، والتي تحتوي على تفاصيل الأنساب والألقاب من مركيزات وفيكونتات وبارونات، إلخ.

Twitter: @ketab_n

صوّان، في جَرح الأقدام الأرستقراطية التي تترك عليه آثارها الرقيقة، وهو يتقدّم مثل شريط أصفر حول هذا السماط الأخضر، القصير والصلب، والذي تسوّيه الملّاسة، ويحافظ مطر المرشّة المصطنع على رطوبته النديّة، حتّى في أشد أيّام الصيف جفافاً.

في آخر الأرض المعشبة، كانت تنفجر، زمن حدوث هذه الحكاية، ألعاب نارية حقيقيّة مزهرة ترسلها أجمة من غرنوقيات إبرة الراعي، تتّقد نجَيماتها القرمزية على أرضيّة سمراء من تربة الخلنج.

ويكتمل المنظور بواجهة القصر الأنيقة؛ فهناك أعمدة رشيقة من الطراز الإيوني ترفع طبقة السطح التي تعلوها عند كلّ زاوية مجموعة لطيفة من المرمر، لتُكسب القصر مظهر معبد إغريقيّ تمّ نقله هنا بنزوة مليونير، وتعدّل، من خلال إحياء فكرة شاعرية وفنية، كلّ ما يمكن للبذخ أنْ يكون عليه من المبالغة في بعث الملل. وفي المساحات المنتشرة بين الأعمدة توجد ستائر مخطّطة بأشرطة عريضة ورديّة دائمة الإغلاق تقريباً، تحمي وتُبرز النوافذ التي تنفتح على مستوى واحد تحت الرواق مثل أبواب من زجاج.

وعندما تتكرّم سماء باريس المتقلّبة بنشر رقعة من لازوردها خلف هذا القصر الصغير، ترتسم حدوده بدقّة ما بين الأجمات الخضراء، إلى درجة التمكّن من اعتباره استراحة ملكة الجنّيات أو إحدى لوحات بارون[1] المكبّرة.

في كلّ واحدة من جهات القصر تتقدّم في الحديقة دفيئتان مكوّنتَين جناحَين، تتلألأ جوانبهما الكريستالية تحت الشمس بين تعاريقهما المذهّبة، لتهيّئ لمجموعة من النباتات النادرة والثمينة المجلوبة إيهاماً

(1) هنري بارون Henri Baron: رسّام فرنسي (1816–1885).

Twitter: @ketab_n

بمناخها الأصليّ.

لو أنّ أحد الشعراء المبكّرين مرّ بشارع غابريال مع لمسات الاحمرار الأولى للفجر، لسمع العندليب يستكمل آخر ألحانه اللّيليّة، ورأى الشحرور يتنزّه في خُفِّهِ الأصفر داخل ممرّ الحديقة مثل طائر في وكره؛ لكنْ في اللّيل، وبعد أنْ يكون دوران المركبات القادمة من الأوبرا قد تلاشى في صمت الحياة الراقدة، فإنّ هذا الشاعر نفسه قد يميّز بغموض ظلّاً أبيض في حضن شابّ وسيم، فينسحب إلى سقيفته المنعزلة، كئيبَ الروح إلى حدّ الموت.

هنالك، ومنذ بعض الوقت- ولعلّ القارئ قد توصّل إلى تخمين ذلك- كانت تسكن الكونتيسة براسكوفي لابنسكا وزوجها الكونت أولاف لابنسكي، العائد من حرب القوقاز بعد حملة مجيدة، لم يشتبك فيها مجابهةً مع شاميل[1] الزاهد والمتعذّر إمساكه، لكنّه واجه أشرس مريدي ذلك الشيخ ولاءً. لقد تحاشى الرصاص كما يتحاشاه الشجعان، بالاندفاع نحوه، وتكسّرت سيوف المحاربين المتوحّشين المدمشقة والمعقوفة على صدره دون أنْ تخدش جلده. فالشجاعة درع لا تشوبه شائبة. وكان الكونت لابنسكي يملك تلك البسالة الجنونية للأقوام السلافية التي تحبّ الخطر من أجل الخطر، والتي ما زال من الممكن أنْ تنطبق عليها هذه اللّازمة من نشيد اسكندينافي قديم: «يقتلون، يموتون، ويضحكون!»

بأيّ نشوة التقى هذان الزوجان اللّذان لم يكن الزواج بالنسبة إليهما سوى الشغف المسموح به من قبَل الربّ ومن البشر، وحده توماس مور

(1) شاميل Schamyl بطل قوقازي.

Twitter: @ketab_n

يستطيع التعبير عن ذلك بأسلوب «حبّ الملائكة»![1] ينبغي أنْ تتحوّل كلّ قطرة حبر في ريشتنا إلى قطرة ضوء، وأنْ تتبخّر كلّ كلمة على الورق باعثة شعلة وعطراً مثل حبّة بخور. كيف يمكن رسم هاتين الروحين الذائبتين في روح واحدة والشبيهتَين بدمعتَي ندى تنزلقان على بتلة زنبقة فتلتقيان وتمتزجان وتمتصّ إحداهما الأخرى فلا تشكّلان إلّا لؤلؤة فريدة؟ السعادة شيء في منتهى الندرة في هذا العالم، حتّى إنّ الانسان لم يفكّر في ابتكار كلمات للتعبير عنه، بينما تملأ مفردات الألم المعنويّ والجسديّ الكثير من الأعمدة في قاموس اللّغات كلّها.

بدأ حبّ أولاف وبراسكوفي منذ الطفولة؛ لم يخفق قلب كلٍّ منهما قطّ إلّا إلى اسم واحد؛ كانا يعرفان منذ المهد تقريباً أنّهما سينتميان أحدهما إلى الآخر، ولا وجود لبقية العالم بالنسبة لهما؛ كما لو أنّ طرفَي الخنثى لدى أفلاطون، اللّذين يبحثان واحدهما عن الآخر منذ القطيعة البدئيّة، قد التقيا واجتمعا فيهما؛ كانا يشكّلان تلك الثنائية في الوحدة، وهي الانسجام التامّ، لذا كانا يسيران جنباً إلى جنب، أو بالأحرى يطيران عبر الحياة في تحليق متساوٍ ومتّصل، محوّمَين مثل يمامتَين تناديهما الرغبة ذاتها، باستخدامنا التعبير الجميل لدانتي.

وحتّى لا يكدّر هذه الغبطة شيء فقد كان هناك ثروة طائلة تطوّقها مثل محيط جوّيّ من ذهب. فما إنْ يظهر هذان الزوجان المتألّقان حتّى يغادر البؤس خِرَقَهُ وقد لقي من يؤاسيه، وتجفّ الدموع؛ ذلك أنّ أولاف وبراسكوفي كانا يتمتّعان بالأنانية النبيلة للسعادة، ولا يطيقان تحمّل الألم في محيط إشعاعهما.

(1) «حبّ الملائكة» *The Loves Of The Angel* لتوماس مور Thomas Moore (1772–1852) تأثّر به الكثير من الشعراء الفرنسيّين بعدما تُرجم إلى لغتهم بعنوان *L'Amour des anges*.

Twitter: @ketab_n

منذ ذهب مبدأ تعدّد الآلهة بأولئك الآلهة الصغار، أولئك العفاريت المبتسمين، والفتيان السماويّين، ذوي الأشكال البالغة الكمال وتناسق الإيقاع، وصفاء المثل الأعلى، وكفّت اليونان القديمة عن ترديد مقاطع نشيد الحبّ لباروس، أساء الانسان بقسوةٍ استخدام الترخيص الذي أُعطيَ له بأن يكون بشعاً، ومهما كان مصوّراً على هيئة الربّ، فهو يمثّله أسوأ تمثيل. غير أنّ الكونت لابنسكي لم يستغلّ ذلك الترخيص؛ فشكلُ وجهه البيضويّ المستطيل قليلاً، وأنفه الدقيق ذو النحت الجسور والناعم، وشفته المرسومة بثبات والتي يُبرزها أكثر شارب أشقر محفوف الطرفين، وذقنه المرفوعة والمختومة بغمّازة، وعيناه السوداوان، وهو تميّز مثير، كلّ ذلك أضفى عليه مظهرِ اولئك الملائكة المحاربين مثل ميخائيل أو رافائيل، من الذين يقاتلون الشياطين مرتدِين شكّاتهم الذهبيّة. كان من شأنه أنْ يكون في غاية الجمال حتّى من دون البريق الفحوليّ في بؤبؤيه الداكنين والطبقة الملوّحة التي وضعتها شمس آسيا على قسماته.

كان الكونت ذا قوام متوسّط، نحيف، رشيق، عصبيّ، يخفي عضلات صلبة تحت رقّة ظاهرة؛ وكان عندما يشارك في إحدى حفلات السفراء ويرتدي بدلة عظماء المجرّ سابقاً، مرصّعة بالذهب، متلألئة بالألماس، مزركشة بالجواهر، يمرّ بين المجموعات مثل تجلٍّ متلألئ، مثيراً غيرة الرجال وحبّ النساء، وهو أمر تتعامل معه براسكوفي بلامبالاة.- لن نضيف أنّ الكونت كان يمتلك خصال الروح مثلما يتمتّع بمواهب الجسد؛ فقد حبتْه الجنيات الخيِّرات بكلّ الخصال وهو في المهد، بينما لاحت الجنية الشرّيرة التي تُفسد كلّ شيء، في مزاج رائق آنذاك.

وهكذا تدركون أنّ حظّ أوكتاف دو سافيل ضئيل جدّاً أمام مثل ذلك المنافس، وأنّ من الأفضل له أنْ يستسلم للموت بهدوء على

Twitter: @ketab_n

وسائد أريكته، رغم الأمل الذي كان الطبيب الخرافيّ بالتازار شيربونو يحاول إعادته إلى قلبه. - لا شكّ أنّ نسيان براسكوفي كان سيشكّل الحلّ الوحيد، لكنّه أمر مستحيل؛ هل يعود إلى رؤيتها، وما الجدوى؟ كان أوكتاف يشعر بأنّ قرار السيّدة الشابّة لن يُضعف أبداً من شراستها الناعمة، وبرودها الحنون. كان يخشى أنْ تعود جراحه غير المندملة لتنفتح مجدّداً وتنزف أمام تلك التي قتلته بكلّ براءة، ولم يكن يرغب في اتّهامها؛ تلك القاتلة العذبة المحبوبة!

4

مرّ عامان منذ اليوم الذي أوقفتْ فيه الكونتيسة لابنسكي، على شفتَي أوكتاف، بوْحَه الذي لم تكن ترغب في سماعه؛ وهكذا ابتعد أوكتاف وقد سقط من ذروة حلمه، مع وخز كآبة سوداء في كبده، ولم يمكّن براسكوفي من أخباره. فالكلمة الوحيدة التي كان قادراً على كتابتها لها هي الوحيدة الممنوعة. لكنْ، وفي أكثر من مرّة، كان فكر الكونتيسة المذعورة من هذا الصمت قد استحضر بكآبةٍ عاشقَها المسكين: هل نسيَها؟ وفي الغياب الرائع للغُنج لديها، كانت تتمنّى ذلك دون أنْ تصدّقه، ذلك أنّ شعلة الشغف التي لا يمكن إخمادها كانت تضيء عينَي أوكتاف، وما كان الأمر ليلتبس على الكونتيسة. فالحبّ والآلهة يعرف كلّ منهم الآخرَ من خلال النظرة: هذه الفكرة ظلّتْ مثل غيمة صغيرة تخترق زرقة سعادتها الصافية، وتبعث فيها حزن الملائكة الخفيف عندما يكونون في السماء ويتذكّرون الأرض؛ وكانت روحها الفاتنة تتألّم لمعرفتها بوجود شخص، هناك، يشقى من أجلها؛ لكنْ، ماذا يمكن للنّجمة الذهبيّة المتلألئة في أعلى القبّة الزرقاء أنْ تفعل للراعي المعتم الذي يرفع نحوها ذراعين

Twitter: @ketab_n

مستهامتَين؟ في عصر الأساطير، نزلت فوبي فعلاً من السموات في أشعة فضّية على آنديميون النائم[1]؛ غير أنّها لم تكن متزوّجة من كونت بولنديّ.

منذ وصولها إلى باريس أرسلت الكونتيسة لابنسكا إلى أوكتاف تلك الدعوة العاديّة التي كان الطبيب بالتازار شيربونو يقلّبها بين أصابعه بلا مبالاة، وعندما تأكّدتْ من عدم مجيئه، رغم أنّها كانت راغبة في معالجته، فقد قالت لنفسها في إشارة فرح لا إرادية: «ما زال يحبّني دائماً!» مع ذلك كانت امرأة بطهارة الملائكة وعفّتها، مثل الثلج على أعلى قمّة في الهمالايا.

غير أنّ الربّ ذاته، في عمق لانهايته، لم يكن يملك كي يتسلّى من ضجر الأبديّة إلّا لذّة سماع قلب يخفق له لدى مخلوقة مسكينة صغيرة وفانية على كوكب هزيل، ضائع في الأمداء الرحبة. ولم تكن براسكوفي أكثر صرامة من الربّ، وحتّى الكونت أولاف ما كان بوسعه استنكار هذه الشهوة الروحية الهشّة.

«حكايتك التي أصغيت إليها بعناية، قال الطبيب لأوكتاف، تبرهن لي أنّ أيّ أمل من جانبك لن يكون إلّا وهميّاً. لن تشاطرك الكونتيسة حبّك أبداً.

- ها إنّك قد تأكّدتَ، يا سيّد شيربونو، أنّني كنت على حقّ في عدم السّعي إلى الإمساك بحياتي التي تأفل.

- قلتُ أنْ لا وجود لأمل مع الوسائل المعتادة، تابع الطبيب؛ لكنْ، توجد قوى خفيّة يجهلها العلم الحديث، وقد تمّت المحافظة على تقاليدها في تلك البلدان الأجنبيّة المسمّاة بربريّة من طرف حضارة جاهلة. هناك، وخلال الأيّام الأولى من نشأة الكون، كان الجنس

(1) إشارة إلى الراعي آنديمون، في الأساطير الاغريقية، كانت تعشقه سيليني التي حصلتْ من زفس، كبير الآلهة، على أنْ يجعله يحافظ على جماله في نوم أبديّ.

Twitter: @ketab_n

البشريّ في اتّصال مباشر مع القوى الحيّة للطبيعة، وكان يعلم بأسرار نظنّها ضاعت ولم تصنها القبائل المهاجرة التي شكّلَتْ شعوباً فيما بعد. في البداية تمّ انتقال تلك الأسرار من مطّلع إلى ملقَّن، داخل أعماق المعابد الخفيّة، ثمّ دُوِّنتْ بمصطلحات مقدّسة غير مفهومة بالنسبة للفرد العاديّ، ونُقشَتْ في ألواح هيروغليفية على امتداد الجدران الداخلية في إيلورا[1]؛ ويمكنك أنْ تجد حتّى الآن على تلال جبل ميرو الذي ينبع منه نهر الغانج، وتحت السُلّم المرمريّ الأبيض في بيناريس المدينة المقدّسة، وفي أعماق معابد الباغود الأثرية في سيلان، بعض البراهمة المعمّرين يتهجّون مخطوطات مجهولة، وبعض أتباع اليوغا من زهّاد الهند منكبيّن على تكرار كلمة من مقطع واحد لا يمكن التعبير عنها وهي «أومْ»[2] من دون الانتباه إلى أنّ طيور السماء تبني أعشاشها في شعورهم؛ وبعض الدراويش المتنسّكين الذين تحمل أكتافهم ندوب الكلّابات الحديدية لجاجرنات[3]، ممّن يمتلكون تلك الألغاز الضائعة ويحصلون منها على نتائج رائعة عندما يوافقون على استعمالها. أوروبا المنكبّة على المصالح المادية لا تدرك الدرجة الروحانية التي توصّل إليها روحانيّو الهند؛ من صيام مطلق، وتأمّلات مفزِعة بثباتها، ووضعيّات مستحيلة للجسم يحافظون عليها سنوات كاملة، تنحّل أجسامهم جيّداً حتّى ليذهب بك

(1) موقع أثريّ هندي يتميّز بكثرة منحوتاته.

(2) نبرة سنسكريتية الأصل، توجد في عدة ديانات مثل الهندوسية والبوذية والسيخية والبرهمية؛ تشير إلى «الذبذبة الحيويّة» أو « الصوت البدائيّ الأوّل» الذي انبنى عليه الكون.

(3) إله هندي على عربة كان يخرّب كلّ شيء في طريقه.

Twitter: @ketab_n

الظنّ، بعد رؤيتهم مقرفصين تحت شمس حارقة وبين جمر متّقد تاركين أظافرهم المطوّلة تخترق كفّ اليد، إلى أنّهم مومياوات مصرية أُخرجتْ من توابيتها وطُويَتْ في وضعيات قِرَدة؛ لم تعد قشرتهم البشرية سوى نَغَفَة[1]، تستطيع الروح، كفراشة خالدة، أنْ تغادرها أو تعود إليها كما تشاء. وفي حين يظلّ هيكلهم الهزيل هنا، ساكناً، كريه الرؤية مثل يرقة ليليّة فاجأها الضوء، تنطلق روحهم، متحرّرة من كلّ القيود، على أجنحة الهلوسة، إلى أعالٍ لا تقاس، في عوالم ما فوق الطبيعة. ولهم رؤى وأحلام غريبة؛ فهم يتابعون، من انخطاف إلى انخطاف، تلك التموّجات التي تُحدثها العصور الآفلة فوق محيط الأبدية؛ يجوبون اللّامتناهي في كلّ الاتّجاهات، ويشهدون خلق الأكوان، ونشأة الآلهة وتحوّلاتها؛ وتعود إليهم الذاكرة بالعلوم التي أتت عليها الكوارث الجوفية والطوفانية، وبالعلاقات المنسيّة بين الإنسان والعناصر. وخلال هذه الحال العجيبة، يتمتمون بكلمات تعود إلى لغات لم يعدْ يتكلّمها أيّ شعب على وجه البسيطة منذ آلاف السنين، ويعثرون على الكلمة الأولى، الكلمة التي فجّرت النور في الظلمات القديمة: هناك من يعتبرهم مجانين؛ لكنّهم بمستوى الآلهة تقريباً!»

هذا الاستهلال الفريد هيّج انتباه أوكتاف إلى أقصى نقطة، غير مدرك إلى أين يريد السيّد بالتازار شيربونو الوصول، فكان يثبّت فيه نظراته المنصعقة والمتوقّدة بالتساؤلات: لم يكن يخمّن طبيعة العلاقة بين ناسكي الهند وحبّه للكونتيسة براسكوفي لابِنسكا.

(1) كلّ عذراء من الفراشات، أي من حرشفيات الأجنحة خلال الطور الانتقاليّ بين اليرقة والحشرة الكاملة.

Twitter: @ketab_n

لكنّ الطبيب الذي سبر أفكار أوكتاف، أشار إليه بيده كما لو كان يتوقّع أسئلته، وقال له: «صبراً، يا مريضي العزيز؛ ستفهم بعد قليل أنّي لست في حالة استطراد بلا طائل. - بعد ضجري من استخدام المبضع، في المدرّجات الرخامية، على جثث لم تكن تجيبني ولا تدعني أرى إلّا الموت بينما أبحث عن الحياة، أعددتُ مشروعاً- وهو مشروع يعادل مشروع برومثيوس جرأةً في الصعود إلى السماء ليسرق منها النار- لبلوغ الروح ومباغتتها وتحليلها وتشريحها إذا صحّ التعبير؛ وهكذا أعطيتُ أولويّة للسبب على النتيجة، وازدريت العلم المادّي ازدراء عميقاً، فقد بلغتني البراهين على خوائه. لقد بدا لي أنّ من نتائج التطبيب التجريبيّ الفظّ، ذلك التعامل مع الأشكال الغامضة والدمج العَرضيّ بين جزَيئات سرعان ما تذوب. فحاولت عبر المذهب المغناطيسيّ فكّ الروابط التي تربط الروح في مغلّفها؛ وكنت على وشك أنْ أتجاوز بسرعة كلّ من ميسمير وديلون ومكسويل وبويسيغور ودولوز وكلّ من هو أمهر منهم[1]، في تجارب خارقة حقّاً، لكنّها ظّلتْ لا ترضيني: فمن التخشّب، إلى السرنمة، والرؤية عن بعد، والصحو الجذليّ، كنت أتوصّل كما أريد إلى كلّ تلك التأثيرات غير القابلة للفهم بالنسبة للجمهور، والبسيطة والمفهومة بالنسبة لي. - لكنّني ارتقَيتُ إلى ما هو أعلى: فمن وجْد كاردان والقدّيس توما الإكويني مررْتُ إلى الأزمات العصبية لدى كاهنات البيثيا[2]؛ واكتشفت أسرار الإيبوبْت الإغريق[3] والنبيم

(1) ميسمير Mesmer وديلون Deslon ومكسويل Maxuel وبويسيغور Puységur ودولوز Deleuze : أسماء لأطبّاء من القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، خاضوا في تجارب التنويم المغناطيسيّ.

(2) وسيطات الوحي في معبد دلفي لدى الإغريق.

(3) الواقفون على الأسرار (Epoptes) .

Twitter: @ketab_n

العبرانيّين[1]؛ ثمّ تلقّنت بطريقة استعادية ألغاز تروفونيوس[2] وأسكليبيوس[3]، متعرّفاً دائماً في تلك العجائب التي يتحدّثون عنها على تركيز أو انبساط للروح ناجم عن حركة أو نظرة أو كلمة أو عزيمة أو أيّ عامل آخر مجهول. أعدتُ تباعاً كلّ معجزات أبولونيوس دو تيان[4]. ومع ذلك لم يكتمل حلمي العلميّ؛ ظلّت الروح تفلت منّي دائماً؛ كنت أستشعرها، أسمعها، أؤثّر فيها؛ أخدّر ملكاتها أو أثيرها؛ لكنّ بيني وبينها حجابَ لحم لم يكن يمكنني إبعاده من دون أنْ تطير. كنت مثل صيّاد الطيور الذي يحبس طائراً تحت شبكة ولا يجرؤ على رفعها، خشية أنْ يرى فريسته المجنّحة تتلاشى في السّماء.

«سافرتُ إلى الهند، آملاً في العثور على كلمة السرّ في بلد الحكمة القديمة. تعلّمت اللّغتين السنسكريتية والبراكريتية، والمصطلحات العلمية العادية: وهكذا تمكّنت من التحاور مع البانديت والبراهمة. واجتزت الغابات حيث يزَمْجِر النّمر جاثياً على قوائمه؛ وحاذيت المستنقعات المقدّسة التي تحرشفها ظهور التماسيح؛ عبَرت غابات عصيّة محصّنة بحبالها اللّيفيّة، جاعلاً سُحب الخفافيش والقرود تطير، مواجهاً الفيل في منعطف المسلك الذي مهّدته الحيوانات المتوحّشة لبلوغ كوخ أحد زهّاد اليوغا المشهورين بالتواصل مع الموني[5]، وجلست أيّاماً كاملة بالقرب منه، مقتسماً معه جلد الغزالة، من أجل تدوين التعزيمات

(1) النبيم: الأنبياء بالعبرية.

(2) تروفونيوس Throphonius : بطل إغريقي يُنسب إليه بناء معبد أبولون في دلفي.

(3) أسْقَلِبِيُوس أو أسكليبيوس، من اليونانية أَسْكْلِيبِيُوسْ، هو إله الطبّ والشفاء لدى الإغريق.

(4) أبولونيوس التياني Aplollonius de Thyane : فيلسوف ومدّعي معجزات فيثاغوريّ نال شهرة واسعة حتّى صارت «معجزاته» تُقارن بمعجزات يسوع المسيح.

(5) شخص ورع يتأمل الحقائق الإلهية في العزلة، ويمارس إماتة الجسد من أجل ترويض الحواسّ والاقتراب من جوهر براهما.

Twitter: @ketab_n

الغامضة التي يهمس بها الوجد على شفتيه السوداوين المتشقّقتين. وبتلك الطريقة حصلت على كلمات كليّة القدرة، وصيغ استحضارية، ونبرات من كلمة الخلق.

«درستُ المنحوتات الرمزية في الغرف الداخلية للباغودات[1] التي لم تشاهدها أيّ عين دنيويّة، وقد تمكّنت من دخولها بفضل ثوب برهميّ؛ قرأت الكثير من الألغاز المتعلّقة بنشأة الكون، والكثير من أساطير الحضارات الآفلة؛ اكتشفت معنى الرموز التي تحملها تلك الآلهة الهجينة ذات الشعر الكثّ مثل طبيعة الهند، في أيديها المتعدّدة؛ تأمّلتُ مليّاً دائرة براهما، ولوتس فيشنو، والكوبرا ذات الحلقات لشيفا، الإله الأزرق. كان غانيزا[2] يبدو مبتسماً لجهودي ويشجّع بحوثي، محرّكاً خرطومه الجسْئيّ[3] وغامزاً بعينيه الصغيرتين المهدّبتين برموش طويلة. كانت كلّ تلك الوجوه الوحشية تقول لي بلغتها الحجرية: «لسنا سوى أشكال، والروح هي التي تحرّك الكتلة».

«كان هناك كاهن في معبد تيرونامالاي، أطلعْته على الفكرة التي تشغلني، فدلّني على ناسك تائب بلغ أعلى مراتب السموّ كان يسكن في أحد كهوف جزيرة إيليفانتا[4]. وجدته متّكئاً على جدار الكهف متدثّراً بقطعة من نسيج الحلفاء، ركبتاه عند ذقنه، وأصابعه متشابكة عند ساقيه، وهو في حال ثبات مطلقة؛ عندما تتحرّك مقلتاه لا تظهران إلّا البياض، وشفتاه تلجمان أسنانه العارية الجذور؛ وجلده الذي زاده الهزال الغريب دبغاً يلتحم بوجنتيه، وشعره الملقى إلى الوراء يتدلّى في خصلات متيبّسة

(1) الباغود معبد صيني أو ياباني متعدّد الطوابق.

(2) يوصف هذا الإله ذو رأس الفيل بأنه أحد أبناء شيفا.

(3) الجسْئيّ: صفيق الجلد، صفة الثدييات كالفيل وسواه.

(4) جزيرة هندية تتوسّط خليج بومباي معروفة بكهوفها المنقوشة.

Twitter: @ketab_n

مثل ألياف نباتات منبثقة من الصخور؛ وقد انقسمت لحيته إلى سيلَين يبلغان الأرض تقريباً، بينما تتعقّف أظافره على شكل براثن نسر.

«جفّفتْه الشمس وسوّدتْه بطريقة تضفي على جلده الهندي، وهو أسمر بطبيعته، مظهر حجر البازلت؛ فكان في وضعيّته تلك يشبه في شكله وفي لونه، خابية الأموات. للوهلة الأولى حسبته ميتاً. هززت ذراعيه اللّتين بدتا كما لو أنّهما متيبّستان بسبب تصلّب تخشّبيّ، وصرخت في أذنيه بأقوى ما استطعت كلماتِ طقس الأسرار التي يُفترض أن تكشفني له بوصفي مُسارًّا مطّلعاً على السرّ؛ لم يرتعد، ظلّ جفناه ثابتتين. وكنتُ أوشك على الابتعاد يائساً من الحصول على أيّ شيء، عندما سمعت فرقعة فريدة؛ مرّتْ شرارة مزرقّة أمام عينيّ بتلك السرعة الخاطفة التي لومضة الكهرباء، ترنّحتْ ثانية على شفتَي الناسك المنفرجتَين، ثمّ اختفتْ.

«كان براهما-لوغوم (وهذا اسم الشخص القدّيس) يبدو مستيقظاً من سبات: إذْ عاد بؤبؤاه إلى موضعيهما؛ ووجّه إليّ نظرة بشرية وأجاب عن أسئلتي. «حسناً، ها قد تحقّقت رغباتك: لقد رأيتَ روحاً. توصّلتُ إلى القدرة على فصل روحي عن جسدي عندما أشاء؛ تدخل إليه وتخرج منه مثل نحلة مضيئة، لا تراها إلّا عيون المُريدين. لقد سكتُّ كثيراً، وصلّيت كثيراً، وتأمّلت كثيراً، أمعنت في إماتة الجسد بقسوة، حتّى تمكّنت من فك الروابط الأرضية التي تشدّ وثاقها، وكاشفني فيشنو، الإله ذو التجسّدات العشرة، بكلمة السرّ التي تقود الروح في تقمّصاتها عبر الأشكال المختلفة.- لو أنّني، بعد القيام بالحركات المخصّصة، نطقتُ بتلك الكلمة، فإنّ روحك سوف تطير كي تحرّك الإنسان أو الحيوان الذي أعيّنه لها. أسلّمك هذا السرّ الذي أمتلكه وحدي حتّى الآن في العالم. أنا مرتاح لمجيئك، لأنّني تائق أيّما توقٍ إلى الذوبان في حضنِ غيرِ

Twitter: @ketab_n

المخلوق، مثل قطرة ماء في البحر». وبصوت واهن مثل آخر حشرجات المحتضر، لكنّه واضح، همس لي الناسك، ببضع نبرات صوتية جعلتْ تلك الرعشة الصغيرة التي تحدّث عنها أيّوب تجوب ظهري[1].

- ماذا تعني يا دكتور؟ صاح أوكتاف؛ لا أجرؤ على سبر العمق المريع في أفكارك.

- أعني، أجاب السيّد بالتازار شيربونو بهدوء، أنّني لم أنسَ صيغة صديقي براهما-لوغون السحريّة، وأنّ الكونتيسة براسكوفي من شأنها أنْ تكون في غاية اللّطف لو اعترفتْ بروح أوكتاف دو سافيل في جسد أولاف لابنسكي».

5

بدأت شهرة الدكتور بالتازار شيربونو طبيباً وصانعَ معجزات تنتشر في باريس؛ ذلك أنّ غرائبه المتصنّعة أو الحقيقيّة جعلته يتصدّر المشهد. لكنْ، بعيداً عن سعيه، كما يُقال، لكسب زبائن، كان يجهد نفسه لصدّ المرضى بإغلاق بابه دونهم أو بإعطائهم وصفات غريبة وحمْيات مستحيلة. ولم يكن يقبل إلّا بعض الحالات اليائسة، محوّلاً الى زملائه، مع استخفاف متعجرف، كلّ الحالات المبتذلة المتعلّقة بالنزلات الصدريّة والتهابات الأمعاء المعتادة وحمّى التيفوئيد، بينما يحصل على حالات شفاء لا تصدّق في تلك الحالات القصوى المختارة. فكان يقف إلى جانب السرير، ويأتي حركات سحريّة فوق كوب ماء، لتلوح أجساد متصلّبة وباردة، قريبة جدّاً من النعش، وبعد ابتلاعها بضع قطرات من ذلك الشراب وهي تحرّك فكّيها المتشنّجين بفعل الاحتضار، وهي تستعيد طراوة الحياة وألوان

(1) من العهد القديم: سِفر أيوب (4، 14–15).

Twitter: @ketab_n

الصحّة وتستوي على مؤخّرتها، مرسلةً حولها نظرات اعتادت منذ قليل على ظلمات القبر. لذلك أطلقوا عليه اسم طبيب الموتى أو باعث الموتى. لكنّه لم يكن يوافق دائماً على المعالجة، وكثيراً ما يرفض مبالغ طائلة من قبل بعض الأغنياء المحتضرين. فمن أجل العزم على دخول في صراع مع التلف والفناء، كان لا بدّ له من التأثّر بألم أمٍّ تتوسّل من أجل خلاص ابنها الوحيد، وبيأس عاشق يطلب حظوة حبيبته المعشوقة، أو أنْ يشعر بأنّ حياة الشخص المهدَّد ضرورية للشِّعر والعِلم وتقدّم الجنس البشريّ. وهكذا أنقذ رضيعاً كان الخُناق يشدّ على حنجرته بأصابعه القاتلة، وأنقذ فتاة لذيذة مسلولة في آخر مرحلة، وشاعراً يعاني من الهذيان الرّعاشيّ، ومخترعاً أصيب باحتقان دماغيّ كاد يدفن سرّ اختراعه تحت بضعة رفوش من تراب الردم. أمّا بخلاف ذلك، فقد كان يقول إنّه ينبغي عدم معاكسة الطبيعة، وإنّ بعض الميتات لها ما يبرّرها، وإلّا فإنّنا نجازف، في حال منعها، بإرباك شيء ما في نظام الكون. وهكذا تدركون جيّداً أنّ السيّد بالتازار شيربونو كان أكثر أطبّاء العالم اكتنازاً بالمفارقات، وأنّه استورد من الهند انحرافاً كاملاً؛ غير أنّ شهرته كمغناطيسيّ فاقت مجده كطبيب؛ وكان قد قدّم، أمام عدد صغير من المصطَفِين بضع جلسات وُصفت بمعجزات قادرة على إرباك كلّ مفاهيم الممكن والمستحيل، وبكونها تجاوزت معجزات كاليوسترو[1].

كان الطبيب يقطن في الطبقة الأرضية من قصر قديم في شارع الروغار في شقّة من الشقق المتلاحقة، كما كانت تُجهّز قديماً، وكانت نوافذها العليا تنفتح على حديقة مغروسة بأشجار كبيرة ذات جذوع سوداء، وأوراق

(1) كاليوسترو Cagliostro (1743-1795) مغامر إيطالي وطبيب كان مؤمناً بالقوى الخفيّة ومعالجتها بالسّحر والتنجيم.

Twitter: @ketab_n

دقيقة خضراء. ورغم أنّ الفصل صيف كان هناك أجهزة تدفئة تنفث من فتحاتها النحاسية المحترقة كتلاً هوائية حارقة في القاعات الواسعة، مع المحافظة على الدرجة الحرارية 35 أو40 ذلك أنّ السيّد بالتازار شيربونو، المتعوّد على مناخ الهند الحارق، كان يرتجف تحت شموسنا الشاحبة، مثل ذلك المسافر الذي عاد من منابع النيل الأزرق في أفريقيا الوسطى، وصار يرتجف برداً في القاهرة، وكان لا يخرج إلّا في مركبة مغلقة، ملفوفاً بصقيع فروة ثعلب أزرق من سيبيريا، وقدماه على قراب صفيح مملوء بماء ساخن.

لم يكن من أثاث آخر في تلك القاعات سوى أرائك خفيضة ذات نسيج قويّ مزخرف بأفيال خيالية وطيور أسطوريّة، وبعض الرفوف المفضّلة والملوّنة والمذهّبة بسذاجة متوحّشة من قبل أهل سيلان، وأصص من اليابان ملأى بأزهار مستجلبة؛ وعلى الأرضية الخشبية تنتشر من أوّل الشقّة إلى آخرها، واحدة من تلك السجّادات الجنائزية ذات التشجير الأسود والأبيض والتي ينسجها، من باب التوبة، سفّاحو الثوغ[1] في سجونهم، ويبدو نسيجها مصنوعاً من قنّب حبل الشنق الذي كانوا يستخدمونه؛ وهناك بعض الآلهة الهندية، من رخام أو من برونز، بعيون لوزيّة طويلة، وأنوف مطوّقة بخواتم، وشفاه غليظة مبتسمة، وقلائد لؤلؤ نازلة حتّى السرّة، ورموز متفرّدة وغريبة، تربّع سيقانها فوق قواعد تماثيل صغيرة عند الزوايا؛ وعلى امتداد الجدران كانت تُعلّق منمنمات ألوان مائية، لعلّها من أعمال بعض الرسّامين من كلكوتا أو لوكنو، تمثّل التقمّصات التسعة المنجزة من قبل فيشنو؛ في سمكة،

(1) الثوغ Thuggs: طائفة من قطّاع الطرق كانوا يقتلون المسافرين في الهند خنقاً، وقد قضى البريطانيون على الآلاف منهم، وأطلقوا عليهم هذا الاسم.

Twitter: @ketab_n

وسلحفاة، وخنزير، وأسد برأس إنسان، وقزم برهميّ، وراما، وبطل يقاتل العملاق ذا الألف ذراع كارتاسوسيريارغونن، وكريشنا، الطفل المعجزة الذي يرى فيه الحالمون مسيحاً هندياً؛ وبوذا، عابد الإله العظيم ماهادوي؛ وتُظهره، أخيراً، نائماً، وسط البحر اللّبنيّ، فوق الحنش ذي الرؤوس الخمسة المعقودة على شكل ظلّة، منتظراً الساعة التي سيتّخذ فيها، كتقمّص أخير، شكل ذلك الحصان الأشهب المجنّح الذي سوف يترك حافره يسقط على الكون لتأتي نهاية العالم.

في القاعة الداخلية المسخّنة أكثر من القاعات الأخرى، كان يقبع السيّد بالتازار شيربونو، محاطاً بكتب سنسكريتية مخطوطة بمخرز على رقاقات خشب رهيفة مثقوبة وموصولة بشريط بحيث تلوح أقرب إلى مَغْلق شبّاك أكثر منها إلى مجلّدات كما تعرفها المكتبات الأوروبية. ثمّة آلة كهربائية، مع زجاجاتها المملوءة بأوراق ذهبيّة وإسطواناتها الزجاجية التي تُدار بمقبض تدوير، فترفع ظلّه المقلق والمعقد وسط الغرفة، قرب سطل مشمريّ[1] تغوص فيه حربة معدنية تشع منها عدّة قضبان حديدية. لم يكن السيّد شيربونو دجّالاً على الإطلاق، كما لم يكن ليبحث عن ترتيب مشهديّ بارع، ومع ذلك كان من الصعب دخول هذا المقرّ الغريب من دون الإحساس بنوع من الانطباع الذي ربّما كانت تتسبّب فيه قديماً مخابر الخيمياء.

كان الكونت أولاف لابنسكي قد سمع بالمعجزات التي صنعها الطبيب، واتّقد فضوله الذي كان قريباً من التصديق. فالأقوام السلافية تمتلك ميلاً طبيعياً إلى تصديق العجيب الذي لا يمكن للتربية المتقنة

(1) نسبة الى فرانتس مسمير Franz Mesmer (1734–1815)، طبيب ألماني، مؤسس نظرية المغناطيسيّة الحيوانية التي أُطلق عليها اسم المسمريّة. تجاربه بالسطل الذي يتحلّق حوله مرضاه جعلته مشهوراً في عصره.

Twitter: @ketab_n

تهذيبه دائماً، زدْ على ذلك أنّ شهوداً من الثقات ممّن حضروا جلساته، يقولون عنها أشياء لا يمكن تصديقها من دون معاينتها، مهما كانت الثقة بالراوي. لذلك ذهب لزيارة مدّعي المعجزات.

عندما دخل الكونت لابنسكي شقّة الطبيب بالتازار شيربونو أحسّ كأنّه محاط بشعلة غامضة؛ تدفّق دمه كلّه نحو رأسه، وصَفرت عروق صدغيه؛ وصار يشعر بالاختناق من شدّة حرارة الشقّة؛ بينما كانت المصابيح التي تحترق فيها خلاصات عطرية، وزهور جاوة الكبيرة وهي تؤرجح أكمامها الضخمة مثل مباخر، تُثمله بفوحانها المدوّخ وعطورها الخانقة. تقدّم بضع خطوات مترنّحة نحو السيّد شيربونو الذي كان يتربعّ على أريكته في واحدة من تلك الوضعيات الغريبة التي يتّخذها الناسك أو السنياسي[1]، والتي رسمها الأمير سولتيكوف[2] على نحو جذّاب في كتابه عن رحلته إلى الهند. كان وهو يرسم زوايا مفاصله تحت طيّات ملابسه، أشبه ما يكون بعنكبوت بشريّ ملفوف وسط نسيجه في وضعية ثابتة أمام فريسته. ولدى ظهور الكونت، أشعّ بؤبؤاه الفيروزيّان ببريق فوسفوريّ وسط محجريهما المذهّبَين بكدر من مرض الكبد، وسرعان ما انطفآ كما لو تمّت تغطيتهما بوَدقة[3] إراديّة. مدّ الطبيب يده نحو أولاف، وقد أدرك ضِيقه وتوصّل بحركتين أو ثلاث من يده المغناطيسيّة إلى إحاطته بجوّ ربيعيّ، باعثاً له فردوساً نديّاً في ذلك الجحيم المتّقد.

«هل تشعر بتحسّن، الآن؟ لا شكّ أنّ رئتَيك المتعوّدتَين على نسمات البلطيق التي تأتي محافِظةً على برودة تدحرجها على ثلوج القطب الخالدة،

---

(1) التائب والمتحرّر من رغبات الدنيا، في المذهب الهندوسي، سبق ذكره.

(2) الأمير أليكسي سولتيكوف Alexis Soltykoff : صاحب كتاب «رحلات إلى الهند» *Voyages en Indes* (1851)، صدر في مجلّدين مع رسوم توضيحة ممتازة.

(3) الودَقة: نقطة في قرنيّة العين.

Twitter: @ketab_n

تلهث مثل منفاخَي كور الحِدادة في هذا الهواء الحارق، حيث أنّني مع ذلك أرتجف، أنا الذي نضجتُ، وأُعيدَ إنضاجي، واقتربتُ من حالة التكلّس في أفران الشمس».

أدّى الكونت أولاف لابنسكي إشارة موضّحاً بها أنّه لم يعد يشكو من الحرارة العالية في الشقّة.

«إذن، قال الطبيب بنبرة تفتعل السذاجة، قد تكون سمعت ما يُحكى عن مهاراتي في الشعوذة، وتريد الاطّلاع على عيّنة من قدراتي؛ أوه! أنا أقوى من كومو وكونت وبوسكو.[1]

- فضولي ليس بهذه الدرجة من الطيش، أجاب الكونت، واحترامي يكون أكثر لأحد أمراء العِلم.
- لست عالِماً بالمعنى الذي يُعطى لهذه الكلمة؛ بالعكس، فأثناء دراستي لعدد من الأشياء التي يزدريها العلم، سيطرت على القوى الخفيّة غير المستعملة، وصرت أُحدِث نتائج تبدو رائعة، رغم أنّها طبيعية. ومن كثرة مراقبتي للروح توصّلت إلى مباغتتها في بعض الأحيان، فباحت لي ببعض الأسرار التي استغللتُها واستخدمتُ منها بعض الكلمات التي حفظتُها. الروح هي كلّ شيء، المادّة لا توجد إلّا في الظاهر؛ ربّما لم يكن العالم سوى حلم الإله أو إشعاع الكلمة الإلهيّة في الأبعاد. أمحو كما أشاء خِرَقة الجسد، أُوقف أو أسرّع الحياة، أحوّل الحواس، أحذف الحيّز، أقضي على الألم من دون حاجة إلى البنْج أو الأثير أو أيّ نوع آخر مخدّر. متسلّحاً بالإرادة، هذه الكهرباء المعنوية، أُحْيي وأُميت. لم يعد من وجود

(1) كومو Comus وكونت Comte وبوسكو Bosco : أسماء لمشعوذين فرنسيّين اشتهروا في القرن التاسع عشر.

Twitter: @ketab_n

لما هو غير قابل للنفاذ بالنسبة لعينيّ؛ نظرتي تخترق كلّ شيء؛ أرى أشعّة الذهن بوضوح، وكما يتمّ عرض أخيلة الشمس على شاشة، أستطيع تمريرها عبر موشوري اللّامرئي وإكراهها على الانعكاس على قماشة دماغي البيضاء. غير أنّ كلّ ذلك لا يُعدّ شيئاً ذا قيمة مقارنة بالمعجزات التي يحقّقها بعض زهّاد اليوغا في الهند ممّن بلغوا أعلى درجات الزهد. نحن، الأوروبيّين، مفرطون في خفّتنا وغفلتنا وتفاهتنا وتعلّقنا بحبسنا الطينيّ، حتّى أنّنا عجزنا عن فتح نوافذ واسعة في ذلك الحبس تكون مشرّعة على الأبدية واللّامتناهي. مع ذلك توصّلت إلى بعض النتائج التي لا تخلو من أهميّة، وسوف تحكم بنفسك»، قال الطبيب بالتازار شيربونو وهو يسحب عُرى ستارة ثقيلة في قضيبها، تخفي ما يشبه المخدع المهيّأ في آخر القاعة.

في ضوء شعلة من روح الكحول كانت تنوس على منضدة برونزية ثلاثية القوائم، لمح الكونت أولاف لابنسكي مشهداً مريعاً جعله يرتعد رغم بسالته. كان هناك مائدة من رخام أسود عليها جسم شابّ عارٍ حتّى حزامه وهو يحافظ على جمود جثّة؛ ومن جذعه المشوّك بالسّهام مثل سان سيباستيان، لم تكن تسيل أيّة قطرة دم واحدة؛ حتّى ليمكن تصوّره صورة ملوّنة لشهيدٍ، نُسيَ تلوينُ حوافّ جروحه بكبريت الزئبق الأحمر.

«ربّما كان هذا الطبيب الغريب، قال أولاف محدّثاً نفسه، من عابدي شيفا، ولعلّه تقرّب من إلهه بهذه الضحيّة».

«أوه! إنّه لا يتألّم بتاتاً؛ اقرصْه من دون خشية، لن تتحرّك أيّ عضلة في وجهه»؛ وشرع الطبيب يسحب السّهام من جسمه، كما تُسحب إبر من كبّة غزْل.

كانت بضع حركات سريعة باليدين كفيلة بإخراج المريض من شبكة

Twitter: @ketab_n

الدفق المغناطيسيّ التي كانت تحبسه، فاستيقظ بابتسامة انتشاء تعلو شفتيه كما لو كان خارجاً من حلم سعيد. صرفه السيّد بالتازار شيربونو بإيماءة منه، فانسحب من باب صغير محفور في الخشب الذي يغطّي المخدع.

«كان في إمكاني بتر إحدى ساقيه أو ذراعيه دون أن ينتبه إلى ذلك، قال الطبيب وهو يغضّن تجاعيده بمثابة ابتسامة؛ لم أفعل ذلك لأنّني لم أتوصّل إلى الخلق بعد، ولأنّ الإنسان، وهو أدنى من العظاية في هذا المجال، لا يمتلك نسْغاً يكون من القوّة بحيث يُصلح الأعضاء التي تُبتر منه. غير أنّني وإنْ كنتُ لا أَخلق، فأنا قادر على تجديد الشباب». ورفع حجاباً كان يغطّي امرأة مسنّة منوَّمة مغناطيسيّاً فوق أريكة، ليس بعيداً عن منضدة الرخام الأسود؛ كانت قسماتها، وربّما كانت جميلة سابقاً، ذاوية، وكان عصف الزمن يُقرأ حول حدود ذراعيها الهزيلتين، وكتفَيها وصدرها. سلّط الطبيب نظرات بؤبؤيه الأزرقين عليها، لبضع دقائق، مع تركيز متواصل؛ توطّدت الخطوط المتلفة، واسترجعت تكويرات الصدر نضارتها البكر، وملأ لحمٌ أبيض مخمليّ ضمور الرقبة؛ تكوّر الخدّان واكتسبا نعومة المخمل مثل الدّراقن وقد امتلأ بعافية الشباب؛ فُتحت العينان برّاقتين في سائل أَلِق؛ وكشف قناع الشيخوخة الذي رُفِع كما لو بفعل السِّحر، عن الفتاة الجميلة التي اختفت منذ زمان.

«هل تعتقد أنّ ينبوع الشباب قد سكب من مياهه الإعجازيّة في موضع ما؟ قال الطبيب للكونت الذي أذهله هذا التحوّل. أمّا أنا فأصدّق ذلك، لأنّ الإنسان لا يخترع شيئاً، وكلّ حلم من أحلامه هو تنبّؤ أو تذكّر. لكنْ، لنبتعدْ قليلاً عن هذا الشكل المجبول بإرادتي، ولْنُعاينْ هذه الفتاة التي تنام بهدوء في تلك الزاوية. استجوبْها، فهي تعلم في هذا المجال أكثر من كاهنات دلفي والعرّافات. يمكنك أنْ ترسلها إلى أحد قصورك في

Twitter: @ketab_n

بوهيميا[1]، وتسألها عمّا يحتويه أكثر أدراجك سرّيّة، وسوف تخبرك، لأنّ روحها لا تستغرق أكثر من ثانية واحدة في الرحلة، وهو أمر غير مفاجئ كثيراً على أيّ حال، بما أنّ الكهرباء تجوب سبعين ألف ميل في مدّة الزمن نفسها، والكهرباء بالنسبة للفكر هي مثل عربة الجياد بالنسبة للقاطرة. مدّ يدك لها لتكون في صلة بها؛ لن تحتاج إلى صياغة سؤالك، سوف تقرؤه في ذهنك».

أجابت الفتاة عن السؤال الذهنيّ للكونت، بصوت واهن وخالٍ من النبرات مثل صوت شبح:

«في علبة خشب الأَرْز توجد قطعة تراب مرشوشة برمل ناعم يظهر عليه أثر قدم صغيرة.

- هل تنبّأتْ بشكل صائب؟» قال الطبيب بلامبالاة وكأنّه متيقّن من عصمة فتاته المسرنمة.

غطّتْ حمرة قانية خدَّي الكونت. فقد قام فعلاً برفع أثر قدم براسكوفي لابنسكا في ممشى منتزه، خلال المرحلة الأولى من حبّهما، وظلّ يخفيه مثل بقايا القدّيسين داخل علبة مرصّعة بالصّدَف والفضّة من أثمن المصنوعات، ويحتفظ بمفتاحها الميكروسكوبيّ معلّقاً في رقبته بسلسلة ذهبيّة من البندقية.

ولأنّ السيّد بالتازار شيربونو كان رجلاً حسن المعشر، ونظراً لإدراكه ارتباك الكونت، لم يلحّ أكثر وقادَه إلى مائدة عليها كوب ماء بصفاء الألماس.

---

(1) في 1803، كان شارل نوديه Charles Nodier قد كتب «حكاية ملك بوهيميا وقصوره السبعة» *Histoire du roi de Bohême et de ses sept châteaux*، وفي 1852 جمع نرفال Nerval بعضاً من نصوصه تحت عنوان «قصور بوهيميا، الصغيرة» *Petits châteaux de Bohême* . وسبق التعريف ببوهيميا.

Twitter: @ketab_n

«لا شكّ أنّك سمعت بالمرآة السحريّة التي أظهر فيها ميفيستوفيليس صورة هيلانة لفاوست؛ أمّا أنا فبدون امتلاك قائمة حصان في جوربي الحريريّ، وبلا ريشتَي ديك على قبّعتي، أستطيع إمتاعك بتلك المعجزة البريئة. انحَنِ على هذا الكوب وفكّرْ بتركيز في الشخص الذي ترغب في حضوره؛ حيّاً كان أم ميتاً، بعيداً أم قريباً، وسوف يأتي ملبّياً نداءك، سواء من آخر العالم أم من أعماق التاريخ».

انحنى الكونت على الكوب الذي سرعان ما تكدّر ماؤه تحت بصره واكتسب لوَينات لبنيّة، كما لو تمّ سكب قطرة من إحدى الخلاصات؛ تشكّلتْ دائرة متقزّحة من ألوان الموشور وتوّجتْ شفة الكوب مؤطّرةً اللّوحة التي بدأت ترتسم للتوّ تحت الغمامة المبيضّة.

انقشع الضباب.- ظهرت امرأة شابّة في قميص حمّام من الدانتيلا، ذات عينين بخضرة البحر، وشعر ذهبيّ مجعّد، تاركةً يدَيها الجميلتين الشاردتين تتوهان، مثل فراشتين بيضاوين، في ملامس البيانو العاجية، وارتسمت بتلك الطريقة وكذلك تحت مرآة أسفل الماء الذي عاد شفّافاً، وكانت تلوح في غاية من الروعة التي يمكنها أنْ تجعل كلّ الرسّامين يموتون يأساً: كانت تلك هي براسكوفي لابنسكا، التي جاءتْ، من دون علمها، مستجيبةً لاستحضارها الشغوف من الكونت.

«والآن، لنمرّ إلى شيء آخر أكثر إثارة للفضول»، قال الطبيب وهو يمسك بيد الكونت ويضعها على أحد القضبان الحديدية في السطل المِسمَريّ. لم يكد أولاف يلمس المعدن المشحون بدرجة مغناطيسيّة خاطفة حتّى سقط مثل المصعوق.

احتضنه الطبيب، ورفعه مثل ريشة، ووضعه على أريكة، ثمّ دقّ جرساً وقال للخادم الذي ظهر على عتبة الباب:

Twitter: @ketab_n

«اِذهبْ لجلب السيّد أوكتاف دو سافيل».

6

سُمِع تدحرج عربة مقفلة من ذوات الدواليب الأربعة في الباحة الساكنة للإقامة، وسرعان ما تقدّم أوكتاف أمام الطبيب، ومكث مصعوقاً عندما أراه السيّد شيربونو الكونت أولاف لابنسكي ممدّداً على أريكة وعليه مظاهر الموت. ذهب به الظنّ في البداية إلى حصول عملية اغتيال وظلّ بضع لحظات أخرس من الهلع؛ لكنّه، وبعد معاينة أكثر انتباهاً، أدرك أنّ عملية تنفّس تكاد لا تُدرك كانت تخفض صدر الرجل النائم وترفعه.

«هي ذي وسيلة تنكّرك جاهزة تماماً، قال الطبيب؛ وهي أصعب ارتداءً قليلاً من لباس تقنُّع مستأجر من محلّات بابِنْ؛ لكنّ روميو، وهو يتسلّق شرفة فيرونا، لا يقلق من خطر دقّ عنقه؛ فهو يعرف أنّ جولييت تنتظره، هناك في الأعلى داخل الغرفة تحت جنح الظلام؛ والكونتيسة براسكوفي لابنسكا لا تقلّ قيمة عن ابنة آل كابوليه[1]».

لم يُجبْ أوكتاف بكلمة واحدة وقد ارتبك لغرابة الوضع؛ ظلّ ينظر إلى الكونت الذي كان رأسه مرتدّاً قليلاً إلى الوراء ويستند إلى وسادة، فيبدو شبيهاً بتماثيل أولئك الفرسان المضطجعين فوق قبورهم في الأديرة القوطية، وتحت رقابهم المتصلّبة وسادة من الرخام المنحوت. وكان ذلك الوجه الجميل والنبيل الذي ستُسلب منه روحه، يجعله يحسّ رغماً عنه بقليل من تبكيت الضمير.

(1) من أكبر العائلات الإيطالية القديمة في فيرونا، وقد جعل شكسبير من جولييت، في مسرحيّته «روميو وجولييت» *Romeo and Juliet*، ابنة رئيس العائلة.

Twitter: @ketab_n

فسّرَ الطبيب أحلام اليقظة التي كان يستغرق فيها أوكتاف، بالتردّد. مرّ على طية شفتيه طيف ابتسامة مبهمة لا تخلو من ازدراء، وقال له:

«إنْ كنتَ لم تتّخذ قرارك فأنا يمكنني إيقاظ الكونت الذي سوف يعود كما جاء، وقد أذهلتْه قدراتي المغناطيسيّة؛ لكنْ عليك التفكير مليّاً في الأمر، فمثل هذه الفرصة يمكن ألّا تتكرّر أبداً. مع ذلك، مهما يكن الاهتمام الذي أبديه تجاه حبّك، ومهما تكن رغبتي في إجراء تجربة لم تسبق محاولتها في أوروبا، لا ينبغي عليّ أنْ أخفي عنك حقيقة أنّ تبادل الروحَين هذا، له مخاطره. دقّ على صدرك، واسألْ قلبك.- هل تجازف بحياتك صراحةً للمراهنة على هذه الورقة الأخيرة؟ إنّ الحبّ قويّ مثل الموت، يقول الإنجيل.

- أنا مستعدّ، أجاب أوكتاف بكلّ بساطة.

- هذا جيّد أيّها الشابّ، صاح الطبيب وهو يفرك يديه السمراوين الجافّتين بسرعة خارقة كما لو كان يرغب في إيقاد النار على طريقة البدائيّين. هذا الشغف الذي لا يتقهقر أمام أيّ شيء يعجبني. لا وجود إلّا لشيئين في العالم: الشغف والإرادة. وإذا كنت غير سعيد فمن المؤكّد أنّ ذلك لن يكون بسببي. آه! يا شيخي براهما-لوغوم، سوف ترى من أعماق سماء إنْدرا[1] هناك حيث تحيط بك الأبسارا[2] بجوقاتهنّ المثيرة، إنْ كنتُ نسيت الصيغة التي لا تقاوَم عندما حشرجتَ بها في أذني وأنت تهجر هيكلك العظميّ

(1) أكبر آلهة الفيدا، مالك القوة التي يُرمز اليها بالصاعقة، وبها يقضي على الشياطين. ملك الآلهة. يمتطي فيلاً، ويعبده المحاربون.

(2) الأبسارا، في الميثولوجيا المرتبطة بديانة الفيدا، حوريات سماويّات ذوات جمال فائق، يرمزن إلى لذّة الحواس والروح. عندما يبلغ الناسك مستويات عالية من السلطة والقوّة يرسل إليه الإله إنْدرا بعضهنّ فيعجز عن مقاومتهنّ ويفقد بعض سلطاته.

Twitter: @ketab_n

المحنّط. الكلمات والإيماءات، احتفظتُ بكلّ شيء.- إلى العمل! إلى العمل! سنعدّ في قِدْرنا المعدنية طبخة عجيبة، مثل ساحرات «ماكبث»، لكن من دون شعوذة الشمال الدنيئة. اخضعْ إلى سلطتي. جيّد! العينان في العينين، اليدان في مواجهة اليدين. ها قد بدأ السِّحر يعطي مفعوله. يتلاشى مفهوما الزمان والمكان، يمّحي وعي الذات، ينخفض الجفنان؛ ترتخي العضلات التي لم تعدْ تستقبل الأوامر من الدماغ، الفكر يخمد، كلّ الروابط الهشة التي تشدّ الروح إلى الجسد تُفكّ. حتّى براهما نفسه، في البيضة الذهبيّة التي ظلّ يحلم فيها ألف عام، لم يكن أكثر انفصالاً عن الأشياء الخارجية؛ فلنشبعْه بالدفق المغناطيسيّ، لنغطّسْه في الأشعّة».

كان الطبيب وهو يدندن بتلك الجمل المتقطّعة، لا ينقطع عن حركات التنويم لحظة واحدة: ومن يديه المبسوطتين كانت تنبجس دفقات ضوئية تندفع ضاربةً جبين المريض أو قلبه، ليتشكّل حوله تدريجياً نوع من الجوّ المرئيّ، ذي الوميض الفوسفوريّ مثل هالة.

«ممتاز! قال السيّد بالتازار شيربونو، مصفّقاً بنفسه على صنيعه. هوَذا كما أريده. هيّا، هيّا، ما الذي ما زال يقاوم هناك؟ هتفَ بعد استراحة، وكأنّه كان يقرأ عبر جمجمة أوكتاف آخرَ جهد للشخصيّة التي تقترب من التلاشي. ما هذه الفكرة المتمرّدة التي بعد طرْدها من خندق المخّ المحصّن، تسعى إلى التخلّص من تأثيري بالتكتّب حول المونادا البدائية[1]، حول النقطة المركزية للحياة؟ سوف أتمكّن من الإمساك بها وقهْرها».

ومن أجل التغلّب على ذلك التمرّد غير الإراديّ، أعاد الطبيب شحن

(1) يبدو أنّ فكرة الوحدة (المونادا) البدئية تعود إلى أوريجينيس Origénês (185–254) وهو من أوائل آباء الكنيسة المسيحية، الذي عبّر بها عن فكرة الإله. والمونادا عند الفيلسوف لايبنتس Leibniz هي « قوّة بدائية»، بدونها لا يمكن تفسير العالم الواقعيّ.

Twitter: @ketab_n

بطّارية عينيه المغناطيسيّة بقوّة أكبر، وبلغ الفكرةَ المتمرّدة ما بين قاعدة المخّ واندماج النخاع الشوكيّ، حيث الملجأ الأكثر خفاء، والخيمة الأكثر تلغيزاً للروح. وكان نصره مُبيناً.

عندئذٍ جهّز نفسه، باحتفال مهيب، للتجربة الخارقة التي سيحاول إجراءها الآن؛ ارتدى، مثل المجوسيّ، ثوباً من نسيج الكتّان، غسل يديه في ماء معطّر، وتناول مساحيق من عدّة عُلَب رسمَ بها على خدّيه وعلى جبينه أوشاماً كهنوتية؛ فأحاط ذراعه بشريط البراهمة، وقرأ قصيدتين أو ثلاثاً من أشعار السلوكا المقدّسة[1]، من دون إهمال أيّ طقس من الطقوس الدقيقة التي أوصى بها سانيازي كهوف إليفانتا.

وبعد الانتهاء من هذه الاحتفاليّات، شرّع فوهات التسخين، وسرعان ما امتلأت القاعة بجوّ ملتهب كان يمكنه جعل النمور يُغشى عليها في الغابات، والجواميس تتشقّق قشورها الطينية على جلودها الحرشاء، وتنبثق مفرقعةً زهرة الصبّار العريضة.

«لا ينبغي للشرارتَين المتأتّيتَين من النار الإلهية، واللّتين ستوجدان عاريتَين بعد قليل ومجرّدتين لبضع ثوانٍ من غطائهما الفاني، أنْ تذبلا أو تنطفئا في هوائنا القارس»، قال الطبيب وهو يعاين مقياس الحرارة الذي كان يسجّل وقتها 120 درجة على سُلّم فهرنهايت.

كان الطبيب بالتازار شيربونو يبدو في ثيابه البيضاء، بين هذين الجسدَين الهامدَين، مثل مقدِّم القرابين في إحدى تلك الديانات الدمويّة التي ترمي بجثث البشر على مذبح آلهتها. وكان يذكّر بكاهن فيتزيليبوتزيلي[2]، الإله

---

(1) أشعار السلوكا Slocas: مقاطع تتكوّن من بيتين.

(2) في القسم الأوّل من أشعار هاينريش هاينه، التي ترجمها إلى الفرنسية جيرار دو نرفال Gérard de Nerval وسان–رينيه تايّانديه *Saint-René Taillandier* تحت عنوان «قصائد وأساطير» *Poëmes et légendes* (1885)، أغنية من «الرومنثيرو» الإسبانيّ =

Twitter: @ketab_n

المكسيكيّ الوحشيّ الذي تحدّث عنه هاينريش هاينه في إحدى قصائده الغنائية، غير أنّ نوايا الطبيب كانت بالتأكيد أكثر سلميّة.

اقترب من الكونت أولاف لابنسكي الذي ما زال خامداً، ونطق بالنبرة الصوتية الخارقة التي سرعان ما ذهب ليعيدها على أوكتاف النائم بعمق. في هذه اللّحظة اكتسب وجه السيّد شيربونو، وهو غريب عادةً، مهابة متفرّدة؛ فقد كانت عظمة سلطته تزيد من نُبل قسماته المشوّشة، ولو شاهده أحدهم وهو ينجز طقوسه المُلغزة برصانة كهنوتيّة، لما تعرّف فيه على طبيب هوفمانيّ[1] ينادي قلم الكاريكاتير متحدّياً إياه.

حدثت عندئذ أشياء في منتهى الغرابة: لاح أوكتاف دو سافيل والكونتُ أولاف لابنسكي مضطربَين في آنٍ معاً كما لو كانا يعانيان من نوبة احتضار، تحلّل وجهاهما وطفتْ رغوة خفيفة على شفتيهما؛ نزع شحوب الموت لون جسديهما؛ وفي تلك الأثناء كان هناك وميضان ضئيلان مزرقّان وناعسان، يتلألآن تائهَين فوق رأسَيهما.

وبإيماءة خاطفة من الطبيب الذي بدا كأنّه يرسم لهما طريقهما في الهواء، بدأت النقطتان الفوسفوريتان تتحرّكان، مخلّفتَين وراءهما أثر ضوء، لتبلغا إقامتيهما الجديدتين: فاحتلّت روح أوكتاف جسد الكونت لابنسكي، وروحُ الكونت جسدَ أوكتاف؛ هكذا تمّت عملية التقمّص.

كان هناك احمرار خفيف في الوجنات يدلّ على أنّ الحياة قد دخلت للتوّ في كتلتَي الطين البشريّتين اللّتين مكثتا بلا روحٍ لبضع ثوانٍ، وكان

= كان هاينه قد ترجمها إلى الألمانية، تستحضر غزو كورتيس Cortès للمكسيك. وفي القسم الثاني من الكتاب يتحدّث هاينه عن التضحية بالمعتقلين الإسبان وتقديمهم لإله الحرب فيتزيليبوتزيلي Vitziliputzili .

(1) يقصد أنّه كان رسّام كاريكاتير أيضاً. «هوفمانيّ» نسبة إلى الكاتب الفنطازيّ الألماني هوفمان (سبق ذكره).

Twitter: @ketab_n

يمكن لملاك الموت افتراسهما لولا قدرات الطبيب.

جعلت فرحة النصر حدقتَي شيربونو الزرقاوين تتّقدان، وكان يحدّث نفسه وهو يخطو خطوات عريضة في الغرفة: «فليتفضّل أعظم الأطباء من هؤلاء المتبجّحين بتقويم الساعة البشرية عندما تتعطّل، كيفما اتّفق، بفعلِ ما فعلتُ. يا هيبوقراط ويا جالينوس، يا باراسيلس ويا فان هلمونت، يا بورهاف ويا ترونشان، وأنتما يا هانمان ورازوري[1]، إنّ أبسط ناسك هنديّ مقرفص على سُلّم معبد باغود، لَيعرف في هذا المجال أكثر منكم ألف مرّة! ما أهمية الجثّة ما دمنا نقود الروح!»

بعد إنهاء عبارته تلك نفّذ الطبيب بالتازار شيربونو عدّة وثبات ابتهاج، ورقصَ مثل الجبال في شيراش-شيريم[2] للملك سليمان؛ لا بل كاد يسقط فاطساً أنفه بعد أنْ تعرقلت رجله في طية ثوبه البرهميّ، لكنّه كان حادثاً صغيراً أعاده إلى نفسه وردّ إليه رباطة جأشه.

«فلنوقظ نائمَينا»، قال السيّد شيربونو بعد أنْ مسح خطوط المساحيق الملوّنة التي كان حزّز بها وجهه وخلع ثوبه البرهميّ، واقترب من جسد الكونت لابنسكي المسكون بروح أوكتاف، ليجري تمريرات اليد الضرورية لإخراجه من حال السرنمة، نافضاً في كلّ حركة أصابعه المحمَّلة بالسائل الذي كان يزيله.

بعد بضع دقائق، جلس أوكتاف-لابنسكي (من الآن فصاعداً سوف ندعوه كذلك من أجل وضوح الحكاية) على مؤخّرته، ومرّر يديه على عينيه وأرسل حوله نظرة ذاهلة لم يُضئها وعي الذّات بعد. وعندما عاد إليه الإدراك الواضح للأشياء، كان أوّل شيء يلمحه هو شكله الموضوع

(1) خليط من أسماء أطبّاء إغريق قدامى مشهورين وأطبّاء أوروبيّين كانوا معروفين في فترة كتابة النصّ.

(2) نقل تقريبيّ بالعبرية لاسم «نشيد الإنشاد».

Twitter: @ketab_n

خارجَه على أريكة. كان يرى نفسه! كلّا لم يكن معكوساً في مرآة، بل في الواقع. أطلق صرخة، وتلك الصرخة لم تدوِّ بنبرة صوته الشخصيّ وتسبّبت له بنوع من الهلع؛ ذلك أنّ تبادل الرّوحَين تمّ خلال التنويم المغناطيسيّ، ولم يحتفظ منه بشيء في ذاكرته فأحس بانزعاج فريد. بدت أفكاره التي تخدمها الآن أعضاء جديدة مثل عاملٍ جُرِّد من أدواته المعتادة وأُعْطِيَ أخرى. كان العقل المغترب يخفق بجناحيه القلقَين في قبّة هذه الجمجمة المجهولة، ويتوه في تعرّجات هذا المخّ الذي ما زالت فيه آثار أفكار غريبة.

«إذن، قال الطبيب بعد أن تمتّع بما فيه الكفاية بمفاجأة أوكتاف-لابنسكي، ما انطباعك عن مسكنك الجديد؟ هل تشعر روحك بإقامة حسنة في جسد هذا الفارس الفاتن، هتمان أو هوسبودار أو ماغنت[1]، زوج أجمل امرأة في العالم؟ ألم تعد ترغب في الاستسلام للموت كما كنت تخطّط خلال المرّة الأولى التي رأيتك فيها داخل شقّتك الكئيبة في شارع سان لازار، الآن وقد شُرِّعتْ أمامك أبواب قصر لابنسكي، ولم تعد تخشى أنْ تضع براسكوفي يدها على فمك، كما في فيلّا سالفياتي، عندما كنتَ تريد مناجاتها! أنت ترى جيّداً أنّ الشيخ بالتازار شيربونو، بوجهه الشبيه بقرد الماكاك، والذي يتوقّف عليه الأمر شخصيّاً لو أرد تغييره، ما يزال يمتلك وصفات جيّدة في جعبة دهائه.

- أيّها الطبيب، أجاب أوكتاف-لابنسكي، أنت تمتلك قوّة إله، أو على الأقلّ، قوّة شيطان.

- أوه! أوه! لا تخفْ، لا وجود لأيّ أعمال شيطانية في هذا الصنيع. حياتك ليست في خطر: لنْ أجعلك توقّع على ميثاق بلون أحمر

(1) أسماء رُتَب قادة وأمراء في منطقة البلقان.

Twitter: @ketab_n

من حروف اسمك الأولى. لا شيء أبسط ممّا حدث قبل قليل. الكلمة التي خلقت النور بوسعها تغيير موضع روح من الأرواح. ولو كان البشر يريدون سماع الربّ عبر الزمن واللّانهاية، فسوف يكرّرون، حسب اعتقادي، فعل ذلك.

- بأيّ عرفان، وبأيّ وفاء يمكن تقدير هذه الخدمة التي لا تقدّر بثمن؟

- أنت لست مديناً لي بشيء؛ كان وضعك محلّ اهتمامي؛ وبالنسبة لماكر هرِم مثلي، لفَحتْه كلّ الشموس، وسفَعتْه كلّ الأحداث، يُعتبر التأثّر شيئاً نادراً. لقد كشفتَ لي عن الحبّ، وأنت تدرك جيّداً أنّنا، نحن الحالمين الخيميائيّين قليلاً، والسّحرة قليلاً، والفلاسفة قليلاً، تبحث أغلبيّتنا الغالبة عن المطلق. لكنْ، عليك بالنهوض، تحرّكْ، امشِ، وتأكّد من ملاءمة جلدك الجديد من دون إزعاج».

استجاب أوكتاف-لابنسكي للطبيب وتجوّل في الغرفة؛ وها هو الآن أقلّ ارتباكاً؛ فجسَدُ الكونت رغم أنّه مسكون بروح أخرى، حافظَ على دوافع عاداته القديمة، والقاطن الجديد فيه رَكَن إلى تلك الذاكرة الجسدية، إذْ أنّه كان مهتمّاً باتّخاذ مسعى المالك المطرود ومسلكه وحركاته.

«لو لم أكنْ أنا شخصياً مَنْ أجرى عملية نقْل روحَيكما قبل قليل، قال الطبيب بالتازار شيربونو ضاحكاً، لاعتقدتُ بأنّه لم يحدث شيء غير عاديّ هذا المساء، ولاعتبرتُك الكونت اللّيتوانيّ الحقيقيّ والشرعيّ، أولاف لابنسكي الذي ما زالت أناه تنام هناك في الشرنقة التي تركتها أنت بازدراء. لكنّ الساعة ستدقّ منتصف اللّيل قريباً؛ اِذهبْ حتّى لا تعاقبك براسكوفي أو تتّهمك بأنّك تُفضّل عليها اللّانسكيني أو البكّارا[1]. لا

(1) اللّانسكيني لعبة ورق قديمة، والبكّارا لعبة ورق ما زالت شائعة.

Twitter: @ketab_n

ينبغي أنْ تبدأ حياتك الزوجية بالخصام، سيكون ذلك دليل شؤم. وفي هذه الأثناء سوف أنكبّ على إيقاظ مغلّفك القديم مع كلّ الاحتياطات والمراعاة التي يستحقّها».

استعجل أوكتاف لابنسكي الخروج مُقرّاً بوجاهة ملاحظات الطبيب. أسفل درج المدخل كانت خيول الكونت من النوع الكُمَيت[1] الرائعة تكدف في مكانها وهي تمضغ شكيمتها، وقد ملأت البلاط أمامها بالزبد. ولدى سماع خطوات الشابّ أسرع قناص خيّالة بزيٍّ أخضر، من سلالة الهيدوك[2] البائدة، نحو مرقاة العربة وأنزلها بقرقعة عالية. توجّه أوكتاف آليّاً في البداية إلى عربة البروغهام المتواضعة، لكنّه استقر الآن في العربة المغلقة العالية والرائعة وقال للخادم القنّاص الذي نقل الأمر إلى الحوذيّ: «إلى القصر!». ولم يكد الباب يغلق، حتّى انطلقت الأحصنة مقوّسة ظهورها بالركض، وتمسّك الوارث الجديد لسلالة المنصور[3] وأزولان[4] بالشرائط الطويلة المزركشة بخفّة لم تكن قامته الكبيرة لتسمح بافتراض امتلاكه لها.

بالنسبة لأحصنة بتلك السرعة لا تعتبر المسافة طويلة جدّاً من شارع روغار إلى ضاحية سان-هونوريه؛ وهكذا التهمت المكان في بضع دقائق، وصاح الحوذيّ بصوته الجهير: «الباب!».

---

(1) صفة الفرس الأسمر المحمرّ.

(2) الهيدوك Heiduques : اسم كان يُطلق على الجند المجريّين، ولاحقاً على الخدم في زيّ مجري.

(3) كتبَ «المنزور»، وهو تحريف لاسم الحاجب المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر (938-1002) حاجب الخلافة والحاكم الفعليّ للخلافة الأموية في الأندلس في عهد الخليفة هشام المؤيّد بالله.

(4) واضح أنه اسم محرّف عن العربية لكنّنا لم نجد كلمة أزولان Azolan إلّا في قصيدة حبّ لفولتير تحمل العنوان نفسه وتتحدّث عن أزولان عاشق أمينة.

Twitter: @ketab_n

دفع البوّاب المزلاجَين الكبيرين ففسحا المجال لمرور العربة التي دارت نحو باحة كبيرة مهيّأة بالرمل، ثمّ توقفت بدقّة ملحوظة تحت ظلّة الباب المخطّطة بالأبيض والورديّ.

كانت الباحة التي رأى أوكتاف-لابنسكي تفاصيلها بتلك السرعة في الرؤية التي تكتسبها الروح في بعض المناسبات المتفرّدة، واسعة تحيط بها مبانٍ متناظرة مضاءة بمصابيح برونزية مركّزة يقذف غازها ألسنته البيضاء داخل فوانيس كريستالية تشبه تلك التي كانت تزيّن في الماضي البوسنتور[1]، برائحة تنتمي إلى القصور الكبيرة الحقيقيّة أكثر منها إلى القصور الريفية الصغيرة؛ وهناك أحواض لأشجار برتقال جديرة بساحة قصر فرساي، مغروسة بمسافات متعادلة على حافّة الاسفلت الذي يؤطّر، مثل الحاشية، سجّادة الرمل التي تحتلّ الوسط.

اضطُرّ العاشق المسكين المتحوّل، وهو يمدّ رجله نحو العتبة، أنْ يتوقّف بضع ثوانٍ ويضع يده على قلبه لكتْم خفقانه. كان يمتلك جسد الكونت أولاف لابنسكي حقّاً، لكنّه لم يكن يمتلك منه إلّا المظهر المادّي؛ فكلّ المفاهيم التي كان يضمّها هذا المخّ هربت مع روح المالك الأوّل، وهذا البيت الذي كان من المفترض أنّه صار بيته حالياً بدا له مجهولاً، فهو يجهل ترتيباته الداخلية. لاح أمامه درج فاتّبعه كيفما اتّفق، وربّما ينسب خطأه إلى مجرّد سهو.

كانت الدرجات الحجرية المصقولة بحجر الخفّان تلمع ببياضها وتُبرز اللّون الأحمر الغنيّ لشريط البساط الوبريّ العريض الممسوك بقضبان نحاسية مذهّبة ترسم للقدم طريقها الناعم؛ وكانت أحواض ملآى بأجمل أنواع الزهور المجلوبة تعلو كلّ درجة منه.

---

(1) البوسنتور: سفينة للاحتفالات الرسمية في مدينة البندقية قديماً.

Twitter: @ketab_n

هناك فانوس كبير مسنّن ومثقّب وقد عُلّق على حبل غليظ من الحرير الأحمر المزيّن بشُرّابات وعُقَد، يجعل رعشات ذهبيّة تسري على الجدران المكسوّة بجصّ أبيض ومجلوّ مثل الرخام، ويرسل كتلة ضوء على تقليد بيد نحّات لإحدى أشهر منحوتات كانوفا، «إله الحبّ إيروس مقبِّلاً بْسيهيه (الرّوح)».

كان قرص الدرج في الطابق الوحيد متقن التبليط بالفسيفساء، وعلى الحيطان حبال حريرية تتدلّى منها أربع لوحات لباريس بوردوني، وبونيفاتسيو، وبالما إل فيكيو، وباولو فيرونيزي[1]، لينسجم الطراز المعماريّ الفاخر وبهاءَ الدّرَج.

على هذا السطح ينفتح باب عالٍ من نسيج الصرج[2] منفَّر بمسامير مذهّبة؛ دفعه أوكتاف-لابنسكي فوجد نفسه في قاعة انتظار واسعة حيث كان ينام بعض الخدم بأزيائهم الكاملة، وقد نهضوا لدى اقترابه كما لو كانوا مدفوعين بنوابض، واصطفوا على امتداد الجدران باستكانة العبيد الشرقيّين.

تابع سيره. كان هناك قاعة بيضاء وذهبيّة، تلي قاعة الانتظار، ولا يوجد فيها أحد. دقّ أوكتاف جرساً. ظهرت وصيفة.

«هل بوسع السيّدة استقبالي؟

- سيّدتي الكونتيسة شرعت بخلع ثيابها، لكنّها ستظهر بعد قليل».

---

(1) باريس بوردوني Paris Bodrone، وبونيفاتسيو Bonifazzio، وبالما إل فيكيو (بالما القديم أو الأكبر) Palma il Veqqio، وباولو فيرونيزي Paolo Veronese أربعة من كبار رسّامي عصر النهضة في إيطاليا، وينتمون إلى مدرسة البندقية.

(2) الصّرج: نسيج صوفي متين.

Twitter: @ketab_n

7

بقي الطبيب بالتازار شيربونو وحيداً برفقة جسد أوكتاف دو سافيل المسكون بروح الكونت أولاف لابنسكي، وارتأى أنّ من واجبه إعادة هذا الشكل الهامد إلى الحياة الطبيعية. وبعد بضع حركات من يده، خرج أولاف-دو سافيل (وليُسمَحْ لنا بجمع هذَين الاسمين إشارةً إلى شخصيّة مزدوجة) مثل شبح من أقاصي النوم العميق، أو بالأحرى من التخشّب الذي يصفّده، خامداً متيبّساً، في ركن الأريكة. نهض بحركة آليّة ما زالت العزيمة لا تقودها بعد، مترنّحاً بفعل دوار لم يتلاشَ تماماً. كانت الأشياء تنوس حوله، وتجسّدات فيشنو ترقص السَّرَبَنْدة[1] حول الجدران، ولاح له الطبيب شيربونو في شكل سنياسي[2] إيليفانتا ملوّحاً بذراعيه مثل طرفَي جناحَي طائر، ومحرّكاً بؤبؤيه الأزرقين في دائرتَي تجاعيد سمراء تشبه دوائر النظّارات الضخمة؛ كانت المشاهد الغريبة التي رآها قبل سقوطه في التلاشي المغناطيسيّ تفعل فعلها في عقله، فلا يعود إلى الواقع إلّا ببطء: كان يشبه نائماً استيقظ بغتةً من كابوس، وما زال يحسب ثيابه المبعثرة على الأثاث أشباحاً ذات أشكال بشريّة غامضة، ويتخيّل الحلقات النحاسية للستائر المضاءة بانعكاس القنديل، عيوناً متوهّجة لعملاق السيكلوب الأسطوريّ.

تبخّر هذا العرض الاستشباحيّ تدريجيّاً. عاد كلّ شيء إلى مظهره الطبيعيّ، ولم يعد السيّد شيربونو ناسكاً من الهند، بل مجرّد طبيب كان يوجّه إلى زبونه ابتسامة معتادة بطيبة قلب.

«هل يشعر السيّد الكونت بالرضا إزاء بعض التجارب التي تشرّفتُ

---

(1) السرَبَندة: رقصة قديمة من القرنين السابع عشر والثامن عشر.

(2) يعني التائب والمتحرّر من رغبات الدنيا، في المذهب الهندوسي.

Twitter: @ketab_n

بإجرائها أمامه؟ قال بنبرة تواضع متذلّلة يمكن اسشفاف درجة خفيفة من التهكّم فيها؛ أتمنّى بقليل من الجرأة أنّه لن يندم كثيراً على سهرته ويعود مقتنعاً بأنّ كلّ ما يُحكى عن المغناطيسيّة ليس خرافة وشعوذة، كما يزعم العلم الرسميّ».

أجاب أولاف-دو سافيل بإشارة من رأسه تعني الموافقة، وخرج من الشقّة يرافقه الطبيب شيربونو الذي كان يوجّه إليه تحيّات حارّة عند كلّ باب.

تقدّمت عربة البروغهام، مطقطقة على الدرجات وصعدت إليها روح زوج الكونتيسة لابنسكا بجسد أوكتاف دو سافيل من دون الانتباه جيّداً إلى أنّ الخادم ليس خادمه وأنّ العربة ليست عربته.

سأل الحوذيّ عن وجهة السيّد.

«إلى بيتي» أجاب أولاف-دو سافيل، مندهشاً بشكل غامض لعدم توصّله إلى معرفة صوت الحوذيّ الذي اعتاد توجيه هذا السؤال بلكنة مجريّة واضحة. كانت عربة البروغهام التي يوجد فيها مفروشة بدمقس أزرق غامق؛ ومنجّدة بقماش ساتان أصفر ذهبيّ، واستغرب الكونت هذا الاختلاف مع تقبّله كما يفعل المرء في الحلم حيث تظهر الأشياء المعتادة بمظاهر مختلفة تماماً لكنْ من دون أنْ تتعذّر معرفتها؛ وأحسّ أيضاً أنّه أقصر من المعتاد؛ يضاف إلى ذلك ما يُخيّل إليه من أنّه جاء مرتدياً ثيابه إلى الطبيب، ودون أنْ يتذكّر أنّه خلعها أو استبدلها، ألفى نفسه مرتدياً سترة صيفية خفيفة القماش لم يكن لها وجود في خزانة ملابسه؛ كان ذهنه في انزعاج غير معروفة بواعثه، وأفكاره التي كانت في غاية الصفاء صباحاً، تتّضح بصعوبة. وعندما نسب هذه الحال الفريدة إلى المشاهد الغريبة التي رآها في السهرة كفّ عن الاهتمام بها، فأسند رأسه إلى زاوية العربة

Twitter: @ketab_n

واسترسل في حلمِ يقظةٍ حائر، في نعاس مبهم لم يكن سهاداً ولا نوماً.

استعاد وعيه مَع التوقّف المباغت للحصان وصوت الحوذيّ صائحاً: «الباب!». أنزل الزجاج وأخرج رأسه فرأى على ضوء الفانوس شارعاً مجهولاً، بيتاً ليس بيته.

«يا للشيطان، أين تأخذني أيّها الحيوان؟ صاح. هل نحن في ضاحية سان هونوريه، قصر لابنسكي؟

- عذراً، يا سيّدي، لم أفهم»، تذمّر الحوذيّ وهو يدفع بحصانه نحو الوجهة المذكورة.

خلال الرحلة، تساءل الكونت الذي تغيّر جسده عدّة تساؤلات لم يستطع الإجابة عنها. كيف انطلقت عربته من دونه وقد أعطى الأمر بانتظاره؟ كيف يوجد هو نفسه في عربة شخص آخر. افترض أنّ حمّى خفيفة كانت تربك وضوح إدراكه، أو ربّما عمد الطبيب صانع المعجزات، من أجل البرهنة أكثر على مصداقيّته، إلى جعله يستنشق خلال نومه بعض المخدّرات المُهَلوِسة التي سوف يزول مفعول أوهامها بعد ليلة من الراحة.

بلغت العربة قصر لابنسكي؛ نودي البوّاب فرفض فتح الباب، قائلاً إنّ السيّد عاد منذ أكثر من ساعة والسيّدة انسحبت إلى جناحها.

«أمر طريف، أأنت سكران أم مجنون؟ قال أولاف-دو سافيل دافعاً العملاق الذي وقف ناشراً جسمه الضخم عند عتبة الباب المنفرج، مثل تلك التماثيل البرونزية التي تمنع الفرسان التائهين من دخول القصور المسحورة، في الحكايات العربية.

- أنت السكران أو المجنون، يا سيّدي الصغير، ردّ البوّاب الذي تحوّل لونه من القرمزيّ الطبيعيّ لديه، إلى أزرق الغضب.

Twitter: @ketab_n

- أيّها البائس! زمجر أولاف-دو سافيل، لو لم أكنْ أحترم نفسي...
- اخرسْ وإلّا لحطّمتك على ركبتي ورميت بأشلائك على الرصيف، ردّ العملاق فاتحاً يداً أعرض وأطول من اليد الجبسيّة العملاقة المعروضة لدى بائع القفّازات في شارع ريشليو؛ ينبغي ألّا تغضبني، يا سيّدي الصغير، فقط لأنّك احتسيت زجاجتين أو ثلاثاً من الشمبانيا أكثر من اللّزوم».

بلغ السخط بأولاف-دو سافيل حدّاً جعله يدفع البوّاب بعنف حتّى دخل السقيفة. وهرع بعض الخدم، ممّن لم يناموا بعد، على ضجيج المشاجرة.

«أنا أطردك، يا بهيمة، يا دابّة، يا قاطع الطرق، يا فاسق! لن أتركك تمضي ليلتك في القصر؛ انجُ بروحك وإلّا قتلتك كما يُقتل كلب مسعور. لا تجبرني على سفك دم دنيء لخادم».

وانطلق الكونت مسلوب الجسد وعيناه محتقنتان باللّون الأحمر، شفتاه مزبدتان، وقبضتاه مشدودتان، نحو البوّاب الضخم الذي جمع يدَي المعتدي في إحدى يديه، ضاغطاً عليهما شبه مهشَّمتين بملزمة أصابعه الغليظة والقصيرة، اللّحيمة والكثيرة العُقد، مثل أصابع جلّاد من القرون الوسطى.

«هيّا اهدأْ، قال العملاق، وهو بسيطٌ نوعاً ما في الواقع، ولم يعد يخشى خصمه فبدأ يرجّه بين الفينة والفينة ليوقفه عند حدّه. هل يوجد رشد في التورّط بمثل هذا الوضع عندما يكون المرء في لباس رجل مجتمع، ثمّ يأتي لاحقاً مثل مشوّش يتسبّب في إقلاق راحة النائمين في المنازل المحترمة؟ لا بدّ من مراعاة فعل الخمر، ولا شكّ أنّ الذي أثملك بهذه الطريقة شخص ذائع الصيت! لهذا لن أصرعك الآن وسوف أكتفي بوضعك في

Twitter: @ketab_n

الشارع بعناية، حيث يمكن للدوريّة أن تلتقطك إذا واصلت ضوضاءك. لعلّ لحن كمنجة سوف ينعش روحك.

- أيّها السفلة، صاح أولاف-دو سافيل، منادياً الخدم، تتركون هذا النذل السفيه يشتم سيّدكم النبيل الكونت لابنسكي!»

مع ذكر هذا الاسم، أطلق مجموع الخدم في وقت واحد صرخة هزء قويّة؛ وانطلقت ضحكة كبيرة، بل قهقهة عصبيّة رفعت كلّ تلك الصدور المزخرفة بشرائط الرّتَب: «هذا السيّد الصغير يحسب نفسه الكونت لابنسكي! هاهاها! يا لها من فكرة!».

بلّل عرَق بارد صدغَي أولاف-دو سافيل. اخترقت مخّه فكرة حادّة مثل شفرة قاطعة، وأحسّ بنخاع عظامه يتجمّد. أيكون شمارّا[1] قد وضع ركبته في صدره أم أنّه يعيش الحياة الحقيقة؟ أترى تلاشى عقله في محيط المغناطيسيّة الذي لا قرار له، أم أنّه سقط ضحية إحدى المكائد الشيطانية؟ لا أحد من خدمه المرتجفين بشدّة في حضوره عادةً، والخاضعين، والمنبطحين أمامه، يعرفه الآن. هل حصل له تغيير في جسمه كما حدث مع ثيابه ومركبته؟

«حتّى تتأكّد بأنّك لست الكونت لابنسكي، قال أوقح مَن في المجموعة، انظرْ إل هناك، هوذا شخصياً ينزل درج المدخل بعد أن جذبته ضجّة هجومك».

أدار أسير البوّاب عينيه نحو آخر الباحة، ورأى شابّاً واقفاً تحت إفريز تسقيفة الباب، كان ذا قامة أنيقة ومشيقة، ووجه بيضويّ، وعينين سوداوين، وأنف معقوف، وشاربين ناعمين، وهو لم يكن سواه، أو

(1) الشيطان المسؤول عن الكوابيس، في بعض المعتقدات القديمة على ما أورده كاتب القصص والحكايات الفنطازيّة شارل نوديه Charles Nodier (1780–1844) في حكايته الطويلة «شمارّا أو شياطين اللّيل» *Smarra ou les demons de la nuit* .

Twitter: @ketab_n

شبحه بعد أن جبله الشيطان مع شبَه يشبه الكذب.

أطلق البوّاب اليدين اللّتين كان يمسك بهما أسيرتين. اصطفّ الخدم باحترام عند الجدار، خافضين أبصارهم، وأيديهم متدلّية في سكون مطلق، مثل ضبّاط قصر السلطان عند اقتراب الباديشاه؛ كانوا يقدمون لذلك الشبح واجب الاحترام الذي رفضوه أمام الكونت الحقيقيّ.

أمّا زوج براسكوفي، رغم بسالته كسلافيّ، وهذا يعني الكثير، فقد أحسّ بهلع لا يوصف لدى اقتراب هذا المينيكْم[1] أو الصنو الذي يبدو أفظع ممّا تكون عليه شخصيّته في المسرح، ليتدخّل في الحياة الفعليّة ويجعل توأمه غير معروف.

طرأت على ذاكرته أسطورة عائلية قديمة فزادت من روعه. ففي كلّ مرّة يحين أجلُ واحدٍ من عائلة لابنسكي، يبدأ إنذاره بظهور شبح يشبهه تماماً. وفي أمم الشمال تُعتبر رؤية الصنو الشبيه، حتّى في الحلم، نذير شؤم، لذا أصيب محارب القوقاز المقدام، لدى مرأى هذه الرؤيا الخارجة عن أناه، برعب تشاؤميّ لا يمكن تجاوزه؛ وها أنّ مَنْ كان من شأنه وضع يده في فوهة المدافع المستعدة للإطلاق، يتراجع أمام ذاته.

تقدّم أوكتاف-لابنسكي نحو شكله القديم، حيث كانت روح الكونت تتخبّط وتسخط وترتعش، وقال له بنبرة تهذيب متعالية وباردة:

«سيّدي، كفَّ عن المخاطرة مع هؤلاء الخدم. إذا كنت ترغب في الحديث مع السيّد الكونت لابنسكي، فإنّه يكون حاضراً بين منتصف النهار والساعة الثانية ظهراً. أمّا السيّدة الكونتيسة فهي تستقبل الأشخاص الذين تشرّفوا بأن يُقدَّموا لها، كلّ يوم خميس».

---

(1) مينيكْم: واحد من توأمين، ثانيهما هو سوسيكليس، في مسرحية «المينيكْمان» *Menaechmi* للّاتينيّ توتوس بلاوتوس. وصار الاسم «مينيكْم» يُستخدم للدلالة على الصنّو أو الشّبيه.

Twitter: @ketab_n

بعد نطق تلك الجملة بتقطّع وبطء، مع تركيز على كلّ نبرة صوتية، انسحب الكونت المزيّف بخطى هادئة، وأوصدت الأبواب خلفه.

حُمل أولاف-دو سافيل إلى العربة مغشيّاً عليه. وعندما استعاد وعيه كان ينام على فراش ليس فراشه، في غرفة لا يذكر أنّه دخل إليها ذات مرّة؛ وبجانبه كان يقف خادم أجنبيّ يرفع له رأسه ويمكّنه من استنشاق علبة أثير.

«هل يشعر سيّدي بالتحسّن؟ سأل جانُ الكونتَ، وكان يظنّه سيّده.

- نعم، أجاب أولاف-دو سافيل؛ لم يكن سوى وهن عابر.

- أيمكنني الانسحاب أم يتوجّب عليّ السّهر لمراقبتك، يا سيّدي؟

- كلّا، اتركني وحدي؛ لكنْ، قبل انسحابك، أضئ الشمعدان الكبير قرب المرآة.

- ألا يخشى سيّدي أنْ تمنعه الإضاءة القويّة من النوم؟

أبداً؛ فأنا لا أشعر بالنعاس أصلاً.

- أنا لن أنام، وإذا احتاج سيّدي إلى أيّ شيء فسوف أسرع إليه مع أوّل رنّة للجرس»، قال جان، وقد شعر داخليّاً بخطورة شحوب الكونت وقسماته المتحلّلة.

عندما انسحب جان بعد إشعال الشموع، أسرع الكونت نحو المرآة، وفي الكريستال العميق الصافي حيث ترتعش إيماضات الأضواء، رأى رأساً فتيّاً، وديعاً وحزيناً، بشعر أسود كثيف، وحدقتين بزرقة داكنة، وخدّين شاحبين، ولحية ناعمة سمراء، كان رأساً ليس رأسه، وكان ينظر إليه من عمق المرآة بمظهر من فوجئ. في البداية أجهد نفسه كي يعتقد بأنّ شخصاً سيّيء المزاج كان يؤطّر قناعه في الحافة المرصّعة بالنحاس والصّدَف للمرآة الفينيسية ذات الحدود المائلة. مرّر يده وراءها؛ لم يلمس

Twitter: @ketab_n

إلّا خشبات الدعامة؛ ولا يوجد أحد.

كانت يداه اللّتان جسّهما أضمر وأطول وأكثر عروقاً؛ في البنصر ينفر محدّباً خاتم ذهبيّ كبير مع فصّ من البارقين[1] نُقش عليه شعار، فرنك فرنسيّ قديم محاط بمعدن وفضّة، مع دمغة تاج بارون. هذا الخاتم لم يكن بحوزة الكونت قطّ، فقد كان يضع خاتماً بشعار نسر رمليّ محلّق، في منقاره زقّة، وتظهر قائمتاه وبراثنه أيضاً؛ وكلّه مغمور بتاج لؤلؤ. فتّش جيوبه فوجد محفظة صغيرة تحتوي على بطاقات زيارة بهذا الاسم: «أوكتاف-دو سافيل».

يمكن التسليم بأنّ قهقهة الخدم في قصر لابنسكي، وظهور صنوه، والسحنة المجهولة التي حلّت محلّ انعكاسه في المرآة، كلّها أوهام دماغ مريض؛ لكنّ هذا اللّباس المختلف، وهذا الخاتم الذي نزعه من إصبعه، يشكّلان براهين ماديّة، ملموسة، أدلّة لا يمكن دحضها. من المؤكّد أنّ عملية تحويل كاملة قد أُجْرِيَتْ عليه من دون درايته، هو ساحر، بالتأكيد، شيطان ربّما، سرق منه شكله، ونبالته، واسمه، شخصيته كلّها، ولم يترك له إلّا روحه من دون وسائل تتجلّى عبرها.

عادت إلى ذاكرته حكايات بيار شليمل الفنطازيّة وحكايات ليلة سان سيلفاستر؛ غير أنّ شخصيتَي حكايات لاموت-فوكيه وحكايات هوفمان، لم تفقدا سوى الظلّ بالنسبة للشخصيّة الأولى، والانعكاس بالنسبة للشخصيّة الثانية؛ وحتّى إذا كان ذلك الحرمان الغريب من الانعكاس الذي يمتلكه الجميع، يؤدّي إلى الإيحاء بشكوك مقلقة، فإنّ أحداً لم ينكر عليهما أنّهما هما.

أما وضعه هو فقد كان أكثر تعاسة: إذْ أنّه لا يستطيع المطالبة باستعادة

(1) حجر البرق.

Twitter: @ketab_n

لقب الكونت لابنسكي بهذا الشكل الذي يلفي نفسه مسجوناً فيه. فمن شأنه أن يبدو في عيون الآخرين محتالاً وقحاً، أو مجنوناً على الأقلّ. وحتّى زوجته لن تعرفه وهو يتزيّا بهذا المظهر الكاذب. كيف عساه يبرهن على هويّته؟ من المؤكّد أنّ هناك الكثير من الحالات الحميمة، والكثير من التفاصيل السرّية التي يجهلها أيّ شخص آخر، ويمكن تذكير براسكوفي بها، لتعيد التعرّف إلى روح زوجها تحت هذا المظهر التنكّري؛ لكنْ من الذي سيرضى بهذا الاقتناع المنعزل في حال الحصول عليه، مقابل إجماع بقيّة النّاس؟ لقد كان حقّاً وواقعاً، فاقداً لأناه. وهناك همّ آخر: أكان تحوّله مقتصراً على التغيّرات الخارجية للقامة والملامح، أم أنّه يسكن جسدَ شخص آخر؟ وفي هذه الحال، ماذا فعلوا بجسده؟ أيكون قد تمّ تذويبه في بئر كلسيّة أم صار ملْكاً للصِّ مقدام؟ والصنو الذي شوهد في قصر لابنسكي يمكنه أن يكون شبحاً، رؤيا، لكنْ يمكنه أيضاً أنْ يكون كائناً طبيعيّاً، حيّاً، مقيماً في ذلك الجلد الذي ربّما سرقه منه ذلك الطبيب ذو مظهر الناسك الهندوسيّ، بمهارة جهنّميّة.

وطرأت فكرة بشعة لتعضّ قلبه بأنيابها الأفعوية: «وذلك الكونت لابنسكي المختلَق، المتحجّر في شكلي بيدَي الشيطان، مصّاص الدماء ذاك الذي يسكن الآن قصري، والذي يطيعه خدمي ضدي، ربّما يكون في هذه الساعة يضع قدمه المتشعّبة على عتبة تلك الغرفة التي لم أدخلها قطّ إلّا وقلبي متأثّر مثل اللّيلة الأولى، وقد تكون براسكوفي تبتسم له بعذوبة وتحني رأسها الفاتن، مع حمرة الخجل الربّانية، على تلك الكتف المهورة بمخلب الشيطان، معتقدةً أنّ تلك البرقة الكاذبة هي أنا، ذلك البريكولاك، ذلك الأمبوز[1]، ذلك الابن الشنيع للّيل والجحيم. لو أنّني

(1) البريكولاك Brucolaque : مصّاص الدماء عند الإغريق، والأمبوز (سبق ذكره) =

Twitter: @ketab_n

أركض باتّجاه القصر، لو أنّني اشعل فيه النار لأصيح بين ألسنة اللّهب، إلى براسكوفي: إنّهم يخدعونك، ذاك ليس أولاف حبيبك الذي تحتفظين به في قلبك! سترتكبين، ببراءة، جريمة شنيعة، سوف تظلّ روحي اليائسة تتذكّرها عندما تتعب أيادي الأبدية من تقليب ساعاتها الرملية!».

كانت أمواج ملتهبة تتدفّق في دماغ الكونت، فكان يطلق صرخاتِ حنق مبهمة الألفاظ، ويعضّ قبضتيه، ويدور في الغرفة مثل حيوان متوحّش. كان الجنون يوشك على إغراق الوعي الغامض الذي تبقّى له من ذاته؛ أسرع إلى مرحاض أوكتاف، ملأ طشت ماء وغطس رأسه فيه، فخرج مدخّناً من ذلك الحمّام البارد.

عاد إليه رشده. قال في نفسه إنّ زمن الشعوذة وأعمال السّحر قد ولّى؛ وإنّ الموت وحده هو القادر على عتْق الروح من الجسد؛ ولن يتمكّنوا بهذه الطريقة، وفي قلب باريس، من اختطاف كونت بولنديّ مؤمَّن عليه بعدّة ملايين عند روتشيلد، ومُصاهر لأكبر العائلات، وزوج محبوب من لدن امرأة مطابقة لذوق العصر، مقلَّد بوسام من الصنف الأوّل من أخويّة سان-أندريه، وإنّ كلّ هذا الذي حدث قد لا يكون سوى مزحة مفرطة في سوء الذوق قام بها السيّد بالتازار شيربونو الذي من شأنه أنْ يفسّر ما فعله بأبسط طريقة ممكنة مثل فزّاعات روايات آن رادكليف[1].

هدّه التعب، فارتمى على فراش أوكتاف، ونام نوماً عميقاً، كثيفاً، شبيهاً بالموت، وكان نومه متواصلاً حتّى مجيء جان الذي ظنّ سيّده قد استيقظ فجلب له الرسائل والجرائد ليضعها على المائدة.

= من شخصيات مسرحيّة «فاوست» الثانية لغوته.

(1) آن رادكليف Ann Radcliffe (1764–1823) أديبة أنجليزية. تعدّ من روّاد رواية الرعب القوطيّ، ويتجلّى أسلوبها في استخدام القوى فوق الطبيعية.

Twitter: @ketab_n

8

فتح الكونت عينيه، وألقى نظرة مستقصية حوله؛ وجد غرفة نوم مريحة لكنّها بسيطة، وسجّادة مزخرفة بعيون، تقليداً لجلد الفهد، تغطّي الأرضية الخشبية؛ وستائر منجّدة، وقد فتحها جان قليلاً للتوّ، تتدلّى على النوافذ وتغطّي الأبواب؛ وكانت الجدران مغطّاة بورق مخمليّ أخضر موحّد اللّون، مثل الملاءات. ثمّة ساعة دقاقة مجبولة في كتلة رخام أسود، ذات ميناء من البلاتين، يعلوها تمثال صغير من الفضّة المؤكسدة يمثّل ديانا غابي[1]، بعد أنْ قلّص حجمه باربديَين[2] انطلاقاً من الأصل، مع كوبَين من الفضّة أيضاً بجانب الساعة التي كانت تزيّن المدفأة الرخامية البيضاء مع عروق مزرقّة؛ وكانت مرآة البندقية التي اكتشف فيها الكونت البارحة أنّه لم يعد يمتلك وجهه المعتاد، مع لوحة لامرأة مسنّة، من رسم فلاندران[3]، لعلّها صورة والدة أوكتاف، هما كلّ ما يزيّن هذه الغرفة الحزينة والعابسة قليلاً؛ وهناك أريكة، وكرسيّ بذراعين على طريقة فولتير[4] قرب المدفأة، ومائدة ذات أدراج مغطّاة بأوراق وكتب، تشكّل أثاثاً مناسباً، لكنّه لا يُقارن ببذخ قصر لابنسكي.

«هل يستيقظ سيّدي؟» قال جان بذلك الصوت المعتدل الذي تبنّاه

---

(1) تمثال امرأة بثوب فضفاض يُرجّح أن تكون آرتيميس. عُثر على التمثال في حفريّات مدينة غابي Gabii القريبة من روما، ويوجد الآن في متحف اللّوفر.

(2) فرديناند باربديَين Ferdinand Barbedienne (1810–1892): صناعيّ فرنسي عُرف بعمل لسبك البرونز الخاص بتقليد المنحوتات الفنية.

(3) هيبوليت فلاندران Hippolyte Flandrin : رسّام فرنسي (1809– 1864)، كان تلميذاً لآنغر، وكان في القرن التاسع عشر يُعدّ من أكبر الرسّامين الدينيّين.

(4) كرسي مريح جيّد التنجيد بظهر مرتفع ومائل قليلاً للخلف مع مسندين منجّدين لليدين. لا يعرف سبب نسبته لفولتير ويرجّح البعض أنه يأتي من رسم لفولتير وهو يجلس على كرسيّ من هذا النوع.

Twitter: @ketab_n

خلال مرض أوكتاف، وهو يقدم للكونت القميص الملوّن وسروال الفلانيلا الطويل وغندورة الجزائر[1]، وهي ثياب سيّده الصباحية. ومهما كان نفور الكونت من ارتداء ثيابِ أجنبيّ، فقد كان مضطرّاً لقبول ما يقدّمه له جان أفضل من البقاء عارياً، وهكذا وضع قدميه على جلد الدبّ الأسود الناعم المستخدَم حامياً للقدمين قرب السرير.

انتهى من الاغتسال سريعاً، وقال له جان الذي لايبدو عليه أيّ ارتياب حول هويّة أوكتاف دو سافيل المزيّف بعد أنْ ساعده على ارتداء ثيابه: «في أيّ ساعة يودّ سيّدي تناول فطوره؟

- في الساعة المعتادة»، أجاب الكونت، وقد قرّر القبول خارجيّاً بتحوّله غير المفهوم، من أجل إنجاح الخطوات التي ينوي اتباعها لاستعادة شخصيّته.

انسحب جان، وفتح أولاف-دو سافيل الرسالتين اللّتين جلبهما الخادم مع الجرائد، آملاً أنْ يعثر فيهما على بعض المعلومات؛ كانت الأولى تتضمّن عتابات وديّة، وتشكو من انقطاع العلاقات الرفاقية الطيّبة بلا مبرّر؛ وقد وقّع الرسالة شخص مجهول بالنسبة إليه. أمّا الرسالة الثانية فكانت من كاتب العدل الذي يتعامل معه أوكتاف، ويحثّه على القدوم لاستلام قسط إيرادٍ حانَ أجلُه، أو على الأقلّ، أنْ يستثمر رؤوس أمواله التي ظلّت غير منتِجة.

«آه إذن، حدّث الكونت نفسه، يبدو أنّ أوكتاف دو سافيل هذا الذي أسكُن جلده رغم أنفي موجود حقّاً؛ ليس كائناً خياليّاً أبداً، أو شخصيّة من تأليف آخيم فون أرنيم أو كليمنس برنتانو[2]؛ له شقّة وأصدقاء

(1) كتبها: Gandoura.

(2) آخيم فون أرنيم Achim von Arnim (1781–1831) شاعر وروائيّ وكاتب مسرحيّ رومنطيقيّ ألماني. وكليمنس برنتانو Clemens Brentano (1777–1842) من كتّاب =

Twitter: @ketab_n

وكاتب عدل وإيرادات للقبض، كلّ ما يشكّل الحال المدنيّة لجنتلمان. وفي تلك الأثناء يبدو لي، مع ذلك، أنّني الكونت أولاف لابنسكي حقّاً».

ألقى نظرة في المرآة فأقنعته بأنّ هذا الرأي لن يشاركه فيه أحد؛ كان الانعكاس متماثلاً، في صفاء ألق النهار وتحت الوميض الملتبس للشموع.

في متابعته الزيارة السكنية، فتح دُرْجَي المائدة: وجد في أحدهما شهادات ملكية، وورقتين نقديّتين بألف فرنك وخمسة لويسات[1]، احتازهما بلا تردّد من أجل الحملة التي سيشرع فيها، ووجد في الدُّرج الثاني حافظة من الجلد الروسيّ مغلقة بقفل سرّي.

دخل جان معلناً عن زيارة السيّد ألفرد هومبير الذي اندفع إلى الغرفة بإلفة صديق قديم، من دون أنْ ينتظر الخادم حتّى يأتيه بردّ السيّد.

«صباح الخير أوكتاف، قال القادم الجديد، وهو شابّ وسيم ذو مظهر ودّي وصريح؛ ماذا تفعل، ماذا حلّ بك، أأنت حيّ أم ميت؟ لم تعد تُرى في أيّ مكان؛ أراسلك ولا تجيب. كان ينبغي عليّ مقاطعتك، لكن الواقع أنّني لا أتعامل بكبريائي في مجال المحبّة، وقد جئت لمصافحتك. يا للشيطان! لا يمكن للمرء أنْ يترك رفيقه في الدراسة يموت من الكآبة داخل هذه الشقّة الكئيبة مثل معتكف شارل كِنْتْ في دير يوسته[2]. تحسب نفسك مريضاً، وأنت تعاني من الضجر في الحقيقة، هذا كلّ ما في الأمر؛ لكنّني سوف أجبرك على تسلية نفسك، وسأصطحبك بمطلق الحقّ إلى غداء مفرح حيث سيدفن غوستاف رامبو عزوبيّته».

= الأدب الفنطازيّ الألمان.

(1) قطعة نقدية ذهبية فرنسية قديمة بقيمة 20 فرنكاً.

(2) دير يوجد في بلدة يوسته Yuste الاسبانية وقد اشتهر بكونه شكّل مقرّ إقامة الإمبراطور شارل كنت، أو شارل الخامس، من 1557 إلى موته سنة 1558، وقد اختاره بعد تخلّيه عن الحكم لصالح ابنه فيليبه الثاني.

Twitter: @ketab_n

كان يستعرض هذه الخطبة بنبرة بين الغضب والفكاهة وهو يهزّ يد الكونت بعد أنْ أمسك بها بقوّة على الطريقة الإنجليزية.

«كلاّ، أجاب زوج براسكوفي، متوغّلاً في تقمّص دوره، أنا اليوم أكثر ألماً من العادة؛ لست في وضع جيّد؛ ومن شأني أن أشعركم بالحزن والإزعاج لدى حضوري.

- فعلاً، أنت شاحب جدّاً ويبدو عليك التعب؛ إلى مناسبة أخرى أفضل إذن! أنا سأسرع بالخروج لأنّني تأخّرت عن دزينة محار أخضر وزجاجة نبيذ من نوع سوتيرن، قال ألفرد وهو يتوجّه نحو الباب؛ سوف يغضب رامبو لعدم رؤيتك».

هذه الزيارة زادت في حزن الكونت. جان يحسبه سيّده. وألفرد يحسبه صديقه. ينقصه برهان أخير. انفتح الباب؛ دخلت إلى الغرفة امرأة ذات عُصابة شعر مزركشة بخيوط فضّية، وكانت تشبه بطريقة بيّنة تلك الصورة المعلّقة على الجدار، جلست على الأريكة، وقالت للكونت:

«كيف حالك يا عزيزي أوكتاف المسكين؟ أخبرني جان أنّك عدت متأخّراً أمس، وفي حالة ضعف مقلقة؛ راعِ صحّتك جيّداً، يا ابني العزيز، فأنت تعرف كم أحبّك، رغم حزني من هذه الكآبة غير المفهومة التي لم ترغب قطّ في مصارحتي بسرّها.

- لا تخشَي شيئاً، يا أمّي، ليس في الأمر خطورة، أجاب أولاف- دو سافيل؛ أنا اليوم في وضع أفضل بكثير».

بعد اطمئنانها، وقفتْ وخرجت، لأنّها لم تشأ مضايقة ابنها، لمعرفتها بكرهه للإزعاج الطويل في عزلته.

«ها أنذا أوكتاف دو سافيل بحقّ ونهائيّاً، هتف الكونت بعد مغادرة العجوز؛ أمّه عرفتني ولم تتصوّر وجود روح أجنبيّة تحت جلدة ابنها.

Twitter: @ketab_n

ربّما بتّ محبوساً إلى الأبد في هذا الغلاف إذن؛ ما أغرب سجن الروح في جسد آخر! مع ذلك من الصعب على المرء التخلّي عن كونه أولاف لابنسكي، وخسارة شعار نسَبه، وزوجته، وثروته، ورؤية نفسه مختزلاً في وجود بورجوازيّ هزيل. آه! سوف أمزّق جلد نِسّوس[1] هذا الذي يلتصق بأناي، لكي أتمكّن من الخروج، ولن أسلّمه إلى مالكه الأوّل إلّا إرباً. لو عدتُ إلى القصر؟ إذْ أنّني أفقد نشاطي في مبذل المريض هذا الذي أرتديه؛ هيّا، فلأفتشْ، إذْ ينبغي أنْ أتعرّف قليلاً على حياة أوكتاف دو سافيل هذا الذي هو أنا حالياً». وحاول فتح الحافظة. استجاب النابض للمسة مصادفة، وسحب الكونت من الجيوب الجلدية عدّة أوراق في البداية، وكانت مكتوبة بخطّ مرصوص وناعم، ثمّ أخرج مربعَ رقّ قضيم؛ على مربّع الرقّ كانت يدٌ غير ماهرة كثيراً، لكنْ وفيّة، قد رسمت، انطلاقاً من ذاكرة القلب والشبَه الذي لا يبلغه الفنّانون الكبار دائماً، صورة بالقلم، للكونتيسة براسكوفي لابنسكا، وكان يستحيل عدم التعرّف إليها من أوّل نظرة.

مكث الكونت مندهشاً من هذا الاكتشاف. وأعقبت المفاجأة حركة غيرة ساخطة؛ كيف كانت صورة الكونتيسة توجد في الحافظة السرّية لذلك الشابّ الغفْل، من أين حصل عليها، من الذي رسمها، من الذي أعطاها؟ هل تكون براسكوفي هذه، المعبودة إلى حدّ التقديس، قد سقطت من سماء حبّها في مكيدة مبتذلة؟ أيّة سخرية جهنّميّة جسّدتْه، هو الزوج، في جسد عشيق هذه المرأة، وكان حتّى ذلك الوقت يعتبرها في غاية الطهر؟ وبعد أنْ كان الزوج؛ سيلعب دور المغازِل العاشق! يا له

(1) حسب أوفيديوس، في «كتاب التحوّلات»، هو السنتور أو القنطورس (كائن خرافيّ نصفه رجل ونصفه فرس) الذي حاول اختطاف ديانيرا زوجة هرقل، لكنّ هرقل تمكن من قتله بسهم مسموم.

Twitter: @ketab_n

من تحوّل ساخر، إنّه قلبٌ للأدوار يبعث على الجنون، هو نفسه يمكنه أنْ يخطئ، وأنْ يكون كليتاندر وجورج دندان في آن![1].

كانت كلّ هذه الأفكار تطنّ بصخب في جمجمته؛ وكان يشعر بوشك فقدانه للصواب، ومن أجل استعادة بعض الهدوء بذل جهداً إرادياً قاسياً. ومن دون الاكتراث بجان الذي جاء يخبره بأنّ الغداء جاهز، تابع تفتيش الحافظة الغريبة باضطراب عصبيّ.

كانت الأوراق تشكّل نوعاً من اليوميّات النفسية، تُترك وتُستعاد في تواريخ مختلفة؛ وهنا بعض الشذرات التي التهمها الكونت بفضول متلهّف:

«لن تُحبّني أبداً، أبداً، أبداً! قرأتُ في عينيها اللّتين هما في منتهى الوداعة هذه الكلمة التي في منتهى القسوة، والتي لم يجد دانتي أقسى منها لتدوينها على الأبواب البرونزية في المدينة المحزنة: «تخلّوا عن كلّ رجاء». ماذا فعلتُ للرب حتّى أُلعنَ حيّاً؟ غداً، بعد الغد، لا بل دائماً، سوف يكون الأمر هو نفسه! تستطيع الكواكب مشابكة مداراتها، وتستطيع النجوم في حال القران تشكيل عُقَد، ولن يتغيّر شيء في مصيري. بكلمة واحدة، بدّدتِ الحلم؛ بحركة واحدة حطمتْ جناح الوهم. لا شيء من التوفيقات الخرافية بين المستحيلات يمكّنني من فرصة؛ حتّى الأرقام المرميّة مليار مرّة في دولاب الحظ، لن تمكّنني من ذلك، ما من رقم رابح بالنسبة لي!

«يا لتعاستي! أعرف أنّ الفردوس موصد دوني وأظلّ واقفاً على العتبة بكلّ غباء، ظهري مستند إلى الباب الذي يجب ألّا يُفتح، وأبكي

(1) إشارة إلى مسرحية موليير Molière «جورج دندان أو الزوج الحائر» *Goerge Dandin ou le mari confondu*، حيث جورج دندان هو زوج أنجيليك Angélique وكليتاندر Clitandre هو «عشيقها».

Twitter: @ketab_n

في صمت، بلا نشيج، بلا جهود، كما لو كانت عيناي ينبوعَي ماء جارٍ. لا أملك شجاعة النهوض والتوغّل في الصحراء الشاسعة أو في بابل الصاخبة لبني البشر.

«أحياناً، عندما أعجز عن النوم ليلاً، أفكّر في براسكوفي؛ عندما أنام أحلم بها؛ آه! كم كانت جميلة خلال ذلك اليوم، في حديقة فيلّا سالفياتي، في فلورنسا! - ذلك الفستان الأبيض وتلك الأشرطة السوداء، كان ذلك فاتناً ومأتميّاً! الأبيض لها، والأسود لي! - كانت الأشرطة أحياناً تشكّل، عندما يحرّكها النسيم، صليباً على تلك الخلفية ذات البياض الناصع؛ كان هناك روح لامرئية ترتّل في همسٍ صلاةً لموت قلبي.

«لو أنّ كارثة لا مثيل لها وضعت على جبيني تاج الأباطرة والخلفاء، لو أنّ عروق الأرض نزفتْ ذهباً من أجلي، لو تركتني مناجم الماس في غولكوند وفي فيزابور أنقّب في شوائبها المعدنية المتلألئة، لو أنّ قيثارة بايرون رنّتْ بين أصابعي، لو أنّ أعظم روائع الفنّ القديم والحديث أعارتني جمالها، لو أنّني اكتشفت عالَمًا، أي نعم!، كلّ ذلك لن ينفعني كي أتقدّم أكثر في هذا المسعى!

«يا للقدر كيف يخطّط لنا! كنت راغباً في الذهاب إلى القسطنطينية، ولو فعلتُ لما التقيتُ بها. بقيت في فلورنسا فرأيتها وبتّ مشرفاً على الموت.

«كان بوسعي قتل نفسي؛ غير أنّها تتنفس في هذا الهواء الذي نعيش فيه، وربّما كانت شفتي المتلهّفة تطمح- آه أيّتها السعادة التي لا توصف! - إلى فوحٍ بعيدٍ من ذلك النفس المعطّر؛ وبعد ذلك قد يُخصّص لروحي المذنبة كوكبٌ للنفي، ولن أحظى بفرصةٍ كي تحبّني في حياة أخرى. - أنكون مفصولَين هناك أيضاً، هي في الجنّة، وأنا في الجحيم: يا لها من

Twitter: @ketab_n

فكرة مضنية!

«لماذا توجّب عليّ أنْ أحبّ تحديداً تلك المرأة الوحيدة التي لا يمكنها أنْ تحبّني؟ كان هناك أخريات يُقال عنهنّ جميلات، وعازبات، يبتسمن لي بأرقّ ابتساماتهنّ ويلُحْن في انتظار بوح لا يأتي. أوه! ما أسعده، هو! أيّة حياة سموّ سابقة عاشها ليكافئه الربّ عليها بالهبة الرائعة لهذا الحبّ؟

... كان من غير المجدي قراءة المزيد من تلك الشذرات. فالريبة التي أبداها الكونت بعد رسم البورتريه لبراسكوفي تلاشت منذ السطور الأولى من هذا البوح الحزين. أدرك أنّ الصورة العزيزة، إذْ رُسمتْ ونقّحتْ ألف مرّة، قد خضعتْ لملامسات بعيدة عن «الموديل» بذلك الصبر المتفاني الذي يمتلكه العاشق التعس، وأنّها مثل صورة العذراء في مصلًى كنيسة صغيرة زاهدة، تركع أمامها العبادة المفتقِدة للأمل.

«لكنْ، ماذا لو كان أوكتاف هذا قد عقد ميثاقاً مع الشيطان لسرقة جسدي ومفاجأة براسكوفي حبّاً بمظهري!»

غير أنّ استبعاد مثل هذه الفرضية، في القرن التاسع عشر، جعل الكونت يتخلّى عنها لاحقاً، رغم أنّها أقلقته بشكل غريب.

ابتسم هو نفسه لسرعة تصديقه، وتناول غداءه الذي أعدّه جان، بارداً، ثمّ ارتدى ثيابه وطلب عربة. بعد قرْن الفرس إلى العربة، طلب توصيله إلى الطبيب بالتازار شيربونو؛ فاجتاز تلك القاعات التي دخل إليها البارحة وكان اسمه ما يزال الكونت أولاف لابنسكي، والتي خرج منها ليحيّيه الجميع باسم أوكتاف دو سافيل. كان الطبيب جالساً، كعادته، على أريكة الغرفة الداخلية، ماسكاً قدمه بيده، وكان يبدو مستغرقاً في تأمّل عميق.

مع وقع خطوات الكونت، رفع الطبيب رأسه.

Twitter: @ketab_n

«آه! هذا أنت، يا عزيزي أوكتاف؛ كنت سأزورك؛ لكنْ من العلامات الطيبة أنْ يكون المريض هو الذي يزور طبيبه.

- دائماً أوكتاف! قال الكونت، يبدو لي أنّ ذلك سوف يصيبني بالسعار!» ثمّ تقدّم أمام الطبيب شابكاً ذراعيه ونظر إليه شاخصاً بطريقة مرعبة:

«أنت تعرف جيّداً، يا سيّد بالتازار شيربونو، أنّني لست أوكتاف، بل الكونت أولاف لابنسكي، بما أنّك سرقت منّي جلدي البارحة، وهنا بالتحديد، بواسطة أعمالك السحريّة المستجلَبة».

مع هذه الكلمات انطلق الطبيب في قهقهة عريضة، وانقلب على وسائده ووضع قبضتَيه على خاصرته كي يتمالك تشنّجات بهجته.

«عدِّلْ يا دكتور من هذا الفرح العاصف الذي قد تندم عليه. أتكلّم جديّاً.

- يا للأسف، يا للأسف! هذا يدلّ على أنّ التخدير لمعالجة وسواسك المرضيّ بات يخلّ بمداركك العقلية. ينبغي تغيير الحمْية، هذا كلّ ما في الأمر.

- لست أدري، يا طبيب الشيطان، ما الذي يمنعني من خنقك بيديّ»، صرخ الكونت متقدّماً نحو شيربونو.

ابتسم الطبيب من تهديد الكونت، ولامسه بعصاً معدنية صغيرة. فأحسّ أولاف-دو سافيل بارتجاج مفزع، وظنّ أنّ ذراعه قد بُتِرتْ.

«أوه! نمتلك وسائل السيطرة على المرضى عندما يجمحون، قال مسقطاً عليه تلك النظرة الباردة مثل حمّام بارد والتي تروّض المجانين وتجعل الأسُود تنبطح على بطونها. عدْ إلى بيتك، استحمَّ، وسوف يهدأ روعك».

Twitter: @ketab_n

أصيب أولاف-دو سافيل بدوار من جرّاء الصدمة الكهربائية، وخرج من بيت الطبيب شيربونو أكثر حيرة واضطراباً من ذي قبل. طلب نقله إلى باسي عند الطبيب ب...، ليستشيره.

«أنا، قال للطبيب الشهير، أصبتُ بهلوسة غريبة؛ فعندما أنظر في مرآة، لا يظهر لي وجهي بملامحه المعتادة؛ ولقد تغيّرتْ أشكال الأشياء المحيطة بي؛ لم أعد أتعرّف على جدران غرفتي ولا على أثاثها؛ يبدو لي أنّني شخص آخر ليس أنا.

- في أيّ مظهر ترى نفسك؟ سأله الطبيب؛ فالخداع يمكن أنْ يحصل من العينين أو من الدماغ.
- أرى نفسي بشعر أسود وعينين زرقاوين غامقتين ووجه شاحب تؤطّره لحية.
- لا يمكن حتّى لبيانات جواز سفر أنْ تكون أدقّ ممّا وصفت: أنت لا تشكو من هلوسة ذهنية ولا من انحراف في البصر. فأنت، تظهر كما وصفت نفسك بالضبط.
- كلّا! لي، في الحقيقة، شعر أشقر، وعينان سوداوان، وسحنة ملفوحة مع شارب محفوف على الطريقة المجريّة.
- هنا، أجاب الطبيب، يبدأ تلف خفيف في المدارك العقلية.
- مع أنّني لست مجنوناً إطلاقاً، يا دكتور.
- على الأرجح. فأنا هنا لا يأتيني بمفرده إلّا العاقل. مثل هذا الاضطراب يمكن أن يتسبّب فيه القليل من الإرهاق أو بعض الإفراط في الدراسة أو الملذّات. أنت تخطئ؛ الرؤية حقيقيّة، والفكرة وهمية؛ أيّ أنّك أسمر يظنّ نفسه أشقر، بدل أن تكون أشقرَ يرى نفسه أسمر.

Twitter: @ketab_n

- أنا متأكّد مع ذلك بأنّني الكونت أولاف لابنسكي، والجميع منذ أمس ينادونني أوكتاف دو سافيل.

- هذا بالضبط ما كنت أقوله، أجاب الطبيب، أنت السيّد دوسافيل وتتخيّل نفسك السيّد الكونت لابنسكي، الذي أتذكّر أنّني رأيته، وهو أشقر فعلاً. هذا ما يفسّر تماماً كيفية عثورك على صورة أخرى في المرآة؛ فهذا الوجه الذي هو وجهك، لم يعد يجيب عن فكرتك الداخلية وصار يفاجئك. فكّرْ في هذا الأمر: إنّ كلّ الناس يسمونك السيّد دو سافيل، وبالتالي فهم لا يشاركونك اعتقادك. تعالَ لتقضي قرابة نصف شهر هنا: فمن شأن الحمّامات، والراحة، والنزهات تحت الأشجار الكبيرة، أنْ تقضي على هذا التأثير المكدِّر».

طأطأ الكونت رأسه ووعد بالعودة. لم يعد يعرف مَنْ سيصدّق. عاد إلى شقّة سان لازار، ورأى بالمصادفة، على المائدة، بطاقة الدعوة الموجَّهة من الكونتيسة لابنسكا والتي سبق لأوكتاف أنْ أراها للسيّد شيربونو.

«بهذا الطّلْسَم، صاح، يمكنني رؤيتها غداً!»

9

عندما نقل الخدم الكونت لابنسكي الحقيقيّ المطرود من فردوسه الأرضيّ بفعل الملاك الحارس المزيّف الواقف عند العتبة، إلى عربته، دخل أوكتاف المتحوّل والمتغيّر الهيئة إلى القاعة الصغيرة ذات اللّونين الأبيض والذهبيّ في انتظار وقت فراغ الكونتيسة.

كان مستنداً إلى رخام المدفأة الأبيض وموقدها ممتلئ بالزهور، رأى نفسه متكرّراً في عمق المرآة الموضوعة بتناظر على المنضدة ذات القوائم

Twitter: @ketab_n

المحزَّزة والذهبيّة. ومهما كان قابعاً في سرّ تحوُّله، أو بتعبير أدقّ، استبداله، كان يشقّ عليه الاقتناع بأنّ تلك الصورة المختلفة تماماً عن صورته هي صنو مظهره الحقيقيّ، ولم يكن قادراً على إبعاد عينيه عن ذلك الشبح الغريب الذي صار هو ذاته، مع ذلك. كان ينظر إلى نفسه ويرى آخر. وبطريقة لاإرادية كان يزيد التأكّد إنْ لم يكن الكونت أولاف متّكئاً قربه على رخام المدفأة، مرسلاً انعكاسه في المرآة؛ لكنّه كان وحيداً حقّاً؛ إذنْ فالطبيب شيربونو قام بصنيعه على مستوى الوعي.

بعد بضع دقائق، لم يعد أوكتاف-لابنسكي يفكّر في التقمّص الرائع الذي جعل روحه تسكن جسد زوج براسكوفي؛ واتّخذت أفكاره وجهة أكثر تطابقاً مع وضعه. فهذا الحدث الذي لا يمكن تصديقه، قد حصل، خارج كلّ الاحتمالات، وما كان لأيّ رجاء، مهما كان توهّمه، أنْ يجرؤ على الحلم به في أوج هذيانه! بعد قليل يكون في حضرة المخلوقة الجميلة المحبوبة، ولن ترفضه! فالمعادلة الوحيدة القادرة على التوفيق بين سعادته والفضيلة الطاهرة لدى الكونتيسة تحقّقتْ أخيراً!

كانت روحه، وهو يدنو من هذه اللّحظة القصوى، تعاني من روع وقلق فظيعين: ذلك أنّ وجل الحبّ الحقيقيّ أوهنَها كما لو أنّها لا تزال تسكن شكل أوكتاف دو سافيل المهين.

وضع دخول الوصيفة حدّاً لصخب هذه الأفكار المتصارعة. ولدى اقترابها لم يستطع السيطرة على رجفة عصبية، وتدفّق دمه كلّه إلى قلبه عندما قالت له:

«صار بإمكان السيّدة الكونتيسة أنْ تستقبل سيّدي الآن».

تبع أوكتاف-لابنسكي الوصيفة، إذْ أنّه لا يعرف سكّان القصر ولم يكن راغباً في كشف جهله بالتردّد في مسعاه.

Twitter: @ketab_n

أدخلته الوصيفة إلى غرفة واسعة بما فيه الكفاية، هي غرفة تبرّج مزيّنة بكلّ منتجات البذخ الناعمة. كان هناك مجموعة خزائن من خشب ثمين، من نحت كنيشت ولاينهارت، وقد تمّ الفصل بين البابين بأعمدة حلزونية تلتفّ حولها في شكل لولبيّ عساليج رقيقة من اللّبلاب بأوراق على شكل قلب وأزهار على شكل أجراس، وقد تمّ نحتها بمهارة فنيّة عالية، فشكّلت الخزائن معماراً خشبيّاً، رواقاً من طرازٍ نزِقٍ تمّ بناؤه بأناقة نادرة وتنفيذ موفّق. في تلك الخزائن كانت تُرصّ فساتين المخمل والنسيج المتموّج والكشمير وأنواع الدثار بلا كمين والدنتيلا وعباءات فرو السمّور والزبيلين[1] والثعلب الأزرق، وكذلك القبّعات ذات الأشكال المتنوعة، وكلّ معدّات تلك المرأة الجميلة.

في الجهة المقابلة يتكرّر الأنموذج نفسه مع الاختلاف في كون الألواح المؤطّرة والمزخرفة قد استُبدلتْ بمرايا تدور حول محاور مثل ألواح السّواتر، بطريقة تسمح للواقف بالرؤية المواجهة والجانبية والخلفية، والحكم على جودة صِدارٍ أو تسريحة شعر. عند الواجهة الثالثة تهيمن طاولة زينة طويلة من المرمر الجزْعيّ، حيث توجد حنفيّتانَ فضّيتان يسيل منهما الماء الساخن والماء البارد في قصعتين واسعتين من اليابان مرصّعتَين بقطع دائرية من المعدن نفسه؛ وهناك قوارير كريستالية من بوهيميا تتلألأ تحت ضوء الشموع مثل قطع ألماس وياقوت أحمر، وتحتوي على الخلاصات والعطور.

كانت الجدران والسقف مكسوّة بقماش الساتان ذي اللّون المائيّ المخضرّ، مثلما يكون اللّون داخل علبة جواهر. وثمّة سجّادة سميكة من

(1) نوع من سمّوريات سيبيريا وهو حيوان مفترس، فاخر الفرو.

Twitter: @ketab_n

سميرْنا[1]، ذات ألوان متجانسة في نعومتها، تغطّي الأرضية.

في وسط الغرفة، وعلى قاعدة يغطّيها المخمل الأخضر، كان يوجد صندوق كبير ذو شكل غريب، من فولاذ خراسان المحفور والمنقوش والمشجّر برسوم من فنّ الزخرفة العربيّة مع تعقيدات تصير معها زينة بهو السّفراء في قصر الحمراء في منتهى البساطة. فالفنّ الشرقيّ يبدو كأنّه قدّم أروع آياته في هذا العمل الرائع الذي قد تكون أصابع حوريات بيريس[2] شاركت فيه. في ذلك الصندوق كانت الكونتيسة براسكوفي لابنسكا تخبّئ حليّها من الجواهر الجديرة بملكة، ولم تكن تتزيّن بها إلّا نادراً، وقد رأت محقّةً، أنّها لا تستحقّ المواضع التي تغطّيها. كانت أجمل من أنْ تحتاج للترف: ذلك ما كانت تخبرها به غريزتها الأنثوية. لذلك لم تكن تخرجها لرؤية الأضواء إلّا في المناسبات الاحتفالية عندما يتوجّب على الوريث الباذخ لبيت لابنسكي العتيق الظهور بكلّ التألّق. لم يسبق للألماس أنْ ظلّ في عطالة كما يحدث له عندها.

قرب النافذة حيث تتدلّى الستائر الواسعة في طيّات بارزة، وأمام طاولة زينة على الطريقة الدوقيّة، مقابل مرآة يُدْنيها نحوها ملاكان من نحت الآنسة فوفو[3] مع تلك الأناقة في الطول والنحافة التي تميّز موهبتها، مضاءة بشمعدانَين بستّ شموع، كانت تجلس الكونتيسة براسكوفي لابنسكا، ساطعةً نضارةً وجمالاً. كانت ترتدي برنساً من تونس ذا نعومة

(1) سميرنا (باليونانية: سميرْني) مدينة إغريقية قديمة، على الساحل الغربي للأناضول على البحر الأبيض المتوسط. يعود تاريخ تأسيسها إلى القرن الحادي عشر قبل الميلاد. وتقع أطلالها ضمن مدينة إزمير التركية.

(2) بيريس Péris : جنّية خيّرة في الأساطير الفارسية. كتب عنها الرومنطيقيّون الفرنسيون كثيراً.

(3) الآنسة فوفو هو الاسم الشائع لفيليس دو فوفو Félice de Fauveau (1801–1886)، نحّاتة فرنسية ومدافعة عن حقوق المرأة. تركت تأثيراً واسعاً في الكتّاب الرومنطيقيّين.

Twitter: @ketab_n

مثالية، موشّحاً بخطوط زرقاء وبيضاء، سميكة وشفافة بالتناوب، يغطّيها مثل غيمة مرِنة؛ كان النسيج الخفيف قد انزلق على قماش الساتان الذي يغطّي الكتفين وكشفَ عن بداية مفاصل رقبة تبزّ بياض الرقبة الثلجية للبجعة، والذي قد يبدو رمادياً مقارنةً بها. في فجوة الطيّات كانت تنثني دنتيلّا مئزر حمّام من نسيج الباتستة[1]، ثياب داخلية ليليّة لا يشدّها أيّ حزام؛ وكان شعر الكونتيسة محلولاً ومسترسلاً خلفها في أسمطة وفيرة مثل معطف إمبراطورة. من المؤكّد أنّ الجدائل الزخرفية الذهبيّة السائلة التي اعتصرتها آفروديت فينوس من اللآلئ، راكعة في صدفتها اللّؤلؤية، عندما خرجت مثل زهرة، من بحار اللّازورد الإيوني[2]، كانت أقلّ شقرة وكثافة وثقلاً! امزجْ عنبر تيتسيانو وفضّة باولو فيرونيزي مع البرنيق الذهبيّ لرامبرانت؛ اتركِ الشمس تمرّ عبر الياقوت الأصفر، ومع ذلك لن تحصل على اللّون الرائع لذلك الشعر الباذخ الذي كان يبدو كأنّه يبثّ الضوء بدل استقباله، وكان من شأنه أنْ يستحقّ، أفضل من شعر بيرينيس[3]، أنْ يتوهّج كوكبةَ نجوم جديدة، بين الكواكب القديمة! كان هناك امرأتان تقسّمانه وتلمّعانه وتجعّدانه وتوزّعانه في خصلات مرصوصة بعناية حتّى لا تدعكها ملامسة الوسادة.

خلال هذه العملية الدقيقة كانت الكونتيسة ترقّص على أصابع قدمها بابوجاً مخمليّاً أبيض مطرّزاً بخيوط مذهّبة، وكان من الصِّغر إلى حدّ من شأنه إثارة غيرة خوانم الباديشاه وجواريه. وكانت في بعض الأحيان تردّ فتكشف عن ذراعها البيضاء، طيّات البرنس الحريرية، وتبعد بيدها بعض الشعرات الفالتة، بحركة ملؤها الأناقة والكياسة.

(1) قماش من القطن أو الكتّان رقيق باسم صانعه.

(2) متعلق ببلاد إيونيا في آسيا الوسطى.

(3) كوكبة نجوم قليلة الإضاءة يعود اسمها إلى ملكة مصرية قديمة في الأسطورة.

Twitter: @ketab_n

كانت في وضعها اللّامبالي تذكّر بأشكال التزيين الإغريقية الرشيقة التي تزخرف الأصص القديمة والتي لم يستطع أيّ فنّان استعادة دوائرها النضرة العذبة، وجمالها الفتيّ الخفيف؛ كانت أيضاً أكثر إغراءً ألف مرّة ممّا كانت عليه في حديقة فيلّا سالفياتي في فلورنسا؛ ولو لم يكن أوكتاف متيّماً بحبّها لصار كذلك الآن بلا ريب؛ لكن، ولحسن الحظّ، لا يمكن للمرء أنْ يضيف شيئاً للّامتناهي.

أحسّ أوكتاف-لابنسكي لدى رؤيتها كما لو أنّه شاهد أفظع مشهد، وبدأت ركبتاه تصطكّان وتُفلتان تحته. نشف ريقه، وخنقه القلق مثل يد أحد الثوغ[1]؛ وزوبعتْ شعلاتُ لهب حمراء حول عينيه. كان ذلك الجمال يجمّده.

بذل جهداً من الشجاعة، قائلاً لنفسه إنّ هذا السلوك المذعور الأحمق يناسب عاشقاً مرفوضاً، ومن شأنه أنْ يكون في منتهى السخرية بالنسبة لزوج مهما كان مشبوب العاطفة تجاه زوجته، فتقدّم بعزم نحو الكونتيسة.

«آه! هذا أنت، يا أولاف! لَكَمْ تأخرتَ في العودة هذه اللّيلة!» قالت الكونتيسة من دون أنْ تلتفت، إذْ كان رأسها ممسوكاً بالخصلات الطويلة التي كانت تمشّطها المرأتان، ثمّ مدّتْ له، عبر طيّات البرنس، واحدة من يديها الجميلتين.

أمسك أوكتاف-لابنسكي بتلك اليد الأنعم والأنضر من زهرة، سحبها إلى شفتيه وطبع عليها قبلة طويلة، ملتهبة، كانت روحه كلّها تتركّز في ذلك الموضع الصغير.

لا نعرف أيّة رقّة حساسة، أيّة غريزة مسكونة بحياء أخّاذ، أيّ حدس لاعقلانيّ للقلب، أنذر الكونتيسة: لكنّ غيمة ورديّة غطّت بغتة وجهها

(1) الثوغ: طائفة من قطّاع الطرق كانوا يخنقون المسافرين في الهند، سبق ذكرها.

Twitter: @ketab_n

ورقبتها وذراعيها فاصطبغت بذلك اللّون الذي يتلوّن به الثلج البكر، فوق الجبال العالية، مع أوّل قبلة من الشمس. ارتعشت وسحبت يدها ببطء، بين غاضبة وخجلى؛ لقد أحسّتْ بشفتَي أوكتاف مثل حديد مُحمَّى. ومع ذلك سرعان ما تداركت نفسها وابتسمت من انطباعها الصبيانيّ.

«أنت لا تجيبني يا عزيزي أولاف؛ ألا تعلم بأنّي لم أرَكَ منذ أكثر من عشر ساعات؛ أنت تهملني، قالت بنبرة لوم؛ ما كنتَ في السابق لتتركني هكذا ليلة كاملة. فهل فكّرتَ فيَّ على الأقلّ؟

- دائماً، أجاب أوكتاف-لابنسكي.

- أوه! كلّا، ليس دائماً؛ أنا أشعر بذلك عندما تفكّر فيَّ، حتّى من بعيد. هذا المساء، على سبيل المثال، كنت وحيدة، جالسة أمام البيانو أعزف قطعة لفيبير وأهدهد ضجري بالموسيقى؛ حلّقتْ روحك بضع دقائق حولي في الدوّامة الصوتية للنوتات؛ ثمّ طارت، لست أدري إلى أين، مع الدوْزنة الأخيرة، ولم تعدْ. لا تكذبْ، أنا متيقّنة ممّا أقول».

لم تكن براسكوفي مخطئة فعلاً؛ كان ذلك عندما انحنى الكونت أولاف لابنسكي، عند الطبيب بالتازار شيربونو، على كوب الماء السحريّ، مستحضراً صورة الحبيبة بتفكير في منتهى التركيز. ومنذ تلك اللّحظات، بعد أنْ غرق الكونت في محيط النوم المغناطيسيّ الذي لا قرار له، لم تخالجه فكرة ولا إحساس ولا أيّ فعل إراديّ.

انسحبت المرأتان بعد إكمال الزينة اللّيليّة للكونتيسة؛ كان أوكتاف-لابنسكي لا يزال واقفاً دائماً، ملاحقاً براسكوفي بنظرة ملتهبة. تدثّرت الكونتيسة ببرنسها مثلما تتدثّر بوليمني[1] بقماشها الفضفاض، منزعجة

(1) إحدى ربّات الإلهام في الميثولوجيا الإغريقية.

Twitter: @ketab_n

ومحترقة من تلك النظرة. ولم يكن يظهر منها إلّا رأسها فوق الطيات البيضاء والزرقاء؛ كانت قلقة، لكنْ فاتنة.

ومع أنّ أية فطنة بشرية ما كان لها أنْ تفهم عملية تحويل الروحين التي أجراها الدكتور شيربونو بواسطة خلطة براهما-لوغوم، لم تتعرّف براسكوفي في عينَي أوكتاف-لابنسكي على التعبير المعتاد في عينَي أولاف، وكان تعبيراً متأتّياً من حبّ طاهر، هادئ، خالد مثل حبّ الملائكة؛ وها هي ذي شهوة دنيوية تلهب تلك النظرة التي باتت تربكها وتخجلها. لم تفهم ماذا حدث، لكنْ هناك أمر ما، حدث. اخترقت أفكارها عدّة فرضيات: هل صارت، بالنسبة لأولاف، مجرّد امرأة مبتذلة، مشتهاة بسبب جمالها، مثل محظيّة؟ هل انقطع التوافق السامي بين روحَيهما بسببِ تنافر تجهله؟ هل يحبّ أولاف امرأة أخرى؟ هل دنّستْ مفاسد باريس هذا القلب الطاهر؟ طرحت على نفسها هذه الأسئلة من دون التوصّل إلى إجابات شافية، وقالت في سرّها إنّها مجنونة؛ لكنّها ظلّت في أعماقها تشعر أنّها على حقّ.

تملّكها رعب خفيّ كما لو كانت أمام خطر مجهول، لكنّه مدرَك بفعل النظرة الأخرى التي تتحلّى بها الروح، والتي نخطئ دائماً عندما لا نطيعها.

اتّجهت مضطربة وعصبية نحو باب غرفة نومها. تبعها الكونت المزيّف، وإحدى ذراعيه تطوّق خصرها، مثلما يرافق عطيل ديدمونة في كلّ خروج، في مسرحية شكسبير؛ غير أنّها، وما إن بلغت العتبة حتّى التفتت، توقّفت لحظة، بيضاء باردة مثل تمثال، وأرسلت نظرة مرتاعة نحو الشابّ، ثمّ دخلت، وأغلقت الباب بقوّة ودفعت المزلاج.

«نظرة أوكتاف!» صرختْ وهي تسقط نصف مغشيٍّ عليها فوق أريكة لشخصين. وعندما استعادت وعيها قالت تحدّث نفسها: «لكنْ،

Twitter: @ketab_n

كيف حدث أنّ تلك النظرة التي لم أنسَ تعبيرها قطّ، تشع اللّيلة في عيني أولاف؟ كيف رأيت شعلته الداكنة واليائسة تلمع من خلال حدقتَي زوجي؟ هل مات أوكتاف؟ هل هي روحه التي لمعتْ لحظةً أمامي وكأنّها تقول لي وداعاً قبل مغادرة هذه الأرض؟ أولاف! أولاف! إنْ كنتُ قد أخطأت، إنْ كنت قد استسلمت لرعب غير مبرّر، سوف تسامحني؛ لكنْ، لو أنّني استقبلتك هذه اللّيلة، لاعتقدتُ أنّني أسلّم نفسي لرجل آخر».

تأكّدت الكونتيسة من أنّ المزلاج كان محكم الإغلاق، وأضاءت المصباح المعلّق في السقف. تكوّرتْ في فراشها مثل طفلة مذعورة مع شعور غير محدّد بالقلق، ولم تنم إلّا مع طلوع الصباح؛ فقد عذّبتها أحلام متنافرة وغريبة في نومها المضطرب. كانت عينان ملتهبتان -عينا أوكتاف- ترشقانها عبر الضباب وترسلان إليها نفثات نارية، بينما كان وجه أسود مجعّد لشخص يجلس مقرفصاً قرب سريرها، يتمتم بمقاطع لفظية من لغة مجهولة؛ وظهر الكونت أولاف أيضاً في ذلك الحلم الغامض، لكنّه كان يتّخذ شكلاً غير شكله.

لن نحاول وصف خيبة أوكتاف عندما وجد نفسه أمام باب موصد دونه، وقد سمع صرير مزلاجه الداخليّ. كان أمله الأعلى قد انهار. وماذا بعد؟ لقد لجأ إلى وسائل فظيعة، غريبة، وسلّم نفسه إلى ساحر، وربّما إلى شيطان، مجازفاً بحياته في هذه الدنيا وبروحه في الآخرة، من أجل استمالة امرأة تُفلت منه، مهما كان استسلامها له بلا دفاع بفضل أعمال السّحر الهندية. كان قد رُفض كعاشق، وهوذا يُرفض كزوج؛ فطهارة براسكوفي التي لا تُقهر تمكّنت من إفشال الدسائس الأكثر جهنّميّة. لقد لاحت له على عتبة غرفة النوم مثل ملاك سويدنبورغ[1]

(1) إمانويل سويدنبورغ Emanuel Swedenborg (1688–1722): عالم وفيلسوف وصوفيّ =

Twitter: @ketab_n

الأبيض صاعقاً الروح الشرّير.

لم يكن قادراً على المكوث في هذا الوضع السخيف طيلة اللّيل: بحث عن شقّة الكونت، وبعد سلسة غرف رأى في إحداها سريراً ذا أعمدة أبنوسيّة، وستائر منجّدة، مع شعارات مطرّزة ما بين الزخارف والرسوم الشجريّة. كان هناك شِكّات أسلحة شرقية، ودروع وخُوَذ فرسان، تحت شعاع مصباح، ترسل وميضاً غامضاً في العتمة؛ وجلد من بوهيميا مدموغ بالذهب يلتمع على الجدران. ويكتمل هذا الأثاث بثلاث أو أربع أرائك منقوشة، وخزانة مزخرفة بتماثيل شخوص، وهو أثاث ذو ذوق إقطاعيّ، كان سيبدو في محلّه في قصر ريفيّ صغير من طراز قوطيّ؛ ولم يكن ذلك متأتّياً من باب التقليد العبثيّ للذوق السائد، من قبل الكونت، بل كان يمثّل ذكرى عزيزة. فتلك الغرفة كانت تقليداً دقيقاً للغرفة التي كان يسكنها برفقة أمّه، ورغم سخرية الآخرين من هذا الديكور الرديء فقد رفض الكونت تغيير طرازه.

ارتمى أوكتاف-لابنسكي على السرير، منهكاً من المتاعب والانفعالات، ونام لاعناً الطبيب بالتازار شيربونو. ومن حسن الحظ أنّ النهار جلب له أفكاراً أكثر بشاشة؛ فوعد نفسه بالتزام سلوك أكثر اعتدالاً من ذلك اليوم فصاعداً، وغضّ بصره، والتصرّف بطريقة الزوج؛ وبمساعدة خادم غرفة الكونت أنهى زينته بطريقة جادّة وتوجّه بخطوة هادئة إلى غرفة الطعام، حيث كانت السيّدة الكونتيسة في انتظاره لتناول الفطور.

= ورجل لاهوت سويدي. له تاريخ حافل كعالم ومخترع. دخل في طور روحيّ وهو في السادسة والخمسين من عمره، فادّعى رؤى وأحلاماً يحاور فيها الملائكة والأرواح.

Twitter: @ketab_n

10

نزل أوكتاف-لابنسكي متعقّباً خطوات خادم الغرفة، إذْ كان يجهل مكان غرفة الأكل في ذلك البيت الذي يبدو مع ذلك أنّه سيّده؛ كانت غرفة الأكل قاعة واسعة في الطبقة الأرضية وتنفتح على الباحة، ومن طراز رفيع وبسيط، يجمع بين طراز القصر الريفيّ الصغير والدَّير: فهناك تلبيسات خشبية من خشب السنديان الأسمر ذي التدرّجات اللّونية النضرة والجميلة، منقسمة إلى ألواح مؤطَّرة وأقسام متناظرة، ترتفع حتّى السقف، حيث توجد عوارض ناتئة ومنحوتة مشكّلة تجويفات سداسية الزوايا ملوّنة بالأزرق ومزيّنة بزخارف عربية ذهبيّة خفيفة؛ وعلى ألواح الخشب الطويلة كان فيليب روسو[1] قد رسم الفصول الأربعة التي لم يرمز إليها بوجوه أسطوريّة، بل برسوم من نوع الطبيعة الصامتة المتكوّنة من محاصيل كلّ فصل من فصول السنة؛ وهناك رسوم صيد لجادان[2] تتدلّى مع رسوم الطبيعة الصامتة لفيليب روسو، وفوق كلّ لوحة يلمع، مثل قرصِ ترسٍ، صحن واسع لبرنار باليسي أو ليونار دو ليموج، وخزف من اليابان أو ماجوليكا إيطاليا أو الفخار العربي، ملمّع ببرنيق مقزّح بكلّ ألوان الطيف الشمسيّ؛ مشاهد صيد أيائل، وقرون ثور الأرخُص[3] متقابلة مع الخزفيّات، وعند طرفَي القاعة توجد خزائن كبيرة

---

(1) فيليب روسو Philippe Rousseau (1816–1887) رسّام حيوانات وطبيعة صامتة، فرنسيّ.

(2) لويس غودفروا جادان Louis Godefroy Jadin (1805–1882) رسّام مشاهد صيد وبورتريهات كلاب.

(3) الأرْخُص: نوع ضخم جدّاً من الماشية كان يعيش في معظم أوروبا والشرق الأوسط وشمال أفريقيا وآسيا الوسطى والهند، قبل انقراضه في الربع الأوّل من القرن السابع عشر. اشتُقّ اسم الأرخص في العربيّة من اسمه اللّاتينيّ المأخوذ عن الألمانيّة «أوروخس» Aurochs .

Twitter: @ketab_n

للأطباق بارتفاع المذابح في الكنائس الإسبانية، تعلو بمعمارها المتقن والمحفور بالنقوش حتّى لتنافس أجمل الأعمال عند كلّ من بيروغيته وكورنيخو دوكه وفيربروغن[1]؛ وعلى رفوفها المزوَّدة بسكّة، تلمع بلا ترتيب الفضّيّات القديمة لعائلة لابنسكي، وأباريق ذات عُرى خرافية، ومَمالِح من الطراز القديم، وأقداح كبيرة للشرب، وأكواب، وبعض الصواني المحاطة بالفنطازيّة الألمانية الغريبة والجديرة بحجز مكان لها في كنز القبّة الخضراء في دريسدن[2]. مقابل الفضيات القديمة تلمع المنتوجات الرائعة لفنّ الصياغة العصرية، روائع فاغنر، ودوبنشال، ورودولفي، وفرومون-موريس؛ أباريق شاي من فضّة مذهّبة مع رسوم لفوشير وفيشت[3]، أطباق منقوشة، دلاء لمشروب الشمبانيا ذات عُرَى تمثّل قضباناً من عناقيد العنب، مع رقصات ماجنة ضمن نُقَيشات خفيفة البروز؛ مواقد تسخين أنيقة تشبه أثفية القِدْر[4] في مدينة پومپي القديمة: من دون ذكر كريستال بوهيميا، وبلّوريات البندقية، والأطقُم السكسونية القديمة وكذلك أطقم مدينة سيفْر الفرنسية على الطريقة القديمة.

وكان هناك مقاعد من السنديان مزخرفة بجلد مدبوغ بلون أخضر مرتّبة على امتداد الجدران، وعلى المائدة ذات القوائم المنحوتة على هيئة

---

(1) ألونصو بيرّوغيته Alonso Berruguete (1490–1551) وكورنيخو دوكه Cornejo Duque (1677–1757) نحّاتان ورسّامان إسبانيّان. هندريك فرانس فيربروغن Hendrik Frans Verbruggen (1654–1724) نحّات فلامنكيّ.

(2) تأسّس متحف دريسدن في ألمانيا في القرن السادس عشر وتمّ توسيعه في القرن الثامن عشر. كانت جدرانه مطليّة باللّون الأخضر وهو اللّون الوطنيّ لمقاطعة سكسونيا.

(3) فيشت Vechte : صائغ فرنسي شهير في عصره (1802–1855) كثيراً ما أشاد به هوغو وبلزاك وغوتييه، وكان النحّات جان-جاك فوشير Jean-Jacques Feuchère (1807–1852) يمدّه بالنماذج المنحوتة.

(4) ركيزة ذات ثلاث قوائم، توضع عليها القدر أو الإناء؛ مَنْصَب.

Twitter: @ketab_n

براثن نسر كان هناك إضاءة تأتي من السقف ثابتة وصافية ومغربلة بفعل مرورها بزجاج أبيض أزيل لمعانه في زخرفة تجويف السقف المركزيّ الذي تُرك فارغاً. - وكان إكليل شفاف من فروع دالية عنب يؤطّر ذلك اللّوح اللّبنيّ بأوراقه الخضراء.

على المائدة، وبطريقة الخدمة الروسية، كانت قد وُضعت الفواكه محاطة بشريط من البنفسج، وكان الأكل ينتظر سكاكين المؤاكلين تحت أغطية أوانيه المعدنية الصقيلة واللّامعة مثل قبّعات أمراء؛ فكان هناك سَمَاوَر[1] من موسكو يرسل نفث بخاره مصفّراً؛ وخادمان يرتديان سروالين قصيرين وربطة عنق بيضاء يقفان ثابتين وصامتين خلف الأريكتين المتقابلتين، مثل تمثالين للخدمة المنزلية.

اندمج أوكتاف مع كلّ هذه التفاصيل بإلقاء نظرة سريعة حتّى لا ينشغل لا إرادياً بجدّة الأدوات التي يُفترض أنّه معتاد عليها.

سُمِعَ انسياب خفيف على البلاط وحفيف نسيج حريريّ من التفتة، جعلاه يلتفت. كانت الكونتيسة براسكوفي لابنسكا هي التي تقترب ثمّ تجلس قربه بعد أنْ وجّهتْ إليه إشارة ودّية صغيرة.

كانت ترتدي مئزراً حريريّاً بمربّعات خضراء وبيضاء، مزيّناً بكشكش من القماش نفسه وقد فُصِّل على شكل أنياب ذئب؛ وكان شعرها المجمّع في لّمتين كثيفتين حول صدغيها، والملفوف عند منشأ الرقبة في جديلة ذهبيّة مزخرفة شبيهة بالزخرف الحلزونيّ في تاج العمود الإيوني، يشكّل عندها تسريحة تجمع بين البساطة والروعة، حتّى إنّ صانع تماثيل إغريقيّاً ما كان ليغيّر فيها شيئاً؛ وكان لون بشرتها يشبه الوردة اللّحميّة مع قليل من الشحوب بفعل انفعال البارحة والنوم اللّيلي المضطرب؛ كان

(1) غلاّية روسية للشاي.

Twitter: @ketab_n

هناك هالة صدفية لا تكاد تلمح وتحيط بعينيها اللّتين تكونان عادةً في غاية الطمأنينة والصفاء؛ وكانت تبدو متعبة وواهنة، غير أنّ جمالها المثير للحنان بتلك الطريقة لم يزد إلّا نفاذاً، كانت تكتسب شيئاً ما بشرياً؛ الإلهة تتحوّل إلى امرأة؛ الملاك، خافقاً بجناحيه، يكفّ عن التحويم.

هذه المرّة كان أوكتاف أكثر حذراً، فقد حجب شعلة عينيه وقنّع نشوته الخرساء بتصنّع اللّامبالاة.

مدَّدَت الكونتيسة قدمها الصغيرة المتعلة خفّاً من جلد أسمر ذهبيّ، في الصوف الناعم للسجّادة العشبية المفروشة تحت المائدة لمنع الاتصال البارد بفسيفساء الرخام الأبيض ورخام فيرونا الملوّن الذي يبلّط قاعة الأكل، وقامت بحركة خفيفة من كتفيها كما لو كانت ترتعش من قشعريرة أخيرة من الحمّى، ثمّ حدّقت بعينيها الجميلتين بزرقتهما القطبيّة بشريكها في الطعام الذي كانت تحسبه زوجها، ذلك أنّ اللّيل محا الأحاسيس الداخلية والرعب والأشباح اللّيليّة، لتقول له بصوت رخيم وناعم، ومفعم بدلال عفيف، جملة باللّغة البولندية!!! فقد كانت كثيراً ما تستخدم لغتها الأمّ المحبّبة مع الكونت في لحظات الملاطفة والحميميّة، خصوصاً في حضور الخدم الفرنسيّين الذين يجهلون هذه اللّغة.

كان الباريسيّ أوكتاف يعرف اللّاتينية والإيطالية والإسبانية وبعض المفردات الإنجليزية؛ لكنّه كان، على غرار الغاليّين-الرومانيّين، يجهل اللّغات السلافية تماماً. فالحواجز الشائكة في الصوامت التي تدافع عن الصوتيّات، في حروف اللّغة البولندية، كانت ستمنعه من الاقتراب منها حتّى ولو حاول ذلك. وفي فلورنسا تكلّمت معه الكونتيسة دائماً بالفرنسية أو بالإيطالية، ولم تخطر بباله فكرة تعلّم اللّغة التي استطاع فيها

Twitter: @ketab_n

ميكيفيتش أن يضارع بايرون تقريباً[1]. لا يمكن للمرء أنْ يفكر في كلّ شيء.

لدى سماع تلك الجملة حدثت في مخّ الكونت، المسكون بـ «أنا» أوكتاف، ظاهرة فريدة جدّاً من نوعها: فالأصوات الغريبة بالنسبة للباريسيّ، وفق طيّات أذن سلافية، بلغت الموضع المعتاد حيث كانت روح أولاف تستقبلها لتترجمها إلى أفكار، وحرّكتْ فيه ما يشبه ذاكرة جسدية؛ لاحت معانيها مرتبكة عند أوكتاف؛ تقدّمتْ كلمات مطمورة في التلافيف المخّيّة، داخل أدراج سرّية في الذاكرة، تطنّ جاهزة للردّ؛ غير أنّ تلك الاستذكارات المبهمة، وقد عجزتْ عن الاتّصال بالعقل، سرعان ما تلاشت، وعاد كلّ شيء إلى إبهامه. كان ارتباك العاشق المسكين شنيعاً؛ لم يفكّر في هذه التعقيدات عندما لبس جلدَ الكونت أولاف لابنسكي، وأدرك أنّ سرقة شكل شخص آخر تعرّض السارق إلى خيبات قاسية.

أعادت براسكوفي الجملة ببطء وبصوت أعلى بعد أن استغربتْ صمت أوكتاف واعتقدتْ أنّه كان شارد الذهن في بعض أحلام اليقظة فلم يسمعها.

وحتّى مع سماعه رنين الكلمات بطريقة أفضل، لم يستطع الكونت المزيّف فهم معانيها أكثر؛ كان يبذل جهوداً يائسة لتخمين ما تعنيه؛ وإلى من لا يعلم، فإنّ لغات الشمال المصمَتة الأصوات لا تمتلك أية شفافية، فإذا كان الفرنسيّ يتمكّن من تخمين بعض ما تقوله امرأة إيطالية، فإنه، هو نفسه، سوف يكون مثل الأصمّ عندما يستمع إلى بولندية تتكلّم. وعلى الرغم منه غطّت خدّيه حمرة خجل ساخنة؛ عضّ شفتيه، ومن أجل تمالك نفسه قصّ القطعة الموضوعة في صحنه بغضب شديد.

---

(1) آدم ميكيفيتش: شاعر رومنطيقيّ بولنديّ، سبق التعريف به.

Twitter: @ketab_n

«في الحقيقة يبدو لي، يا سيّدي العزيز، قالت الكونتيسة باللّغة الفرنسية هذه المرّة، أنّك لا تسمعني، أو أنّك لم تعد تفهمني...

- فعلاً، تلعثم أوكتاف-لابنسكي، غير مدرك ما يقول... تلك اللّغة الفظيعة صعبة جدّاً!

صعبة! نعم، ربّما بالنسبة لأجانب، لكنْ بالنسبة لمنْ لثغ بها على ركبتَي أمّه هي تنبجس من الشفتين مثل نفَس الحياة، مثل دفْق الفكرة ذاته.

- نعم، بلا شكّ، لكنْ هناك لحظات يبدو لي أنّني لم أعد أُجيدها.

- ماذا عساك تخرّف، يا أولاف؟ ماذا! أتكون نسيتها، لغة أجدادك، لغة وطنك المقدّس، اللّغة التي تجعلك تميّز إخوتك بين سائر البشر، وأضافت بصوت أخفض، اللّغة التي قلتَ لي بها أوّل مرّة إنّك تحبّني!

- التعوّد على استخدام لسان آخر...، جازف أوكتاف-لابنسكي بالقول وقد استنفد تبريراته.

- أولاف، ردّت الكونتيسة بنبرة لوم، أجد أنّ باريس قد أفسدتك؛ كنتُ على حقّ عندما رفضت المجيء إليها. منْ كان سيقول لي إنّ الكونت لابنسكي النبيل عندما يعود إلى أراضيه لن يتمكّن من الردّ على تهاني أقنانه؟»

اصطبغ وجه براسكوفي الفاتن بتعبير موجع؛ لأوّل مرّة يلقي الحزن بظلّه على هذا الجبين البريء مثل جبين ملاك؛ كان هذا النسيان المتفرّد يهينها حتّى عمق روحها، ويبدو لها قريباً من الخيانة.

مرّ ما تبقّى من وقت الفطور بصمتٍ: كانت براسكوفي قد حردت وقاطعت من كانت تحسبه الكونت. أمّا أوكتاف فكان في قمّة العذاب، إذْ أنّه كان يخشى أسئلة أخرى سيضطرّ إلى تركها بلا أجوبة.

Twitter: @ketab_n

نهضت الكونتيسة والتحقت بجناحها في القصر.

ظلّ أوكتاف وحيداً يلعب بقبضة سكّين كان يتمنّى زرعه في قلبه، فهو الآن في وضع لا يُحسد عليه: لقد راهن على مفاجأة وهوَذا يجد نفسه خائضاً في تعرّجات حياة لا يعرفها وهي بلا منفذ أمامه: عندما استولى على جسد الكونت أولاف لابنسكي كان ينبغي أيضاً سرقة مفاهيمه القَبْليّة، اللّغات التي كان يجيدها، ذكريات طفولته، وآلاف التفاصيل الحميمة التي تشكّل أنا الإنسان، الوشائج التي تربط وجوده بوجود الآخرين: ومن أجل ذلك لم يكن كلّ العلم الذي بحوزة الدكتور بالتازار شيربونو كافياً. يا له من وضع مغيظ! أنْ يكون داخل هذا الفردوس الذي لم يكنْ يكاد يجرؤ على النظر إلى عتبته من بعيد؛ أنْ يسكن تحت السقف نفسه الذي يؤوي براسكوفي، ويراها، ويكلّمها، ويقبّل يدها الجميلة بشفتَي زوجها، ولا يتمكّن بالمقابل من خداع حيائها الخارق، ويفضح نفسه في كلّ لحظة بحماقة لا يجد لها تفسيراً! «كان مكتوباً هنالك في الأعالي أنّ براسكوفي لن تحبّني أبداً! مع أنّني قدّمت أكبر تضحية يمكن أنْ يتمرّغ فيها كبرياء الإنسان: لقد تخلّيتُ عن أناي ووافقت على استغلال ملامسات مقدَّرة لغيري عبر جسد ليس جسدي!»

كان في تلك المرحلة من مناجاته عندما انحنى أمامه حوذيّ بكلّ علامات الاحترام العميق، سائلاً إيّاه عن الحصان الذي ينوي امتطاءه اليوم...

ولما رأى الحوذيّ أنّ سيّده لا يجيب، غامر، وهو مرتاع من هذه الجسارة، هامساً:

«فولتور أم رستم؟ فهما لم يخرجا منذ ثمانية أيّام.

- رستم»، أجاب أوكتاف-لابنسكي، وكان يمكنه القول فولتور،

Twitter: @ketab_n

غير أنّ الاسم الأخير التصق بذهنه الشارد.

ارتدى ثياب الفروسيّة وقصد غابة بولونيا، راغباً في الاغتسال بهواء نقيّ من وضعه العصبيّ.

رستم حيوان رائع من السلالة النجديّة الأصيلة، وكان يحمل على صدره، داخل كيس شرقيّ من المخمل المطرّز بالذهب، شهادات نبله التي تعود إلى السنوات الأولى من التاريخ الهجريّ، وهو حصان لا يحتاج إلى إثارة. كان يبدو قادراً على فهم أفكار من يمتطيه، وما إنْ غادر الأرض المبلّطة حتّى انطلق مثل السهم من دون أن يُشعره أوكتاف بالمهماز. بعد ساعتين من الركض الغاضب عاد الفارس والفرس إلى القصر، أحدهما اكتسب هدوءاً، والآخر ينفث البخار من منخرين أحمرين.

دخل الكونت المفترض على الكونتيسة التي وجدها في قاعتها ترتدي فستاناً من التفتة البيضاء مع دوائر مرتّبة في طبقات حتّى خصرها، وعقدة وشاح في زاوية أذنها، فاليوم كان الخميس، وهو يوم المكوث في القصر واستقبال زوّارها.

«وإذن، قالت تخاطبه بابتسامة عذبة، إذْ أنّ الحرد لا يمكنه إطالة الإقامة على شفتيها الجميلتين، هل استعدتَ ذاكرتك بالركض عبر مسالك الغابة؟

- يا إلهي، كلّا، يا عزيزتي، أجاب أوكتاف-لابنسكي؛ لكنْ يجب أنْ أصارحكِ بشيء.

- ألستُ أعرف مسبقاً كلّ أفكارك؟ ألم نعد نتبادل الشفافية نفسها؟

- البارحة ذهبت إلى ذلك الطبيب الذي يُحكى عنه الكثير.

- نعم، الدكتور بالتازار شيربونو، الذي أقام مطوّلاً في الهند، واكتسب من البراهمة، كما يقال عنه، عدّة أسرار يفوق بعضها البعض روعة.

Twitter: @ketab_n

وكنت ترغب في مرافقتي لرؤيته؛ لكنّني لست فضوليّة، لأنّني أعرف أنّك تحبّني، ومعرفة ذلك تكفيني.

- لقد أجرى أمامي تجارب ومعجزات كانت من الغرابة حتّى أنّ ذهني لا يزال مضطرباً. هذا الرجل العجيب الذي يمتلك قدرة لا تقاوَم ألقى بي في نوم مغناطيسيّ كان من العمق إلى درجة أنّني لم أستطع بعدَ استيقاظي أنْ أسترجع مداركي نفسها: لقد نسيت تذكّر أشياء كثيرة؛ الماضي يطفو في ضباب غامض: وحده حبّي لك ظلّ سليماً.

- لقد أخطأتَ، يا أولاف، بخضوعك لتأثير ذلك الطبيب. فالربّ الذي خلق الروح له الحقّ في ملامستها؛ أمّا الإنسان، فإذا حاول ذلك ارتكب فعلاً مارقاً، قالت الكونتيسة براسكوفي لابنسكا بنبرة وقورة. - آمل ألّا تعود إليه أبداً، وأنْ تعود إلى فهمي عندما أقول لك شيئاً ودّياً- باللّغة البولندية-، كما في السابق.

كان أوكتاف، خلال نزهته على ظهر الحصان، قد تخيّل هذا العذر المتعلّق بالمغناطيسيّة كي يموّه على الأخطاء التي صار يراكمها في حياته الجديدة؛ غير أنّه لم يتخلّص من الصعوبات بعد. - جاء خادم ليفتح الباب الصفّاق، ويعلن عن قدوم ضيف.

«السيّد أوكتاف دو سافيل».

لئن كان أوكتاف الحقيقيّ يتوقّع مثل هذا اللّقاء ذات يوم أو آخر، إلاّ أنّه شحب لونه لسماع هاتين الكلمتين البسيطتين، كما لو أنّ صُور يوم الحساب قد انفجر في أذنه. واحتاج إلى استجماع كلّ شجاعته وإقناع نفسه بأنّ الموقف في صالحه حتّى لا ينهار؛ وبشكل غريزيّ غرز أصابعه في ظهر أريكة مزدوجة، ونجح بذلك في المحافظة على وقوفه مع مظهر

Twitter: @ketab_n

حازم وهادئ.

تقدّم الكونت أولاف، مرتدياً مظهر أوكتاف، نحو الكونتيسة لابنسكا وحيّاها بحرارة.

«السيّد الكونت لابنسكي... السيّد أوكتاف دو سافيل..». قالت الكونتيسة لابنسكي وهي تقدّم السيّدين، أحدهما إلى الآخر.

تبادل الرجلان التحيّة ببرود وهما يتبادلان نظرات وحشية عبر قناع التهذيب الاجتماعيّ البارد الذي كثيراً ما يخفي انفعالات شنيعة جمّة.

«لقد حفظتَ لي ضغينة منذ فلورنسا، يا سيّد أوكتاف، قالت الكونتيسة بصوت ودّي وحميم، وكنت أخشى مغادرة باريس دون أن أراك. كنتَ أكثر مواظبة في المجيء إلى فيلّا سالفياتي، وكنتَ آنذاك تُعدُّ من بين الأوفياء لي.

- سيّدتي، أجاب أوكتاف المزيّف، بنبرة إكراه، لقد سافرتُ، وعانيت آلاماً، لا بل مرضت، وعند استلامي دعوتك الكريمة تساءلتُ عمّا إذا كنتُ سأنتهز الفرصة إذْ لا ينبغي أن يكون المرء أنانيّاً ويعبث بالتسامح الذي يكرّم به شخص مضجر مثلي.

- قد تكون ضجِراً؛ غير أنّك لست مضجراً، ردّت الكونتيسة؛ كنتَ دائماً كئيباً، لكنْ، ألا يقول أحد شعرائكم حول الكآبة:

«بعد العَطالةِ، هي أفضل داء»[1].

- هذه إشاعة يطلقها الناس السعداء كي يتخلّصوا من الإشفاق على الذين يعانون»، قال أولاف-دو سافيل.

ألقت الكونتيسة نظرة تملؤها عذوبة لا توصف على الكونت المحبوس

---

(1) من شعر ألفريد دو موسيه Alfred de Musset : «لن أحارب الكآبة أبداً/ بعد العَطالةِ، هي أفضلُ داء».

Twitter: @ketab_n

في شكل أوكتاف، وكأنّها تطلب منه العفو عن الحبّ الذي ألهمته إيّاه لا إرادياً.

«أنت تحسبني أكثر طيشاً ممّا أنا عليه؛ كلّ ألم حقيقيّ يحظى بشفقتي، وحتّى إذا لم أتمكّن من تبديده أعرف كيف أرأف به. تمنّيتُ دائماً أنْ أراك سعيداً، سيّدي العزيز أوكتاف؛ لكنْ، لَمَ تراك اعتكفت بحزنك رافضاً بعنادٍ هذه الحياة التي تُقبل نحوك بأفراحها وفتنتها وواجباتها؟ لَمَ رفضتَ الصداقة التي عرضتُها عليك؟»

هذه الجمل بمنتهى بساطتها وصراحتها أثّرتْ في المستمعَين الاثنين بطريقة مختلفة. - فكان أوكتاف يستمع فيها إلى تأكيد الحكمة التي نطق بها في حديقة سالفياتي ذلك الفم الجميل الذي لم يدنّسه الكذب قطّ؛ أمّا أولاف فقد استشفّ منها برهاناً إضافياً على الفضيلة الثابتة لهذه المرأة التي لا يمكنها الاستسلام إلّا بمكر شيطانيّ. لذلك تملّكه غيظ مباغت وهو يشاهد شبحه المتحرّك بروح أخرى مقيماً في بيته الشخصيّ، فارتمى على رقبة الكونت المزيّف.

«أيّها السارق، يا قاطع الطرُق، يا فاسق، أعدْ لي جِلدي!»

على إثر هذا الفعل الخارق تعلّقت الكونتيسة بالجرس، فجاء الخدم وحملوا الكونت.

«مسكين أوكتاف لقد أصيب بالجنون!» قالت براسكوفي بينما كان أولاف يُحمَلُ وهو يتخبّط بلا جدوى.

«نعم، أجاب أوكتاف الحقيقيّ، لقد أصيب بجنون الحبّ! أيّتها الكونتيسة، أنت مفرطة الجمال حقّاً!»

Twitter: @ketab_n

11

بعد مضيّ ساعتين على هذا المشهد، استلم الكونت المزيّف من الكونت الحقيقيّ رسالة مغلقة عليها ختم أوكتاف دو سافيل، فالمسلوب المسكين لم يكن يملك غيره تحت تصرّفه.

تسبّب فتح الرسالة الممهورة بشعاره بإحداث تأثير غريب على الغاصب المسمّى أولاف لابنسكي، غير أنّ كلّ شيء كان لا بدّ أنْ يكون فريد نوعه في هذا الموقف غير الاعتياديّ.

كانت الرسالة تحتوي على الأسطر التالية، وقد خطّتْها يد مكرهة بخطّ يبدو مزيّفاً، ذلك أنّ أولاف لم يتعوّد الكتابة بأصابع أوكتاف:

«قد تبدو هذه الرسالة مؤرّخة من البيتيت-ميزون[1]، لو قرأها أيّ شخص آخر غيرك، لكنّك سوف تفهمني. إنّ التضافر بشكل غير قابل للتفسير، لعدّة ظروف محتومة، من النوع الذي ربّما لم يسبق له الحدوث قطّ منذ دوران الأرض حول الشمس، يجبرني على إتيان فعلٍ لم يأتِ مثله إنسان. أنا أراسل نفسي، وأضع على العنوان اسماً هو اسمي، اسماً سرقته منّي مع شخصي. ضحية أيّة دسائس مظلمة سقطتُ، وفي أيّة حلقة أوهام جهنّميّة وضعتُ قدمي، أجهل ذلك. ربّما كنت أنتَ تعلم. هذا السرّ، إنْ لم تكن جباناً، سوف تطالبك به فوهة مسدّسي أو حدّ سيفي في ميدانٍ يجيب فيه كلّ إنسانٍ، سواء أكان شريفاً أم سافلاً، عن الأسئلة التي تُطرح عليه؛ غداً، ينبغي أنْ يكفّ أحدنا عن رؤية نور السماء. هذا الكون الشاسع صار الآن أضيَق من أن يتّسع لكلينا: سوف أقتل جسدي

(1) تعني التسمية الفرنسية Petites-Maisons حرفيّاً «البيوت الصغيرة»، لكنّها تشير إلى اسم مستشفى خُصّص سنة 1557 «للعجزة المساكين والأطفال المصابين بالسعفة الجلدية والنساء المصابات بأمراض مزمنة والحمقى والمصابين بالزهريّ»، وصار يُلمَّح به إشارة إلى ملجأ المجانين.

Twitter: @ketab_n

المسكون بروحك المحتالة أو تقتل جسدك حيث تستنكر روحي حبْسها فيه. لا تحاول إظهاري للملأ مجنوناً، سوف تكون لي شجاعة التعقّل، وأينما قابلتك سوف أشتمك بتهذيبِ سيّد نبيل، وبدم بارد لشخص دبلوماسيّ. شارِبَا السيّد الكونت أولاف لابنسكي يمكنهما ألا يُعجِبا السيّد أوكتاف دو سافيل، وفي كلّ يوم سوف يكون هناك تنغيصات أثناء الخروج من الأوبرا، لكنّني آمل ألّا يكون لجُمَلي، رغم غموضها، أيّ التباس بالنسبة لك، وأنْ يتوصّل شاهدايَ إلى الاتّفاق التامّ مع شاهدَيك حول ساعة المبارزة ومكانها وشروطها».

هذه الرسالة أوقعت أوكتاف في حيرةٍ كبيرة. فهو من جهة لا يستطيع رفض دعوة الكونت للمبارزة، ومن جهة أخرى ينفر من القتال مع نفسه؛ إذْ أنّه حافظ على بعض الحنوّ تجاه غلافه القديم. لكن فكرة إكراهه على هذه المبارزة ببعض الإهانات الصارخة جعله يقرّر قبول الدعوة، رغم أنّه يستطيع، في نهاية المطاف، إلباس خصمه قميص المجانين الجبريّ، وتعطيل ذراعه، لكنّ لطفه يأبى هذه الوسيلة العنيفة. وحتّى إذا كان قد ارتكب فعلاً مُداناً، جرّه إليه هوىً لا مفرّ منه، وأخفى العاشقَ تحت قناع الزوجِ كي ينتصر على فضيلة فوق كلّ الإغراءات، فهو مع ذلك ليس رجلاً عديم الشرف والشجاعة؛ يُضاف إلى ذلك أنّه لم يتّخذ ذلك القرار النهائيّ إلّا بعد ثلاث سنوات من العذاب، في اللّحظة التي كانت حياته ستفلت منه بعد أنْ أتلفها الحبّ. لم يكن يعرف الكونت؛ لم يكن صديقه؛ وهو ليس مديناً له بشيء، واستغلّ الوسيلة الخطِرَة التي قدّمها له الطبيب بالتازار شيربونو.

أين سيبحث عن شاهدَين؟ من بين أصدقاء الكونت بلا شك؛ غير أنّ أوكتاف، وقد سكن في القصر منذ يوم واحد، لم يتمكّن بعدُ من

Twitter: @ketab_n

الاتّصال بهم.

على المدفأة يتكوّر كوبان مجزّعان بلون أخضر فاتح وعروتين متشكّلتين من تنّينَين ذهبيّين. أحدهما يحتوي على خواتم وإبر وأختام وبعض الحليّ البسيطة؛ والآخر يحتوي على بطاقات زيارة حيث توجد، تحت تيجانِ أدواق ومركيزات وكونتات، وبالخطّ القوطيّ أو الدائريّ أو الإنجليزيّ، مجموعة كبيرة من الأسماء البولندية والروسية والمجرية والألمانية والإيطالية والإسبانية، نقشها نقّاشون مهرة، وتدلّ على الحياة الارتحاليّة للكونت الذي يمتلك أصدقاء في كلّ البلدان.

تناول منها أوكتاف بطاقتين لا على التعيين: الكونت زمواشكي والمركيز سيبولفيدا. أمر بتجهيز العربة وتمّ نقله إليهما. فوجدهما كليهما. لم تظهر عليهما علامات المفاجأة من طلب الشخص الذي كانا يحسبانه الكونت أولاف لابنسكي. ولأنّهما متجرّدان من حساسية الشهود البرجوازيّين، لم يسألا عن إمكانية تسوية القضية والتزمَا بالصمت الدالّ على الذوق السليم إزاء سبب المبارزة، بوصفهما من طبقة النبلاء.

ومن جانبه، كان الكونت الحقيقيّ، أو إنْ فضّلْتم، كان أوكتاف المزيّف ضحيّة ارتباك مماثل: فقد تذكّر ألفرد هومبير وكذلك غوستاف رامبو الذي سبق له أنْ رفض مشاركته في مأدبة الطعام، وطلب منهما خدمته في هذه المواجهة. - أبدى الشابّان بعض الذهول لتورّط صديقهما في منازلة، وهو الذي لم يغادر غرفته منذ حوالى سنة، وهما يعرفان جيّداً مزاجه الأقرب إلى السّلْم منه إلى الصراع؛ لكنّه عندما أخبرهما بأنّ الأمر يتعلّق بمعركة حياة أو موت لسبب لا ينبغي إفشاؤه، كفّا عن الاعتراض وتوجّها إلى قصر لابنسكي.

وسرعان ما رُتِّبَت الشروط. أُلقِيَتْ قطعة ذهبيّة في الهواء لتقرير

Twitter: @ketab_n

نوعيّة السلاح، وكان الخصمان قد أعلنا بأنّ السيف والمسدّس يناسبانهما بالتساوي. وتمّ الاتفاق على الذهاب إلى غابة بولونيا في الساعة السادسة صباحاً، عند شارع البوتو، قرب ذلك السقف القشّيّ المستند إلى أعمدة ريفية، وهو مكان خالٍ من الأشجار ويشكّل منبسطه الرمليّ ميداناً ملائماً لهذا النوع من القتال.

عندما انتهى الاتّفاق على كلّ شيء، كانت الساعة توشك على منتصف اللّيل، وتوجّه أوكتاف نحو باب جناح براسكوفي. كان المزلاج مدفوعاً كما البارحة، ورماه صوت الكونتيسة الهازئ بهذه السخرية عبر الباب:

«عُدْ إليّ عندما تتعلّم اللّغة البولندية، أنا في منتهى التعصّب الوطنيّ فلا يمكنني استقبال غريب في غرفتي».

في الصباح، حضر الطبيب شيربونو، وكان أوكتاف قد أخطره بالأمر، حاملاً محفظة أدوات جراحة ورزمة ضمادات. - امتطوا العربة جميعاً. وكان السيّدان زمواشكي وسيبولفيدا يتبعانهم في عربتيهما المقفلتين.

«هكذا إذن، يا عزيزي أوكتاف، قال الطبيب، أبهذه السرعة بدأتِ المغامرة تتحوّل إلى مأساة؟ كان عليّ ترك الكونت ينام في جسدك قرابة الثمانية أيّام على أريكتي. وكنتُ قد نجحت في تمديد حالات تنويم مغناطيسيّ إلى أكثر من هذا الحدّ. لكنْ عبثاً لجوؤنا إلى تعلّم الحكمة لدى البراهمة والبانديت والسنياسي في الهند، لا مفرّ من أنْ ننسى شيئاً ما، ولا يمكن أنْ تخلو أفضل المعادلات من نقائص. لكنْ كيف استقبلت الكونتيسة براسكوفي عاشقها المتيّم بها منذ لقائهما في فلورنسا، وقد جاءها متنكّراً بهذه الطريقة؟

- أعتقد، أجاب أوكتاف، أنّها عرفتني رغم تحوّلي، أو ربّما كان هناك ملاك حارس همس في أذنها أنْ تحترس مني؛ ألفيتها في طهارة ثلج القطب

Twitter: @ketab_n

وبرودته وصفائه. ولا شكّ أنّ روحها العذبة قد اكتشفت روحاً أجنبيّة في إهاب محبوب. سبق أنْ قلت لك إنّك لن تستطيع إيجاد حلّ بالنسبة لي؛ وحالي الآن أسوأ ممّا كانت خلال زيارتك الأولى لي.

- من الذي بوسعه وضع حدّ لمَلَكات الروح، قال الطبيب بالتازار شيربونو متأمّلاً، لا سيّما إذا لم تشوّهها أية فكرة دنيويّة، ولم تدنّسها أيّ طينة إنسانيّة، وإذا حافظت على بقائها كما خرجت من بين يدي الخالق، في النور والتأمّل والحبّ؟ نعم، أنت على حقّ، لقد عرفتُك! وارتعش خفرها الملائكيّ تحت النظرة الشهوانية، فاستتر غريزياً بجناحيه الأبيضين. أنا أرثي لحالك يا أوكتاف المسكين! فمرضك لا شفاء منه حقّاً. ولو كنّا في العصور الوسطى، لقلت لك: ادخلْ إلى أحد الأديرة.

- كثيراً ما فكّرت في ذلك»، أجاب أوكتاف.

لقد وصلوا. وكانت عربة أوكتاف المزيّف واقفة في الموضع المحدّد.

كانت الغابة، في تلك الساعة الصباحيّة المبكّرة، تقدّم مظهراً أقرب إلى الرسم الحقيقيّ، وهو ما يقضي عليه ضوء النهار: كانت تلك فترة من الصيف لم تتوصّل الشمس فيها بعد إلى تعتيم خضرة الأوراق؛ فكان هناك لُوَينات نديّة شفافة مغسولة بندى اللّيل، تنشىء تدرُّجاً في الآجام، وينبعث منها عطرُ نباتات جديدة. والأشجار جميلة بشكل خاصّ، في هذا الموضع تحديداً، إمّا لأنّها صادفت تُربة ملائمة أكثر أو لأنّها تواصل البقاء وحيدة انطلاقاً من غرس قديم، وجذوعها القويّة المغطّاة بطبقات من الطحالب أو المصقولة بقشرة لحاء فضّية تنغرز في الأرض بجذور عُقَديّة، مرسلةً أغصانها ذات الزوايا العجيبة، ويمكنها أنْ تشكّل نماذج في دراسات الرسّامين والمزخرِفين الذين يذهبون في بحوثهم إلى أقصى ما يمكن ليحصلوا على نتائج أقلّ قيمة. كان هناك بعض الطيور التي

Twitter: @ketab_n

يُسكتها ضجيج النهار تزقزق مرحة تحت الخمائل؛ وهناك أرنب هارب اجتاز رمل الممشى في ثلاث قفزات وأسرع للاختباء في العشب، مذعوراً من ضجّة العجلات.

هذه الأشعار حول الطبيعة المباغَتة في لحظة عري، لا تهمّ كثيراً الخصمين وشهودهما، كما تخمّنون.

تركتْ رؤية الكونت أولاف لابنسكي انطباعاً سيئاً لدى الدكتور شيربونو؛ لكنّه تمالك نفسه بسرعة.

تمّ قياس السَّيفين، وتعيين موضع كلّ مُبارز، وبعد تخفيف الثياب تقدّمَا متأهبَّين بسيفيهما.

صاح الشهود: «هيّا!»

في كلّ مبارزة، ومهما تكن ضراوة الخصمين، توجد لحظة سكون احتفاليّة؛ فكلّ مبارز يدرس وضع خصمه في صمت ويضع خطّته، متأمّلاً كيفيّة الهجوم واستعداداً للردّ؛ ثمّ يبدأ السيفان بتبادل البحث والتحرّش والتلامس، إنْ صحّ التعبير، من دون تباعد: يدوم ذلك بضع ثوانٍ تبدو دقائق، ساعات، بالنسبة لتلهّف الحاضرين.

هنا، كانت شروط المبارزة، مع أنّها عاديّة بالنسبة للمشاهدين، شديدة الغرابة بالنسبة للخصمين، حتّى إنّهما ظلّاً في حالة تأهّب فترة أطول من المعتاد. وفعلاً كان كلاهما يرى أمامه جسده الشخصيّ ويتوجّب عليه غرز الحديد في لحم كان لا يزال لحمه حتّى ليلة البارحة. - كانت المعركة تتعقّد بوجود نوع من الانتحار غير المتوقّع، ومهما كانت بسالة الاثنين فقد كان أوكتاف والكونت يشعران برعب غريزيّ لوجودهما بسيف في اليد في مواجهة شبحيهما واستعدادهما للانقضاض على نفسيهما.

كان الشهود الذين نفد صبرهم يستعدّون للصراخ مرّة أخرى: «أيّها

Twitter: @ketab_n

السيّدان، عليكما البدء إذن!» عندما بدأ حدّا السلاحين يلتحمان.

تمّ توقّي بعض الهجمات بخفّة من الطرفين.

كان الكونت، بفضل خدمته العسكرية، رامياً ماهراً؛ وسبق له أن بقّع أكثر من واقية صدر لدى أشهر الضباط؛ لكنّه وإنْ كان لا يزال يمتلك النظرية، فإنّه لم يكن آنئذٍ يمتلك من أجل تنفيذها ذلك الساعد العصبيّ المعتاد على قطع أحزمة سروج مريدي شاميل[1]؛ فاليد التي تمسك بسيفه كانت هي يد أوكتاف.

وبالعكس كان أوكتاف، في جسد الكونت، يجد نفسه في بأس غير معهود، ورغم قلّة درايته، كان ينجح دائماً في إبعاد النصل الباحث عن بطنه.

وعبثاً أجهد أولاف نفسه كي يصيب خصمه مُخاطِراً ببعض الضربات. كان أوكتاف، الأكثر هدوءاً وحزماً، يحبط كلّ الضربات الخادعة.

بدأ الغضب يتملّك الكونت الذي صارت حركاته عصبيّة ومضطربة. فحتّى مع احتمال بقائه أوكتاف دو سافيل، كان يريد قتل هذا الجسم المحتال الذي يُمكِنه خداع براسكوفي، وكانت هذه الفكرة ترمي به في حالات سُعار يتعذّر وصفها.

جازف بالتعرّض إلى الإصابة وحاول تسديد ضربة يُمنى يتوصّل بها، عبر جسده الشخصيّ، إلى روح الخصم وحياته؛ غير أنّ سيف أوكتاف التفّ حول سيفه بحركة في منتهى الخفّة والخطف والقهر إلى درجة أنّ السيف الذي اقتُلع من قبضته انطلق في الهواء ليسقط على بعد بضع خطوات.

صارت حياة أولاف متوقّفة على تقدير أوكتاف: يكفي أنْ ينقضّ

(1) بطل من القوقاز، سبق ذكره.

Twitter: @ketab_n

عليه ليمزّقه من جهة إلى أخرى. تشنّج وجه الكونت، ليس خوفاً من الموت، بل لتذكُّره أنّه سيترك زوجته إلى سارق الأجساد هذا الذي لم يعد أيُّ شئ قادراً على نزع قناعه.

لم يستغلّ أوكتاف تفوّقه بل رمى سيفه وأشار على الشهود ألّا يتدخّلوا، وتقدّم نحو الكونت المصعوق وأمسك به من ذراعه ليقوده إلى عمق الغابة.

«ماذا تريد مني؟» قال الكونت. لِمَ لم تقتلني وكنت قادراً على ذلك؟ لِمَ لا نتابع المبارزة بعد أنْ تركتني أستعيد سيفي إنْ كنت تأبى طعنَ رجل بلا سلاح؟ أنت تدرك جيّداً أنّه لا ينبغي على الشمس أنْ تعكس ظلَّينا الاثنين معاً، وأنّه يتوجّب على الأرض أنْ تبتلع أحدنا.

- أنصتْ إليّ بانتباه، أجاب أوكتاف. إنّ سعادتك بين يديّ. يمكنني المحافظة دائماً على هذا الجسد الذي أسكنه اليوم والذي تعود ملكيّته الشرعية إليك أنت: يسرّني الاعتراف بذلك حاليّاً لعدم وجود شهود قربنا، ولكون الطيور وحدها هي التي يمكنها سماعنا من دون الذهاب لإفشاء السرّ؛ لو عدنا إلى المبارزة لقتلتك. فالكونت أولاف لابنسكي الذي أمثّله بأقلّ سوء ممكن، هو أقوى في المسايفة من أوكتاف دو سافيل الذي تمتلك أنت الآن شكله، والذي سوف أضطرّ، ولو متأسّفاً، إلى قتله؛ وهذا الموت، وإن لم يكن واقعيّاً، بما أنّه سيُبقي على روحي، من شأنه أنْ يُحزن أمّي».

أدرك الكونت صدق هذه الملاحظات، وحافظ على صمت كان يشبه الموافقة.

«لن تتوصّل أبداً، إنْ اعترضتُ أنا على ذلك، إلى استعادة شخصيّتك؛ تابع أوكتاف القول، وها أنتذا ترى إلى أين وصلت محاولتاك الاثنتان.

Twitter: @ketab_n

وأيّ محاولات أخرى سوف تجعل منك شخصاً يعاني من هوَس أحاديّ. ولن يصدّق أحد أيّة كلمة من مزاعمك، وعندما تدّعي أنّك الكونت أولاف لابنسكي، سوف يضحك الجميع في وجهك، وهو ما بدأت تقتنع به. سوف يحبسونك، وتقضي ما تبقّى من حياتك في الاحتجاج، حتّى تحت رشاش الدشّ، بأنّك فعلاً زوج الكونتيسة الجميلة براسكوفي لابنسكا. وسوف تقول الأرواح المشفقة وهي تسمعك: «يا لهذا المسكين أوكتاف!» سوف تظلّ مهملاً مثل شخصيّة شابير عند بلزاك، الذي ظلّ يحاول البرهنة للآخرين على أنّه لم يمت[1]».

كان ذلك من الدقّة المحسوبة كما في الرياضيّات بحيث أنّ الكونت انهار وترك رأسه يسقط على صدره.

«وبما أنّك حاليّاً أوكتاف دو سافيل، فلا شكّ أنّك فتّشت أدراجه وتصفّحت أوراقه؛ ولم تعد تجهل أنّه منذ ثلاث سنوات يكنّ للكونتيسة براسكوفي لابنسكا حبّاً هائجاً، بلا أمل، وقد حاول اجتثاثه من قلبه من دون طائل، لكنّه لن ينتهي إلّا مع انتهاء حياته، هذا إذا لم يرافقه إلى القبر.

– نعم، أعرف ذلك، قال الكونت وهو يعضّ على شفتيه.

– إذن، ومن أجل الوصول إليها، استخدمتُ وسيلة فظيعة، مرعبة، لا يمكن إلّا لشغف هذيانيّ أن يجازف بها. جرّب الطبيب شيربونو من أجلي عملاً بزّ به كلّ صانعي المعجزات في كلّ البلدان وفي كلّ القرون. فبعد أنْ نوّم كلَينا غيّرَ ما يُغطّي روحَينا بطريقة مغناطيسيّة. معجزة غير مجدية! سأعيد إليك جسدك: براسكوفي لا تحبّني! ففي شكل الزوج تعرّفتْ على روح العاشق؛ تجمّدتْ نظرتها عند عتبة غرفة الزوجيّة كما

(1) ظلّ الكولونيل شابير Le Colonel Chabert، بطل رواية لبلزاك Balzac تحمل الاسم نفسه عنواناً، يعاني من إعلان خاطئ عن موته ويواجه صعوبة في دفع الآخرين إلى الاعتراف بهويّته.

Twitter: @ketab_n

في حديقة فيلّا سالفياتي».

خالط نبرة أوكتاف كدَر كان من الصّدق إلى درجة أنّ الكونت أضفى تصديقاً على كلماته.

«أنا عاشق، أضاف أوكتاف مبتسماً، ولست لصّاً؛ وبما أنّ الثروة الوحيدة التي رغبت فيها على وجه هذه الأرض لا يمكنني امتلاكها، لا أرى سبباً في امتلاك سنداتك وقصورك وأراضيك وأموالك وخيولك وأسلحتك.- هيّا، ناولني ذراعك، ولنتظاهرْ بالصّلح، ولنشكر شاهدَينا، ولنأخذ معنا الدكتور شيربونو، ولنعدْ إلى المختبر السحريّ الذي خرجنا منه متغيّرَي المظهر؛ سوف يتمكّن البرهميّ العجوز من حلّ ما ربَط».

«سادتي، قال أوكتاف، وهو لا يزال يمثّل لبضع دقائق دور الكونت أولاف لابنسكي، لقد تبادلنا، خصمي وأنا، توضيحات سرّية تجعل متابعة المواجهة بلا جدوى. لا شيء يجلو الأفكار لدى الرجال الشرفاء مثل طعن النصال».

عاد السيدان زمواشكي وسيبولفيدا إلى عربتَيهما. وصعد ألفرد هومبير وغوستاف رايمبو مركبتهما المغلقة. أمّا الكونت أولاف لابنسكي وأوكتاف دو سافيل والطبيب بالتازار فقد توجّهوا مباشرةً إلى شارع الروغار.

12

خلال المسيرة بين غابة بولونيا وشارع الروغار، قال أوكتاف دو سافيل للدكتور شيربونو:

«أيّها الدكتور العزيز، سأخضع علمك للتجربة مرّة أخرى: ينبغي إعادة روحَينا إلى موطنهما الأصليّ. وهذا لن يصعب عليك تحقيقه؛ وآمل

Twitter: @ketab_n

ألّا يحقد عليك السيّد الكونت لابنسكي لأنّك جعلته يبادل قصراً بكوخ، ويُشكن شخصيته اللّامعة في شخصي البائس، لبضع ساعات. وليس من شأنك الخوف من أيّ انتقام ما دمت تمتلك كلّ هذه القوّة».

بعد أنْ أبدى الطبيب بالتازار شيربونو علامة موافقة قال: «ستكون العملية أبسط بكثير هذه المرّة منها في المرّة السابقة؛ فالعروق الخفيّة التي تشدّ بالروح إلى الجسد سبق لها أنْ قُطعتْ منذ وقت قريب عندكما ولم تتمكّن من نيل وقت إضافيّ كي تلتحم من جديد، يضاف إلى ذلك أنّ إرادتَيكما لن تقفَا حاجزاً من ذلك النوع الذي تقيمه المقاومة الغريزيّة لدى المنوَّم لمواجهة المنوِّم. ولعلّ السيّد الكونت سوف يسامح عالماً عجوزاً مثلي لعدم مقاومته الرغبة في إجراء تجربة لا نجد لها متطوّعين كثيرين، إذْ أنّ هذه المحاولة لم تنفع بالأحرى إلّا في التأكيد الرائع على فضيلة تدفع بالرهافة إلى درجة التنبّؤ، وتنتصر حيث يسقط غيرها. سوف تنظر، إن رغبتَ، إلى هذا التحوّل المؤقت، مثل حلم غريب، وربّما كففْتَ فيما بعد عن الغضب من تجربة هذا الإحساس الغريب الذي لم يعرفه إلّا قلة من البشر، إحساس الإقامة في جسدين. إنّ التقمّص ليس مذهباً جديداً؛ غير أنّ الأرواح، قبل هجرتها إلى وجود آخر، تشرب من كأس النسيان، ولا يمكن لكلّ الناس أنْ يتذكروا، مثل فيثاغورس، أنّهم حضروا حرب طروادة[1].

– إنّ نعمة عودتي للإقامة في شخصيّتي، أجاب الكونت بتهذيب، تعادل نكَدَ نفيي عنها، أقول هذا دون نيّة سيئة تجاه السيّد أوكتاف

(1) حسب ديوجين اللّايرسي Diogenês Laertios، روى فيثاغورس لهيراكلي البونتيّة Heraclea Pontica سلسلة تحوّلاته التي يقول إنّه كان لا يزال يتذكّرها بفضل نعمة خاصّة من هرمس. فخلال حرب طروادة تجسّد في شخصيّة أوفوربوس، وقد تمكّن مينيلاس من إصابته بجرح.

Twitter: @ketab_n

دو سافيل الذي مازلتُه حتّى الآن، والذي سأكفّ بعد قليلٍ عن أنْ أكونه».

ابتسم أوكتاف بشفتَي الكونت لابنسكي لسماع هذه الجملة التي لا تبلغ وجهتها إلّا عبر غطاء غريب، وعمّ الصمت بين الأشخاص الثلاثة وقد صار الحوار بينهم صعباً بسبب وضعهم غير الطبيعيّ.

كان أوكتاف المسكين يفكّر في أمله المتلاشي، ولا بدّ من الاعتراف بأنّ أفكاره لم تكن ذات ألوان ورديّة تحديداً.

فعلى غرار العشاّق المرفوضين، كان لا يزال يتساءل لماذا لم يكن محبوباً، وكأنّ الحبَّ يحتمل سؤال «لماذا»! إنّ السبب الوحيد الذي نستطيع الإجابة به هو «لأنّ...»، وهو جواب منطقيّ في ايجازه العنيد، تواجه به النساء كلّ الأسئلة المربكة. وفي تلك الأثناء كان قد اعترف بالهزيمة كما أحسّ بأنّ نابض الحياة، الذي شُدَّ عنده من جديد لوقت قصير بواسطة الطبيب شيربونو، قد تحطّم مجدّداً وصار يدوّي في قلبه مثل نابض ساعة تُركتْ تسقط على الأرض. لم يكن أوكتاف راغباً في جعل أمّه تحزن بسبب انتحاره، وهو يبحث عن موضع ينطفئ فيه بصمتٍ من جرّاء حزنه غير المعرّف علمياً إلّا باسم المرض المقبول. لو كان رسّاماً، أو شاعراً، أو موسيقاراً، لَبَلْوَرَ ألمه في روائع فنّية، ولحلّقتْ براسكوفي فوق إلهامه مثل ملاك مضيء، مرتديةً الأبيض، متوّجةً بالنجوم، شبيهةً ببياتريشي دانتي؛ لكنّنا قلنا ذلك في بداية هذه الحكاية، فأوكتاف، رغم تعلّمه وتميّزه، لم يكن من عقول النخبة التي تطبع في هذا العالم أثرَ مرورها. كان يمتلك روحاً متسامية بغموض، ولا يعرف إلّا الحبّ والموت.

دخلت العربة إلى باحة القصر القديم في شارع الروغار، وهي باحة ذات بلاط معشوشب فَتحتْ فيه أقدام الزوّار درباً، وتغرقه جدران المباني

Twitter: @ketab_n

الرمادية العالية بالظلال الباردة مثل تلك التي تنزل من أقواس أروقة دير: كان الصمت والجمود يسهران عند العتبة مثل تمثالين لامرئيّين لحماية تأمّلات العالِم.

نزل أوكتاف والكونت، واجتاز الطبيب السلّم الصغير بخطوات أخفّ ممّا يُتوقّع في عمره، من دون الاتّكاء على الذراع التي مدّها له خادم المقصورة مع ذلك التهذيب الذي يخصّصه خدم البيوت الكبيرة للأشخاص الضعيفين أو المسنّين.

ما إن أُغلِق الباب المزدوج خلف أولاف وأوكتاف حتّى أحسّا بأنّهما مطوّقان بذلك المناخ الحارّ الذي يذكّر الطبيب بمناخ الهند، وهو المكان الوحيد الذي يستطيع التنفّس فيه بارتياح، لكنّه المكان الذي يكاد يخنق الناس الذين لم يتحمّصوا مثله ثلاثين عاماً تحت الشموس الاستوائية. كانت تجسيدات فيشنو لا تزال تكشّر في إطاراتها، أغرب في النهار منها تحت الإضاءة؛ وكان شيفا الإله الأزرق يبتسم هازئاً فوق قاعدته، ودورغا[1] عاضّة شفتها الخشنة بأسنانها الخنزيرية، فتبدو محرّكةً مسبحتها المتكوّنة من جماجم. كان المسكن يحافظ على ما يثيره من انطباعات غريبة وسحريّة.

وجّه الطبيب بالتازار شيربونو تابعَيه الاثنين إلى الغرفة التي أُجريتْ فيها عملية الاستبدال الأولى؛ أمر بإدارة القرص البلوريّ في الآلة الكهربائية، وحرّك قضبان الحديد في السطل المَسْمريّ، وفتح فوهات الحرارة بطريقة تسهّل رفع درجة الحرارة بسرعة، وقرأ سطرين أو ثلاثة من أوراق رقّ برديّ كانت من القِدم إلى درجة أنّها كانت تبدو مثل لحاء قديم يوشك على التحوّل إلى غبار، وبعد مضيّ بضع دقائق، قال لأوكتاف

(1) الربّة دورغا امرأة ذات عشر أذرعة.

Twitter: @ketab_n

وللكونت:

«أيّها السيّدان، أنا رهن تصرّفكما؛ هل تريدان أن نبدأ؟»

أثناء انهماك الطبيب في تلك التحضيرات كانت أفكار مقلقة تعبر رأس الكونت.

«بعد تنويمي، ماذا سيفعل بروحي هذا الساحر العجوز، ذو وجه قرد الماكاك الذي يمكن أن يكون الشيطان شخصيّاً؟ أيعيدها إلى جسدي أم يحملها معه إلى الجحيم؟ وهذا التبادل الذي يُفتَرض أنّه سيعيد لي ما هو ملْكي، ألا يكون مجرّد فخ جديد، معادلة مكيافيلية من أجل أعمال سحريّة أجهل مراميها؟ مع ذلك لا يمكن أنْ يزداد وضعي سوءاً. أوكتاف يمتلك جسدي، وكما عبّر جيّداً في الصباح، وصارحني به وأنا بشكلي الحاليّ، قد يحبسونني بوصفي مجنوناً. ولو أنّه أراد التخلّص منّي نهائياً لما تطلّب منه ذلك سوى دَفعة من حدّ سيفه؛ كنت منزوع السلاح، تحت رحمته؛ ولا دخل لعدالة البشر في هذا الوضع؛ فشروط المبارزة كانت نظاميّة وتمّ كلّ شيء وفقق المألوف. هيّا! لنفكِّرْ في براسكوفي، ولا مجال للرّوع الصبيانيّ! فلنجرّبِ الوسيلة الوحيدة التي بقيتْ لي كي أستعيدها!»

وتناول مثل أوكتاف قضيب الحديد الذي قدّمه له الطبيب بالتازار شيربونو.

وسرعان ما سقط الرجلان المصعوقان بالنواقل المعدنية المبالَغ في شحنها بتيّار مغناطيسيّ، في حالة من التلاشي العميق الذي كان يمكن أن يلوح شبيهاً بالموت بالنسبة لأيّ شخص غير مطّلع على الأمر: أدّى الطبيب حركات التنويم باليد، وأكمل الطقوس، ونطق بالنبرات الصوتية كما في المرّة الأولى، وما لبث أنْ ظهرتْ شرارتان صغيرتان فوق أوكتاف والكونت مع ارتعاشات ضوئية. أعاد الطبيب روح الكونت

Twitter: @ketab_n

أولاف لابنسكي إلى مقرّها الأول، بعد أنْ تبعثْ حركة المنوِّم بتحليق عجول.

وفي تلك الأثناء، كانت روح أوكتاف تبتعد ببطء عن جسد أولاف، وعوض أنْ تلتحق بجسده، صارت تعلو، وتعلو، وكأنّها في غمرة الفرح بالتحرّر، ولم يظهر عليها أنّها تكترث للدخول في سجنها. أحسّ الطبيب بشفقة تجاه تلك الروح التي كانت تخفق بجناحيها، وتساءل عمّا إذا كان من قبيل فعل المعروف إرجاعها إلى وادي البؤس ذاك. خلال تلك الدقيقة من التردّد، ظلّت الروح تعلو أكثر. تذكّر السيّد شيربونو دوره، وكرّر باللّهجة الأكثر حسماً تلك الكلمة التي لا تُقهر ذات المقطع الصوتيّ الواحد، وأجرى بيده حركة تنويم ساطعة العزيمة؛ كانت الشرارة الصغيرة المرتعشة قد بلغت موضعاً خارج دائرة الجاذبية، فاخترقت أعلى زجاجة في النافذة، واختفتْ.

كفّ الطبيب عن بذل جهود كان يدرك أنّها غير مجدية وأيقظ الكونت الذي شاهد نفسه في مرآة بملامحه المعتادة، فأطلق صرخة فرح، وألقى نظرة على جسم أوكتاف الذي كان ما يزال بلا حراك وكأنّه يريد أنْ يثبت لنفسه جيّداً أنّه تخلّص نهائياً من ذلك الغلاف، وانطلق خارجاً، بعد مصافحة السيّد بالتازار شيربونو.

«آه! يا خرطوم غانيشا![1] هتف تلميذ براهما مدينةِ إليفانتا بعد ذهاب الكونت، هذه قضيّة مكربة؛ لقد فتحت باب القفص، حلّق الطائر، وهوَذا الآن خارج دائرة هذا العالم، صار أبعد من أنْ يتمكّن حتّى السنياسي براهما-لوغوم ذاته من الإمساك به؛ وأمكث هنا متحملّاً مسؤوليّة جثّة.

(1) إله هندوسيّ في شكل فيل. يعرف أيضًا بأسماء أخرى مثل غاناباتي وفغنيشا. وهو ابن شيفا.

Twitter: @ketab_n

أستطيع تذويبها في حمّام أكّال تكون طاقته من القوّة بحيث لا تبقى منها ذرّة واحدة ذات قيمة، أو تحويلها خلال بضع ساعات إلى مومياء فرعون تشبه تلك التي تضمّها الصناديق المخطّطة بالهيروغليفية؛ لكنْ، قد يشرعون في إجراء تحرّيات، ويفتّشون مسكني، ويفتحون صناديقي، ويُخضعونني إلى كلّ أنواع الاستجواب المضجرة..».

وهنا اخترقت ذهن الطبيب فكرة ساطعة؛ تناول ريشة وخطّ بسرعة بضعة سطور على ورقة ووضعها في درج مائدته.

كانت الورقة تحتوي على هذه الكلمات:

«بما أنّني لا أهل لي ولا قريب، فإني أوصي بكلّ ثروتي إلى السيّد أوكتاف دو سافيل، الذي أكنّ له مودّة خاصة، شرط التزامه بأن يهب منها مئة ألف فرنك إلى المستشفى البرهميّ في سيلان، من أجل الحيوانات المسنّة والمتعَبة أو المريضة، ودفع ألف ومئتَي فرنك كإيراد مدى الحياة لخادمي الهنديّ وخادمي الإنجليزيّ، وتسليم مخطوطة قوانين مانو إلى مكتبة مازارين.»[1]

هذه الوصيّة الموجّهة من حيّ إلى ميت ليست من الأشياء الأقلّ غرابة من قبَل هذا الكونت الوهميّ والحقيقيّ في آن؛ غير أنّ هذه الميزة الفريدة ستتوضّح حالاً.

لمس الطبيب جسم أوكتاف دو سافيل الذي لم تغادره حرارة الحياة بعد، ونظر في المرآة إلى وجهه المجعّد والمدبوغ والخشن مثل الجلد المحبَّب، نظرة كلّها ازدراء شديد، وأجرى عليه الحركة التي نقوم بها عندما نرمي بثوبنا القديم عندما يقدّم لنا الخياط ثوباً آخرَ جديداً، وهمس

(1) ترجم لوازلور–دولونشان Loiseleur-Delongchamps كتاب «شريعة مانو» *Les Lois de Manou* إلى الفرنسية سنة 1883 ويبدو أنّ المؤلف قد استفاد من هذا الكتاب حول المذهب البرهميّ.

Twitter: @ketab_n

بلغز السنياسي براهما-لوغوم.

وفي الحال تدحرج جسد الطبيب بالتازار شيربونو فوق السجّادة كأنّه مصعوق، ونهض جسد أوكتاف دو سافيل قويّاً، نشيطاً وحيويّاً.

لبث أوكتاف-شيربونو واقفاً بضع دقائق أمام تلك الجثّة الهزيلة العظميّة الدكناء التي فقدتْ دعم روح قويّة كانت تنعشها قبل قليل، فظهرت عليها حالاً علامات الشيخوخة الأكثر تقدّماً، وسرعان ما اتّخذت مظهر الجثّة.

«وداعاً أيّها الشلو البشريّ البائس، يا خرقة تافهة مثقوبة عند الكوع، ومفتّقة من كلّ جانب، وقد جررتُها سبعين عاماً عبر أصقاع العالم الخمسة! لقد قدّمتِ لي خدمة لا يستهان بها، ولا أغادرك دون بعض الأسف. العيش الطويل معاً يكسبنا تعوّداً متبادلاً! لكن داخل هذا الغلاف الفتيّ، الذي سوف يتوصّل علمي قريباً إلى جعله أكثر قوّة، يمكنني الدراسة والعمل وقراءة المزيد من الكتاب الكبير، دون أنْ تغلقه الحياة في الفقرة الأهمّ قائلة: «كفى!»

بعد هذا التأبين الموجّه إليه شخصيّاً، خرج أوكتاف-شيربونو بخطوة هادئة قاصداً امتلاك وجوده الجديد.

كان الكونت أولاف لابنسكي قد عاد إلى قصره واستفسر فوراً عمّا إذا كانت الكونتيسة تستطيع استقباله.

وجدها جالسة على دكّة معشوشبة، داخل المستنبت الزجاجيّ الذي كانت ألواحه الكريستالية المرفوعة إلى النّصف تسمح بمرور هواء فاتر ومضيء، وسط غابة بكْر حقيقيّة من النباتات المجلوبة والاستوائية؛ كانت تطالع نوفاليس، أحد الكتّاب الأكثر براعة، ورقّة أثيرية ممّن أنتجهم المذهب الروحيّ الألماني؛ فالكونتيسة لم تكن تحبّ الكتب التي

Twitter: @ketab_n

ترسم الحياة بألوان حقيقيّة وقويّة، وكانت الحياة تبدو لها فظّة نوعاً ما، نظراً لكونها عاشت في عالم من الأناقة والحبّ والشّعر.

رمت بكتابها ورفعت عينيها ببطء نحو الكونت. كانت لا تزال تخشى أنْ تلتقيَ في حدقتَي زوجها السوداوين تلك النظرة الملتهبة العاصفة المحمّلة بأفكار غريبة، تلك التي أربكتها بألم مضنٍ، وكانت تبدو لها- في خشية جنونية، أو فكرة مخالفة للصواب - نظرة شخص آخر!

في عينَي أولاف كانت تشعّ فرحة رائقة، ويشتعل حبّ طاهر ونقيّ على نار ثابتة؛ والروح الغريبة التي غيّرت تعابير ملامحه طارت إلى الأبد: تعرّفتْ براسكوفي فوراً على حبيبها أولاف، وشابت حمرة سريعة من اللّذة خدّيها الشفافَين. ومهما تكن جاهلةً للتحوّلات التي أجراها الطبيب شيربونو، فإنّ رهافة حسّها التي تشبه النبتة المستحية[1] تمكّنت من تخمين كلّ تلك التغييرات من دون أن تكون قد علمتْ بها.

«ما ذا كنتِ تطالعين هناك، عزيزتي براسكوفي؟ قال أولاف ملتقطاً من فوق العشب الكتاب المجلّد باللّون الأزرق. آه! إنّها حكاية هاينريش فون أوفتردنغن[2]، وهو المجلّد نفسه الذي أطلقت لجوادي العنان لأبحث لك عنه في مدينة موهيليف، ذات يوم عندما أبديتِ رغبة في الحصول عليه ونحن على مائدة الطعام. في منتصف اللّيل كان على منضدتك الصغيرة، بجانب فانوسك؛ لكنّ الحصان رالف ظلّ أيضاً منتفخ الرئة من تلك الرحلة!

- وقلتُ لكَ إنّني لن أعود إلى إظهار أيّ نزوة أمامك. إنّك تشبه في طباعك ذلك السيّد الإسباني الذي كان يتوسّل إلى حبيبته ألّا تنظر

(1) الحسّاسة أو المستحية: جنبة من الفصيلة القرنية تُزرع للغرابة الكامنة في فرط حساسيتها.

(2) «هاينريش فون أوفتردنغن». *Heinrich von Ofterdingen* : عنوان رواية للشاعر الرومنطيقيّ الألماني نوفاليس Novalis (1772–1801) نُشرتْ بعد موته.

Twitter: @ketab_n

إلى النجوم لأنّه لا يستطيع تقديمها لها.

- لو نظرتِ إلى إحداها، أجاب الكونت، لحاولتُ الصعود إلى السماء والذهاب لطلبها من الإله».

كانت الكونتيسة، أثناء إصغائها لزوجها، تردّ خصلة فالتة من مشْبك شعرها تلمع مثل شعلة في شعاع ذهبيّ. تلك الحركة أدّتْ إلى انزلاق كمّها وتعرية ذراعها الجميلة التي تلتفّ حول معصمها عظاية مرصّعة بالفيروز، كانت تضعها يوم الظهور في الكاتشيني، اليوم المشؤوم بالنسبة لأوكتاف.

«ما أشدّه من خوف، قال الكونت، ذلك الذي تسبّبتْ لك فيه سابقاً تلك العظاية الصغيرة المسكينة والتي قتلتُها أنا بضربة من عصا الخيزران عندما نزلتِ إلى الحديقة لأوّل مرّة تلبيةً لطلباتي الملحّة! أوصيتُ بصبِّها في قالب ذهبيّ وزخرفتِها ببعض الأحجار الكريمة؛ لكنْ، حتّى في تحوُّلها إلى قطعة حلي ظلّت تبدو لك مفزعة، ولم تقرّري وضعها إلّا بعد مرور وقت طويل.

- أوه! الآن تعودتُ عليها تماماً، وصرت أفضّلها على كلّ جواهري، لأنّها تعيدني إلى ذكرى عزيزة.

- نعم، تابع الكونت؛ في ذلك اليوم اتّفقنا على أن أرسل في طلبك من عمتّك، في الغد، رسميّاً من أجل الزواج».

بعد أنْ استردّت الكونتيسة نظرة أولاف الحقيقيّ ونبرته، وقفت مطمئنّة إلى تلك التفاصيل الحميمة، فابتسمت له وأمسكت بذراعه ورافقته في جولة داخل المستنبت الزجاجيّ، وكانت، لدى مرورها، تقتلع بيدها التي ظلّت متحرّرة بعض الزهور فتعضّ بتلاتها بشفتيها

Twitter: @ketab_n

النديّتين، مثل فينوس التي رسمها سكيافوني[1] تأكل الورد.

«بما أنّك تتمتّع بذاكرة ممتازة اليوم، قالت وهي ترمي بالزهرة التي كانت تقطعها بأسنانها اللّؤلؤية، لا بدّ أنّك استعدت استخدام لغتك الأمّ... التي كففتَ عن معرفتها البارحة.

«أوه! أجاب الكونت بالبولندية، هي اللّغة التي سوف تتكلّمها روحي في السماء لتقول لك «أحبّكِ»، إنْ كانت الأرواح تحافظ على لغة بشريّة في الجنة».

أثناء سيرها أحنت براسكوفي رأسها بلطف على كتف أولاف.

«يا قلبي العزيز، همستْ، ها أنتذا كما أحبّك. لقد أخفْتني بالأمس، وهربتُ منك كما لو من شخص أجنبيّ».

في الغد، بعد أن انتعش أوكتاف دو سافيل بروح الطبيب الهرِم، استلم رسالة ذات حاشية باللّون الأسود تلتمس منه الحضور إلى قدّاس السيّد بالتازار شيربونو وموكب جنازته.

تبع الطبيب، وهو في مظهره الجديد، جثمانه القديم في المقبرة، ورأى نفسه يُدفن، واستمع بمظهر رصين مصطنع إلى كلمات التأبين التي أُلقيتْ على قبره، وكان فيها رثاء للخسارة الفادحة التي تكبّدها العلم؛ ثمّ عاد إلى شارع سان لازار وانتظر فتح الوصيّة التي كتبها لصالحه.

في ذلك اليوم نشرت صحف المساء، في صفحة الحوادث:

«السيّد الدكتور بالتازار شيربونو، المعروف بإقامته الطويلة في الهند، وسعة معارفه في مجال الفقه اللّغويّ، وبمداواته الرائعة، وُجدَ ميتاً، بالأمس، في مكتب عمله. واستبعد الفحص الدقيق للجثّة فكرة الجريمة

---

(1) أندريا سكيافوني Andrea Schiavone (حوالى 1510–1563): رسّام ونحّات إيطالي من مدرسة البندقية، تميّز بألوانه الجريئة.

Twitter: @ketab_n

استبعاداً كاملاً. ويبدو أنّ السيّد شيربونو ناء تحت وطأة متاعب ذهنيّة مفرطة أو مات خلال إحدى التجارب الجريئة. ويُقال إنّ وصيةً بخط اليد عُثِر عليها في مكتب الطبيب توصي بتوريث مخطوطات نفيسة جدّاً إلى مكتبة مازارين، وتسمّي وريثاً له فتىً ينتمي إلى عائلة مرموقة، هو السيّد أ. دو س.».

Twitter: @ketab_n

جتّاتورا[1]

كانت «اللّيُوبولْدْ»، وهي سفينة بخارية رائعة من توسكانا تؤمّن رحلة بين مرسيليا ونابولي، قد جاوزت رأس بروتشيدا. وكان الركّاب كلّهم على جسرها، بعد شفائهم من دوار البحر برؤية اليابسة، وهي أكثر نجاعة من حلوى مالطا والوصفات الأخرى المستخدمة في مثل هذه الحال.

على سطح السفينة، وفي القسم المخصّص لركّاب الدرجة الأولى، كان هناك بعض الإنجليز المثابرين على تبادل الانعزال بعضهم عن بعض إلى أقصى حدّ ممكن ورسم دائرة فاصلة غير قابلة للاختراق؛ كانت وجوههم السوداوية حليقة بعناية، وربطات أعناقهم لا تشوبها طيّة في غير محلّها، وياقات قمصانهم البيضاء المتيبّسة تشبه زوايا ورق البريستول[2]؛ وقفّازات جلدية من السويد جديدة تماماً تغطّي أيديهم، بينما برنيق اللّورد إليوت[3] يلتمع على أحذيتهم الجديدة. كان يمكن القول إنّهم يخرجون من إحدى مقصورات زينتهم: ما من إخلالات صغيرة في أزيائهم المضبوطة، وهي إخلالات معتادة أثناء السفر. كان يوجد بينهم لوردات، وأعضاء في مجلس العموم، وتجّار المدينة، وخيّاطون من ريجنتس ستريت وصانعو

(1) نُشرت للمرّة الأولى في صحيفة *Le Moniteur universel*، في الأعداد من 25 حزيران إلى 23 تمّوز 1856. و«الجتّاتورا» اعتقاد شعبيّ سائد في كورسيكا وجنوب إيطاليا، خصوصاً في نابولي حيث تدور أحداث هذه القصّة، وتعني المفردة «جتّاتورا» العَين الشرّيرة.

(2) ورق مقوّى صقيل منسوب إلى مدينة بريستول في انجلترا.

(3) اللّورد إليوت Lord Eliott : سياسيّ ودبلوماسيّ بريطاني (1798 – 1877).

Twitter: @ketab_n

سكاكين من شيفيلد كلّهم لائقون، كلّهم صارمون، كلّهم جامدون، كلّهم ضجرون. ولم تكن النساء غائبات بدورهنّ، ذلك أنّ الإنجليزيّات لسن من الحضر المقيمين كما هو شأن نساء البلدان الأخرى، وينتهزن أبسط تعلّة لمغادرة جزيرتهنّ. قرب سيّدات الطبقة العليا والنساء المتزوّجات، حيث الجمال في خريفه، مع بروز مرض الحمرة الورديّة يخطّط بشرتهنّ، تتألّق تحت غلالات الشاش الأزرق آنسات في مقتبل العمر ذوات سحنة مجبولة بالمَراهم وأحمر الشفاه، وخصلات حلزونية لامعة من الشعر الأشقر، وأسنان طويلة بيضاء تذكّر بالنماذج المحبّبة لدى هواة الدفاتر التذكارية، وتبرّئ رسوم ما وراء بحر المانش من تهمة إضفاء الخداع التي كثيراً ما توجّه إليها. كانت كلّ واحدة من الفتيات الفاتنات تترنّم، بأعذب لكنة بريطانية، بالجملة الإيطالية المأثورة: «شاهدْ نابولي ثمّ مُتْ»[1]، وكنّ يعدن إلى دليل السفر أو يسجّلن ملاحظات انطباعيّة على دفاترهنّ، من دون الانتباه إلى الغمزات الدونجوانية من بعض الباريسيين المزدهين بأنفسهم والذين كانوا يتسكّعون حولهنّ، بينما الأمّهات الساخطات يهمسن ضدّ الاستهتار الفرنسي.

كان هناك، عند حدّ القسم الأرستقراطيّ، ثلاثة أو أربعة شباب يتجولّون. وانطلاقاً من قبّعاتهم التي هي من قشّ أو من لِبْد رماديّ، ومن ستراتهم المنجّمة بأزرار قرنيّة كبيرة، وسراويلهم الواسعة من النسيج المحبّك، كان من السهل التعرّف على فنّانين، وهو تعيين تؤكّده، على أية حال، شواربهم المحفوفة على طريقة فان ديك[2]، وشعرهم المجعّد على

---

(1) « *Vedi Napoli e poi mori* ».

(2) أنطوان فان ديك Antoine Van Dick (1599 — 1641) رسّام فلامنكي، تأثّر بباولو فيزونيزي وتيتسيانو وروبنز، وأصبح في فترة قصيرة رسّاماً رائداً في البلاط الملكيّ في إنجلترا.

Twitter: @ketab_n

طريقة روبنز[1] أو المحلوق قصيراً على طريقة باولو فيرونيزي[2]؛ وكانوا يحاولون، لكنْ لهدف مختلف تماماً عن هدف المتغندرين، التقاط ملامح بعض الحسناوات اللّواتي يمنعهم حظّهم الضئيل من الاقتراب منهنّ أكثر، وكان هذا الانشغال يلهيهم قليلاً عن المشهد الرائع المنتشر أمام عيونهم.

عند طرف الباخرة، كان ركّاب الدرجة الثالثة المساكين يتجمّعون مستندين إلى درابزين السفينة أو جالسين على رزمات من الحبال الملفوفة وهم يستكملون زادهم الذي حال دوار البحر دون إنهائه، من دون إلقاء نظرة على أجمل مشهد في العالم، ذلك أنّ الإحساس بالطبيعة هو امتياز للعقول المثقّفة التي لا تمتصّها ضروريّات الحياة الماديّة بالكامل.

كان الطقس جميلاً؛ والأمواج الزرقاء تنتشر في طيّات كبيرة فلا تكاد تتمكّن من محو أثر المَخْر الذي تخلّفه السفينة؛ وكان الدخان المتصاعد من أنبوب المدخنة يشكّل غيوم هذه السماء الصافية، ليتبدّد ببطء في نُدَف من القطن الخفيف، وفيما تؤرجح الشمس ألوان قوس قزح، كانت شفرات الدواليب تكدّ هائجة في غبار ماسيّ لتثير زبد الماء بنشاط بهيج، كما لو أنّها كانت عارفة باقتراب المرفأ.

خط الهضاب الطويل، من بوزيليبّو إلى فيزوف، يرسم الخليج المدهش الذي تستريح خلفه نابولي مثل حوريّة بحر تتنشّف على الضفّة بعد استحمامها، بدأ يكشف عن تموّجاته البنفسجية، ويرتسم بخطوط

---

(1) بيار بول روبنز Pierre Paul Rubens (1577–1640) رسّام فلامنكي، تعتبر أعماله مثالاً صارخاً على المدرسة الباروكية في فنّ التصوير، وكانت تجمع بين أسلوب المدرسة الإيطالية وواقعية المدرسة الفلامكنية.

(2) باولو فيرونيزي Paolo Veronese (1528–1588) رسّام إيطالي يُعَد أحد زعماء مدرسة البندقية. ظهرت معظم رسومه عند نهاية عصر النهضة الإيطالية.

Twitter: @ketab_n

أوضح على لازورد السماء الساطعة؛ وشرعت بعض النقاط البيضاء ضاربة في عمق اليابسة الأكثر دكنة، تشي بحضور البيوت المنتشرة عبر الحقول الريفيّة. وكانت أشرعة بعض زوارق الصيد العائدة إلى المرفأ تنساب فوق الزرقة الملساء مثل ريش بجعات يطيّرها النسيم، وتُظهر النشاط البشريّ في عزلة البحر العظيمة.

بعد بضع دورات للدفّة، لاح قصر سانت إيلمو ودير سان مارتن بشكل متميّز فوق قمّة الجبل الذي تتّكئ عليه نابولي، فوق قباب الكنائس ومصاطب الفنادق وسطوح المنازل وواجهات القصور، وخضرة الحدائق التي لا تكاد تظهر عبر بخار مضيء. وسرعان ما بدا قصر الووفو[1] مقرفصاً على صخوره البحرية المغسولة بالزبد، وكأنّه يتقدّم نحو السفينة البخارية، بينما يتمدّد مكْسر الأمواج مع منارته مثل ذراع تمدّ مشعلاً.

في أقصى طرف الشرم، غيّر جبل الفيزوف مع اقترابه أكثر، تلك اللّوينات المزرقّة التي أضفاها عليه البعد، بدرجات لونية أكثر قوّة ورسوخاً؛ تحدّدتْ منحدراته بمجاري سيول وتدفّق حمم خامدة، ومن قمّته المبتورة والمجزّعة، مثل ثقوب مجمرة عطور، خرجت بوضوحٍ نفثات صغيرة من دخان أبيض ترجرجه هبّة ريح.

كنّا نميّز بوضوح كياتاموني، وبيتزو فالكوني، ورصيف سانتا لوتشيا بفنادقه المحاذية، والبالاتسو ريالي[2] مع صفوف شرفاته، والبالاتسو نووفو[3] المحصّن بأبراجه ذات المشرّبيات، وورشة السفن، وسفن كلّ الأمم خالطةً صواريها وأعمدتها مثل أشجار غابة تجرّدت من أوراقها،

(1) قصر البيضة.

(2) القصر الملَكيّ.

(3) القصر الجديد.

Twitter: @ketab_n

عندما خرج راكب من مقصورته، ولم يكن قد ظهر طيلة الرحلة، ربّما بسبب الدوار الذي حجزه في موضعه، أو من باب الوحشيّة ورفض الاختلاط ببقية المسافرين، أو أنّ هذا المشهد، الجديد بالنسبة للأغلبيّة، صار معتاداً لديه منذ زمن طويل ولم يعد يثير اهتمامه.

كان شابّاً بين السادسة والعشرين والثامنة والعشرين، أو على الأقلّ كان ذاك هو العمر الذي يمكن أن يُنسب إليه لأوّل وهلة، لأنّنا إذا ما نظرنا إليه بانتباه وجدناه إمّا أصغر وإمّا أكبر، وذلك من شدّة ما كان مظهره الغريب يمزج بين النضارة والإرهاق. كان شعره ذو الشقرة الداكنة يميل إلى تلك الدرجة التي يدعوها الإنجليز «أوبّيرن»[1]، ويتوهّج في الشمس بانعكاسات نحاسية معدنية، بينما يلوح في الظلّ أسودَ تقريباً؛ يقدّم مظهره قسمات جليّة جدّاً، بجبينٍ يمكن للمتخصّص في فراسة الدماغ أنْ يُعجب ببروزه، وأنف معقوف بما يوحي بالنبالة، وشفتين مرسومتين جيّداً، وذقن تذكّر استدارته القويّة برسوم الميداليات العتيقة؛ ومع ذلك فإنّ كلّ تلك الملامح، الجميلة في حدّ ذاتها، لم تكنْ لتشكّل تكاملاً مستحبّاً. كان ينقصها ذلك التناسق الخفيّ الذي يلطّف الحدود الفاصلة ويصهر بعضها في البعض الآخر. تتحدّث الأسطورة عن رسّام إيطاليّ رغب في رسم كبير الملائكة المتمرّد، فركّب له قناعاً من مَفاتن متنافرة، وتوصّل بذلك إلى نتيجة مرعبة أكثر بكثير ممّا لو لجأ إلى رسمه بقرنين وحاجبين مدبّبَين مع تكشيرة على الفم. وكان وجه الغريب يُحدث انطباعاً من ذلك النوع. فعيناه تحديداً كانتا رائعتين؛ إذْ كانت الرموش السوداء في طرفيهما تتناقض مع اللّون الرماديّ الباهت للحدقتين واللّون الكستنائي المحمّص للشعر. والسُّمك الطفيف لعظام الأنف يجعل

(1) تبنّت اللّغة الفرنسية الكلمة، وتعني الأصحر أو الأسمر المحمرّ Auburn.

Twitter: @ketab_n

العينين تبدوان كأنّهما متقاربتان أكثر ممّا تسمح به مقاييس مبادئ الرسم، أمّا بالنسبة لتعبيرهما فكان غير قابل للتحديد حقّاً. فعندما لا تنظران إلى شيء محدّد ترتسم فيهما كآبة غامضة، وميل إلى الوهن، في بريق رطب؛ وعندما تحدّقان بشخص أو شيء يتقارب الحاجبان وينكمشان ويشكّلان تجعيدة عموديّة على جلد الجبين: وتتحوّل الحدقتان من اللّون الرماديّ إلى اللّون الأخضر، وتتبقّعان بنقاط سوداء، وتتحزّزان بألياف صغيرة صفراء لتنبجس منهما النظرة حادّةً، بل جارحة تقريباً؛ ثمّ يعود كلّ شيء إلى وداعته الأولى، وتتحوّل الشخصيّة ذات الهيئة الشيطانية إلى شابّ بين بقيّة البشر -يمكن أنْ يكون عضواً في نادي فرسان السباق، إنْ شئتم- يسافر لقضاء العطلة في نابولي، وقد بدا عليه الارتياح لوضع قدمه على حمم بلاط أقلّ حركة من جسر سفينة اللّيوبارد.

كان لباسه أنيقاً من دون أنْ يستلفت الأنظار بجزئية منبّهة: سترة طويلة زرقاء غامقة من نوع الريدنغوت، ربطة عنق سوداء منقّطة لا يشوب عقدتها تكلّف ولا إهمال في آن، صدريّة بلون ربطة العنق نفسها، سروال رماديّ فاتح ينزل بالغاً جزمة ناعمة، كان ذلك ما يشكّل زينته؛ وكانت السلسلة التي تحمل ساعته من ذهب خالص، وهناك شريط من الحرير الصقيل تتدلّى منه نظّارته الأنفيّة؛ أمّا يده المرتدية قفّازاً محكماً فقد كانت تحرّك عكازاً صغيراً ودقيقاً من عودِ كرمة ملتوٍ ينتهي بزينة فضّية.

تقدّمَ بضع خطوات على الجسر، تاركاً نظراته تتوه من غير تحديد، نحو الشاطئ الذي بدأ يقترب، وبدأت تلوح فيه عربات مسرعة، وجمهور مزدحم، بينما تتوقّف جماعات من العاطلين الذين يعتبرون وصول عربة أو باخرة فرجة مثيرة دائماً، وجديدة دائماً، رغم مشاهدتهم لها ألف مرّة.

كانت مجموعة من الزوارق الصغيرة وزوارق الإنقاذ قد بدأت تغادر

Twitter: @ketab_n

المرفأ متهيّئة لاستقبال اللّيوبولد، وعلى متنها طواقم نذّل فنادق، وخدم مؤقّتون، وحمّالون وأوباش متنوّعون معتادون على اعتبار الغريب فريسة؛ وكان كلّ زورق يبذل جهوداً أكثر في التجذيف ليصل الأوّل، فيما يتبادل النوتية، كعادتهم، شتائم، ووزعيقاً قادراً على بثّ الرعب في الناس غير المطّلعين على عادات الطبقة النابوليتانية السفلى.

كان الشابّ ذو الشعر الأصحر قد وضع نظارته الأنفية، من أجل إدراك تفاصيل المشاهد المرتسمة حوله؛ غير أنّ انتباهه شرد عن المشهد الفاتن للشّرم وتركّز على جوقة الزعيق المتصاعد من الأسطول الصغير المتكوّن من تلك الزوارق، ولعلّ الضجيج قد أزعجه، إذ انعقد حاجباه، وتجوّفت تجعيدة جبينه، وتحوّل لون حدقتيه الرماديّ إلى اللّون الأصفر.

حلّت موجة غير متوقّعة من عرض البحر مسرعة على سطحه، ومزبدة، ومرّت تحت السفينة البخارية، فرفعتها ثمّ تركتها تنزل ثانية ببطء، لتتحطّم على الرصيف ناشرةً رذاذها العميم، مبلّلةً المتنزّهين بهذا الضرر المباغت، ثمّ أدّت بسبب ارتدادها العنيف إلى ارتطام المراكب في ما بينها بقوّة جعلت ثلاثة عتّالين أو أربعة يسقطون في الماء. لم يكن الحادث خطيراً، فهؤلاء الظرفاء قادرون على السباحة مثل الأسماك أو الآلهة البحرية، وما هي إلّا بضع ثوانٍ حتّى ظهروا من جديدٍ بشعور ملتصقة في أصداغهم، باصقين الماء المالح من أفواههم ومناخيرهم، مع ذهول مؤكّد من تلك الغطسة يمكن تشبيهه بذهول تيليماك، ابن عوليس، عندما عمدتْ مينيرفا، متنكّرة في وجه الحكيم منطور، إلى رميه من قمّة صخرة إلى البحر كي تبعده عن حبّ أوكاريس.

خلفَ المسافر غريب الأطوار، وعلى مسافة محترمة، كان يقف قرب كومة حقائب ساعٍ صغير أقرب ما يكون إلى شيخ في سنّ الخامسة عشرة،

Twitter: @ketab_n

قزم بكسوة رسمية، يشبه أولئك الأقزام الذين يتعهّد صبر الصينيّين بتربيتهم في جرّة فخار لمنعهم من التضخّم؛ كان وجهه المسطّح، ولا يكاد يبرز منه الأنف، كأنّه مضغوط منذ الطفولة، وكان في عينيه المصقولتين مع الجلد تلك العذوبة التي يجدها بعض علماء الطبيعيات في عينَي الضفدع. ما من حدبة تقوّس كتفيه أو تقبّب صدره؛ ومع ذلك كان يوحي بفكرة أحدب مهما تمّ البحث عن حدبته بلا طائل. وكان إجمالاً ساعياً مناسباً جدّاً، ليتقدّم من دون تدريب إلى مضامير السبق في آسكوت أو في شانتيّي[1]؛ وما من فارس خيول إلّا وسيقبله لسوء هيئته. لقد كان كريهاً، لكنّه كان فريداً من نوعه، مثل سيّده.

تمّ النزول من الباخرة؛ وبعد تبادل الشتائم بشكل هستيريّ، تقاسم الحمّالون الأجانبَ والبضائعَ، وقصدوا مختلف الفنادق التي تعجّ بها نابولي.

توجّه المسافر ذو النظارة الأنفيّة وساعيه نحو فندق روما، يتبعهما جحفل كبير من الحمّالين الأقوياء الذين كانوا يتظاهرون بنضْح العرق واللّهاث تحت ثقل صندوق من الكرتون يحوي قبّعات أو تحت علبة خفيفة، آملين بسذاجة في نيل بقشيش أكبر، بينما أربعة من زملائهم أو خمسة، يُظهرون عضلات بقوّة عضلات هرقل المعروض في متحف الستودي[2]، يدفعون عربة يد يرتجّ فيها صندوقان من حجم متواضع وثقل معتدل.

عند الوصول إلى أبواب الفندق وانتهاء «البادروني دي كازا»[3] من

(1) آسكوت Ascott في بريطانيا، وشانتيّي Chantilly في فرنسا.

(2) «سْتوْدي» Studii : الدراسات (سبقت الإشارة إليها). كان المتحف الوطني يحمل اسم «قصر الدراسات» (جامعة)، ثمّ تحوّل إلى متحف سنة 1777.

(3) بالايطالية في الأصل وتعني صاحب الدار أو معلّم النزل.

Twitter: @ketab_n

تعيين الجناح الذي سيسكنه القادم الجديد، بدأ الحمّالون، رغم أنّهم قبضوا تقريباً ثلاثة أضعاف ثمن مشوارهم، يؤدّون إشارات جامحة وخطابات تختلط فيها صيغ التوسّل بصيغ التهديد بنسبة هي في منتهى الفكاهة؛ كانوا يتكلّمون في وقت واحد مع ذلاقة لسان مرعبة، مطالبين بزيادة في الأجرة، ويحلفون أغلظ الأَيمان بأنّهم لم ينالوا ما يكفي ثمن أتعابهم. ظلّ بادي بمفرده في مواجهتهم، إذْ أنّ سيّده كان قد صعد السُّلّم من دون اكتراث لهذا الضجيج، فكان يشبه قرداً محاصَراً بسرب كلاب شرسة: حاول تهدئة زوبعة الضجيج بخطاب قصير في لغته الأمّ، أي بالإنجليزية. ولم تنجح الخطبة كثيراً. عندئذ لجأ إلى ضمّ قبضتيه وتقريب ساعديه في مستوى صدره، واتّخذ وضعَ الملاكمة الدقيق، ما أثار مرحاً صاخباً لدى الحمّالين، وبتسديدة يمنى جديرة بآدامس، أو توم كريبس، موجّهة إلى المعدة، أرسل عملاقَ العصابة يتدحرج منقلباً على ظهره فوق بلاط حمم[1] الأرضية.

هذا الفعل الباهر جعل الزمرة تهرب؛ نهض العملاق ببطء، مهشّماً كلّه من سقطته؛ ومن دون التفكير في الانتقام من بادي، انسحب فاركاً يديه، مع تشنّجات قويّة، وقد بدأ الأثر المزرقّ يقزّح جلده، مقتنعاً أنّ شيطاناً لا بدّ أنْ يكون مختفياً تحت سترة ذلك القرد الماكاك، الذي لا يمكنه في أحسن الأحوال إلّا أنْ يكون فارساً على ظهر كلب، وكان يعتقد أنّ في إمكانه قلبه بمجرّد نفخة.

طلب الغريب حضور البادروني دي كازا، وسأله عمّا إذا كانت رسالة باسم السيّد بول دابرومون قد سُلِّمَتْ إلى فندق روما؛ أجاب صاحب الفندق بأنّ رسالة تحمل هذا الاسم تنتظر فعلاً منذ أسبوع، في صندوق

(1) تتكرّر الإشارة إلى الحمم البركانية وإلى طفح البركان تلميحاً إلى بركان فيزوف في نابولي.

Twitter: @ketab_n

المراسلات، وأسرع لإحضارها.

كانت الرسالة مغلّفة بظرف من ورق سُكّري سميك، مزرقّ ومسَلَّك، ممهورة بختم شمعيّ من البارقين[1]، وكانت مكتوبة بذلك الخطّ ذي الحروف المائلة عند اكتمال الزوايا، الخطّ الرفيع والسريع الذي يشي بتربية أرستقراطية عالية، لا تمتلكها، ربّما بنمط واحد مبالغ في تشابهه، إلّا فتيات العائلات الإنجليزية الراقية.

هوَذا محتوى المغلّف الذي فتحه السيّد دابرومون بلهفة ربّما لم يكن الفضول سببها الوحيد:

«عزيزي السيّد بول، لقد وصلنا إلى نابولي منذ شهرين. وخلال الرحلة التي تمّت ضمن مراحل قصيرة، اشتكى عمّي بمرارة من شدّة الحرارة، والبعوض، والنبيذ، والزبدة، والأسرّة؛ وصار يحلف بأنّ على المرء أنْ يكون مجنوناً حقّاً حتّى يغادر بيتاً ريفيّاً أنيقاً على بعد بضعة أميال من لندن، ويتجوّل في دروب مغبرّة توجد فيها نُزل كريهة، لا ترغب حتّى الكلاب الإنجليزية الشريفة تمضية ليلة فيها؛ لكنّه أثناء تذمّره كان يتبعني، وكنت مستعدّة لمرافقته حتّى آخر العالم؛ لم يكن وضعه الصحّي أسوأ، وأنا أيضاً تحسّنت حالي. أقمنا عند شاطئ البحر، في بيت مطليّ بالكلس ومحشور داخل نوع من الغابة البكر المتكوّنة من أشجار برتقال وليمون وآس ودفلى ونباتات أخرى غريبة جدّاً بالنسبة لنا. نتمتّع بمشهد رائع من أعلى الشرفة، وفي كلّ مساء تجد فنجان شاي أو عصير ليمون بالثلج حسب اختيارك. عمّي الذي سحرْتَه، ولست أدري كيف، سوف يكون مسروراً بمصافحتك. وهل من الضروريّ أنْ أضيف أنّ خادمتك أيضاً لن تعارض ذلك، رغم أنّك قطعتَ أصابعها بخاتمك، وأنت

(1) حجر البرق.

Twitter: @ketab_n

تودّعها عند مكْسر رصيف فولكستون[1].
«أليسيا و».

2

بعد أنْ تناول بول دابرومون وجبة العشاء في غرفته، طلب إحضار عربة خيل. حوذيّو عربات كثيرون يتوقّفون دائماً حول الفنادق الكبيرة، ولا ينتظرون إلّا نزوات المسافرين، وهكذا تمّت تلبية رغبة بول فوراً. خيول الأجرة في نابولي هزيلة جدّاً إلى حدّ تظهر معه روثينَنْته[2] في منتهى السمنة، رؤوسها خالية من اللّحم، وضلوعها بادية مثل حلقات براميل، وفقرات ظهورها الناتئة مسلوخة دائماً حتّى لتبدو كأنّها تتوسّل من باب المعروف سكّين الجزار، ذلك أنّ تقديم القوت للحيوانات يعتبر عناية غير مجدية في عرف اللّامبالاة الذي يمّيز جنوب أوروبا؛ حتّى عدّة الفرَس تكون ممزّقة في أغلب الأوقات، وتُضاف إليها بعض الحبال، وعندما يستجمع الحوذيّ عنانه ويتمطّق بلسانه من أجل الانطلاق، يذهب الاعتقاد بالراكب إلى أنّ الخيول ستصاب بالدوار والعربة ستتبخّر مثل عربة سندريلا لدى عودتها من الحفلة بسبب حلول موعد منتصف اللّيل، رغم وصية الساحرة.

لكنْ لا شيء يحصل من ذلك، فالخيول تتصلّب عند قوائمها، وبعد بضعة ترنّحات تشرع في عدْوٍ لا تتوقّف عنه: يعديها الحوذيّ باحتدامه وتتمكّن فتيلة سوطه من قدح آخر شرارةٍ حياة مختبئة داخل تلك الهياكل العظمية. يكذُف الفرس، يحرّك رأسه، يتّخذ مظهراً يقظاً، تجحظ عيناه،

---

(1) مدينة إنجليزية على ساحل بحر المانش.

(2) روثيننته (أي الصّهباء) Rocinante هي فرس دونكيخوته في رواية ثربانتيش الشهيرة.

Twitter: @ketab_n

ويتوسّع منخراه، ثمّ ينطلق بسرعة لا يمكن لأسرع خيول الخبب الإنجليزية مجاراتها. كيف تحصل هذه الظاهرة، وما القوّة التي تجعل حيوانات ميتة تركض بتلك السرعة الكبيرة؟ هذا ما لن نفسّره. لا سيّما أنّ هذه المعجزة تحدث يومياً في نابولي ولا أحد يعبّر عن شعوره بالمفاجأة منها.

كانت عربة السيّد دابرومون تطير مخترقةً الجمهور الكثيف، محاذية دكاكين باعة العصير ذات عناقيد اللّيمون، ومطابخ المقالي أو المعكرونة في الهواء الطلق، ومعروضات أصداف البحر، وأكداس البطيخ الأحمر المرتّبة في الطريق العام مثل الكرات في باحات سلاح المدفعية. وكان الصعاليك المتمدّدون عند الجدران مرتدين معاطفهم القصيرة، لا يكادون يتنازلون بسحْب أرجلهم لتفادي إصابتهم بمرور العربة؛ وفي بعض الأحيان كانت عربة نقل من نوع الكوريكولو مسرعة بعجلتيها الكبيرتين القرمزيتين، محمّلة بحشد من الرهبان والمرضعات والحمّالين والمتسكّعين، تمرّ محاذيةً العربة فتلامس محورها وسط غيمة من الغبار والضجيج. لقد تمّ حظر الكوريكولات حاليّاً، وصار يُمنع صناعة عربات جديدة منها؛ لكنْ يمكن إضافة صندوق جديد إلى عجلات قديمة، أو عجلات جديدة إلى صندوق قديم: وسيلة حاذقة تسمح لتلك المركبات العجيبة بالاستمرار أكثر مع إرضاء محبّي اللّون المحلّيّ.

لم يكن مسافرنا يولي اهتماماً كبيراً لذلك المشهد المتحرّك والمثير والذي كان من شأنه أنْ يشغف سائحاً لم يجد في فندق روما رسالة باسمه، موقّعة باسم أليسيا. و.

كان ينظر بشرود إلى البحر الأزرق الصافي، حيث كانت تظهر، في ضوء لامع، ومتدرّجة في البعيد بلوينات حجر الجَمَشْت الكريم

Twitter: @ketab_n

والياقوت الأزرق، تلك الجزر الجميلة المنتشرة على شكل مروحة عند مدخل الخليج، كابري، إيسكيا، نيسيدا، بروتشيدا، والتي ترنّ أسماؤها المتناغمة مثل إيقاعات إغريقية، لكنّ روحه لم تكن هناك؛ كانت تطير ناحية سورانتي، نحو البيت الصغير الأبيض المختفي وراء الخضرة التي حكت عنها رسالة أليسيا. في تلك اللّحظة لم يكن يشوب وجه السيّد دابرومون ذلك التعبير الكريه بطريقة غير قابلة للوصف والذي يميّزه عندما لا يجمع فرح داخليّ حدوده المتنافرة في تناغم جديد: وجهه وسيم وجذّاب حقّاً، حتّى نستخدم كلمة عزيزة على قلوب الإيطاليّين؛ كان قوس حاجبيه مرتخياً؛ وزاويتا فمه لا تنخفضان بازدراء، بينما بريق ناعم يضيء عينيه الهادئتين؛ وهكذا كان من الممكن لدى رؤيته آنذاك، التوصّل إلى فهم دقيق، للمشاعر التي كانت تعنيها جمل تجمع الرقّة والسخرية، مكتوبة على ورق سكّري سميك. ذلك أنّ أصالته المدعومة بالكثير من التميّز لم تكن لتنفّر آنسةً شابّة، ربّاها عمّ عجوز متسامح جدّاً، على الطريقة الإنجليزية.

نظراً للسرعة التي كان الحوذيّ يدفع إليها حصانيه، كان من الممكن تجاوز كياجا ومارينيلا، وسارت العربة في الريف على تلك الطريق التي استُبدلت اليوم بسكّة حديدية. كان غبار أسود، يشبه الفحم المسحوق، يضفي مظهراً بركانيّاً على كلّ هذا الشاطئ الذي تغطّيه سماء متألّقة ويلحسه بحر لازورديّ رائع؛ سخام فيزوف المغربَل بالريح هو الذي يرشّ هذه الضفّة، ويجعل بيوت بورتيشي وتوري ديل غريكو تشبه مصانع برمنغهام. لم يهتم السيّد دابرومون البتّة بالتناقض بين أرض الأبنوس وسماء الياقوت الأزرق، فقد كان متلهفاً للوصول. فأجمل الدروب تصير طويلة عندما تكون المِسْ أليسيا تنتظرك في نهايتها، وكنتَ

Twitter: @ketab_n

قد قلتَ لها وداعاً قبل ستّة أشهر على مكسر أمواج فلكستون: هكذا تفقد سماء نابولي وبحرها سحرهما.

غادرت العربة الطريق، وسلكت درباً مختصراً، ثمّ توقّفت أمام باب متكوّن من عمودَي آجرّ مطليّين باللّون الأبيض، وفوقهما جِرار من الطين الأحمر، تتفتّح فيها أوراق الصبّار مثل شفرات من صفيح مدبّبة كالخناجر. وكان هناك حاجز شبَكيّ مدهون بالأخضر يستخدم للإغلاق. واستُبدلت الجدران بسياج من الصبّار، تشكّل نبتاته أكواعاً معوجّة تشبك أظلافها الشوكية بطريقة يتعذّر فصلها.

فوق السياج تعرض ثلاث أو أربع شجرات تين ضخمة، ضمن كتل كثيفة، أوراقها العريضة ذات اللّون المعدنيّ مع عنفوان نباتيّ يمّيز أفريقيا؛ وكانت صنوبرة كبيرة تؤرجح مظلّتها، فلا تكاد العين تتوصّل، عبر فرجات ذلك الإيراق الغزير، إلى تمييز واجهة البيت الملتمعة في لوحات بيضاء خلف ذلك الستار الكثيف.

هرعت خادمة سمراء، ذات شعر أجعد وكثيف إلى درجة أنّ المشط قد يتكسّر فيه، على ضجيج العربة، فتحت الحاجز الشبكيّ، وسبقت السيّد دابرومون في ممشى دفلى كانت أغصانها تداعب خدّه بأزهارها، واقتادته إلى الفيرندا[1] حيث كانت المِسْ أليسيا وارْد تحتسي الشاي برفقة عمّها.

كانت الآنسة أليسيا، بنزوة ملائمة جدّاً لفتاة ضجرت من كلّ الرفاهية والأناقة، وربّما من أجل معاكسة عمّها الذي تؤاخذه على ذوقه

---

(1) لم نجد دقّة في كلمة «شُرفة» بالعربية، التي تحيل على شرفة عالية ضمن طوابق، ولا في كلمة «مصطبة» التي تقترحها بعض القواميس، وهي ذات استخدام فضفاض في هذا السياق، لذا استخدمنا كلمة «فيرندا» وهي كلمة هندية من أصل برتغالي، وتشير، كما بات معتاداً، إلى شرفة أرضية أمام مدخل البيت أو في جهة أخرى منه.

Twitter: @ketab_n

البرجوازي أيضاً، قد فضّلت على المساكن المتحضّرة، هذه الفيلّا التي سافر أصحابها وظلّت بلا سكّان طيلة أعوام. وجدت في هذه البستان المهجور، والعائد تقريباً إلى حضن الطبيعة، شاعرية متوحّشة فتنتْها؛ ففي مناخ نابولي الحيويّ نما كلّ شيء بسرعة مدهشة. انطلقت أشجار البرتقال والآس والرمّان والليمون متنعّمةً، ولم تعد الأغصان تخشى مقصّ التشذيب فصارت تتصافح من بداية الممرّ إلى آخره، أو تتسرب بمؤانسة إلى الغرف عبر بعض ألواح الزجاج المهشّم. هناك لم تكن السيادة لكآبة البيت المهجور كما في بلدان الشمال، بل البهجة المجنونة والنزوة السعيدة لطبيعة الجنوب المتروكة في سبيل حالها؛ في غياب السيّد تنشرح النباتات المفرطة في حيويّتها بالمغالاة في الأوراق والأزهار والثمار والعطور؛ مستعيدةً المكان الذي ينافسها فيه الإنسان.

عندما شاهد الكومودوري[1] -هكذا كانت أليسيا تنادي عمّها بلا تكلّف- ذلك الدغل العصيّ عن النفاذ والذي لا يمكن التقدّم عبره إلّا بمساعدة سيفٍ للقطع، كما في الغابات الأمريكية، صاح صيحات عالية وادّعى بأنّ ابنة أخيه مجنونة لا محالة. غير أنّ أليسيا وعدته جادّةً بالعمل على فتح ممرّ من باب المدخل حتّى الصالون ومن الصالون حتّى مصطبة الفيرندا، يكون كافياً لمرور برميل مالفوازي[2] -وهو التنازل الوحيد الذي تستطيع تقديمه للعمّ المؤمن بالمذهب الوضعيّ[3]- استسلم

(1) رتبة عميد بحريّ. تعتبر عموماً أدنى من رتبة «الأميرال» في البحرية الملكية البريطانية والكندية والأسترالية. وقد استخدمها المؤلّف بالإيطاليّة: Comodore، شأنها شأن مفردات عديدة في النصّ.

(2) خمر يونانية عذبة المذاق من شبه جزيرة مالفوازي.

(3) فلسفة أوغست كونت Auguste Comte (1798–1857)، التي تقصر عنايتها على الظواهر والوقائع اليقينية وتهمل التفكير التجريديّ في الأسباب المطلقة.

Twitter: @ketab_n

الكومودوري، لأنّه لم يكن قادراً على مقاومة ابنة أخيه، وها هو في تلك اللّحظة يشرب قبالتها على الفيرندا جرعات صغيرة من طاس كبير مدعياً أنّها من الشاي، والحال أنّها من شراب الروم.

هذه الفيرندا التي أغوت الآنسة الشابّة بوجه خاصّ، كانت فعلاً في غاية الروعة، وتستحقّ وصفاً خاصاً، لأنّ بول دابرومون سوف يعود إليها مراراً، وينبغي رسم ديكور المشاهد التي نرويها.

يتمّ الصعود إلى تلك الفيرندا، وتُشرف جوانبها عموديّاً على درب ضيّق ومتعرّج، عبر درج ذي بلاط عريض ومنفرج تتنامى فيه أعشاب برية معمّرة. وهناك أربعة أعمدة خشنة، متأتّية من بعض الآثار القديمة وقد تمّ تعويض تيجانها الضائعة بمكعّبات صخرية، تسند عريشة عصيّ متشابكة مسقوفة بكرمة عنب. وثمّة حواجز تُنزل أغصان الكرمة البرية ونباتات الجدران في طبقات وأشرطة زخرفية. أسفل الجدران ينمو تين الهند[1]، والصّبر غير المثمر والقطلب[2] في فوضى جذّابة، وبعد غابة تهيمن فيها نخلة وثلاث صنوبرات إيطالية، يمتدّ البصر نحو تموّجات أراضٍ مزروعة ببيوت بيضاء، ويتوقّف عند الظلّ الضارب إلى البنفسجيّ لفيزوف، أو يضيع في رحابة البحر الزرقاء.

عندما لاح السيّد بول دابرومون في أعلى الدرج، نهضت أليسيا، وأطلقت صرخة فرح صغيرة وتقدّمت بضع خطوات لملاقاته. أمسك بول بيدها على الطريقة الإنجليزية، غير أنّ الفتاة رفعت تلك اليد السجينة إلى مستوى شفتَي صديقها بحركة مفعمة باللّطف الطفوليّ والغُنج البريء.

(1) المقصود الصبّار وهو إلى اليوم يُسمّى الهندي في بلدان المغرب العربي.

(2) القطلب شجرة من فصيلة الخلنجيات ثمارها تشبه الفراولة أو الفريز.

Twitter: @ketab_n

حاول الكومودوري الوقوف على رجليه المصابتين بقليل من النقرس، وتمكّن من ذلك بعد بضع تكشيرات ألم متناقضة بشكل فكاهيّ مع مظهر التهليل المبتهج على وجهه الكبير؛ تقدّم بخطوة واثقة بما فيه الكفاية بالنسبة له من ثنائي الشابّين الجميل، وشدّ يد بول بطريقة تكاد تسحق أصابعه، وهو ما يُعتبر أقصى تعبير عن المودّة البريطانية العتيقة.

تنتمي المِسْ أليسيا إلى ذلك الصنف من الإنجليزيات السمراوات اللّواتي يحقّقن مثلاً أعلى تبدو شروطه متناقضة، أَي: بشرة ذات بياض ناصع من شأنها أن تجعل الحليب والثلج والزنبق والجبس والشمع البكر، وكلّ ما يحتاجه الشعراء لإجراء تشبيهات بيضاء، أقول تجعلها تبدو صفراء؛ وشفتان بلون الكرز، وشعر بسواد اللّيل على جناحَي غراب. وتأثير هذا التعارض لا يقاوَم، وينشئ جمالاً فريداً من نوعه لا يمكن إيجاد ما يعادله عند امرأة أخرى. ربّما كانت بعض الشركسيّات ممّنْ تربّين منذ طفولتهنّ في السراي، يقدّمن مثل هذه السحنة الخارقة، لكنْ، يتوجّب علينا الاحتراز هنا من مبالغات الأشعار الشرقية وألوان لويس[1] المائية التي رسمتْ حريم القاهرة. كانت أليسيا بالتأكيد النموذج الأكثر اكتمالاً في هذا النوع من الجمال.

ذلك أنّ الشكل البيضويّ الممدّد لرأسها، وسحنتها ذات النضارة التي لا تقارن، وأنفها الدقيق، الرقيق، الشفيف، وعينيها بزرقتهما الداكنة المسجّفة برموش طويلة تختلج فوق خدّيها المتورّدين مثل فراشتين سوداوين عندما تسبل جفنيها، وشفتيها الملوّنتين بأرجوان فاقع، وشعرها المنهمر في التفافات لامعة مثل شرائط ساتان على جانبَي خدّيها،

(1) جون فردريك لويس John Frederick Lewis (1805–1876): رسّام استشراقيّ إنجليزي أقام في مصر عشر سنوات.

Twitter: @ketab_n

وجِيدها الذي يشبه عنق تَمّ، تشهد كلّها لصالح تلك الوجوه الرائعة لنساء ماكلايز[1] اللّائي بَدَوْنَ في المعرض العالميّ كأنّهنّ تضليل فاتن.

كانت أليسيا ترتدي فستاناً من حرير الدنتيلاّ مع دوائر كشكشة مطرّزة بسعفات حمراء متناسقة بشكل رائع مع ضفائر المرجان ذات الحُبَيبات التي تشكّل زينة رأسها، وعِقْدها وأساورها؛ وخمسة زخارف دائرية لؤلؤية معلّقة في فصّ مرجان مضلّع ترتجف في رَوْم[2] أذنيها الصغيرتين المرسومتين برقّة. وإذا استنكرتم هذه المبالغة في المرجان، تذكّروا أنّنا في نابولي، وأنّ البحّارة يخرجون متعمّدين إلى البحر كي يقدّموا لكم هذه الأغصان التي يضفي عليها الهواء لوناً أحمر.

ندين لكم، بعد وصف الآنسة أليسيا وارْد، حتّى من باب إبراز التناقض، على الأقلّ بوصف كاريكاتوريّ للكومودوري على طريقة هوغارت[3].

يتميّز الكومودوري، وهو يناهز الستّين عاماً، بخاصيّة امتلاكه وجهاً قرمزياً متّقداً على سويّة واحدة، في تناقض مع حاجبين أبيضين وعارضَين باللّون نفسه، مشذّبة كلّها بطريقة مضلّعة، ما يجعله شبيهاً بعجوز من الهنود الحمر وشَّم نفسه بالطباشير. وأضافت لفحات الشمس ذات العلاقة برحلة نابولي، بضع طبقات إلى ذلك اللّون المضطرم، ويذكّر الكومودوري رغماً عنه بقطعة من حلوى اللّوز كبيرة الحجم وملفوفة بالقطن. كان يرتدي من قدميه إلى رأسه سترة وصدريّة وسروالاً ولفافتَي ساقين، من وبر فيغونة[4] رماديّ يميل إلى لون الخمر، ولا شكّ

---

(1) دانيال ماكلايز Daniel Maclise (1806—1870): رسّام إيرلندي.

(2) شحمة الأذن.

(3) وليام هوغارت William Hogarth (1697—1764): رسّام ونحّات إنجليزي ساخر.

(4) حيوان اللاما.

Twitter: @ketab_n

أنّ الخياط أكّد له، مُقسماً بشرفه، بأنّه اللّون الأكثر دُرجة والأكثر طلباً، وربّما لم يكن يكذب في هذا المجال. فرغم تلك السحنة المحمرّة وذلك اللّباس المضحك لم يكن الكومودوري يمتلك البتّة مظهر عامّة الناس. فنظافته الصارمة، وزيّه الذي لا عيب فيه، وسلوكه المتكلّف، تدلّ كلّها على شخصيّة الجنتلمان، رغم تحلّيه بأكثر من صلة خارجية مع إنجليز الفودفيل[1] كما يحاكيهم ساخراً هوفمان أو لوفاسور[2]. فطبعه هو حبّ ابنة أخيه واحتساء الكثير من البورتو وروم جامايكا من أجل المحافظة على الرطوبة الناجعة، حسب طريقة العريف تريم[3].

«انظرْ كم أنا في صحّة جيّدة الآن وكم أنا جميلة! انظر إلى ألواني. لست مثل عمّي؛ هذا لن يحصل، وهو ما أتمنّاه. مع ذلك عندي لون ورديّ هنا، ورديّ حقيقيّ، قالت أليسيا وهي تمرّر على خدّها إصبعها الدقيقة التي تنتهي بظفر لامع مثل العقيق؛ لقد سمنت أيضاً، ولم أعد أعاني من تلك الفجوات البائسة وراء الترقوة والتي كانت تزعجني عندما أشارك في الحفلات الراقصة. قلْ لي، هل من المجدي أن تكون الأنثى غنجة إلى حدّ حرمان نفسها من الخطيب مدّة ثلاثة أشهر، حتّى يجدها بعد الغياب غضّة بهيّة!»

وأثناء إلقائها لهذه المقطع التمثيليّ بنبرتها المبتهجة الواثبة والمعتادة، وقفت أليسيا أمام بول كما لو كانت ترغب في إثارة معاينته لها وتحدّيها.

---

(1) المسرحية الهزلية الخفيفة (vaudeville) .

(2) هوفمان سبقت الإشارة إليه، وبيار لوفاسور Pierre Levassor ممثّل مسرح فرنسيّ (1808–1870).

(3) تلميح إلى رواية للإنجليزي لورنس ستيرن Laurence Sterne (1713–1768): «حياة ترسترام شاندي الجنتلمان وآراؤه» *The Life and Opinions of Tristram Shandy, Gentleman*.

Twitter: @ketab_n

«ألا ترى أنّها صارت قويّة الآن ورائعة مثل صبايا بروتشيدا اللّواتي يحملن جِراراً إغريقية على رؤوسهنّ؟

- هذا مؤكّد، يا كومودوري، أجاب بول؛ لم تصر الآنسة أليسيا أجمل، هذا مستحيل، لكنّها تُرى في صحّة أفضل ممّا كانت عندما أجبرتني، بدافع الغنج والدلال كما زعمتْ، على هذا الفراق الشاقّ».

وكانت نظرته قد توقفتْ بثبات غريب على الفتاة الواقفة أمامه.

فجأةً تلاشت تلك الألوان الورديّة من خدّي أليسيا التي كانت تتبجّح باكتسابها، مثلما تغادر حمرة المساء خدود ثلج الجبل مع توغّل الشمس في الأفق؛ وضعت يدها على قلبها مرتجفة؛ وتشنّج فمها الجميل الشاحب.

انتبه بول ووقف، وكذلك الكومودوري؛ عادت ألوان أليسيا إلى الظهور؛ كانت تبتسم بقليل من الإجهاد.

«لقد وعدتكما بكوب من الشاي أو الشراب المثلّج، ورغم كوني إنجليزية فأنا أنصحكما بالشراب المثلّج. الثلج أفضل من الماء الساخن، في هذا البلد المجاور لأفريقيا، حيث تأتي الريح الجنوبية الشرقية بشكل مباشر».

جلس الثلاثة حول المائدة الحجريّة، تحت سقف الكرمة؛ كانت الشمس قد غطست في البحر، وأعقب النهارَ الأصفرَ نهارٌ أزرق يسمّونه «ليلاً» في نابولي.

كان القمر يزرع قطعاً فضّية على الفيرندا، من خلال فرجات الأوراق؛ والبحر يهمس مثل قبلة، بينما تُسمع في البعيد رعشات دفّ يرافق الترنتيلاّ[1]...

كان لا بدّ من الافتراق؛ جاءت فيتشي، الخادمة المتوحّشة ذات الشعر

(1) رقصة شعبية إيطالية.

Twitter: @ketab_n

الأجعد، بفانوس كي تقود بول عبر متاهة البستان. كانت، أثناء تقديم الشراب والماء المثلّجين، قد ألقت على القادم الجديد نظرة تجمع بين الفضول والتخوّف. والأرجح أنّ النتيجة لم تكن في صالح بول، ذلك أنّ جبين فيتشي الذي كان مصفرّاً مثل سيجار، زاد اسمراراً، وأثناء مرافقتها للغريب كانت توجّه نحوه، من دون إثارة انتباهه، خنصرها والسبّابة، بينما التوت الإصبعان الأخريان تحت باطن الكفّ ليرافقا الإبهام كما لو كان ذلك من أجل تكوين علامة مُلغزة.

3

عاد صديق أليسيا إلى فندق روما عبر الدرب نفسه: كان جمال المساء لا يُضاهى؛ قمر صافٍ ولامع يسكب على الماء اللّازورديّ الشفّاف نثاراً طويلاً من شذرات الفضّة فيزيد الهسيس الدائم الناجم عن هدير الموج في درجة سطوعه. وفي عرض البحر كانت مراكب الصيّادين تحمل في مقدّمها فوانيس معدنية مملوءة بفتائل كتّان مشتعلة، فتخز البحر بنجوم حمراء وتترك وراءها خطوطَ نخرٍ قرمزية اللّون. تحوّل دخان فيزوف، الأبيض نهاراً، إلى عمود مضيء كان يرسل بدوره انعكاساته على الخليج. في تلك اللّحظة كان الشرم يقدّم ذلك المظهر الذي لا يُصدّق بالنسبة لعيون شمالية وقد عبّرتْ عنه تلك الألوان المائية الإيطالية المؤطّرة بالأسود، عندما كانت جدّ منتشرة منذ بضعة أعوام، كما كانت أكثر صدقاً ممّا يُعتقد أنّه مبالغة فجّة.

كان هناك بعض الصعاليك المسرنمين الذين ما زالوا يهيمون على الشاطئ، متأثّرين، من دون علم، بذلك المشهد السحريّ، ويلقون بعيونهم السوداء الواسعة في المدى الأزرق. وكان غيرهم من الجالسين

Twitter: @ketab_n

على حافة زورق جانح يغنّون نغم «لوتشيا» أو الرّومانس[1] الشعبية المنتشرة آنذاك: «أحبّك كثيراً» بصوت يمكن أن يحسدهم عليه الكثيرون من المنشدين الصادحين مقابل مائة ألف فرنك. تتأخّر نابولي في النوم، مثل سائر المدن الجنوبية؛ وفي تلك الأثناء تنطفئ أضواء النوافذ رويداً رويداً فيما تظلّ مكاتب اليانصيب وحدها مفتوحة مع شرائط زخرفتها الورقيّة الملوّنة، وأرقامها المفضّلة وإضاءتها المتلألئة، مستعدّة لاستلام أموال المراهنين ذوي النزوات التي تجعلهم يضعون بعض قطع الكزلان أو الدوكات[2] على رقم ميمون يمكنه أن يربح إثر عودتهم إلى بيوتهم.

دخل بول إلى فراشه، أنزل ستائر الناموسية الشاش، وسرعان ما استغرق في النوم. وكما يحدث للمسافرين بعد رحلة بحرية، بدا له فراشه، رغم ثباته، يهتزّ ويسير، كما لو أنّ فندق روما كان سفينة اللّيوبولد. هذا الانطباع جعله يحلم بأنّه لا يزال في عرض البحر ويرى، على الرصيف، أليسيا في منتهى الشحوب، بجانب عمّها القرمزيّ السحنة، وهي تشير إليه بيدها كي لا ينزل من الباخرة؛ وكان وجه الفتاة يعبّر عن ألم عميق، ويبدو إثناؤها له عن النزول كأنّه يستجيب إلى قدر قاهر.

هذا الحلم الذي يكثّف صوَراً حديثة العهد في حقيقة صارخة، أحزن النائم إلى درجة إيقاظه من النوم، فشعر بالسعادة لوجوده في غرفته حيث كان قنديل السهر يرتجف، بانعكاسات لبنيّة، مضيئاً مصباحاً صغيراً من الخزف يحاصره البعوض مرسلاً طنينه. ومن أجل عدم العودة إلى ذلك الحلم الشاقّ، قاوم بول النوم وبدأ يفكّر في بدايات علاقته مع الآنسة أليسيا، مستعيداً بالتدريج كلّ تلك المشاهد الفاتنة في صبيانيّتها والمميّزة

---

(1) الرومنس Romance : الأغنية العاطفية.

(2) نقد إيطالي قديم.

Twitter: @ketab_n

للحبّ الأوّل.

عاد إلى رؤية بيت القرميد الورديّ، المفروش بالنسرين وزهر العسل، والذي كانت تسكنه الآنسة أليسيا، في ريتشموند، مع عمّها، وهناك دخلَ كزائر، خلال رحلته الأولى إلى انجلترا، بواسطة إحدى رسائل التوصية التي يقتصر مفعولها عادةً على دعوة للعشاء. تذكّر فستان موسلين الهند الأبيض، المزركش بشريط بسيط، وكانت أليسيا التي غادرت المدرسة الداخلية بالأمس، ترتديه في ذلك اليوم، وفرع ياسمين يلتفّ حول شلّال شعرها مثل زهرة في تاج أوفيليا[1] وقد حملها تيّار الماء، وتذكّرَ عينيها بزرقتهما المخمليّة، وفمها المنفرج قليلاً كاشفاً لمحاً عن أسنان لؤلؤية صغيرة، وعنقها الواهي الذي كان يتمدّد مثل عنق طائر حذر، واحمرار خدّيها المفاجئ عندما تلتقي نظرة الجنتلمان الفرنسي الشابّ بنظرتها.

تكرّرتْ في دماغه، كما في محمض آلة تصوير، صورة ردهة الاستقبال ذات الخشب الأسمر وبُسُط القماش الأخضر، والمزيّنة بنقوش لمشاهد صيد ثعالب وسباق حواجز بألوان الزخرفة الإنجليزية الصارمة. كان البيانو يمدّ صفّ ملامسه الشبيهة بأسنان عجوز من الطبقة الرفيعة. والمدفأة المزخرفة بعسلوج من لبلاب إيرلندا تلمع بقبّتها المعدنية المصبوبة والمصقولة بالرصاص؛ وأرائك السنديان ذات القوائم الملتوية تفتح أذرعتها المزركشة بالجلد المدبوغ، والسجّادة تعرض زينتها، والآنسة أليسيا تغنّي، مرتجفةً مثل ورقة، بلطف وبصوت هو الأكثر نشازاً في العالم، أغنية «آنا بولينا»[2] العاطفية، «من دون رغبة في الإكراه»، وكان بول لا يقلّ تأثّراً عنها، ويتابعها بغير انسجام، بينما كان الكومودوري

(1) شخصيّة في مأساة «هاملت» *Hamlet* لشكسبير، خصّها آرتور رامبو بقصيدة شهيرة.

(2) «آنا بولينا» *Anna Bolena*: أوبرا للمؤلّف الموسيقيّ الإيطاليّ غايتانو دونيزيتّي Gaetano Donizetti (1797–1848)، ألّفها في العام 1831 وعُرضت في باريس في العام نفسه.

Twitter: @ketab_n

النائم بسبب هضم عسير واحمرار قرمزيّ أشدّ من المعتاد، يترك نسخة كبيرة من التايمز مع ملحقها تسقط على الأرض.

ثمّ تغيّر المشهد: بول وقد صار صديقاً أكثر حميميّة، يدعوه الكومودوري لقضاء بضعة أيّام في بيته الريفيّ الأنيق في لنكولنشاير... وهو قصر إقطاعيّ قديم ذو أبراج مسنّنة ونوافذ قوطية، نصفه مغطّى بشجرة لبلاب ضخمة، لكنّه مزوّد في الداخل بكلّ وسائل الرفاهة العصرية، ويرتفع في طرف مرج أخضر يحظى نجيله بعناية السقي والقصّ حتّى بات سويّاً مثل المخمل؛ وهناك ممرّ رمليّ أصفر يتكوّر حول الأرض المعشبة وتستخدمه الآنسة أليسيا كمضمار لترويض الخيل، حيث تمتطي أحد الخيول الإيرلندية القصيرة ذات العُرف الأشعث التي يهوى تصويرها السّير إدوارد لاندسير[1]، ويُكسبها نظرة تكاد تكون إنسانية. وكان بول على ظهر حصان كُمَيت، أسمر محمرّ بلون الكرز، أعاره إيّاه الكومودوري، يرافق المِسْ وارْد في جولتها الدائرية، ذلك أنّ الطبيب الذي وجدها واهنة الصدر نصحها بالتمارين.

في مرّة أخرى كان هناك قارب خفيف ينساب فوق المستنقع، محرّكاً زنابق الماء ومطيّراً طيور القاوند تحت أوراق الصفصاف الفضّية. كانت أليسيا هي التي تدفع القارب بالمجذاف بينما يمسك بول بالدفّة؛ كم كانت جميلة تحت الهالة الذهبيّة التي كانت ترسمها حول رأسها قبّعتها القشّية وقد اخترقها شعاع من الشمس! كانت تنقلب إلى الخلف كي تسحب المجذاف، بينما يضغط طرف جزمتها الرمادية الملمّعة على خشبة المقعد. لم يكن للآنسة وارْد تلك الأقدام الأندلسية القصيرة والمستديرة

(1) ليس في الحقيقة «إدوارد»، كما يسمّيه المؤلف، بل إدوين لاندسير Edwin Landseer (1802–1873)، الرسّام والنحّات البريطاني، المعروف بتصويره للحيوانات.

Twitter: @ketab_n

مثل المكواة، كما تُستحبّ في إسبانيا، بل كان عرقوبها رفيعاً، كما كان أعلى القدم مقوّساً بشكل جيّد، ولم يكن لنعال جزمتها، ولعلّها طويلة قليلاً، عرض إصبعين.

ظلّ الكومودوري مرتبطاً بالضفّة، ولم يكن ذلك لعظمته، بل لوزنه الذي كان من شأنه إغراق القارب الهشّ. كان ينتظر ابنة أخيه عند رصيف الميناء، ويضع على كتفيها معطفاً بعناية أمومية حتّى لا يصيبها البرد، وبعد ربط القارب إلى وتده، يعود الجميع لتناول العشاء في القصر. كان من الممتع رؤية أليسيا المعتادة على تناول الطعام بمقدار ضئيل يعادل ما يتناوله طائر، تنتزع بأسنانها اللّؤلؤية قطعة ورديّة من قديد يورك رقيقة مثل ورقة، وتقضم قطعة خبز صغيرة لا تترك منها بعض الفتات لأسماك الحوض الذهبيّة.

الأيّام السعيدة تمرّ في منتهى السرعة! ظلّ بول يؤجّل رحيله من أسبوع إلى آخر، وبدأت كتل الخضرة الجميلة في الأرض المعشبة تكتسي لوينات زعفرانية. وكان هناك بخار أبيض ينبثق من المستنقع. ورغم نشاط البستانيّ الذي لا يكلّ، كانت الأوراق الذابلة تنتثر على رمل الممشى؛ ملايين اللّآلئ الصغيرة المتجمّدة تلمع فوق الحشيش الأخضر للمرج، وفي المساء تُشاهد العقاعق تتقافز متنازعةً عبر الذرى الحليقة للأشجار.

كانت أليسيا تشحب تحت نظرة بول القلقة ولا تحافظ من ألوانها إلّا على بقعتين متورّدتين في أعلى الوجنتين. كثيراً ما تشعر بالبرد، ولا تتوصّل نار الفحم الأكثر اتّقاداً إلى تدفئتها. بدا الطبيب مهموماً، ونصّت آخر وصفة لأليسيا على ضرورة تمضية الشتاء في بيزه والربيع في نابولي.

كان هناك شؤون عائلية استدعت عودة بول إلى فرنسا. وكان الكومودوري وأليسيا على أهبة السفر إلى إيطاليا، وحصل الفراق في

Twitter: @ketab_n

فولكستون. لم يتمّ النطق بأيّة كلمة، غير أنّ الآنسة وارْد كانت تنظر إلى بول باعتباره خطيبها، وصافح الكومودوري يد الشابّ بطريقة معبّرة: لا يمكن الضغط على الأصابع بهذه الطريقة القويّة إلّا إذا كانت أصابع صهْر.

أما بول الذي أرجأ العودة ستّة أشهر، وكانت تعادل ستّة قرون بالنسبة لتلهّفه، فقد سعدَ برؤية أليسيا متعافية من وهَنها ومتألقة بالصحّة. واختفى ما تبقّى من علامات الطفولة لدى الفتاة الشابّة؛ وكان يفكر منتشياً بأنّ الكومودوري لن يجد أيّ سبب للاعتراض عندما يتقدّم هو لطلب يدها.

هدهدته هذه الصّوَر الجميلة فنام ولم يستيقظ إلّا مع طلوع النهار. بدأت نابولي تعلن عن صخبها؛ باعة الماء المبرّد يصيحون على بضاعتهم؛ وباعة الشواء يمدّون للعابرين قطع اللّحم المشكوكة في سفافيد طويلة؛ وربّات البيوت الكسولات ينحنين على نوافذهنّ ويُدلّين سلال التموين المربوطة بخيوط ثمّ يرفعنها مملوءة بالطماطم والأسماك وبقطع كبيرة من القرع. الكتّاب العموميّون بثيابهم السوداء الرثّة وبريَشهم خلف آذانهم، يجلسون في حوانيتهم الصغيرة؛ مبدّلو العملات ينضّدون على طاولاتهم الصغيرة أكداساً من عملات الغراني والكرلان والدوكات؛ الحوذيّون يدفعون خيولهم الضامرة باحثين عن الخدمات الصباحيّة، وأبراج الأجراس في كلّ الكنائس تقرع بجذلٍ الأنجيلوس(1).

اتّكأ مسافرنا على الشرفة، مرتدياً مبذله؛ من النافذة تلوح سانتا لوتشيا، وقلعة البيضة، وامتداد شاسع للبحر حتّى فيزوف والشناخ الأزرق للجبل المتوغّل في البحر حيث تبيضّ بيوت كاستيلاماري

(1) صلاة التبشير الملائكيّ.

Twitter: @ketab_n

الواسعة، وتبرز بيوت سورنتي من بعيد.

كانت السماء صافية؛ ولا تتقدّم فيها إلّا غيمة خفيفة بيضاء فوق المدينة، تدفعها نسمة رخيّة. حدّق بها بول بتلك النظرة الغريبة التي لاحظناها سابقاً، وتقطّب حاجباه. انضمّت أبخرة أخرى إلى الغيمة الوحيدة، وسرعان ما مدّت ستارة ثخينة من الغيوم طيّاتها السوداء فوق قلعة سان إيلمو. انهمرت قطرات كبيرة على البلاط الطفحيّ، وتحوّلت في دقائق قليلة إلى مطر من تلك الأمطار الطوفانية التي تملأ شوارع نابولي بالسيول وتجرّ معها الكلاب وحتّى الحمير إلى البالوعات. تشتّتتْ جموع الناس المباغَتة باحثة عن مخابئ؛ واضطرّت دكاكين البيع المنتشرة في الهواء الطلق إلى المغادرة السريعة فاقدةً بعض سِلعها الغذائية، وركض المطر، متسيّداً ساحة المعركة، في دِفعات بيضاء على رصيف سانتا لوتشيا المقفر.

كان الحمّال العملاق الذي لكمَه بادي لكمة قويّة يتّكئ على جدار تعلوه شرفة، فكان بروزها يحميه قليلاً، ولم يهرب مع الهاربين، بل كان ينظر بعين شديدة الانتباه إلى النافذة التي كان السيّد بول دابرومون قد استند إليها.

يتلخّص مونولوغه الداخليّ في هذه الجملة التي كرّرها شاتماً بطريقة ساخطة:

«كان قبطان اللّيوبولد سيحسن صنعاً لو أنّه ألقى بهذا الأجنبيّ إلى البحر» ؛ ومرّر يده عبر فتحة قميصه الكتّانيّ الفضفاض ليلمس صرّة التعاويذ المعلّقة بخيطٍ في رقبته.

Twitter: @ketab_n

4

لم يلبث الطقس أن عاد إلى التحسّن، وتولّى شعاعٌ حيّ من الشمس في بضع دقائق تجفيف آخر دموع المُزنة، وعاد الناس إلى التجمهُر البهيج على رصيف الميناء. لكنّ تِيمْبيرْيو، الحمّال، لم ينقطع عن اجترار فكرته بخصوص الشابّ الفرنسيّ، ونقل بحذرٍ كلّ أغراضه بعيداً عن نوافذ الفندق؛ حتّى إنّ بعض معارفه من الحمّالين عبّروا له عن اندهاشهم من استبداله محطّة رائعة بأخرى أقلّ قيمة.

«أُعطيها لمن يرغب فيها، أجاب وهو يهزّ رأسه بطريقة غامضة؛ يعرف المرء ما يعرف».

تناول بول فطوره في غرفته، فهو، إمّا بسبب الخجل أو خوفَ الازدراء، لا يحبّ الاختلاط بالناس. ارتدى ثيابه، ومن أجل انتظار الساعة المناسبة لزيارة مِسْ وارْد، زار متحف الستودي: أُعجب، بلامبالاة، بمجموعة الأصص الكامبانية[1]، وقِطع البرونز المنبوشة من حفريّات پومپَي، والخوذة البرونزية الإغريقية الصدئة التي ما زالت تحتفظ برأس الجنديّ الذي كان يعتمرها، وقطعة الطين المتيبّسة محافظةً، مثل القالب، على أثر صدر رائع لامرأة شابّة فاجأها هيجان البركان في منزل ريفي لآرّيوس ديوميديه[2]، وهرقل مجموعة فارنيزي بعضلاته الضخمة، وفيلّا الفلورا، والمينيرفا العتيقة، وبالبوس الأوّل والثاني، وتمثال أريستيد الرائع، ولعلّها أجمل قطعة تركها لنا التاريخ القديم. غير أنّ العاشق ليس شخصاً معنيّاً بتقدير الآثار الفنية القديمة؛ فوجْهُ الحبيبة مهما كان ملمحه أهمّ من كلّ

(1) كامبانيا Campania : أحد أقاليم جنوب إيطاليا، يطلّ على البحر المتوسط من ناحية الغرب، وعاصمته نابولي.

(2) انظر قصة آرّيا مارتشيلا في هذا الكتاب.

Twitter: @ketab_n

قطع الرخام الإغريقية أو الرومانية.

وبما أنّه توصّل إلى استنفاد ثلاث ساعات أو أربع في متحف الستودي كيفما كان، فقد انطلق في عربته وتوجّه إلى البيت الريفي الذي تقيم فيه الآنسة وارْد. عمد الحوذيّ، بذكاء الأهواء المميّز للطبائع الجنوبية، إلى دفع حصانيه الهزيلين بسرعة مفرطة، وسرعان ما توقّفت العربة أمام الأعمدة التي تعلوها أصص النباتات الكثيفة التي سبق لنا وصفها. جاءت الخادمة نفسها لتفتح الحاجز المشبّك قليلاً؛ وكان شعرها يلتفّ دائماً في خصلات متمرّدة؛ ولم تكن ترتدي، كما في المرّة الأولى، إلّا قميصاً من الكتّان الخشن مطرّزاً عند الكمّين والرقبة بزخارف ملوّنة، وتنوّرة داخلية من القماش السميك مخطّطة بالعرض، مثل تلك التي ترتديها نساء بروتشيدا؛ وكانت ساقاها، وينبغي الاعتراف، من دون جوربين، فكانت تطأ التراب بقدمين عاريتين كان نحّات سيُعجَب بهما أيّما إعجاب. كان هناك خيط أسود يحمل على صدرها رزمة من قطع حلي صغيرة ذات أشكال متفرّدة من عظم قرن أو من مرجان، وذلك ما ركّز عليه بول نظره، مع ارتياح ظاهر للخادمة فيتشي.

كانت الآنسة أليسيا على الفيرندا، مكانها المفضّل في البيت، على أرجوحة نوم هندية من القطن الأحمر والأبيض، مزيّنة بريش طيور، ومعلّقة إلى عمودين من الأعمدة التي تسند سقف الكرمة. كانت الفتاة تتأرجح بلامبالاة، مرتدية قميصَ حمّام خفيفاً من الحرير الصيني الخام، فكانت تدعك زينته ذات الثنْيات الأنبوبية بلا شفقة. وكانت قدماها اللّتان يظهر طرفاهما عبر زردات الأرجوحة، تنتعلان خفّين من ألياف نبات الألوة الشوكيّ، بينما تتشابك ذراعاها الجميلتان العاريتان فوق رأسها، على طريقة كليوباترا القديمة، إذْ رغم أنّ شهر أيّار كان لا يزال في

Twitter: @ketab_n

بدايته، كانت الحرارة مرتفعة جدّاً، وآلاف الزيزان تصرّ في جوقاتها تحت الأجمات المحاذية.

مرتدياً زيّ مزارع وجالساً على أريكة من الأسل، كان الكومودوري يهزّ حبل الأرجوحة بانتظام لتحريكها.

هناك شخص ثالث تكتّمل به المجموعة: إنّه الكونت آلتافيلّا، وهو شاب نابوليتاني أنيق، أدّى حضوره إلى اكتساب جبين بول ذلك التشنّج الذي يضفي على سحنته تعبيراً يدلّ على شراسة شيطانية.

كان الكونت حقّاً من صنف الرجال الذين لا يمكن رؤيتهم بارتياح قرب امرأة نحبّها. كان لقامته الطويلة نِسَب مثاليّة؛ بشعر أسود مثل السّبج، متكتّل في خصلات غزيرة، يرافق جبينه الصقيل والمنحوت جيّداً؛ وتلمع في عينيه شرارة من شمس نابولي، وتبدو أسنانه الكبيرة والقويّة، لكن الناصعة مثل اللّؤلؤ، ذات بريق أسطع بسبب الحمرة القانية في شفتيه واللّون الزيتونيّ لبشرته. والانتقاد الوحيد الذي يستطيع ذوق صارم أنْ يوجّهه إلى الكونت، هو أنّه مفرط في الجمال.

أمّا ثيابه فإنّ آلتافيلّا يطلبها من لندن، ولا يمكن لأكثر المتغندرين تشدّداً إلّا تزكية ذوقه. لا يوجد شيء إيطالي في ما يرتديه إلّا أزرار قميصه ذات السعر العالي. وهنا يتّضح الذوق الطبيعيّ لابن الجنوب في مجال الحلي. ربّما لأنّه من الممكن أيضاً، وفي غير نابولي، ملاحظة التعلّق الرديء بحزمة عروق مرجان متشعّب، أو بأيادٍ من حمم بركان فيزوف ذات أصابع مطويّة أو تشهر خنجراً، وكلاب مقعية على قوائمها، وقرون بيضاء وسوداء، وغير ذلك من الأشياء البسيطة المماثلة والتي تعلّق بحلقة في سلسلة الساعة. غير أنّ جولة في شارع توليدو أو في البالاتسو ريالي تكفي للبرهنة على أنّ الكونت لا يتّصف بأيّ غرابة في الأطوار عندما

Twitter: @ketab_n

يحمل على صدريّته مثل سلاسل الحلي العجيبة تلك.

عندما وصل بول دابرومون، كان الكونت، بإلحاح من المِسْ وارْد، يغنّي إحدى أغاني الطرب النابوليتانية العذبة، والتي تكون بلا مؤلّف معروف، وتكفي واحدة منها يلتقطها موسيقار لتحقق ثروة أوبرالية. وللّذين لم يستمعوا إليها، على ضفّة شياجا أو على رصيف الميناء، من فم حمّال، أو صيّاد، أو فتاة لقيطة، يمكن أن يكوّنوا فكرة عنها من خلال الأغاني العاطفية الفاتنة التي يؤديها غورديجاني[1]. يحدث ذلك من آهة نسمة، من شعاع قمر، من عطر شجرة برتقال، ومن خفقة قلب.

كانت أليسيا، بصوتها الإنجليزي الجميل مع بعض النشاز، تصغي بانتباه إلى المقطع الذي كانت تريد أن تحفظه، وألقت، وهي تتابع ذلك، بإشارة وديّة إلى بول الذي كان ينظر إليها بهيئة قليلة الودّ، وقد استاء لوجود ذلك الشابّ الجميل.

تمزّق حبلٌ من الأرجوحة، وسقطت المِسْ وارْد أرضاً، من دون ضرر؛ أسرعتْ نحوها ستُّ أيدٍ متزامنة. كانت الفتاة قد نهضتْ متورّدة خجلاً، ذلك أنّه من غير اللّائق[2] السقوط أمام رجال. ومع ذلك لم تتأثّر بالسقوط طيّة واحدة في فستانها الطاهر.

«هذا رغم أنّني جرّبتُ هذه الحبال بنفسي، قال الكومودوري، والآنسة وارْد لا تزن أكثر من الطائر الطنّان».

هزّ الكونت برأسه بطريقة غريبة: كان في قرارة نفسه يفسّر انقطاع الحبل طبعاً بسبب آخر مختلف تماماً وليس بسبب الجاذبية؛ لكنّه حافظ على الصمت بوصفه رجلاً حسن التربية، واكتفى بتحريك عنقود سلسلة

---

(1) لويجي غورديجاني Luigi Gordigiani (1806–1860) موسيقار إيطالي، لُقّب، بـ «شوبيرت إيطاليا».

(2) بالإنجليزية في النصّ الفرنسي: improper.

Twitter: @ketab_n

الحلي في صدريّته.

ومثل كلّ الرجال الذين يصيرون عبوسين وقساة لدى وجودهم أمام منافس يخشونه، وبدل إظهار مزيد من اللّطف والودّ، لم يتمكّن بول دابرومون، رغم خبرته في مخالطة أناس المجتمع، من إخفاء مزاجه السيّيء؛ لم يعد يجيب إلّا بكلمات من مقطع واحد، ثمّ تخلّى عن النقاش، وأثناء توجّهه نحو آلتافيلّا، كانت عيناه تتّخذان تعبيرهما المخيف؛ فكانت اللُّيَيفات الصفر تتلوّى تحت الشفافية الرمادية لبؤبؤيه مثل ثعابين ماء في قاع نبع.

وكلّما نظر بول بهذه الطريقة، عمدَ الكونت، وبحركة آليّة ظاهرياً، إلى اقتلاع زهرة من حوض زهور قريب منه، ويلقي بها بطريقة تقطع تضوّع نظرة الغرام الساخطة.

«ماذا حلّ بك حتّى تخرّب حوض زهوري بهذه الطريقة؟ صاحت مِسْ أليسيا وارْد وقد انتبهت إلى المناورة الجارية. ما الذي فعلته لك زهوري حتّى تقطع رؤوسها؟

- أوه! لا شيء، يا مِس؛ إنّها عادة لا إراديّة، أجاب آلتافيلّا، وهو يقصّ بظفره وردة رائعة ويُلحقها بالأخريات.

- أنت تزعجني بشكل فظيع، قالت أليسيا؛ وتجرح إحساسي في واحد من ميولي القويّة من دون أن تشعر. لم يسبق لي أنْ قطفتُ زهرة مطلقاً. والباقة توحي لي بنوع من الرعب: إنّها زهور ميتة، جثث ورود، مثل رعي الحمام أو القضاب[1]، ذات العطر الذي أعتبره يوحي بالقبر.

(1) رعي الحمام: نباتات برية وتزيينية من فصيلة الساجيات؛ عطرية وعديدة الأنواع. والقضاب أو العناقية: زهرة من الفصيلة الدفلية.

Twitter: @ketab_n

– من أجل التكفير عن جرائم القتل التي ارتكبتُها للتوّ، قال الكونت آلتافيلّا منحنياً، سوف أرسل لك مائة سلّة ملآى بزهور حية».

نهض بول، وكان يلوي حافة قبّعته، بهيئة المرغم، كما لو كان يوقّت لخروجه.

«ماذا! ستغادر الآن؟ قالت المِسْ وارْد.

– لديّ بعض الرسائل التي تتوجّب عليّ كتابتها، رسائل مهمّة.

– أوه! يا للكلمة الشنيعة التي نطقتَ بها للتوّ! قالت الفتاة مع مطّ شفتيها قليلاً؛ وهل توجد رسائل مهمّة إنْ لم تكن موجّهة إليّ أنا؟

– عليكَ البقاء إذن، قال الكومودوري، لقد أعددتُ في رأسي خطّة لسهرة، بشرط موافقة ابنة أخي: نذهب أوّلاً لشرب كأس ماء من نبع سانتا لوتشيا الذي له رائحة بيض فاسد لكنّه يفتح الشهيّة؛ ونأكل دزينة أو دزينتين من المحار، الأبيض والأحمر، في المشمكة، ونتعشّى تحت دالية في إحدى الحانات النابوليتانية العريقة، ونحتسي بعض كؤوس الفاليرنو واللّاكريما-كريستي، وننهي التسلية بزيارة إلى السيّد بولتشينلا. ومن شأن الكونت أنْ يفسّر لنا دقائق اللّهجة».

هذه الخطّة بدت غير مقنعة كثيراً بالنسبة للسيّد دابرومون، وهكذا انسحب بعد أنْ سلّم ببرود.

مكث آلتافيلّا بضع لحظات أخرى؛ ونظراً لكون مِسْ وارْد، الغاضبة من ذهاب بول، لم تشارك في فكرة الكومودوري، فقد استأذن وانصرف.

بعد ساعتين استلمت الآنسة أليسيا عدداً مهولاً من أصص الزهور، ومن أندرها، وما فاجأها أكثر تمثّل في قرنين ضخمين لثور صقلّي، شفافين مثل اليَشْب، صقيلَين مثل العقيق، ويمكن تقدير طولهما بثلاث أقدام، وينتهيان بحدّين أسودين مهدَّدَين. وتوجد قاعدة جميلة من البرونز

Twitter: @ketab_n

المذهّب تسمح بوضع القرنين، والحدّان إلى أعلى، فوق مدفأة أو منضدة مزخرفة أو إفريز.

لاحت فيتشي، التي ساعدت الحمّالين في إفراغ الزهور والقرنين، مدركةً أبعاد هذه الهديّة الغريبة.

وضعت ببروز، على مائدة حجريّة، الهلالين الرائعين اللّذين يمكن للمرء الاعتقاد بأنّهما اقتُلِعا من جبهة الثور الإلهيّ الذي كان يحمل الفاتنة أوروبا، وقالت: «ها إنّنا الآن في حالة دفاع جيّدة.

- ماذا تعنين بقولك هذا، يا فيتشي؟ سألتها المِسْ وارْد.

- لا شيء... ما عدا كون السيّد الفرنسيّ يمتلك عينين غريبتين جدّاً».

5

مرّ وقت الأكل منذ وقت طويل، وكانت نيران الفحم التي تحوّل مطبخ فندق روما خلال النهار إلى فوهة فيزوف، تنطفئ في جمرها ببطء تحت مخامد الصفيح. أعيدت الطناجر إلى مواضعها في مساميرها الخاصة بها، وبدأت تلمع مصطفّة مثل دروع في مركب روماني قديم ذي ثلاثة صفوف من المقاذيف. كان مصباح نحاسيّ أصفر يشبه تلك التي يتمّ العثور عليها في حفريات پومپي ومعلّق بسلسلة ثلاثية إلى عارضة السقف الرئيسيّة، يضيء بفتائله الثلاث الغاطسة في الزيت كيفما اتّفق، مركز المطبخ الواسع فيما تبقى زواياه مغمورة بالظلام.

كانت الأشعّة المضيئة النازلة من أعلى تُقولِب، من خلال حركة أضواء وظلال جذّابة جدّاً، مجموعة وجوه متميّزة تجتمع حول مائدة الخشب السميكة، المجرّحة والمحزّزة بضربات ساطور، والتي تتوسط هذه القاعة الكبيرة التي صقل دخان الطبخ جدرانها الداكنة والبراقة العزيزة

Twitter: @ketab_n

على قلوب رسّامي مدرسة كارافاجو[1]. ولا شكّ أنّ السبانيوليتو[2] أو سلفاتور روزا[3]، في تعلّقهما القويّ بالواقع، لم يكن من شأنهما ازدراء النماذج المجتمعة هنا بحكم المصادفة، أو بدقّة أكثر، بحكم عادة مسائية.

هناك أوّلاً الطاهي الأوّل فيرجيليو فالساكابا، وهو شخصيّة مهمّة جدّاً، يتميّز بقامة عملاقة وامتلاء باهر، وكان يمكنه أنْ يلوح أحد مؤاكلي الامبراطور فيتليوس، لو أنّه ارتدى، بدل سترة نسيج البازان القطنيّ، لباساً رومانياً فضفاضاً مطرّزاً بالأرجوان: تشكّل ملامحه البارزة بشكل مدهش ما يشبه نوعاً من الكاريكاتور الجادّ لبعض الشخوص في الأوسمة القديمة؛ حاجبان أسودان كثيفان، وبارزان بمقدار بوصتين، يتوّجان عينيه المفصّلتين مثل عيون أقنعة المسرح؛ أنف ضخم يلقي بظلّه على فم واسع يبدو كأنّه مجهّز بثلاثة صفوف من الأسنان مثل شدق سمك القرش؛ غبب قويّ يشبه غبب ثور فارنيزي[4] يوحّد الذقن المدموغ بغمازة يمكن للمرء حشر قبضته فيها، ورقبة ذات قوّة رياضية، تملؤها العروق والعضلات. خصلتان على الصدغين يمكن لكلّ واحدة منهما أن تزوّد

(1) كارافاجو Caravaggio (1571–1610): رسّام إيطالي، عمل على إضفاء جوٍ دراميّ على مشاهد لوحاته الواقعية، من خلال لجوئه إلى استغلال حركة الضوء والظلال. كان له تأثير كبير على فنّانين جاؤوا بعده، وأُطلق اسمه على مدرسة فنية شملت كامل أوروبا.

(2) خوسيه ده ريبيرا José de Ribera (1591–1652): رسّام ونحّات إسباني هاجر إلى إيطاليا منذ صباه، وأصبح أحد أهمّ ممثّلي مدرسة نابولي في الرّسم. لقّبه الطليان بالسبانيوليتو Lo Spagnoletto («الإسبانيّ الصغير») لقصر قامته.

(3) سلفاتور روزا Salvator Rosa (1615–1673): شاعر وممثّل وموسيقار ونحّات ورسّام إيطالي.

(4) الغبب أو الغبغب لحم يتدلّى تحت الحنك. وثور فارنيزي اسم يطلق على مجموعة منحوتات تضمّ ثوراً قويّاً، وجدت في حمّامات كراكلّا Caracalla في روما سنة 1546. أمّا الاسم فارنيزي Farnese فهو اسم الكاردينال الذي يقف وراء الحفريّات التي قيم بها في المكان لدى الشروع ببناء قصره فيه.

Twitter: @ketab_n

شخصاً بلحية معقولة، تؤطّران ذلك الوجه الواسع الملفوح بألوان عنيفة: شعر أسود متموّج ولامع تخالطه بعض الشعرات الفضّية، يتلوّى فوق جمجمته في خصلات صغيرة وقصيرة، عنقه المثنيّة بثلاث كتل عرضانية تفيض عن ياقة سترته؛ عند شحمتي أذنيه المرفوعتين بالنتوءات العظمية للفكّين القادرين على سحق عِجل في يوم واحد، تلمع حلقات فضّية كبيرة في حجم قرص القمر؛ هكذا كان كبير الطهاة فيرجيليو فالساكابا، الذي تجعله فوطته المشمّرة عند الخصر وسكّينه المغروزة في غمد من خشب، أقرب إلى مقدّم أضاحٍ منه إلى طبّاخ.

بعده يظهر تيمبيريو الحمّال، الذي يظلّ في حالة هزال نسبيّ بسبب رياضته المهنيّة وتقشّفه في الأكل الذي لا يتمثّل إلّا في حفنة معكرونة شبْه نيئة مرشوشة بالكاتشوكافالّو[1] وقطعة بطّيخ أحمر وكأس ماء بالثلج. ولو تغذّى جيّداً لبلغ بالتأكيد بدانة فالساكابا، لا سيّما أنّ بِنْيته الجسدية تبدو منذورة لتحمّل وزن هائل من اللّحم. لا يمتلك من الثياب إلّا سروالاً قصيراً، وصدريّة طويلة من القماش الأسمر، ومعطفاً خشناً مرمياً على كتفيه.

يتّكئ سكاتسيغا، حوذيّ عربة الأجرة التي يستخدمها السيّد بول دابرومون، على الطاولة، وهو بدوره يظهر هيئة مدهشة؛ فقسماته غير المتناسقة واللّطيفة تتأتّى من حيلة ساذجة؛ ابتسامة متكلّفة تائهة على شفتين ساخرتين، ومن خلال دماثة سلوكه يمكن استنتاج أنّه يعايش الناس اللّائقين دائماً؛ وثيابه المبتاعة من سوق الألبسة المستعملة تحاكي بدلة خدم موحّدة لا ينسى التفاخر بها، وفي رأيه أنّها تضع مسافة إجتماعية

(1) الكاتشوكافالّو cacio-cavallo : نوع من الأجبان ممدودة التخثّر تصنع من حليب الأغنام أو البقر. يتمّ إنتاجها في جميع أنحاء جنوب إيطاليا، وخاصّة في جبال الأبينيني. تكون على شكل دمعة أو إجاصة مع قشرة صلبة صالحة للأكل.

Twitter: @ketab_n

كبيرة بينه والمتوحّش تيمبيريو؛ كلّ حواراته مرصّعة بكلمات إنجليزية وفرنسية لا تتطابق دائماً مع ما يريد قوله، غير أنّها تُفلح مع ذلك في إثارة إعجاب بنات المطبخ ومساعدي الطبّاخ، المسحورين بعلومه الواسعة.

إلى الوراء قليلاً تقف خادمتان شابّتان تذكّر ملامحهنّ، ربّما مع نبالة أقلّ، بذلك الطراز المعروف كثيراً في قطَع نقد سيراكوزا: جبين منخفض، أنف مندمج في الجبين بلا مرونة، شفتان غليظتان قليلاً، ذقن متضخّمة وقويّة؛ شرائط شعر ذات لون أسود مزرقّ تتّصل ببعضها البعض خلف رؤوسهنّ في كعكة ثقيلة تخترقها إبر منتهية برؤوس مرجانية؛ قلائد من ثلاثة صفوف، ومن المادّة نفسها تطوّق أعناقهنّ الشبيهة بأعناق تماثيل كاريتاتيد[1]، لأنّ عضلاتها ازدادت قوّة نتيجة حمل الأثقال على رؤوسهنّ. ولا شكّ أنّ متأنّقين من طراز الداندي من شأنهم احتقار أولئك الفتيات المسكينات اللّواتي يحافظن على دم السلالات العريقة في اليونان الكبرى[2]، بعيداً عن الامتزاج؛ بينما لو تمكّن أيّ فنّان من رؤيتهنّ لأخرج دفتر تخطيطاته وبرى قلمه.

هل سبقتْ لك زيارة بهو الماريشال سُولتْ ورؤية لوحة موريّو التي تمثّل ملائكة منهمكين في الطبخ؟[3] إذا كنت قد رأيتها فهذا يعفينا هنا من رسم رؤوس مساعدي الطبّاخ الثلاثة أو الأربعة، بشعرهم الأجعد

---

(1) الكارياتيد Cariatide : عمود جُعِل تمثالاً، يصوّر في أغلب الأحيان امرأة تبدو كأنّها تحمل على رأسها ذلك الجانب من المبنى الذي يعلوها.

(2) اليونان الكبرى: اسم أطلق على المناطق الساحلية في جنوب إيطاليا في خليج تارانتو بعد أنْ استوطنها الإغريق على نطاق واسع.

(3) اللّوحة تعرف باسم «مطبخ الملائكة»، وهي للرسّام الإسبانيّ موريّو Murillo (1618-1682). وتصوّر جذل راهب، عُدّ قدّيساً فيما بعد، لعلّه فرانثيسكو ديرّاكيو Francisco Dirraquio، وهو يتأمّل ذاهلاً الملائكة يهيّئون الطعام. وقد اقتناها متحف اللوفر سنة 1858.

Twitter: @ketab_n

المموّج، والذين يكمّلون المجموعة.

كان الاجتماع المريب يخوض في مسألة خطيرة. إنّها تتعلّق بالسيّد بول دابرومون، المسافر الفرنسي الذي وصل على متن السفينة البخارية في رحلتها الأخيرة: والمطبخ ينكبّ الآن على محاكمة الجناح الذي شغله الضيف.

كانت الكلمة لتيمبيريو الحمّال، وكان يتوقّف بعد النطق بكلّ جملة، مثل ممثّل رائج الصيت، حتّى يترك لسامعيه وقتاً كافياً لفهم كلّ مراميها، ويبدي موافقته أو يعلن اعتراضاته.

«تابعوا جيّداً تحليلي، قال الخطيب؛ اللّيوبولد سفينة بخاريّة توسكانية شريفة، وما من اعتراض عليها، باستثناء إفراطها في نقل هراطقة إنجليز...

- الهراقطة الإنجليز يدفعون جيّداً، قاطعه سكاتسيغا الذي بات أكثر تسامحاً بفضل البقشيش.

- ربّما! ذلك أقلّ ما يفعله الهرطوقيّ عندما يستخدم مسيحيّاً، إنّه يكافئه بسخاء حتّى ينقص من خزيه.

- لا أشعر بأيّ خزي في نقل أجنبيّ داخل مركبتي؛ أنا لا أمارس مثلك مهنة دابّة تُركَب، يا تيمبيريو.

- ألستُ معمّداً مثلك؟ ردّ الحمّال مقطّباً حاجبيه ومغلقاً قبضتيه.

- دعْ تيمبيريو يتكلّم، صاح الجميع بصوت واحد، خشيةً منهم من أنْ يتحوّل هذه المبحث المهمّ إلى خصومة.

- أنتم توافقونني الرأي، تابع الخطيب الذي استعاد هدوءه، أنّ الطقس كان رائعاً عندما دخلت اللّيوبولد إلى الميناء؟

- نوافقك على ذلك، يا تيمبيريو، قال كبير الطبّاخين مع مهابة

Twitter: @ketab_n

متسامحة.

- كان البحر صقيلاً مثل مرآة، تابع الحمّال، ومع ذلك هزّت موجة هائلة زورق جنّارو بقوّة حتّى إنّه وقع في الماء مع اثنين أو ثلاثة من أصدقائه. هل هذا طبيعيّ؟ مع العلم أنّ جنّارو ثابت القدم في البحر، ومن شأنه تأدية رقصة الترنْتيلا من دون ميزان فوق عارضة الصاري.

- لعلّه احتسى قنينة من الآسبرينو زيادة عن حاجته، اعترض سكاتسيغا، عقلانيّ المجلس.

- ولا حتّى كأس عصير ليمون، تابع تيمبيريو؛ لكنْ، كان يوجد على متن السفينة البخارية سيّد ينظر إليه بطريقة معيّنة، أنتم تفهمونني!

- أوه! تماماً، أجابت المجموعة في جوقة واحدة مع مدّ جماعيّ مدهش للسبّابة والخنصر.

- وذلك السيد، قال تيمبيريو، لم يكن سوى السيّد دابرومون.

- ذاك الذي يسكن في الرقم ٣، سأل كبير الطهاة، والذي أُرسِلُ إليه عشاءه في طبق؟

_ بالضبط، أجابت أصغر الخادمات وأجملهنّ؛ لم تسبق لي رؤية مسافر أوحش منه ولا أقبح ولا أحقر؛ لم يوجّه لي نظرة واحدة ولا حتّى كلمة، مع أنّني أستحقّ الثناء، كما يقول لي كلّ السادة.

- أنتِ تستحقّين أكثر من ذلك، يا جميلتي جَلْسومينا، قال تيمبيريو متلطّفاً؛ لكنْ عليك أنْ تشعري بالسعادة لأنّ ذلك الأجنبيّ لم يلاحظ وجودك.

- أنت تبالغ في التطيّر، اعترض المتشكّك سكاتسيغا الذي جعلته

Twitter: @ketab_n

علاقاته بالأجانب فولتيرياً[1] نوعاً ما.

- من فرط ما تخالط الهراطقة سوف ينتهي بك الحال حتّى إلى الكفّ عن الإيمان بالقدّيس جنّايو[2].

- إذا كان جنّارو قد سقط في البحر، فذلك لا يبرّر، تابع سكاتسيغا مدافعاً عن علاقاته، أنْ يكون للسيّد دابرومون ذلك التأثير الذي تنسبه إليه.

- تحتاج إلى براهين أخرى؟: هذا الصباح رأيته في النافذة، عيناه تحدّقان في غيمة لم تكن أكبر من ريشة فالتة من مخدّة مفتّقة، وسرعان ما تجمّعت أبخرة سوداء، وهطلت أمطار كانت من القوّة التي تمكّن الكلاب من الشرب واقفة».

لم يقتنع سكاتسيغا وظلّ يهزّ برأسه متشكّكاً.

«زدْ على ذلك أنّ ساعيَه ليس أفضل من سيّده، تابع تيمبيريو، ولا بدّ أنْ يكون ذلك القرد المنتعل حذاء ذا علاقة بالشيطان حتّى يتمكّن من طرحي أرضاً، أنا الذي كنتُ قادراً على قتله بمجرّد نقرة من الإصبع الوسطى.

- أنا أوافق تيمبيريو، قال رئيس المطبخ بنبرة مهيبة؛ الأجنبيّ يأكل قليلاً؛ لقد أعاد الكوسة المحشوّة والدجاج المقليّ والمعكرونة بالطماطم مع أني أعددتها بيدي أنا! هناك سرّ ما غريب يختفي وراء هذا الزهد في الأكل. لماذا يحرم رجل غنيّ نفسَه من وجبات لذيذة ولا يتناول إلّا حساء بالبيض وقطعة لحم بارد؟

- شعره أصهب، قالت جلسومينا وهي تمرّر أصابعها في غابة شعرها

(1) نسبة إلى الفرنسي فولتير وفلسفته العقلانية التي يسخر فيها من المتطيّرين.

(2) القدّيس جنّايو Santo Gennaio، الذي يعتبره أهل نابولي شفيعهم.

Twitter: @ketab_n

السوداء.

- وعيناه جاحظتان قليلاً، تابعت الخادمة الأخرى بيبينا.
- وقريبتان جدّاً من الأنف، قال تيمبيريو مسانداً.
- والجَعْدة التي تتكوّن ما بين حاجبيه تتجوّف مثل حدوة حصان، قال فرجيليو المدهش مُكملاً التحقيق؛ إذن فهو...
- لا تنطق بالكلمة، لا جدوى من ذلك، صاحت الجوقة ما عدا سكاتسيغا، الذي ظلّ غير مصدّق؛ سوف نبقى على حذر.
- لولا إزعاج الشرطة، قال تيمبيريو، لتركتُ صندوقاً يزن ثلاثمائة ليبرة يسقط صدفة على رأس ذلك الأجنبيّ المشؤوم!
- سكاتسيغا مقدام لقدرته على توصيله، قالت جلسومينا.
- أنا أجلس على مقعدي، وهو لا يرى سوى ظهري، ولا تستطيع عيناه تشكيل الزاوية المطلوبة. زدْ على ذلك أنّ أمره لا يهمني.
- أنت لا تتحلّى بديانة، يا سكاتسيغا، قال بالفوريو، الطبّاخ العملاق صاحب بنية هرقل الجسدية؛ سوف تكون نهايتك سيئة».

وأثناء البحث في شأنه بطريقة النميمة في مطبخ فندق روما، كان بول الذي أفسد مزاجه حضور الكونت آلتافيلّا في بيت الآنسة وارْد، قد ذهب للنزهة عند البالاتسو ريالي. وفي أكثر من مرّة تجوّفت تجعيدة جبينه، واتّخذت عيناه نظرتهما الثابتة. ذهب به الظنّ إلى أنّه رأى أليسيا تمرّ في عربة خيل برفقة الكونت والكومودوري، فأسرع نحو البوّابة واضعاً نظّارته الأنفية ليتأكّد من أنّه ليس مخطئاً: كلّا، لم تكن أليسيا، بل امرأة تشبهها قليلاً. غير أنّ فرسَي العربة ارتعبا من حركة بول المباغتة وجَفَلا.

تناول بول قطعة مرطّبات مثلّجة في مقهى أوروبا عند ساحة القصر: تفحّصه بعض الأشخاص بانتباه، وغيّروا أمكنتهم مؤدين إشارة فريدة

Twitter: @ketab_n

من نوعها.

دخل إلى مسرح بولتشينيلا، حيث كان يُقدّم عرض مضحك. ارتبك الممثّل أثناء ارتجاله الهزليّ وأُرتِج عليه؛ لكنّه استعاد دوره بعد ذلك؛ غير أن أنفه الكرتونيّ الأسود انفصل إثر قفشة هزلية، ولم يتمكّن من إعادته، وبإشارة سريعة أراد منها الاعتذار، فسّر سبب الحادثة المزعجة بنظرة بول المحدّقة فيه والتي كانت تجرّده من كلّ قدراته.

انسحب النظّارة المجاورون لبول واحداً تلو الآخر. وقف السيّد دابرومون للخروج غيرَ مدركٍ مدى التأثير الغريب الذي كان يتسبّب فيه، وفي الممرّ كان يسمع همسات تنطق بهذه الكلمة الغريبة والخالية من المعنى بالنسبة له: «جتّاتوري! جتّاتوري!».

6

غداة إرسال القرنين، قام الكونت آلتافيلّا بزيارة للآنسة وارْد. كانت الشابّة الإنجليزية تحتسي الشاي برفقة عمّها، تماماً كما لو أنّها كانت في رامسغيت في بيت آجرّ أصفر، وليس في نابولي في فيرندا مطليّة بالجير ومحاطة بالصبّاريات. فمن العلامات المميّزة للسكسون المثابَرة في عاداتهم، مهما تكن متناقضة والبيئةَ الجديدة. كان الكومودوري يتهلّل فرحاً: فبواسطة قطَع ثلجية مصنوعة كيمياوياً بآلة، إذْ لا يتمّ الاكتفاء بثلوج الجبال التي ترتفع وراء كستلاّماري، توصّل إلى المحافظة على زبدته في حالة متصلّبة، وكان يضع طبقة منها بارتياح واضح على قطعة خبز مقطّعة بطريقة السندويتش.

بعد تلك الكلمات الفضفاضة التي تسبق أيّ حوار وتشبه الدوزنة التي يختبر بها عازف البيانو لوحته قبل بدء العزف، خاطبت أليسيا،

Twitter: @ketab_n

وكانت تخرج للتوّ من بيت الراحة، الكونت النابوليتاني الشابّ بغتة:

«ماذا تعني هديّة القرون الغريبة تلك التي أرفقتَها بزهورك؟ خادمتي فيتشي قالت لي إنّها واقية من «الفاتشينو»؛ هذا كلّ ما استطعت انتزاعه منها.

– فيتشي محقّة، أجاب الكونت آلتافيلّا منحنياً.

– لكنْ ما هو «الفاتشينو»؟ تابعت الآنسة الشابّة؛ لا أعرف شيئاً عن تطيُّركم... الأفريقي؛ وقد يكون لذلك علاقة ببعض المعتقدات الشعبية.

– «الفاتشينو» هو التأثير المؤذي الذي يُحدثه الشخص الموهوب، أو بالأحرى المبتلى بالعين الشرّيرة.

– أتظاهر بفهمك، خشية إعطائك فكرة سيّئة عن ذكائي إنْ أنا اعترفت بأنّني لا أفهم معنى كلماتك، قالت المِسْ أليسيا وارْد؛ أنت تفسّر لي المجهول بالمجهول: العين الشرّيرة لا تفسّر لي معنى «الفاتشينو» إلّا بشكل سيّئ؛ وأنا مثل شخصيّة المسرحية الكوميدية، أعرف اللّغة اللّاتينية، لكنْ عليك أنْ تتصرّف كما لو كنت لا أعرفها[1].

– سأوضّح ما أعنيه بكلّ دقّة ممكنة، أجاب آلتافيلّا؛ فقط لا تذهبي، ضمن ازدرائك البريطاني، إلى اعتباري شخصاً متوحّشاً والتساؤل عمّا إذا كانت ثيابي تُخفي وشماً بالأحمر والأزرق. أنا إنسان متحضّر؛ تربّيت في باريس؛ أتكلّم الإنجليزية والفرنسية؛ قرأت

---

(1) في «البرجوازيّ النبيل» *Le Bourgeois gentihomme* (الفصل الثاني، المشهد الرابع) يسأل أستاذ الفلسفة تلميذَه السيّد جوردان عمّا إذا كان يجيد اللّاتينية، فيجيبه السيّد جوردان: «نعم، لكنْ، تصرّفْ كما لو كنتُ لا أجيدها وفسّرْ لي ماذا تعني». و«البرجوازي النبيل» باليه كوميدي يزاوج بين الشعر والنثر، من تأليف موليير، قدّمته فرقته للمرّة الأولى في 14 أكتوبر 1670 أمام بلاط لويس الرابع عشر في قصر شامبور Chambord.

Twitter: @ketab_n

فولتير؛ أؤمن بالآلات البخارية، وسكك الحديد، والمجلسَين مثل ستاندال[1]؛ آكل المعكرونة بالشوكة؛ في الصباح أضع قفّازاً سويدياً، وبعد الظهر قفّازاً ملوّناً، وفي المساء قفّازاً مجدولاً من القشّ».

انتبه الكومودوري، الذي كان يدهن قطعة الخبز الثانية بالزبدة، إلى هذه البداية الغريبة، ومكث والسكّين في يده، يحدّق في آلتافيلّا ببؤبؤيه اللّذين هما بزرقة القطب ويشكّل لونهما تناقضاً عجيباً مع سحنته الحمراء بلون الآجرّ.

«هذه كفاءات مطمْئنة، قالت الآنسة وارْد مبتسمة؛ وبعدها سأكون استفزازيّة حقّاً إنْ أنا اتّهمتك بالبربرية. لكنّ ما تريد قوله لي هو إذن في منتهى الفظاعة أو منافاة العقل إلى درجة أنّك تلجأ إلى كلّ هذه المواربة لبلوغ لبّ الموضوع؟

- نعم في منتهى الفظاعة، ومنافاة العقل، وربّما في غاية السخف أيضاً، وهذا أسوأ، تابع الكونت؛ لو كنتُ في لندن أو باريس، فلربّما سخرت منه مثلك، لكنْ هنا، في نابولي...
- أي أنّك سوف تحافظ على جدّيتك؛ أليس هذا ما تريد قوله؟
- بالضبط.
- لنصل إلى «الفاتشينو»، قالت الآنسة وارْد، وقد تأثّرت برصانة آلتافيلّا رغماً عنها.
- هذا الاعتقاد يعود إلى العصور القديمة. وهناك إشارة إليه في التوراة. ويتحدّث عنه فرجيل بنبرة اقتناع؛ والتعويذات البرونزية التي عُثر

---

(1) أي «مجلس اللّوردات» و«مجلس العموم»، وقد عُرف الكاتب الفرنسي ستاندال بتفضيله للنظام البرلماني على الطريقة الإنجليزية.

Twitter: @ketab_n

عليها في بومبي، وهركولانوم وستابيا، وكذلك العلامات الواقية المرسومة على جدران أنقاض المنازل، تُبيّن كم كان ذلك التطيّر موجوداً منذ القِدم (شدّد آلتافيلا على كلمة «التّطيّر» بنيّة خبيثة). والشرق بكامله ما زال يذهب إلى الاعتقاد به. فهناك أيدٍ حمراء أو خضراء تُطبع على جوانب البيوت الموريسكية لطرد التأثير السيّئ. ويمكن رؤية يد منحوتة على درفة باب الشريعة[1] بقصر الحمراء؛ وهذا ما يؤكّد أنّ هذا الحكم المسبق وإنْ لم يكنْ مبنياً على استدلال، فهو قديم جدّاً على الأقلّ. وعندما يتقاسم ملايين البشر طيلة آلاف الأعوام رأياً فمن المرجّح أنْ يكون ذلك الرأي، المتقبَّل بشكل طاغٍ، مستنداً إلى وقائع يقينيّة، وإلى متابعة طويلة من المُعايَنات التي يبرِّرها الحدث... يصعب عليّ الاعتقاد، مهما تكن فكرتي عن نفسي إيجابية، أنّ كلّ أولئك الأشخاص، ومن بينهم بالتأكيد شخصيّات عظيمة متنوّرة وعالِمة، قد أخطؤوا بفظاظة في أمرٍ أكونُ أنا الوحيد الذي يراه بطريقة جليّة...

- برهنتك يسهل دحضها، قاطعته الآنسة أليسيا وارْد: ألم يكن مذهب تعدّد الآلهة دين هزيود وهوميروس وأرسطو وأفلاطون وحتّى سقراط، الذي ضحّى بِديك إلى أسكليبيوس[2]، وغيرهم من الشخصيّات الكثيرة المتمتّعة بعبقريّات لا يمكن الاختلاف بصددها؟

- صحيحٌ ذلك، لكنْ لم يعد يوجد اليوم مَنْ يضحّي بثيران لجوبيتر.

- من الأفضل تحويلها إلى وجبة مَشاوٍ، قال الكومودوري حاسماً

(1) باب الشريعة هو الباب الرئيسي في قصر الحمراء في غرناطة.

(2) إشارة إلى كلمات سقراط الأخيرة، كما نقلها أفلاطون عنه («محاورة الفيدون»).

Twitter: @ketab_n

حُكمه، وهو الذي لطالما صدمته عادة حرق الأفخاذ الطرية على الفحم كما ذكر هوميروس.

- لم يعد هناك تقديم حمائم لفينوس، ولا طواويس ليونون[1]، ولا تيوس لباخوس؛ المسيحيّة غيرت تلك الأحلام المجبولة من الرخام الأبيض الذي ملأت به اليونان الأولمب؛ الحقيقة أنهت الخطأ، وما زال الكثير من الناس يخشون تأثيرات «الفاتشينو»، أو إذا أردنا تسميته الشعبية «الجتّاتورا».
- أتفهّم قلق أفراد الشعب الجاهل من هذه التأثيرات، قالت الآنسة وارْد؛ لكنّني أستغرب أنْ يشاركهم رجل من محتدك ومن ثقافتك في مثل هذا الاعتقاد.
- أكثر من واحد من ذوي العقول المفكّرة، أجاب الكونت، يعلّق قرناً في نافذته، ويسمّر ضحيّة[2] فوق بابه، ولا يمشي إلّا مغطّىً بتعاويذ؛ أنا رجل صريح، وأعترف بلا خجل أنّني عندما أصادف جتّاتوري[3]، أنتقل إلى الجانب الآخر من الشارع بطيبة خاطر، وإذا لم أستطع تفادي نظرته أسعى إلى التعزيم عليه بالحركة المكرَّسة لذلك. ولا أتصنّع سلوكاً آخر يختلف عن سلوك حمّال مثلاً، وهكذا أجدني في حال جيّدة.

حصلت لي أحداث عديدة مزعجة علّمتني إلّا أستخفّ بهذه الاحتياطات».

كانت المِسْ أليسيا وارْد تنتمي إلى المذهب البروتستانتي، تربّت في

(1) يونون (بالفرنسية Junon وباللّاتينية Juno) أخت جوبيتر، كبير الآلهة وزوجته، في الأساطير الرومانية، وتعادل هيرا لدى الإغريق.

(2) إشارة إلى قرون الأيائل مع عظمة الجبين التي تعلّق عادةً للزينة.

(3) الجتّاتورا، سبق ذكرها، هي العين الشريرة، والجتّاتوري هو صاحبها.

Twitter: @ketab_n

كنف حريّة عالية وروح فلسفية، لا تسلّم بأيّ شيء إلّا بعد الفحص، وينفر العقل السليم عندها من كلّ ما لا يمكن تفسيره رياضيّاً. لذلك فاجأها خطاب الكونت. أرادت في البداية أنْ ترى فيه مجرّد طرفة ذهنية؛ غير أنّ نبرة آلتافيلّا الهادئة والواثقة جعلتها تغيّر رأيها دون أنْ تتوصّل إلى الاقتناع بأيّ طريقة كانت.

«أوافقك الرأي، قالت، أنّ هذا الحكم المسبق موجود، وأنّه منتشر كثيراً، وأنّك صادق في خشيتك من العين الشرّيرة، ولستَ بصدد التلاعب بسذاجة أجنبيّة مسكينة؛ لكنْ، أعطني بعض البراهين الفيزيائيّة المحسوسة حول فكرة التطيّر، ذلك أنّني متشكّكة جدّاً، وإنْ اتّهمتَني بالافتقار الكامل للروح الشاعرية: ولا أتأثّر كثيراً بالفنطازيّ، والملغّز، والسحريّ، وكلّ ما هو غير قابل للتفسير.

- ليس بوسعك، يا مِسْ أليسيا، تابع الكونت، إنكار قوّة العين البشريّة؛ إنّ نور السماء يتّحد فيها مع انعكاسات الروح؛ الحدقة هي عدسة تكثّف أشعّة الحياة، والكهرباء الذهنيّة تنبجس من هذه الفتحة الضيّقة: ألا تخترق نظرةُ امرأة أشدَّ القلوب قسوة؟ ألا تشحن نظرة بطل جيشاً بكامله؟ ألا تروّض نظرة الطبيب الشخص المجنونَ مثل حمّام ماء بارد؟ ألا تجعل نظرةُ الأمّ الأسودَ تتقهقر؟

- أنت تدافع عن قضيّتك بفصاحة، أجابت الآنسة وارْد وهي تهزّ برأسها؛ اعذرني إنْ كانت لا تزال تراودني بعض الشكوك.

- والطائر الذي ينزل من شجرته التي يستطيع الطيران منها، مختلجاً رعْباً، مُطلقاً صيحات مؤلمة، كي يلقي بنفسه في فم الثعبان الذي فتَنه، هل يستجيب إلى حكم مسبق؟ هل استمع في الأعشاش إلى

Twitter: @ketab_n

ثرثارات ذوات ريش يروين له حكايات جتّاتورا؟ ألم تحدث عدّة تأثيرات لأسباب هي أبعد ما تكون عن أن تدركها أعضاؤنا؟ ونتونة حمّى المستنقعات، والطاعون والكوليرا، هل هي قابلة للرؤية؟ ما من عين تستطيع رؤية التيار الكهربائيّ في قضيب واقي الصواعق، ومع ذلك يتمّ تحويل وجهة الصاعقة! ما المُحال في افتراض خروج شعاع ملائم أو ضارّ من هذا القرص الأسود أو الأزرق أو الرمَاديّ؟ لمَ لا يكون هذا الدفق مبارَكاً أو مشؤوماً وفق طريقة البثّ والزاوية التي يتلقّاه منها المتقبّل؟

- يبدو لي، قال الكومودوري، أنّ نظرية الكونت توحي لي ببعض الظلال؛ أنا شخصياً لم أستطع التحديق في عينين ذهبيّتين لضفدع من دون الشعور بحرارة لا تطاق في معدتي، كما لو أنّني تناولت بعض المقيّئات؛ ومع ذلك فالزاحف المسكين محقّ أكثر منّي عندما يخشى أن أسحقه بدعسة كعب.

- آه! يا عمّي! إذا اصطففت مع السيّد آلتافيلّا، قالت الآنسة وارْد، فسأُهزَم لا محالة. لست قادرة على المقاومة. ومهما تكن لي من اعتراضات كثيرة على هذه الكهرباء البصرية التي لم يتحدّث عنها أيّ عالم فيزياء، أرغب في التسليم بوجودها مؤقّتاً، لكنْ ما النجاعة التي يتحلّى بها القرنان اللّذان أنعمتَ بهما عليّ في درء التأثيرات المشؤومة؟

- مثلما يجتذب واقي الصواعق الصاعقةَ بواسطة حدِّه، أجاب آلتافيلّا، فإنّ الطرف الحادّ للقرن عندما تحدّق به عين الجتّاتوري يحوّل وجهة التيار الشرير ويجرّده من كهربائه الخطيرة. ويُسدي الإصبعان الممدّدان إلى الأمام، وتمائم المرجان، تلك الخدمة نفسها.

Twitter: @ketab_n

- كلّ ما تحكيه لي هنا يدخل في باب الجنون حقّاً، يا سيّدي الكونت، تابعت الآنسة وارْد تقول؛ وإليك ما أعتقد أنّني توصّلت إلى فهمه من كلّ ذلك: أنا، حسب رأيك، تحت تأثير جتّاتوري خطير جدّاً؛ وأنت أرسلت لي بالقرنين كوسيلة دفاعيّة؟

- أخشى ذلك، يا مِسْ أليسيا، أجاب الكونت بنبرة اقتناع غميق.

- فليتجرّأ واحد من أولئك الظرفاء ذوي العين المريبة على فتنة ابنة أخي! فأنا، رغم تجاوزي الستّين، لم أنسَ دروسي في الملاكمة».

«يكفي إصبعان، يا ميلورد، قال آلتافيلّا وهو يمسك بيد الكومودوري ليدلّه على الوضعية المطلوبة للإصبعين. في الغالب الأعمّ تكون الجتّاتورا لا إراديّة؛ وهي تُمارَس من دون عِلم الذين يمتلكون هذه الهبة المشؤومة، ويحدث كثيراً أنّ أصحابها الذين يدركون سلطتهم الضارّة يحزنون من تأثيراتها أكثر من غيرهم؛ ينبغي إذن تحاشيهم لا الإساءة إليهم. زدْ على ذلك أنّه بالإمكان تحييد تأثيرها، أو على الأقلّ تخفيفه، بالقرون وبالإصبعين الممدودتَين، وعروق المرجان المتشعّبة.

- في الحقيقة، هذا أمر في منتهى الغرابة، قال الكومودوري متأثّراً برباطة جأش آلتافيلّا رغماً عنه.

- لا أعرف أنّني مهووسة كثيراً بالجتّاتورات؛ أنا لا أغادر هذه الفيرندا إلّا نادراً، عندما أذهب مساء لنزهة في العربة ناحية البالاتسو ريالي مع عمّي، ولم ألاحظ شيئاً يؤكّد ما افترضتَه، قالت الشابّة وقد استيقظ فضولها رغم أنّ شكوكها ظلّت هي نفسها. إلى مَنْ تتّجه شكوكك؟

- ليست شكوكاً، يا مِسْ وارْد؛ يقيني كامل، أجاب الكونت النابوليتاني الشابّ.

Twitter: @ketab_n

- أرجوك، اكشفْ لنا اسم هذا الكائن المشؤوم!» قالت الآنسة وارْد مع نبرة سخرية خفيفة.

حافظ آلتافيلّا على صمته.

«من الجيّد معرفة من يتوجّب علينا مبادلته التحدّي»، أضاف الكومودوري.

لاح الكونت النابوليتاني الشابّ مستغرقاً في التأمّل؛ ثمّ نهض، وتوقّف أمام عمّ الآنسة وارْد، وجّه إليه تحيّة احترام وقال له:

«يا ميلورد وارْد، أنا أطلب منك يد ابنة أخيك».

مع هذه الجملة غير المنتظرة، تورّد لون أليسيا، وانتقل الكومودوري من اللّون الأحمر إلى القرمزيّ.

مؤكّد أنّ الكونت آلتافيلّا كان قادراً على طلب يد المِسْ وارْد، فهو ينتمي إلى إحدى أقدم وأنبل العائلات النابوليتانية؛ وكان جميلاً، فتيّاً، غنيّاً، يحظى جيّداً برضا الملك، حسن التربية، ذا أناقة لا غبار عليها؛ وعليه فإنّ طلبه في حدّ ذاته ليس فيه ما يصدم. لكنّه جاء بطريقة في منتهى المباغتة، والغرابة؛ ولم تكن ناتجة كثيراً عن الحوار المطروح، وهو ما يبرّر تماماً ذهول العمّ وابنة أخيه. أمّا آلتافيلّا فلم تظهر عليه المفاجأة ولا الإحباط من ذلك، وظلّ ينتظر الإجابة بثبات.

«عزيزي الكونت، قال الكومودوري أخيراً وقد تدارك ارتباكه قليلاً، إنّ عرْضك يذهلني بمقدار ما يشرّفني. في الحقيقة، لا أعرف بماذا أجيبك؛ لم أستشر ابنة أخي بعد. كنّا نتحدّث عن «الفاتشينو» و«الجتّاتورا» والقرون والتعاويذ والأيدي المبسوطة أو المقبوضة، وكلّ أنواع الأشياء التي لا علاقة لها بالزواج، وإذا بك تطلب منّي يد أليسيا! هذا يفتقر إلى الترابط تماماً، وأتمنّى ألّا تلوموني إنْ لم تكن بحوزتي أفكار

Twitter: @ketab_n

واضحة حول هذا الموضوع. أكيد أنّ هذا الاقتران سيكون ملائماً جدّاً، لكنّني أعتقد أنّ ابنة أخي لها نوايا أخرى. صحيح أنّ ذئبَ بِحارٍ عجوزاً مثلي لا يقرأ كثيراً وبطريقة جيّدة ما يجول في قلب الفتيات الشابّات..».

عندما رأت أليسيا عمّها يتشوّش، انتهزت فرصة توقّفه بعد جملته الأخيرة كي تضع حدّاً لمشهد صار مزعجاً، وقالت للنابوليتاني:

«أيّها الكونت، عندما يتقدّم رجل لطيف بطلب يد فتاة شريفة بطريقة صادقة، لا يكون هناك مجال أمامها للشعور بالمهانة، لكنْ من حقّها الذهول من الشكل الغريب الذي يُعطى لهذا الطلب. كنتُ بصدد مساءلتك عن اسم الجتّاتوري المزعوم الذي يمكن لتأثيره، حسب رأيك، أن يُلحق بي ضرراً، وإذا بك تتوجّه إلى عمّي بغتة بعرض لست أفهم بواعثه.

– هذا يعود إلى كونِ الرجل النبيل، أجاب آلتافيلّا، لا ينقلب إلى واشٍ بطيبة خاطر، والزوج وحده هو الذي يستطيع الدفاع عن زوجته. لكنْ في إمكانك أخذ بضعة أيّام للتفكير. وحتّى ذلك الوقت سوف يكفيك القرنان المعروضان بطريقة مرئية، كما أتمنّى، لدرء أيّ حدث مكدّر».

إثر ذلك القول، نهض الكونت وخرج بعد أنْ ألقى تحيّة حارّة.

كانت فيتشي الخادمة المتوحّشة ذات الشعر الأجعد، عندما جاءت لأخذ إبريق الشاي والكؤوس، قد استمعت وهي ترتقي درج الفيرندا ببطء، إلى نهاية الحوار. كانت تكنّ لبول دابرومون كلّ النفور الذي يمكن أن تضمره فلاحة من منطقة الأبروتسو[1]، لم تكد تُدجَّن بعد عامين أو ثلاثة في الخدمة المنزلية، إزاء شخص أجنبيّ يُعتَقَد بصلته بالجتّاتورا.

(1) أحد أقاليم إيطاليا وتبعد حدوده الغربية عن شرقيّ روما مسافة 80 كم.

Twitter: @ketab_n

زدْ على ذلك أنّها تجد الكونت آلتافيلّا رائعاً، ولا تتصوّر أن تفضّل عليه الآنسة أليسيا شاباً نحيلاً وشاحباً ما كان ليعجبها هي، فيتشي، حتّى لو لم يمتلك «الفاتشينو». وبما أنّها لم تُعجب برقّة أسلوب الكونت، ورغبةً منها في إبعاد سيّدتها التي تحبّ عن تأثير ضارّ، فقد مالت فيتشي على أذن الآنسة وازْد وقالت لها:

«الاسم الذي يخفيه عنك الكونت آلتافيلّا، أعرفه، أنا.

- أمنعك من ذكْره لي، يا فيتشي، إنْ كنتِ متمسّكة بعطفي، أجابت أليسيا. حقّاً، كلّ هذه المعتقدات الباطلة مخزية، وسوف أواجهها كفتاة مسيحيّة لا تخشى إلّا الربّ».

7

«جتّاتوري! جتّاتوري! هذه الكلمات كانت موجّهة إليّ حقّاً، قال بول دابرومون وهو يعود إلى الفندق؛ أجهل ما تعنيه، لكنْ لا بدّ أنّها تتضمّن معنى إهانة أو سخرية. ما المتفرّد أو الشاذّ أو الهازئ في شخصي، حتّى يثير الانتباه بهذه الطريقة غير الملائمة؟ يبدو لي، مهما كان المرء أعجز من أن يحكم على نفسه بنفسه، أنّني لست جميلاً ولا بشعاً، لا طويلاً ولا قصيراً، لا ضعيفاً ولا سميناً، ويمكنني المرور بين الناس دون أن يتفطّن لي أحد. حتّى ثيابي ليست غريبة؛ أنا لا أعتمر عمامة مضاءة بالشموع مثل السيّد جوردان في حفلة «السيّد النبيل»[1]؛ ولا أرتدي سترة مزخرفة بشمس ذهبيّة على الظهر؛ ولا يتقدّمني زنجيٌّ ناقراً دفوفه؛ وفوق ذلك فإنّ ذاتيّتي، المجهولة تماماً في نابولي، تتوارى في ثياب موحّدة، هي قناع الحضارة الحديثة، فصرتُ أُشْبِه في كلّ شيء أولئك المتغندرين الذين

(1) «البرجوازي النّبيل» لموليير، باليه كوميدي سبق ذكره.

Twitter: @ketab_n

يتجوّلون في شارع طليطلة أو ساحة القصر، باستثناء صغير هو استغنائي عن ربطة العنق، وعن الدبّوس، والقميص المطرّز، والصدريّة، وسلاسل الذهب، وعن المبالغة في تجعيد الشعر.

ربّما لم أكن مجعّد الشعر في خصلات صغيرة بشكل كافٍ! غداً سوف أقصد حلّاق الفندق كي يعالج شعري بالمكواة. مع ذلك فإنّ الناس معتادون هنا على رؤية أجانب، وبعض الاختلاف الخفيّ في الزيّ أو المظهر لا يكفي لتبرير تلك الكلمة الغريبة والحركة الشاذة اللّتين يثيرهما حضوري. ولقد لاحظت أيضاً تعبيراً عن النفور والذعر في عيون الناس الذين كانوا يبتعدون عن طريقي. ماذا عساني أكون قد فعلت لأولئك الناس الذين ألتقيهم لأوّل مرّة؟ المسافر، وهو ظلّ يمرّ لكيلا يعود أبداً، لا يثير إلّا اللّامبالاة أينما حلّ، إلّا إذا كان قادماً من منطقة بعيدة ويمثّل عيّنة من سلالة بشريّة مجهولة: غير أنّ البواخر تقذف، كلّ أسبوع، على رصيف الميناء، آلاف السيّاح الذين لا أختلف عنهم في شيء. ومن ينشغل بالهم بهم غير الحمّالين وأصحاب الفنادق وخدم المكان؟ لم أقتل أخي، إذْ ليس لي أخ، ولا يمكنني أنْ أكون موسوماً من الربّ بعلامة قابيل، ورغم ذلك يرتبك الناس ويبتعدون لمرآي: في باريس، في لندن، في فيينا، وفي كلّ المدن التي سكنت فيها، لا أذكر البتة أنّني تسبّبت في تأثير مماثل؛ لاحظوا أحياناً أنّني متكبّر، مستخفّ، ومتوحّش؛ قيل لي إنّني أتظاهر بالتكشيرة الإنجليزية، وإنّني أقلّد اللّورد بايرون[1]، لكنّني قوبلت في كلّ مكان بجدارة الجنتلمان، وحتّى علاقاتي، رغم ندرتها، كانت تضمن لي التقدير. لا يمكن لرحلة عبور دامت ثلاثة أيّام من مرسيليا إلى نابولي أنْ

---

(1) جورج غوردون بايرون أو اللّورد بايرون Lord Byron (1788–1824)، شاعر بريطاني من روّاد الشعر الرومانطيقيّ.

Twitter: @ketab_n

تكون قد غيّرتني إلى حدّ تحوّلي إلى كائن مقيت أو هُزأة، أنا الذي لفتُّ انتباه أكثر من امرأة، وتمكّنتُ من ملامسة قلب المِسْ أليسيا وارْد، تلك الفتاة العذبة، المخلوقة السماوية، إحدى ملائكة توماس مور!»[1].

هذه التأمّلات، العقلانية بالتأكيد، هدّأت بول دابرومون قليلاً، واقتنع بأنّه أضفى على الحركات الإيمائية المبالغ فيها لدى النابوليتانيّين، وهم أكثر شعوب العالم إيماءاً وتأشيراً، معنىً ليس لها.

كان الوقت متأخّراً. وكلّ المسافرين ما عدا بول، عادوا إلى غرفهم الخاصّة؛ وكانت جلسومينا، وهي إحدى الخادمات اللّائي وصفناهنّ خلال اجتماع النميمة في المطبخ برئاسة فيرجيليو فالساكابا، تنتظر عودة بول كي تضع رتاج الباب. ولقد ترجّتْ نانيلّا، الفتاة الأخرى، وكان دورها في الحراسة، زميلتَها الأكثر بسالة أنْ تحلّ محلّها، لأنّها لا تريد الالتقاء بالأجنبيّ المشكوك في أنّه جتّاتوري؛ لذلك كانت جلسومينا مدجّجة بالأسلحة: رزمة كبيرة من التعاويذ تنتفش على صدرها، وخمسة قرون صغيرة من عروق المرجان ترتعد في زخرف قرطَيها؛ وكانت يدها المضمومة مسبقاً تمدّ السبابة والخنصر بتصويب دقيق يمكنه بالتأكيد اكتساب استحسان الخوري المبجّل أندريا دي جوريو مؤلّف كتاب «إيماءات القدامى المعثور عليها في الحركات النابوليتانية.»[2]

قدّمتْ جلسومينا المقدامة، وهي تخفي يدها خلف إحدى طيّات تنورتها، مشعل الإضاءة إلى السيّد دابرومون، ووجّهت إليه نظرة حادّة،

---

(1) توماس مور Thomas Moore، سبقت الإشارة إليه وإلى كتابه «حبّ الملائكة» الذي أثّر في الكثير من الشعراء الفرنسيّين.

(2) أندريا دي جوريو Andrea de Jorio (1769–1851): مؤلّف «دليل إلى بومبَي» *Guida di Pompei*، وكتب أيضاً سنة 1832 هذا الكتاب الذي يشير إليه غوتييه، وعنوانه الأصليّ: *La mimica degli antichi investigata nel gestire napoletano*.

Twitter: @ketab_n

ثابتة، استفزازيّة تقريباً، ذات تعبير كان من الفرادة إلى حدّ إلجاء الشابّ إلى خفض عينيه: وهي وضعية بدتْ مُرضية جدّاً لتلك الفتاة الجميلة.

ومن خلال رؤيتها ثابتة ومستقيمة، رافعةً المشعل بحركة تمثال، ووجهها مرتسم بخطّ من الإضاءة، وعيناها محدّقتان متوهّجتان، كان يمكن القول إنّها نيميزيس[1] القديمة ساعية إلى إفحام مذنب.

عندما صعد المسافر الدرج وتلاشى وقع خطاه في الصمت، رفعت جلسومينا رأسها بهيئة المنتصرة، وقالت: «لقد نجحتُ بطريقة رائعة في إعادة إدخال نظرته إلى بؤبؤيه، هذا السيّد الشنيع، فليُفحمه القدّيس جنّايو؛ لن يصيبني مكروه، أنا متأكّدة من ذلك».

نام بول بطريقة سيّئة وكان نومه مضطرباً؛ تعذّب بكلّ أنواع الأحلام الغريبة المتعلّقة بالأفكار التي شغلته بالأمس: كان يرى نفسه محاطاً بوجوه مكشّرة ومشوّهة تعبّر عن الكراهية والغضب والخوف؛ ثمّ تلاشت تلك الوجوه؛ لاحت أصابع طويلة، نحيلة، عظميّة، ذات سلاميّات كثيرة العُقد، تخرج من الظلّ محمرّة بضوء جحيميّ، تهدّده بإيماءات غامضة؛ وتتعقّف أظافر تلك الأصابع لتصير مخالب نمر، وبراثن نسر، تقترب من وجهه أكثر، وتبدو كأنّها تريد اقتلاع بؤبؤيه. وبجهد خارق تمكّن من إبعاد تلك الأيدي المرفرفة بأجنحة خفافيش؛ وأعقبت الأيدي المعقوفة أعضاء أبقار وجواميس وأيائل، جماجم مبيضّة تحرّكها حياة ميتة، كانت تهاجمه بقرونها وتجبره على إلقاء نفسه في البحر، حيث تمزّق جسده في غابة مرجان حادّ الفروع أو متشعّبها. أعادته موجة إلى الشاطئ مسحوقاً مهشّماً يشارف على الموت؛ ومثل دونجوان اللّورد بايرون، كان يلمح عبر غيبوبته وجهاً فاتناً ينحني عليه؛ لم تكن هايدي،

---

(1) إلهة الانتقام عند الإغريق.

Twitter: @ketab_n

بل أليسيا، الأجمل من الكائن الخياليّ الذي ابتدعه الشاعر. كانت الفتاة تبذل جهوداً بلا طائل من أجل جرّ الجسم على الرمل، فيما البحر يريد استرجاعه، وتطلب المساعدة من فيتشي، الخادمة المتوحّشة، التي كانت ترفض الطلب مطلقةً ضحكة شرسة: كانت ذراعا أليسيا تفتران ويعود بول إلى السقوط في الهاوية.

هذه المشاهد الخارقة، المرعبة في تشابكها، والمبهمة في شناعتها، وغيرها ممّا هو أفظع ولا يمكن إدراكه، وكلّها تذكّر بتلك الأشباح ذات الأشكال المشوّهة المرسومة في الظلّ الكثيف للوحات الحفْر المائيّ عند غويا، عذّبت النائم حتّى خيوط الفجر الأولى؛ ويبدو أنّ روحه التي تحرّرت بهلاك الجسد، حاولت سبر ما لم يفهمه العقل المستيقظ، ولجأت إلى تحويل تلك الأحاسيس الداخلية إلى صوَر، في محمض الحلم.

نهض بول محطّماً، قلقاً، كأنّه يقتفي أثَر مصيبة كانت تخفيها تلك الكوابيس التي كان يخشى سبر ألغازها؛ كان يلفّ ويدور حول السرّ المشؤوم، يغمض عينيه حتّى لا يرى ويصمّ أذنيه حتّى لا يسمع. لم يسبق له أنْ كان حزيناً بهذه الدرجة؛ بدأ يشك حتّى بأليسيا؛ عادت إلى ذاكرته هيئة الغطرسة السعيدة للكونت النابوليتاني، والمسايرة التي كانت الفتاة تنصت بها إليه، ملامح الكومودوري المؤيّدة، كان كلّ ذلك يعود إليه في الذاكرة مضخّماً بعدّة تفاصيل أليمة، ويُغرق قلبه في المرارة ويزيد في كآبته.

للضوء ميزة تبديد الانزعاج الذي تسبّبه الرؤى اللّيليّة. ذلك أنّ شمارّا[1] المستاء يهرب خافقاً جناحيه الغشائية، عندما يطلق النهار نِباله الذهبيّة في الغرفة عبر فجوات الستائر. كانت الشمس تشرق بألق بهيج،

(1) شمارّا (سبق ذكره) اسم لروح شرّير كان القدامى يعتقدون أنه مسؤول عن الكوابيس.

Twitter: @ketab_n

والسماء صافية، وعلى زرقة البحر تتلألأ ملايين ذُرَيرات التبْر: رويداً رويداً استعاد بول هدوءه، نسي أحلامه المزعجة والانطباعات الغريبة ليلة البارحة، وحتّى إنْ كان يفكر فيها فقد كان ذلك من أجل اتّهام نفسه بالشطط.

ذهب للتجوّل في حيّ كياجا للتمتّع بمشاهد النزق النابوليتاني: الباعة ينادون على بضاعتهم بأناشيد غريبة باللّهجة الشعبية التي لا يفهمها لأنّه لا يتقن إلّا الإيطالية، مع حركات غير مرتّبة وهيجان في السلوك لا يوجد في الشمال؛ لكنّه كان كلّما توقّف قربَ دكانٍ أسرع البائع إلى اتّخاذ مظهر متخوّف، وبدأ يهمس بلعنات خفيّة، ويمدّ إصبعين كما لو أنّه يريد طعنه بالخنصر والسبابة؛ أمّا النساء الثرثارات، وهنّ أكثر جرأة، فينهلْن عليه بالشتائم ويُرينه قبضاتهنّ المتوعّدة.

8

اعتقد السيّد دابرومون، لدى سماعه شتائم رعاع كيايا الموجّهة إليه، أنّه كان موضوعاً لتلك القفشات الهزليّة الفظّة التي يتحف بها باعة السمك كلّ الناس المحترمين الذين يجتازون السوق؛ غير أنّ هناك نفوراً قويّاً جدّاً وهلَعاً حقيقيّاً كانا يرتسمان في كلّ العيون، حتّى إنّه تخلّى عن هذا التفسير؛ وتمّ النطق مرّة أخرى بكلمة «جتّاتوري» التي سبق أنْ طرقت أذنيه في مسرح سان كارلينو، لكنْ مع تعابير متوعّدة هذه المرّة؛ ابتعد إذن بخطوات بطيئة، ممتنعاً عن التحديق بنظره في أيّ شيء، ما دام هو السبب في كلّ تلك البلبلة. وعندما حاذى بول البيوت من أجل تفادي انتباه العموم، بلغ بسْطة بائع كتب قديمة؛ توقّف عندها، حرّك بعض الكتب وفتحها، متحكّماً في وقفته: كان يدير ظهره للعابرين، ووجهه المحجوب

Twitter: @ketab_n

أغلبه بأوراق الكتاب يتحاشى تقديم أيّة فرصة للشتائم. لقد فكّر لحظة في مهاجمة ذلك الوغد بعكّازه؛ غير أنّ الرعب الغامض المتطيّر الذي بدأ يتملّكه منعه من ذلك. ويتذكّر كيف أنّه ضرب حوذيّاً وقحاً ذات مرّة بقِضيب خيزران خفيف، فأصابه في صدغه وقتله فوراً، في جريمة غير متعمّدة لم يتأسَّ منها حتّى اليوم. بعد أنْ تناول عدّة كتب وأرجعها إلى خاناتها، عثر على دراسة حول الجتّاتورا للسنيور نيكولو فاليتا. لمع هذا العنوان في عينيه بحروف ناريّة، وبدا له أنّ الكتاب وُضع هناك بيد القدر. رمى لبائع الكتب، الذي كان ينظر إليه بهيئة ماكرة وهو يهزّ قرنين أسودين أو ثلاثة قرون في سلسلة ساعته، بالقطع النقدية الستّ أو الثماني من فئة الكرلان، سعر الكتاب، وأسرع إلى الفندق مغلقاً غرفته من أجل البدء بقراءة ستوضّح له الشكوك وتحدّدها وقد غدت هاجسه منذ قدومه إلى نابولي.

كان كتاب السنيور فاليتا منتشراً جدّاً في نابولي مثل انتشار كتب «أسرار ألبير العظيم» أو «آتيلا» أو «مفتاح الأحلام» في باريس. يصف فاليتا الجتّاتوري، ويحدّد علامات التعرّف عليه، ووسائل تفاديه؛ ويقسّم الجتّاتورات إلى عدّة طبقات، حسب درجة أضرارهم، ويطرح كلّ التساؤلات المرتبطة بهذه المادّة الخطيرة.

لو عثر دابرومون على هذا الكتاب في باريس لتصفّحه بلامبالاة مثل أيّ روزنامة محشوّة بحكايات سخيفة، ولاستهزأ بجدية المؤلّف في معالجة هذه الترّهات؛ لكنّه وهو في حالته المعنويّة تلك، خارج بيئته الطبيعية، واستعداده للتصديق بدافع من عدّة إشكالات صغيرة، قرأ الكتاب بذُعر خفيّ، مثل جاهل يتهجّى في كتاب طلاسم موضوعاً عن استحضار الأرواح والصيغ السريّة. ومع أنّه لم يسع إلى التوغّل في

Twitter: @ketab_n

أسرار هذا الجحيم فقد بدأت تتكشّف له؛ لم يعد قادراً على منع نفسه من الاطّلاع عليها، وصار يمتلك وعياً بقوّته المشؤومة؛ إنّه جتّاتوري! وينبغي أنْ يقرّ بذلك إزاء نفسه: كان يمتلك كلّ العلامات التي وصفها فاليتا.

يحدث أحياناً أنْ يفتح إنسان ما، يعتقد أنّه يتمتّع حتّى الآن بصحّة جيّدة، كتاباً طبّياً بالمصادفة أو للتسلية، وعند قراءة وصف الأعراض لمرض من الأمراض، يشعر أنّه مصاب به؛ فيتملّكه وعي مشؤوم ويحسّ لدى كلّ عرَض مذكور باختلاجة ألم في عضو غامض من أعضائه، ربّما كان أحد الأعصاب المخفيّة التي يجهلها، ويشحب لونه لإدراكه أنّ موته صار وشيكاً وكان يظنّه في منتهى البعد. - لقد أحسّ بول بنتيجة مماثلة.

وقف أمام مرآة وحملق في نفسه بحدّة مرعبة: هذا التكامل المتباين والمتكوّن من مفاتن لا تجتمع مع بعضها عادةً، يجعله يشبه كبير الملائكة المخلوع، ويشعّ بشؤم في عمق المرآة الأسود؛ كانت لُيَيفات بؤبؤيه تتلوى مثل أفاعٍ متشنّجة؛ حاجباه يرتجّان مثل القوس الذي غادره سهم الموت للتوّ؛ التّجعيدة البيضاء في جبينه تذكّر بندبة صاعقة، وفي شعره الأحمر الزاهي يلوح لهب جهنّميّ؛ ويزيد الشحوب الرخاميّ للجلد في إبراز كلّ ملمح في هذا المظهر المرعب حقّاً.

خاف بول من نفسه: بدا له دفق عينيه، منعكساً في المرآة، كأنّه يرتدّ عليه نِبالاً مسمومة: عليكم أنْ تتخيّلوا ميدوزا[1] تنظر إلى رأسها الفظيع والفتّان في انعكاس وحشيّ لمرآة.

قد يعترض عليّ معترض بالقول إنّ من الصعب التصديق بأنّ شاباً

---

(1) هي في الميثولوجيا الإغريقيّة إحدى شقيقات ثلاث من الغيلان لها شعر من الأفاعي، ونظرتها تحوّل من يبصرها إلى حجر.

Twitter: @ketab_n

من خيرة المجتمع، متشرّب بالعلم الحديث، عايش شكوك الحضارة، قد اقتنع بحكم شعبيّ مسبق، وتصوّر نفسه موهوباً من الأقدار بخصلة شرّيرة غريبة. لكنّنا نجيب بأنّ هناك جاذبية مغناطيسيّة لا يمكن مقاومتها في التفكير العموميّ، تتغلغل فينا رغماً عنّا، ولا يمكن لإرادة فردية أنْ تقاومها بطريقة فعّالة دائماً: يمكن لأحدهم أنْ يصل إلى نابولي ساخراً من الجتّاتورا، وينتهي به الأمر إلى تقلّد كلّ وسائل الوقاية المقرّنة والهروب مرتعباً من كلّ فرد ذي عين مريبة. كان بول دابرومون يوجد في وضع أخطر من ذلك: فهو نفسه الذي يمتلك «الفاتشينو»، وكلّ الناس يتحاشونه، أو يؤدّون في حضوره تلك الإشارات الوقائية التي أوصى بها السينيور فاليتا. ومهما ثار عقله ضدّ هذا الرأي فهو لا يستطيع منع نفسه من الاعتراف بأنّه يمتلك كلّ العلامات الواشية بالجتّاتوري. يحافظ العقل البشريّ دائماً، حتّى الأكثر استنارة، على ركن داكن، فيه تقعي أوهام الميقانيّة الكريهة، وفيه تتشبّث خفافيش التطيّر. حتّى الحياة العاديّة هي من الامتلاء بالمشاكل التي لا تجد حلولاً إلى درجة أنّ المستحيل يتحوّل فيها إلى احتمال ممكن الحدوث. يمكننا تصديق كلّ شيء أو إنكاره: من وجهة نظر معيّنة، يوجد الحلم كما يوجد الواقع.

أحسَّ بول أنّه مخترق بحزن هائل. -إنّه مسخ!- ورغم تحلّيه بالغرائز الأكثر وداعةً وبالطبع الأكثر رفقاً، فإنّه يحمل الشؤم معه؛ ونظرته المشحونة بالسّم لا إراديّاً تؤذي كلّ الذين يتوقّف عندهم، وإنْ كان ذلك بنِيّة حسنة. إنّه يتمتّع بالامتياز الشنيع المتمثّل في جمعه وتركيزه وتقطيره للأبخرة المرضية والتموّجات الكهربائية الخطيرة والتأثيرات المشؤومة المنتشرة في الجوّ، لكي ينفثها حوله. هناك عدّة ظروف في حياته، وكانت حتّى اليوم تبدو له غامضة وقد نسبَها بشكل مبهم إلى المصادفات، تتّضح

Twitter: @ketab_n

الآن تحت ضوء أدكن: لقد تذكر كلّ أنواع المغامرات المزعجة والملغزة، والمصائب غير القابلة للتفسير، والكوارث التي حلّت بلا أسباب، وهوذا يكتشف سرّها الآن؛ هناك تطابقات غريبة تتوطّد في ذهنه وتؤكّد ما كان يحصل ضمن الرأي الكئيب الذي كوّنه عن نفسه.

عاد يستعرض حياته سنةً تلو أخرى: تذكّر أمّه التي ماتت وهي تلده؛ نهاية أترابه الشقيّة في المدرسة وأقربهم الذي قُتِل بعد سقوطه من شجرة كان بول ينظر إليه أثناء تسلّقه لها؛ تلك النزهة في زورق والتي انطلق فيها مع صديقين فرحَين، وعاد وحده بعد جهود مضنية لاقتلاع جسدَي الطفلين المسكينين اللّذين غرقا بسبب انقلاب الزورق؛ مبارزة السلاح عندما انكسر سيف التدريب قرب موضع زرّ الأمان وتحوّل إلى سيف قاطع، فأصاب خصمه بجرح خطير، وكان شابّاً يحبّه بول كثيراً؛ لا شكّ أنّ كلّ ذلك يمكن تفسيره عقلانيّاً، وهذا ما فعله بول حتّى ذلك الوقت؛ وفي تلك الأثناء صار ما كان يُعتبر طارئاً وعرضياً في تلك الأحداث يبدو له خاضعاً لسبب آخر منذ اطّلاعه على كتاب فاليتا: يتحمّل كلّ من التأثير المشؤوم، و«الفاتشينو»، والجتّاتورا، نصيباً من تلك الكوارث. ومثل هذه الديمومة للمصائب حول الشخص نفسه لا يمكن أنْ تكون طبيعيّة.

عادت إلى ذاكرته حادثة أخرى أحدث عهداً، بكلّ تفاصيلها الفظيعة، ولم تكن مساهمتها هيّنة في تأكيد اعتقاده المحزن.

في لندن، كان كثيراً ما يرتاد مسرح الملكة حيث أعجبته بشكل خاصّ راقصة إنجليزية شابّة. ومن دون أنْ يتولّع بها أكثر من تولّع المرء بوجه لطيف في لوحة أو منحوتة، كان يتبعها بنظراته بين رفيقاتها في فرقة الباليه، عبر زوبعة حركات الرقص؛ تعلّق بذلك الوجه العذب والحزين، وذلك الشحوب الهشّ الذي لا يحمرّ أبداً بفعل حركات الرقص، وذلك

Twitter: @ketab_n

الشعر ذي الشقرة الحريريّة الملمّعة، والمتوّج حسب الدور، بالنجوم أو بالزهور، وتلك النظرة البعيدة التائهة في الفضاء، والكتفين بطهارتهما البكر وهما تنتفضان تحت المنظار الصغير، والساقين اللّتين كانتا ترفعان بشيء من الأسف غيامتهما التي هي من شاشٍ، وتلمعان تحت الحرير مثل رخام تمثال قديم؛ وكان كلّما شاهدها تقترب من مقدّمة أضواء المسرح يحيّيها بإشارات صغيرة خفية، أو يتناول منظاره الصغير لرؤيتها بطريقة أوضح.

ذات مساء وقد انطلقت الراقصة مأخوذة في طيران دائريّ لرقصة فالس، اقتربت كثيراً من خطّ الأضواء المتلألئة التي تفصل في المسرح بين العالَمين المثاليّ والواقعيّ؛ كانت ثيابها الهوائية الخفيفة تخفق مثل جناحَي يمامة مستعدّينْ للتحليق. كان هناك قنديل غاز أخرج شعلته الزرقاء والبيضاء وبلغ القماش الطائر. وفي لحظة أحاطت شعلة اللّهيب بالفتاة التي رقصت مثل وهج مستنقعيّ وسط وميض أحمر، ثمّ ارتمت باتّجاه الكواليس، مضطربة، مرتعبة، تفترسها ثيابها المحترقة وهي حيّة. تأثّر بول تأثّراً بالغاً بتلك الكارثة التي تحدّثت عنها كلّ الصحف الرائجة آنذاك، حيث تمّ ذكر اسم الضحيّة لمن يهفو إلى معرفته. غير أنّ حزنه لم يكن يخالطه شعور بالذنب. إذْ أنّه لم يكن لينسب لنفسه أيّ علاقة بالحادث الذي أسفَ له أكثر من غيره.

وهوذا يقتنع بأنّ عناده في متابعة تلك المخلوقة الفاتنة بنظرته لم يكن بعيداً عن موتها. اعتبر نفسه بمثابة قاتلها؛ لقد استفظع نفسه وصار يتمنّى لو لم يولد أصلاً.

وأعقب هذا الوهنَ ردُّ فعلٍ عنيف؛ بدأ يضحك ضحكة عصبيّة، رمى بكتاب فاليتا للشيطان وصاحَ: «حقّاً أنا أتحوّل إلى غبيّ أو مجنون! لا بدّ

Twitter: @ketab_n

أنّ شمس نابولي قد أصابت دماغي. ما عسى يقول أصدقائي في النادي لو علموا أنّني قد طرحت جديّاً على وعيي هذا السؤال الجميل- أي إنْ كنتُ جتّاتوري أم لا !»

دقّ بادي الباب متروّياً. فتح له بول، فقدّم له السّاعي، على جلد قبّعته اللّامع، لأنّه متمسّك بالشكليّات في تقديم خدماته، متأسّفاً لعدم امتلاكه طبقاً فضيّاً، رسالة من طرف المِسْ أليسيا.

فضّ السيّد دابرومون ختم الرسالة وقرأ ما يلي:

«هل تقاطعني يا بول؟ لم تأتِ مساء البارحة، وذاب كوبك من شراب اللّيمون المثلج حزيناً على المائدة. مكثت حتّى الساعة التاسعة أنصت إلى أيّة نأمة محاوِلةً تمييز عجلات عربتك عبر الصرير العنيد للزيزان ودقّ دفوف الجلاجل؛ وكان لا بدّ من فقدان كلّ أمل، فتخاصمت مع الكومودوري. تمتَّعْ بإدراك عدالة النساء! بولتشينيلا بأنفها الأسود، والدون ليموني والدونا بانكراتسيا يتمتّعون بجمال أخّاذ بالنسبة إليك، إذنْ؟ لقد عرفت من مُخبريَّ أنّك أمضيت السهرة في سان كارلينو. ولم تكتب شيئاً من تلك الرسائل المهمّة المزعومة، لم تكتب ولو رسالة واحدة. لِمَ لا تعترف بكلّ صراحة وطيبة بأنّك غرتَ من الكونت آلتافيلّا؟ كنت أحسبك أشدّ كبرياء، وهذا التواضع من طرفك يؤثّر فيّ. لا تخشَ شيئاً، السيّد آلتافيلّا مفرط الوسامة، وأنا لا أميل إلى أمثال إله الجمال أبولّو متزيّناً بقلادات وحلي. كان عليّ أنْ أضمر لك كرهاً عميقاً وأقول لك إنّني لم أنتبه إلى غيابك؛ لكنّ الحقيقة أنّني وجدت وقت الغياب قد طال، وكنت في مزاج سيّئ جدّاً، وعصبيّة جدّاً، وأنّني كنتُ على وشك ضرب فيتشي التي كانت تضحك مثل مجنونة، ولا أعلم لماذا، مثلاً.

«أ. و».

Twitter: @ketab_n

هذه الرسالة الفكهة والساخرة أعادت أفكار بول إلى مشاعر الحياة الواقعيّة تماماً. ارتدى ثيابه وأمر بتحريك العربة، وسرعان ما فرقع سكاتسيغا الفولتيريّ بسوطه فوق آذان دابتيه، مرتاباً، فانطلقتا عدْواً على بلاط الحمم، مع اختراق حشود الناس التي كانت ما زالت كبيرة عند رصيف سانتا لوتشيا.

«سكاتسيغا، ما بك غاضباً؟ ستتسبّب في مصيبة ما! «صاح السيّد دابرومون. التفت الحوذيّ بحيوية لكي يجيب، فأصابته نظرة بول الزائغة في الوجه مباشرةً. كان هناك حجر لم يتمكّن من رؤيته قد رفع عجلة أماميّة، فسقط من مقعده بفعل شدّة الاصطدام، لكن من دون التخلّي عن الإمساك بالأعنّة. وبسرعةٍ قرد قفز إلى مكانه، وعلى جبينه ورَم بحجم بيضة دجاجة.

«فلتحلّ بي لعنة الشيطان إنْ أنا التفتّ مرّة ثانية عندما تكلّمني! همهم بين أسنانه. تيميريو وفالساكابا وجلسومينا كانوا محقّين، إنّه جتّاتوري! غداً سوف أشتري قرنين. إنْ لم ينفعَا فلن يضرَّا».

كانت هذه الحادثة الصغيرة غير سارّة بالنسبة لبول؛ وأعادته إلى الحلقة السحريّة التي كان يريد الخروج منها: في كلّ يومٍ يكون حجر تحت عجلة عربة، ويمكن لحوذيّ أخرق أنْ يسقط من مقعده - لا شيء أبسط من ذلك ولا أكثر ابتذالاً. غير أنّ النتيجة سبقت السّبب عن قرب شديد، وسقوط سكاتسيغا جاء مترافقاً جدّاً مع النظرة التي حدجه هو بها، إلى درجة أنّ تخوّفاته عادت إليه:

«أرغب حقّاً في مغادرة هذه البلاد الشاذّة منذ الغد، قال محدّثاً نفسه، هنا أشعر بمخّي يرتجّ في جمجمتي مثل حبّة بندق جافّة في قشرتها. لكنّني لو أسررت بمخاوفي إلى الآنسة وارْد لضحكت منها، والحال أنّ طقس

Twitter: @ketab_n

نابولي ملائم لصحتها. صحّتها! لكنّها كانت في صحّة جيّدة قبل تعرّفها عليّ! لم يسبق قطّ لعشّ الإوز المتأرجح فوق سطح الماء، والذي يُدعى انجلترا، أنْ أتى بفتاة أشدّ بياضاً وتورّداً منها! الحياة تلمع في عينيها مملوءةً نوراً، تتفتح على خدّيها الغضّين المخمليّين؛ دم نفيس وصافٍ يجري داخل عروقها الزرقاء تحت بشرتها الشفافة. وتستشَفُّ من خلال جمالها قوّة لطيفة! كم شحُب لونها ونحُلتْ وتغيرتْ بفعل نظرتي! كم صارت يداها الناعمتان رقيقتَين! كم تحيط بعينيها الحيويّتين ظلالٌ خفيفة ليّنة! كأنّما كان الهزال يضع أصابعه العظميّة على كتفيها. في غيابي استرجعت ألوانها الحيّة بسرعة؛ صار النفَس يتحرّك حرّاً في صدرها الذي كان الطبيب يسائله متخوّفاً. سوف تتمكّن من عمر مديد إنْ تخلّصتْ من تأثيري المشؤوم. ألستُ أنا من يقتلها؟ ألم تحسّ، في ذلك المساء عندما كنت هناك، بألم كان من الحدّة إلى حدّ فقدان خدّيها لونهما، كما يحدث عندما ينفخ الموت نفَسه البارد؟ ألا أمارس عليها الجتّاتورا من دون قصد؟ لكنْ ربّما كان ما يحصل طبيعيّاً تماماً! كثيرات هنّ الفتيات الإنجليزيات اللّائي يمتلكن استعداداً للأمراض الصدريّة».

شغلت هذه الأفكار بول دابرومون طيلة الطريق. وعندما ظهر في الفيرندا، مكان الاستراحة المعتاد لدى الآنسة وارْد والسيّد الكومودوري، كان القرنان الطويلان لثور جزيرة صقلّية، هديّة الكونت آلتافيلّا، يتقوّسان بهلالَيهما اللّذين لهما مرأى حجر اليشَب، في الأماكن المرئية أكثر. وعندما أدرك الكومودوري أنّ بول قد لاحظ ذلك لم يتورّد لونه بل ازرقّ: وكانت تلك طريقته في الخجل، لأنّه أقلّ نعومة من ابنة أخيه، وكان قد استمع إلى ما أسرّتْ إليه به فيتشي...

أمرتْ أليسيا فيتشي، بحركة ازدراء، أنْ تحمل القرنين، وثبّتتْ في بول

Twitter: @ketab_n

عينيها الجميلتين الممتلئتين حبّاً وشجاعة وإيماناً.

«اتركي القرنين في موضعهما، قال بول إلى فيتشي؛ إنّهما جميلان جدّاً».

9

بدا أنّ ملاحظة بول حول القرنين اللّذين قدّمهما الكونت آلتافيلّا قد أرضت الكومودوري؛ وابتسمت فيتشي كاشفة عن أسنانها التي كانت أنيابها المنفرجة والحادّة تلمع ببياض مفترس؛ ولاحت أليسيا، بحركة سريعة من جفنها، كأنّها تطرح على صديقها سؤالاً ظلّ بلا إجابة.

سادَ صمت مزعج.

كثيراً ما تكون الدقائق الأولى لأيّة زيارة حتّى وإنْ كانت ودّية أو عائلية، منتظَرة ومتكرّرة مع مرور الأيّام، دقائق ارتباك عادةً. خلال الغياب، وإنْ لم يدم إلّا بضع ساعات، تكوّنَ حول كلّ واحد منهم جوٌّ لا مرئيّ يصطدم به أيّ اندفاع. وهذا يشبه مرآة شفّافة تماماً تعكس المشهد ولا يخترقها طيران ذبابة. لايوجد شيء ظاهرياً، ومع ذلك يشعر الحضور بالعائق.

هناك أيضاً فكرة مسبقة مخفيّة كما يتطلّب الوضع، كانت في الأوان ذاته تشغل الشخصيّات الثلاث في هذه المجموعة التي كانت سابقاً أكثر ارتياحاً فيما بينها. كان الكومودوري يدير إبهاميه بحركة آلية؛ ودابرومون ينظر بإصرار إلى النقطتين السوداوين المصقولتين في القرنين اللّذين منع فيتشي من نقلهما، فكان يشبه عالِم طبيعيّات يريد تصنيف نوع مجهول من خلال عيّنة منه؛ أمّا أليسيا فكانت تمرّر إصبعها في وُرَيدة الحزام الواسع الذي يزنّر مئزر الحمّام، وهو من قماش الموسلين، متظاهرة بشد عقدته.

كانت الآنسة وارْد هي الأولى في إذابة الجليد، بتلك الحرّية البشوش

Twitter: @ketab_n

التي تميّز الفتيات الإنجليزيات، واللّواتي يصبحن مع ذلك في منتهى التواضع والمحافظة بعد الزواج.

«حقّاً يا بول أنت لم تعد كثير اللّطف منذ فترة. فهل تكون كياستك نبتة دفيئة باردة لا تتمكّن من التفتّح إلّا في انجلترا، وتمنعها حرارة هذا الجوّ العالية من النموّ؟ كم كنت نبيهاً مُبادراً، ومفعماً بالعناية دائماً، في قصرنا الريفيّ في لنكولنشاير! كنت تقترب منّي قلبك على فمك، ويدك على صدرك، وشعرك جيّد الصقل والتلميع، مستعدّاً لوضع ركبتك على الأرض أمام معبودة روحك، تماماً كما يتمّ رسم العشّاق على أغلفة الروايات.

- ما زلت أحبّكِ دائماً، يا أليسيا، أجاب دابرومون بصوت عميق، لكنْ من دون رفع عينيه عن القرنين المعلّقَين على أحد الأعمدة القديمة التي تسند سقف الدالية.

- أنت تقول ذلك بنبرة في منتهى الكآبة، وهو ما يتطلّب المزيد من الغُنج لتصديقه، تابعت المِسْ وارْد؛ أتصوّر أنّ ماكان يعجبك فيّ هو لوني الشاحب، شفافيتي، حضوري الشاعريّ وخفّة رشاقتي؛ كانت حالي الصحّية تضفي عليّ نوعاً من الجاذبية الرومنطيقيّة التي فقدتُها.

- أليسيا! لم تكوني قطّ أجمل منك الآن!

- كلمات، كلمات، كلمات، كما يقول شكسبير[1]. أنا من الجمال إلى درجة أنّك لا تتفضّل بالنظر إليّ».

وبالفعل، فإنّ عينَي السيّد دابرومون لم تتوجّها نحو الفتاة ولو مرّة واحدة.

---

(1) مسرحية «هاملت».

Twitter: @ketab_n

«هيّا، قالت بتنهيدة كبيرة مبالغ فيها بطريقة هزليّة، أرى أنّني صرت فلّاحة سمينة وقويّة، ذات نضارة فائقة، وألوان لا بأس بها، وحمراء الوجه، لا تتمتّع بأيّ تميّز، وغير قادرة على المثول في إحدى حفلات ألماكس الراقصة[1]، أو في كتابٍ يعرض أنماط الجمال، تفصلني عن قصيدةِ إعجابٍ ورقة حريرية».

- مِسْ وارْد، أنت تجدين متعة في ثلب نفسك، قال بول مسدلاً جفنيه.
- من الأفضل لك أنْ تعترف لي بصراحة أنّني بشعة. إنّها غلطتك أيضاً يا كومودوري؛ فبأجنحة الفراريج، وضلوع الخرفان، وفتائل الثيران، والأكواب الصغيرة من نبيذ جزُر الكناري، والتنزّه على ظهر حصان، والسباحة في البحر، والتمارين الرياضية، أكسبْتَني هذه العافية البرجوازية المشؤومة التي تبدّد الأوهام الشاعرية عند السيّد دابرومون.
- أنت تعذّبين السيّد دابرومون وتسخرين منّي، قال الكومودوري المستجوَب من قبَل أليسيا؛ غير أنّ فتائل لحم الثور هي بالتأكيد مغذّية، ونبيذ جزر الكناري لم يضرّ بأحد.
- يا له من إخفاق، يا عزيزي بول المسكين! تركتَ حورية ماء، وجنيّة غابات، أو هواء، لتجد ما يسمّيه الأطباء والأهل شابّة حسنة البِنْية! لكنْ، استمعْ إليّ، بما أنّك لم تعد قادراً على النظر إليّ، وترتجف رعباً. أنا الآن أزن سبع أوقيات زيادة منذ رحيلنا من إنجلترا.
- بل ثماني أوقيات! قاطعها الكومودوري مزهوّاً، وهو الذي وضع على عاتقه معالجة أليسيا كما يمكن للأمّ الأكثر حناناً أنْ تفعل.

(1) البريطانيّ وليام ألماك William Almack : توفّي سنة 1781، يُعتبَر مؤسّس قاعات الاحتفالات والأعياد، واشتهر ناديه الحامل اسمه (Almack's Club) بحفلاته الراقصة التي كانت تجتذب أعداداً غفيرة من المشاركين.

Twitter: @ketab_n

- هل هي ثماني أوقيات بالضبط؟ يا للعمّ الفظيع، أنت إذن تريد تثبيط السيّد دابرومون إلى الأبد؟» قالت أليسيا متظاهرةً بإحباط ساخر.

وبينما كانت الفتاة تستفزّه بغُنجها ودلالها، وما كانت ستسمح لنفسها بذلك إزاء خطيبها بلا دوافع وجيهة، ظلّ السيّد دابرومون، وقد بات ضحيّة فكرته المتسلّطة، غير راغب في الإساءة إلى الآنسة وارْد بنظرته المشؤومة، يثبّتُ عينيه في القرنين الطلسميَّين، أو يتركهما تشردان بلا تحديد عبر المدى الأزرق الشاسع المرئيّ من أعلى الفيرندا.

كان يتساءل عمّا إذا كان من واجبه التخلّي عن أليسيا، وإنْ أدّى ذلك إلى اعتباره رجلاً عديم الثقة والشرف، والرحيل لقضاء بقيّة حياته في إحدى الجزر غير المسكونة، حيث يمكن هناك على الأقلّ أنْ تخمد الجتّاتورا عنده لانتفاء وجود نظرة بشرية تمتصّها.

«أفهم، قالت أليسيا متابعةً مزحتها، ما يجعلك بهذه القتامة والجدّية؛ لقد تمّ تحديد تاريخ زواجنا بعد شهر؛ وأنت تتراجع أمام فكرة أنْ تصير زوجاً لريفيّة مسكينة صارت تفتقر إلى أيّ أناقة. أنت في حِلٍّ من وعدك لي: بإمكانك الزواج من صديقتي المِسْ سارة تمبلتون التي تأكل المخلّلات وتشرب الخلّ لتصير نحيفة!».

هذا التصوّر جعلها تضحك بتلك الضحكة الفضّية الواضحة التي نتحلّى بها في عهد الشباب. حتّى أنّ الكومودوري وبول انخرطا معها في ضحكتها.

وعندما انطفأ آخر سهم ناريّ من ابتهاجها العصبيّ، اقتربت من دابرومون، أمسكت به من يده، وقادته إلى البيانو الموضوع في زاوية الفيرندا، وقالت له وهي تفتح دفتر موسيقى على المَقرأ:

«يا صديقي، أنت اليوم لا تتكلّم و«ما لا يستحقّ القول يمكن

Twitter: @ketab_n

إنشاده». إذن فأنت ستشارك في هذا اللّحن الثنائيّ الذي لا تُعتبر المصاحبة فيه صعبة: يكاد الأمر يقتصر على تساوق أنغام مؤتلفة».

جلس بول على المنضدة الخفيضة، ووقفت المِسْ أليسيا قربه، بطريقة تيسّر لها متابعة الإنشاد من توليفة القطعة الموسيقية. أمال الكومودوري رأسه، ومدّد ساقيه واتخذ وضعية غبطة مسبقة، ذلك أنّ له مزاعم ولع بالفنّ ويؤكّد أنّه يحبّذ الموسيقى؛ لكنّه منذ الإيقاع السادس نام نوم أهل العدل، وهو نوم يعاند، رغم تهكّم ابنة أخيه، في تسميته جذلاً، مع أنّه يحدث له أحياناً أن يشخر، وهو عارضٌ ضعيف الدلالة على الجذل.

كان اللّحن الثنائي نغماً حيوياً خفيفاً وفق ذوق تشيماروزا[1]، مع كلمات ميتاستاسيو[2]، ولا يمكننا وصفه أفضل إلّا بمقارنته بفراشة تجتاز عدّة مرّات شعاع شمس.

للموسيقى القدرة على طرد الأرواح الشريرة: بعد بضع جمل، لم يعد بول يفكّر في الأصابع المتوعّدة، والقرون السحريّة، والتعاويذ المرجانيّة؛ ولقد نسي الكتاب الفظيع للسنيور فاليتا وكلّ أحلام اليقظة المتعلّقة بالجتّاتورا. كانت روحه تصعد مبتهجة، مع صوت أليسيا، إلى هواء نقيّ ووضيء.

سكتت الزيزان كما لو كانت تريد الإصغاء، وكان نسيم البحر الذي بدأ بالتحرّك يحمل معه النوتات مع بتلات الزهور التي سقطت من الأصص على حافة الفيرندا.

«عمّي ينام مثل أهل الكهف في مغارتهم. لو لم يكن معتاداً على هذا

---

(1) دومينيكو تشيماروزا Dominico Cimarosa (1749–1801): ملحّن أوبرا إيطالي من المدرسة النابوليتانية.

(2) بيترو تراباسي Pietro Trapassi، المعروف أكثر باسمه المستعار ميتاستاسيو Pietro Metastasio (1698– 1782): شاعر وكاتب أوبرالي، إيطالي.

Twitter: @ketab_n

الأمر، لقلنا إنّه يسيء إلى تعلّقنا بالعزف الجميل، قالت أليسيا وهي تغلق الدفتر. هل ترغب يا بول، بينما هو ينام، في مرافقتي إلى جولة في الحديقة؟ لم أطلعْك على جنّتي بعد».

وتناولتْ من مسمار مدقوق في أحد الأعمدة قبّعة فلورنسية كبيرة من القشّ كانت معلّقة بشريط.

تنادي أليسيا في موضوع البستنة بمبادئ في غاية الغرابة؛ فهي لا تريد أنْ يتمّ قطف الزهور أو تشذيب الأغصان؛ وما أثار إعجابها في هذا المسكن، كما أسلفنا القول، هو حالة الحديقة المهملة بشكل متوحّش.

شق الشابّان درباً وسط الأجمات التي كانت تلتمّ مجدّداً بعد مرورهما. كانت أليسيا تسير في المقدّمة وتضحك من رؤية بول مطوَّقاً خلفها بأغصان الدفلى التي تحرّكها. ولم تكد تتقدّم قرابة عشرين خطوة حتّى امتدّت يد غصن خضراء، كما لو كانت تريد ممارسة مكْرٍ نباتيّ، وأمسكت بقبّعة القشّ واحتفظت بها مع رفعها إلى الأعلى أكثر، إلى درجة أنّ بول لم يتمكّن من استعادتها.

ومن حسن الحظّ أنّ الإيراق كان كثيفاً، وكانت الشمس لا تكاد ترسل بضعة دنانير ذهبيّة على الرمل من خلال فجوات الأغصان.

«هذه خلوتي المفضّلة»، قالت أليسيا، وهي تدلّ بول على كتلة صخرية ذات تصدّعات جذابة يغطّيها دغل صغير من أشجار البرتقال والأترجّ والمصطكا والآس.

جلست على تجوّف محفور بشكل مقعد، وأشارت إلى بول أن يجثو على ركبتيه على الطحالب الكثيفة الجافّة التي كانت تغطّي أسفل الصخرة.

«ضع يدَيك في يديّ وانظرْ إليّ جيّداً. بعد شهر سأصير زوجتك. لمَ تتحاشى عيناك عينيَّ؟».

Twitter: @ketab_n

وبالفعل كان بول يبعد بصره عنها، بعد أنْ عاد إلى هواجس الجتّاتورا.

«هل تخشى أن تقرأ فيهما فكرة عكسيّة أو مذنبة؟ أنت تعرف أنّ روحي ملكك منذ اليوم الذي جلبت فيه إلى عمّي رسالة التوصية في ردهة ريشموند. أنا من سلالة الإنجليزيات الرقيقات والرومنسيّات والأبيّات، ممّن يصطفين حبيباً في دقيقة واحدة ويدوم الحبّ طيلة العمر- وربّما أكثر من العمر- ومن يعرف كيف يحبّ يعرف كيف يموت. غطّس نظراتك في نظراتي، أريد ذلك؛ لا تحاول خفض جفنيك، لا تشح بوجهك، وإلّا فإنّني سوف أفكر بأنّ سيّداً نبيلاً يتوجّب عليه ألّا يخشى إلّا الربّ، يستسلم لمعتقدات تطيّر دنيئة. ثبّتْ عليّ تلك العين التي تظنّها في منتهى الفظاعة وهي في منتهى العذوبة بالنسبة لي، ذلك أنّني أرى فيها حبّك، واحكمْ إنْ كنتَ تراني لا أزال جميلة بما فيه الكفاية لكي ترافقني، بعد الزواج، في نزهة عبر الهايدبارك داخل عربة مكشوفة».

كان بول في حالة من الوله يحدّق في أليسيا بنظرة طويلة مفعمة شغفاً وحماسة. فجأةً شحُبت الفتاة؛ اخترق قلبَها ألمٌ ممضّ مثل رأس سهم: بدا أنّ عصباً ما كان يتقطّع في صدرها، وأدنت منديلها من شفتيها بقوّة. بقّعت قطرة حمراء قماش المنديل الذي طوَته أليسيا بحركة سريعة.

«أوه! شكراً يا بول؛ لقد أسعدتَني كثيراً، إذْ أنّني كنتُ أعتقد أنّك لا تحبّني!»

10

لم تكن حركة أليسيا لإخفاء منديلها من السرعة بحيث تمنع السيّد دابرومون من لمحها؛ غطّى شحوب فظيع ملامح بول، إذْ دمغتْه للتوّ حجّة لا يمكن دحضها حول قوّته المشؤومة، واخترقت مخّه أشدّ الأفكار

Twitter: @ketab_n

نحساً، بل خالجته فكرة الانتحار أيضاً. أفليس من واجبه أنْ ينتحر باعتباره كائناً مؤذياً والقضاء بذلك على السبب غير الإراديّ في تلك المصائب الكثيرة؟ كان بوسعه تحمّل أصعب المحن التي تحلّ به وتجشُّم أثقال الحياة بشجاعة؛ لكنْ، أنْ يتسبّب في موت أعزّ من يحبّ في العالم، أليس أمراً في منتهى الفظاعة؟

سيطرت الفتاة المقدامة على الشعور بالألم، الناجم عن نظرة بول، وهو ما يتطابق بشكل غريب مع ما ادّعاه الكونت آلتافيلّا. لو كان الأمر يتعلّق بروح أخرى أقلّ صرامة لصُدِمتْ بهذه النتيجة التي إنْ لم تكنْ خارقة، فهي على الأقلّ صعبة التفسير. لكنّ روح أليسيا، وسبق لنا قول ذلك، هي روح متديّنة وليست تطيُّريّة. وكان إيمانها الذي لا يتزعزع، بما ينبغي الإيمان به يستبعد كلّ حكايات التأثيرات الملغزة استبعاده لحكايات مرضعة أطفال، ويسخر من الأحكام الشعبيّة المسبقة مهما كان عمق تجذّرها. وفوق ذلك، حتّى لو سلّمتْ بحقيقة الجتّاتورا، واعترفتْ بوجود علاماتها الواضحة لدى بول، فإنّ قلبها الحنون والمتكبّر ما كان ليتردّد ثانية واحدة. لم يرتكب بول أيّ فعل يدفع صنيعه الى المراجعة، وكان من شأن الآنسة وارْد أنْ تفضّل السقوط ميتة تحت تأثير تلك النظرة، المزعوم شؤمها، على أنْ تتراجع عن حبّ مقبول من طرفها مع موافقة عمّها وسيكلّله الزواج قريباً. تشبه المِسْ أليسيا وارْد نوعاً ما بطلات شكسبير: طاهرات الجرأة، بتوليّات القرار، ولا يكون حبّهنّ أقلّ طهارة ووفاء لمجرّد كونهنّ يحببن على الفور؛ تكفي دقيقة واحدة لتكون الصلة أبديّة. لقد ضغطت يدها على يد بول، وما من رجل آخر في العالم سيمكنه ضغطها بين يديه. كانت تنظر إلى حياتها باعتبارها مرتبطة، ومجرّد التفكير في زواج آخر يفقدها صوابها.

Twitter: @ketab_n

لذا أظهرت بهجة حقيقيّة، أو لنقلْ إنّ تمثيلها كان من الصدق إلى حدّ انطلائه على أشدّ المراقبين تدقيقاً. ثمّ رفعتْ بول الذي كان لا يزال جاثياً عند قدميها، وجعلته يتنزّه عبر الممرّات المعرقَلة بالزهور والنباتات في حديقتها غير المشذّبة، حتّى بلوغ مكان كان نموّ النباتات فيه يتيح، بعد إزاحتها، رؤية البحر مثل حلم أزرق لانهائيّ. بدّد ذلك الصفاء المشرق أفكار بول السوداء: كانت أليسيا تستند إلى ذراعه بعفوية واثقة، كما لو أنّها قد صارت زوجته. بتلك الملامسة الطاهرة والصامتة، وقد تكون غير ذات دلالة بالنسبة لغيرها، لكنّها حاسمة بالنسبة إليها، كانت تسلّم نفسها إليه بصراحة أكثر، مطَمْئنةً إيّاه إزاء رعبه، ودافعةً به إلى فهم مدى استخفافها بالمخاطر التي يحذّرونها منها. ورغم توصّلها إلى فرض الصمت على فيتشي في البداية، ثمّ على عمّها لاحقاً، ورغم أنّ الكونت آلتافيلّا لم يسمِّ أحداً، مع التوصية بتوقّي تأثير سيّئ، فقد فهمت بسرعة أنّ الأمر يتعلّق ببول دابرومون؛ فتلميحات خُطَب النابوليتاني الجميل الغامضة لا يمكنها أنْ تكون موجّهة إلّا للشابّ الفرنسيّ. ولقد لاحظت أيضاً أنّ بول، بعد استسلامه للحكم المسبق المنتشر كثيراً في نابولي، والذي يجعل من كلّ إنسان ذي مظهر متفرّد قليلاً، جتّاتوري، صار يعتقد أنّه مصاب بـ «الفاتشينو»، لضعف روحيّ يفوق التصوّر، كما صار يشيح بعينيه المفعمتين بالحبّ عنها، خوفاً من إلحاق الضرر بها من خلال نظرة؛ ومن أجل مقاومة بداية هذه الفكرة المتسلّطة تسبّبت بالمشهد الذي وصفناه للتوّ، والذي كانت نتيجته بعكس النوايا، إذْ أدّى إلى تثبيت بول في هوسه الأحاديّ المشؤوم أكثر من السابق.

عاد العاشقان إلى الفيرندا حيث كان الكومودوري لا يزال تحت تأثير الموسيقى، نائماً بطرب فوق أريكة الخيزران. استأذن بول للمغادرة،

Twitter: @ketab_n

ولجأت الآنسة أليسيا إلى تقليد إشارة الوداع النابوليتانية، فأرسلت إليه على أطراف أصابعها قبلة غير مرئيّة قائلةً بصوت مفعم بملاطفات عذبة: «إلى الغد، يا بول، أليس كذلك؟».

كانت أليسيا في هذه اللّحظة تتحلّى بجمال مشرق، مُنذر، وخارق تقريباً، أدهش عمّها الذي استيقظ مذعوراً عند خروج بول. كان بياض عينيها يتحوّل إلى لُوينات فضّية مسمرّة تجعل البؤبؤين يشعّان، مثل نجمين، بلون أسود مضيء؛ وكان جفناها يتلوّنان عند الوجنتين بلونورديّ مثاليّ، ذي نضارة واحتدام سماويَين، لا يمكن لأي رسّام امتلاكه في ملْوانه أبداً؛ وكان صدغاها يكشفان في شفافية العقيق عن شبكة من العروق الرقيقة الزرقاء، فيما تبدو بشرتها كلّها مخترقة بالأشعة: حتّى ليمكن القول إنّ روحها تلوح على جلدها.

«كم أنتِ جميلة اليوم يا أليسيا! قال الكومودوري.

- أنت تدلّلني يا عمي؛ وإذا لم أكنْ الطفلة الصغيرة الأكثر كبرياء في الممالك الثلاث، فليس ذلك خطأ منك. ومن حسن الحظّ أنّني لا أؤمن بالمجاملات، حتّى النزيهة منها.

- جميلة، خطيرة الجمال، تابع الكومودوري محدّثاً نفسه، إنّها تذكّرني بقسمات أمّها، قسَمة قسَمة، نانسي المسكينة التي ماتت في سنّ التاسعة عشرة. مثل هؤلاء النساء الملائكيّات لا يمكنهنّ البقاء في الأرض: يبدو أنّ هناك نفَساً يرفعهنّ وأجنحة غير مرئيّة تخفق على أكتافهنّ؛ مفرطات في البياض، في التورّد، في النقاء، وفي الكمال؛ ينقص تلك الأجساد الأثيريّة دم الحياة الغليظ الأحمر. والربّ الذي يعيرهنّ إلى العالم بضعة أيّام يسرع إلى استعادتهنّ. ذلك البهاء الأقصى يحزنني مثل الوداع.

Twitter: @ketab_n

- إذن، يا عمّي، بما أنّني جميلة، تابعت المِسْ وارْد التي رأت جبين الكومودوري يتجهّم، فقد حان وقت زواجي: سوف تلائمني بدلة العروس والتاج تماماً.
- تتزوّجين! هل أنت مستعجلة إلى هذا الحدّ لمغادرة عمّك الهنديّ الأحمر[1]، يا أليسيا؟
- وحتّى مع الزواج لن أتخلّى عنك؛ ألمْ يتمّ الاتفاق مع السيّد دابرومون على بقائنا معاً؟ أنت تعرف جيّداً أنّني لا أستطيع العيش من دونك.
- السيّد دابرومون! السيّد دابرومون!... ما زالت حفلة الزواج بعيدة.
- ألم نعده، أنت... وأنا؟ والسيّد جوشوا وارْد لم ينكث بوعوده قطّ.
- نعم لقد وعدتُه، ولا رجوع عن ذلك، أجاب الكومودوري بارتباك واضح.
- والأجل الذي ثبّته ألم ينقضِ موعده... منذ بضعة أيّام؟ قالت أليسيا، وقد تورّد خدّاها الخجولان أكثر، لأنّ هذه المحادثة، الضروريّة حيث وصلت الأمور، كانت تثير حساسيتها المفرطة.
- آه! لقد حسبتِ الأشهر إذن، يا صغيرتي؛ ثقي إذن بهذه المظاهر البالغة التكتّم!
- أنا أحبّ السيّد دابرومون، أجابت الفتاة برصانة.
- هنا يكمن العائق، قال السّير جوشوا وارْد، وقد تشرّب أفكار فيتشي وآلتافيلّا، ولم يعد يهتمّ كثيراً بأنْ يكون له صهر جتّاتوري. فلْتُحبّي واحداً آخر!

(1) يشبّه نفسه بالهنديّ الأحمر لأنّ بشرته كانت، كما تقدّم قوله، حمراء، قرمزيّة.

Twitter: @ketab_n

- لا أمتلك قلبين، قالت أليسيا؛ لن يكون لي سوى حبّ واحد، حتّى ولو تطلّب ذلك موتي مثل أمّي، في التاسعة عشرة.

- الموت! لا تنطقي بمثل هذه الكلمات الشنيعة، أترجّاك، صاح الكومودوري.

- هل لديك اعتراض ما على السيّد دابرومون؟

- ما من اعتراض، بالتأكيد.

- هل أخلَّ بالشرف بأية طريقة كانت؟ هل ظهر ذات مرّة جباناً، دنيئاً، كاذباً أو غادراً؟ هل سبق له أن شتم امرأة أو تقهقر أمام رجل؟ هل تدنّس شرفه العائلي بعار سرّي؟ هل تضطرّ فتاة، ممسكة بذراعه للظهور أمام الناس، إلى الخجل أو خفض العينين؟

- السيّد بول دابرومون جنتلمان حقيقيّ، لا سبب يدعو إلى مؤاخذته بأيّ شيء يمسّ رزانته.

- صدّقني، يا عمّي، لو كان واحد من تلك الأسباب موجوداً لتخلّيت عن السيّد دابرومون فوراً، ولدفنت نفسي في إحدى الخلْوات المتعذّر بلوغها؛ لكنْ، ما من سبب آخر، هل تسمعني، ما من سبب آخر سيجبرني على النكوث بوعدي المقدّس»، قالت الآنسة أليسيا وارْد بنبرة صارمة وناعمة.

كان الكومودوري يبرم إبهامَيه، وهي حركة معتادة لديه عندما يعجز عن الردّ، فتسعفه كمتنفَّس.

«لمَ تُبدي الآن كلّ هذا البرود إزاء بول؟ تابعت الآنسة وارْد. في السابق كنتَ متعلّقاً به كثيراً، ولم تكن قادراً على الاستغناء عنه في بيتنا في لنكولنشاير، وكنت تقول، وأنت تصافح يده حتّى لتكاد تسحق أصابعه، بأنّه فتى شريف، وتستطيع بطيبة خاطر أنْ تعهد إليه بسعادة فتاة.

Twitter: @ketab_n

- نعم هذا مؤكّد، كنت أحبّه، بول الطيّب، قال الكومودوري الذي تأثّر بهذه الذكريات المستدعاة بحذقٍ؛ غير أنّ ما كان غامضاً في ضباب انجلترا أصبح واضحاً تحت شمس نابولي...

- ماذا تقصد؟ قالت أليسيا بصوت مرتجف وقد غادرتها ألوانها الحيويّة فجأةً، وصارت بيضاء مثل تمثال مرميّ فوق قبر.

- إنّ بول هذا جتّاتوري.

- ماذا ! أنت! عمّي؛ أنت السّير جوشوا وارْد، الجنتلمان، المسيحيّ المؤمن، أحد رعايا صاحب الجلالة البريطانيّ، الضابط السابق في البحرية الإنجليزية، الكائن المستنير والمتحضّر، المستشار في كلّ الأمور؛ أنت المتحلّي بالمعرفة والحكمة، قارئ التوراة والإنجيل كلّ مساء، ألا تخشى اتّهام بول بالجتّاتورا! أوه! لم أكنْ أتوقّع هذا منك!

- عزيزتي أليسيا، أجاب الكومودوري، ربّما كنتُ كلّ ما ذكرتِ سابقاً عندما لا يكون الأمر متعلّقاً بك، لكنْ عندما يتهدّدك خطرٌ ما، ولو كان خيالياً، فأنا أتحوّل إلى متطيّر أكثر من فلاح آبروتسي، أو صعلوك من المرفأ، أو مقشّر أصداف بحريّة في حيّ كياجا، وأكثر من خادمة من تيرا دي لافورو، أو حتّى من كونت نابوليتاني. يستطيع بول التحديق بوجهي كما يشاء بعينيه اللّتين يتقاطع شعاعاهما البصريّان، وسوف أمكث هادئاً كما لو كنت أمام حدّ سيف أو أنبوب مسدّس. لن يتمكّن «الفاتشينو» من جلدي المدبوغ، المملوّح والمحمرّ بكلّ شموس الكون. لستُ ميقاناً إلاّ في نظرك، يا ابنة أخي العزيزة، وأعترف بأنّني أشعر بعرَق بارد يجوب صدغيّ عندما تحطّ نظرة ذلك الشابّ البائس عليك. ليس

Twitter: @ketab_n

له نوايا سيئة، أعرف ذلك، وهو يحبّك أكثر من حياته؛ لكنْ يبدو لي أنّ قسماتك تتبدّل تحت ذلك التأثير، وألوانك تتلاشى، وتلوحين ساعيةً إلى إخفاء ألم حادّ؛ عندئذ تتملّكني رغبات حانقة في فَقْءِ عينَي عزيزك بول دابرومون ذاك، بحدّ أحد القرنين اللّذين جلبهما آلتافيلّا.

- يا لَعمّي العزيز المسكين، قالت أليسيا متأثّرةً بغضبة الكومودوري الحماسيّة؛ وجودنا إنّما هو بين يدي الربّ: فلا أمير يموت في فراشه، ولا دُوريّ سطحٍ ينفق على قرميدته، إنْ لم تأزف ساعته المسجّلة في الأعالي؛ لا دخل للفاتشينو في ذلك، ومن الكفر الاعتقاد بأنّ نظرة منحرفة بهذه الدرجة أو تلك يمكنها ترك تأثير ما. تعال نتأكّد، يا «عُمَيمي»، تابعت مستخدمةً الكلمة الوديّة المألوفة التي تستخدمها شخصيّة المجنون في مسرحية «الملك لير»[1]؛ إنّك لم تكن تتكلّم جدياً قبل قليل؛ حنوّك عليّ يربك حُكمك الذيَ كان دائماً عادلاً. أليس صحيحاً أنّك لن تجرؤ على القول إلى السيّد بول دابرومون بأنّك تتراجع عن تسليمه يد ابنة أخيك، التي وضعتها أنت في يده، وأنّك لم تعد ترغب فيه صهراً، بالتعلّة الجميلة المتمثّلة في كونه... جتّاتوري!

- بحقّ يشوع، قدّيسي الشفيع الذي أوقف الشمس[2]، صاح الكومودوري، لن أهضمه ذلك السيّد الجميل بول. لا يهمّني إنْ كنتُ سخيفاً، أو عبثيّاً، أو حتّى مخادعاً، عندما يتعلّق الأمر

(1) ترد Nuncle على لسان مهرّج الملك لير في مسرحيّة شكسبير المعروفة.

(2) يَشُوعُ بْنُ نُونٍ (عند المسيحيّين) أو يُوشَعُ بْنُ نُونٍ (عند المسلمين) ويَهُوشُوع حسب التوراة. في إحدى المعارك نظر إلى الشمس ودعا ربّه بألّا تغيب حتّى يتمكّن من مواصلة القتال.

Twitter: @ketab_n

بصحّتك، وربّما بحياتك! كان التزامي مع رجل وليس مع رجلٍ ذي عينٍ خبيثة. لقد وعدت؛ وها أنذا أنكث بوعدي، هذا كلّ ما في الأمر؛ وإذا لم يكن راضياً فسوف أتولّى إعادته إلى رشده».

وقام الكومودوري المغتاظ بحركات من ينهار، دون انتباه إلى النقرس الذي كان يعضّ على أصابع قدميه.

«أيّها السّير جوشوا وارْد، لن تفعل ذلك»، قالت أليسيا بهدوء وعزّة نفس.

انهار الكومودوري مجهداً على أريكته الخيزران ولزم الصمت.

«إذن يا عمي، حتّى لو كانت تلك التهمة المقيتة والغبيّة حقيقيّة، هل يتطلّب ذلك استبعاد السيّد دابرومون، واتّهامه بجريمة شؤم؟ ألم تعترف بأنّ الأذى الذي يمكنه إلحاقه ليس ناتجاً عن إرادته، وأنّه لم يسبق لك التعرّف على روح مثل روحه محبّةً وكرماً ونبلاً؟

- لا أحد يتزوّج مصّاصي دماء مهما كانت نواياهم حسنة، أجاب الكومودوري.

- لكنّ كلّ ذلك وهْم، هوس، تطيّر؛ والحقيقيّ فيه، من سوء الحظّ، أنّ بول قد أصيب بتلك الحماقات، وصدّقها؛ صار مرتاعاً، مهلوساً؛ مقتنعاً بقوّته المشؤومة، صار يخشى ذاته، وكلّ حادثة صغيرة لم يكن ينتبه إليها في السابق، وصار اليوم يتصوّر أنّه المتسبّب فيها، باتت تؤكّد له هذه القناعة. ألا يعود إليّ، أنا زوجته أمام الربّ، وأمام الناس قريباً -وبمباركة منك يا عمّي العزيز- واجب تهدئة تلك المخيّلة المهتاجة، وطرد الأشباح الوهمية، وتسكين القلق الوحشيّ شقيق الهوس، من خلال طمأنينتي الظاهرة والحقيقيّة، وإنقاذ تلك الروح الجميلة المضطربة، بواسطة السعادة، وذلك العقل الجذاب

Twitter: @ketab_n

الذي يتهدّده الجنون؟

- أنت محقّة دائماً، مِسْ وارْد، قال الكومودوري؛ وأنا، الذي تسمّينني حكيماً، لست إلّا مجنوناً هرماً. أظنّ أنّ تلك الخادمة فيتشي ساحرة؛ لقد تمكّنت من تشويش أفكاري بحكاياتها تلك. أمّا بالنسبة للكونت آلتافيلّا، وقرنيه وكراكيبه الغامضه فتبدو لي حالياً سخيفة بما فيه الكفاية. الأرجح أنّها كانت مناورة متخيَّلة تهدف إلى إبعاد بول من أجل أن تكوني زوجته هوَ.

- قد يكون الكونت آلتافيلّا حسن النية، قالت مِسْ وارْد مبتسمة؛ قبل قليل كنتَ تشاطره الرأي حول الجتّاتورا.

- لا تستغلّي قوّة موقفك، يا مِسْ أليسيا؛ وليكنْ في علمك أنّني لم أعُدْ بعدُ بشكل كامل من غلطتي وقد أسقط فيها من جديد. أفضل حلّ هو مغادرة نابولي في أوّل رحلة للسفينة البخارية، والعودة براحة بال إلى إنجلترا. وعندما يكفّ بول عن رؤية قرون الثيران والأيائل، والأصابع الممدودة إلى الأمام، والتعاويذ المرجانية وكلّ تلك الأدوات الجهنّميّة، سوف تهدأ مخيَّلته، وأنا شخصيّاً سوف أنسى تلك الترّهات التي كادت تودي بي إلى نكث وعدي وارتكاب فعل غير جدير برجل شريف. سوف تتزوّجين بول، بما أنّنا اتّفقنا على ذلك. عليك أنْ تتركي لي قاعة الاستقبال وغرفة الطبقة الأرضيّة في منزل ريشموند، والبرج الصغير المثمّن الزوايا في لنكولنشاير، وسوف نعيش سعداء معاً. وإذا تطلّبتْ صحّتك هواء أسخن، فسوف نستأجر بيتاً ريفيّاً ناحية تُورْ أو ربّما كَانْ، هناك حيث يمتلك اللّورد بروغهام مزرعة جميلة، وحيث لا أحد يعرف تلك التطيّرات اللّعينة للجتّاتورا، شكراً للربّ. ما رأيك في

Twitter: @ketab_n

خطّتي يا أليسيا؟

- أنت لست في حاجة إلى موافقتي، ألستُ ابنة أخيك الأكثر طاعة؟

- نعم، عندما أفعل ما تريدينه أنت، أيّتها المقنّعة الصغيرة»، قال الكومودوري مبتسماً قبل قيامه للالتحاق بغرفته.

مكثت أليسيا بضع دقائق إضافية في الفيرندا؛ لكنْ، سواء أكان المشهد السابق قد أدّى بها إلى بعض الاهتياج المحموم أم أنّ بول قد يكون مارس فعلاً على الفتاة ذلك التأثير الذي كان الكومودوري يخشاه، فقد خلّفَ النسيم الفاتر لدى مروره على كتفيها المغطّاتين بِشاشٍ بسيط، شعوراً بالتجمّد، وفي اللّيل أحسّت بانزعاج فترجّت فيتشي أنْ تفرد على رجليها الباردتين البيضاوين مثل الرخام واحداً من تلك الأغطية الملوّنة التي تُصنع في البندقية.

في تلك الأثناء كانت الحباحب تتلألأ في العشب، والزيزان تنشد، والقمر الكبير الأصفر يرتفع في السماء وراء شريط ضبابٍ ساخن.

11

غداة ذلك المشهد، لم تكد أليسيا التي أمضت ليلة غير مريحة، تلامس بشفتيها الشراب الذي تقدّمه لها فيتشي كلّ صباح، ووضعته بوهن على المنضدة الصغيرة قرب سريرها. لم تكن تشعر بأيّ ألم محدّد بل بالانكسار؛ كانت تعاني من مشكلة هي مشكلة عيش أكثر ممّا هي مشكلة مرض، وهذا ما كان يجعلها تشعر بالارتباك إذا فكّرت في وصف أعراض حالتها تلك إلى الطبيب. طلبت من فيتشي إحضار مرآة، ذلك أنّ الفتاة عادةً ما تقلق من التبدّلات التي يتسبّب فيها الألم لجمالها أكثر من اهتمامها بالألم في حدّ ذاته. كان لونها مفرطاً في بياضه؛ ثمّة فقط بقعتان صغيرتان تشبهان

Twitter: @ketab_n

ورقتين من وردة البنغال ساقطتين في كوب حليب، تسبحان في شحوبها. وكانت عيناها تلمعان بزرقة نادرة، متّقدتَين بآخر نيران الحمّى؛ غير أنّ لون الكرز في شفتيها كان أقلّ حيويّة، ومن أجل استعادة لونهما عضّتهما بأسنانها الصغيرة اللّؤلؤية.

نهضت، تدثّرت بمبذل من الكشمير الأبيض، ولفّت وشاحاً من الشاش حول رأسها، إذْ رغم الحرارة التي كانت تدفع بالزيزان إلى الصرير، كانت لا تزال تشعر بالبرد؛ وذهبت إلى الفيرندا في الساعة المعتادة، حتّى لا تسترعي انتباه الكومودوري المستنفَر دائماً. لامست الفطور بطرفَي شفتيها، رغم أنّها لم تكن تشعر بالجوع، لكنْ، لن يتردّد السّير جوشوا وارْد في عزْو أيّ علامة توعُّك في صحّتها إلى تأثير بول، وذلك ما كانت أليسيا تريد تفاديه قبل أيّ شيء آخر.

ثم، وبتعلّة أنّ ضوء النهار الساطع يرهقها، انسحبت إلى غرفتها، دون أنْ تنسى تذكير الكومودوري عدّة مرّات، وهو المرتاب في مثل هذه الحالات، بأنّها في حالة صحّية ممتازة.

«ممتازة... أشكّ في ذلك، قال الكومودوري محدّثاً نفسه، بعد أن انسحبت ابنة أخيه. كانت لها لُوَينات صدفية قرب العينين، وأخرى قانية في أعلى الوجنتين، تماماً مثل أمّها المسكينة التي كانت تدّعي بدورها أنّها في صحّة أفضل ممّا كانت عليه. ما العمل؟ حرمانها من بول قد يعني قتلها بطريقة أخرى؛ فلنترك الطبيعة تتصرّف. أليسيا في أوج الشباب! نعم، لكنّ العجوز موب[1] لا تحقد إلّا على الأكثر شباباً والأكثر جمالاً؛ إنّها تغار مثل امرأة. ماذا لو استقدمتُ طبيباً؟ لكنْ ماذا يستطيع الطبّ أمام ملاك!

---

(1) واضح أنّه يقصد المنيّة، ولكن لم يجد الشرّاح ما يشير إلى الموت في المفردة Mob (وكذلك Mab) التي تشير في الإنجليزيّة القديمة إلى مومس.

Twitter: @ketab_n

مع أنَ كلّ الأعراض السيئة كانت قد اختفت... آه! إذا كنتَ أنتَ، يا بول الرجيم، مَنْ يجني هذه الزهرة الربّانية بأنفاسه، فسوف أخنقك بيديّ هاتين. لم تكن نانسي خاضعة لنظرة جتّاتوري، ومع ذلك ماتت. وماذا إذا ماتت أليسيا! كلّا هذا غير ممكن. لم أفعل شيئاً للربّ حتّى يخصّني بهذا الألم الفظيع. عندما يحصل ذلك، يكون قد مرّ وقت طويل على نومي تحت لحدي مع نقش يقول: «منذوراً لذكرى السّير جوشوا وارْد»، في مسقط رأسي. إنّها هي التي سوف تأتي لتبكي وتصلّي على الحجر الرماديّ من أجل الكومودوري العجوز... لست أدري ما أصابني، لكنّني أشعر بالكآبة والمزاج المأتميّ هذا الصباح!»

ومن أجل تبديد هذه الأفكار السوداء أضاف عميد البحرية المتقاعد قليلاً من روم جامايكا إلى الشاي البارد في فنجانه، وطلب الهوكا[1]، وهي تسليته البريئة التي لا يسمح بها لنفسه إلّا في غياب أليسيا، لأنّ هشاشتها قد تتأثّر حتّى بذلك الدخان الخفيف المزوج بالعطور.

كان قد غلّى الماء المعطّر المخصص لهذا الوعاء وأبعد مَن أمامه بضع غيمات مزرقّة عندما لاحت فيتشي معلنة عن قدوم الكونت آلتافيلّا.

«سيّدي جوشوا، قال الكونت بعد التحيّات والمجاملات المتبادلة، هل فكّرتَ في الطلب الذي تقدّمت به إليك سابقاً؟

- لقد فكّرت في ذلك، تابع الكومودوري، لكنك تعرف أنّ السيّد بول دابرومون قد حصل على كلمتي.

- نعم، ولكنّ هناك حالات يمكن فيها سحب الكلمة؛ مثلاً عندما لا يكون الرجل الذي أعطيناه كلمتنا، لسبب أو لآخر، كما ظنّناه في البداية.

(1) النارجيلة.

Twitter: @ketab_n

- أيّها الكونت، تكلّمْ بوضوح أكثر.
- أكره الهجوم على منافس؛ لكنْ، حسب المحادثة التي تبادلناها معاً، ينبغي أنْ تكون مدركاً مقصدي. إذا استبعدتَ السيّد بول دابرومون، هل تقبل بي صهراً لك؟
- أنا، بالتأكيد؛ لكن ليس من المؤكّد أنْ ترضى الآنسة وَارْد على هذا الاستبدال. هي عنيدة في تعلّقها بالسيّد بول هذا، وأنا مساهم قليلاً في هذا الخطأ، لأنّي أنا نفسي كنت أساهم في تقريب ذلك الشابّ قبل كلّ هذه الخرافات الحمقاء. عذراً، أيّها الكونت على هذه النعوت، لكنّ مخّي مقلوب حقّاً.
- هل ترغب في موت ابنة أخيك؟ قال آلتافيلّا بنبرة متأثّرة وصارمة.
- يا للهول! ابنة أخي تموت! صاح الكومودوري واثباً من أريكته ورامياً بخرطوم الشيشة الجلدي.
كانت أيّ ملامسة لهذا الوتر عند السّير جوشوا وارْد، تجعله يرتجّ أكثر.
«هل يعني هذا أنّ ابنة أخي مريضة بشكل خطير؟
- لا تُذعَرْ بهذه السرعة، يا ميلورد؛ يمكن للآنسة أليسيا أنْ تعيش، وحتّى إلى عمر طويل.
- حبّذا! لقد أقلقتني.
- لكنْ بشرط، تابع الكونت آلتافيلّا: أنْ تكفَّ عن رؤية السيّد بول دابرومون.
- آه! هي ذي الجتّاتورا تعود إلى السطح! من سوء الحظّ أنّ المِسْ وارْد لا تؤمن بها.
- أنصتْ إليّ، قال الكونت آلتافيلّا باتزّان. عندما التقيت لأوّل مرّة

Twitter: @ketab_n

بالآنسة أليسيا في حفل أمير سيراكوزا، وشعرت إزاءها بشغف يجمع بين الاحترام والاشتعال، كان أوّل ما شدّني إليها عافيتها المشرقة وفرحة الوجود وزهرة الحياة المتفتّحة في كامل شخصيّتها. كان جمالها يغدو بسبب ذلك مشعّاً، سابحاً في النعيم. كان ذلك التألّق يجعلها تتلألأ مثل نجم؛ فاستطاعت إخماد الإنجليزيات والروسيات والإيطاليات، ولم أعد أرى سواها. فهي تضيف إلى التميّز الإنجليزي ذلك الحسن الخالص القويّ لدى الآلهة القديمة؛ وألتمس منك عذراً لهذا الوصف الأسطوريّ من شخص تعودُ سلالته إلى جالية إغريقية.

- صحيح أنّها كانت رائعة! حتّى أنّ المِسْ إدوينا أوهرتي، واللّيدي إيليونور ليلّي، والسيّدة جين سترانغفورد، والأميرة فيرا فيدوروفنا بارياتينسكي، كذْنَ يُصبْن بداء اليرقان من شدّة الغيظ، قال الكومودوري مبتهجاً.

- والآن، ألا تلاحظ أنّ جمالها قد مال إلى شيء من الذبول، وأنّ ملامحها تنحلّ في هشاشة مرَضيّة، وعروق يديها تبدو أكثر زرقة ممّا ينبغي، وصار لصوتها رنّات آلة هارمونيكا ذات ارتجاجات مقلقة وجاذبية مؤلمة؟ إنّ العنصر الأرضيّ يمّحي ويترك الهيمنة للعنصر الملائكيّ. صارت المِسْ أليسيا ذات كمال أثيريّ، ومهما ظننتَ أنّني ماديّ النزعة، فأنا لا أرضى بهذا لفتيات هذا الكوكب».

كان ما يقوله الكونت يتوافق جيّداً وهمومَ السّير جوشوا السرّية، حتّى إنّه ظلّ بضع دقائق صامتاً وكأنّه تائه في أحلام يقظة عميقة.

«كلّ هذا صحيح؛ رغم أنّني أسعى أحياناً إلى خداع نفسي، لا يمكنني معارضة ما قلت.

Twitter: @ketab_n

- لم أتمم كلامي، قال الكونت؛ هل كان هناك ما يبعث على القلق في صحّة الآنسة أليسيا قبل وصول السيّد دابرومون إلى إنجلترا؟

- أبداً: كانت الطفلة الأنضر والأكثر مرحاً في الممالك الثلاث.

- حضور السيّد دابرومون يتصادف، كما تعلم، مع المراحل المرضية التي تعكّر الصحّة الثمينة للآنسة وارْد. لا أطلب منك، أنت رجل الشمال، تصديقاً ضمنيّاً لمعتقد، لحكم مسبق، لتطيُّر، إنْ شئت، من بلداننا الجنوبية، لكنْ عليك الاعتراف بأنّ هذه الوقائع غريبة وتستحقّ أنْ توليها انتباهك كلّه...

- ألا يمكن أنْ تكون أليسيا مريضة... بشكل طبيعيّ؟ قال الكومودوري، متزعزعاً من حجج آلتافيلّا المضلّلة، مع نوع من الحياء الإنجليزي الذي ظلّ يمنعه من تبنّي المعتقد الشعبيّ النابوليتاني.

- مِسْ وارْد ليست مريضة؛ إنّها تتكبّد نوعاً من التسميم من خلال النظر، وحتّى إذا لم يكن السيّد دابرومون جتّاتوري، فهو على الأقلّ مشؤوم.

- وماذا باستطاعتي أنْ أفعل؟ هي تحبّ بول، وتهزأ من الجتّاتورا، وتزعم أنّه ليس من المعقول تقديم مثل هذا السبب لرجل شريف من أجل رفضه.

- ليس من حقّي الاهتمام بابنة أخيك: فأنا لست أخاها، ولا قريبها، ولا خطيبها؛ غير أنّني، إذا حصلت على موافقتك، ربّما بذلت جهداً لتخليصها من ذلك التأثير المنحوس. أوه! لا تخشَ شيئاً؛ لن أقترف عملاً شاذّاً؛ ومهما كنت شابّاً فأنا أعرف أنّه لا ينبغي إحداث ضجّة حول سمعة فتاة؛ اسمح لي فقط بالتكتّم على خطّتي. لتكنْ

Twitter: @ketab_n

لك ثقة كافية في استقامتي حتّى تصدّق بأنّ خطّتي تلك لا تتضمّن شيئاً يأباه الشرف الرفيع.

- إذن فأنت تحبّ ابنة أخي كثيراً؟ قال الكومودوري.

- نعم، بما أنّني أحبّها بلا أمل؛ لكنْ هل تسمح لي بالمرور إلى الفعل؟

- أنت رجل فظيع، أيّها الكونت آلتافيلّا؛ نعم! ابذل ما في وسعك لإنقاذ أليسيا بطريقتك، ولن أجدها طريقة سيّئة، بل سوف أجدها مناسبة جدّاً».

وقف الكونت، وألقى التحيّة، وعاد إلى عربته، ثمّ طلب من الحوذيّ أنْ ينقله إلى فندق روما.

كان بول يستند بكوعيه على المائدة، ورأسه بين يديه، يستغرق في تأمّلات شديدة الأسى؛ لقد رأى القطرتين الحمراوين، أو الثلاث، على منديل أليسيا، وبما أنّه لم يستطع التخلّص من فكرته المتسلّطة فقد كان يلوم نفسه على حبّه القاتل، ويوبّخها على قبول تفاني تلك الفتاة الجميلة المصمّمة على الموت من أجله، ويتساءل بأيّ تضحية تفوق قدرة البشر يمكنه مكافأة ذلك الإنكار الخارق للذّات.

قطع بادي، السّاعي القزم، ذلك التأمّل جالباً معه بطاقة الكونت آلتافيلّا.

«الكونت آلتافيلّا! ماذا يريد مني؟ قال بول مُفاجأً بقوّة. أدْخِلْه».

عندما لاح النابوليتاني عند عتبة الباب، كان السيّد دابرومون قد موّه دهشته بقناع اللّامبالاة الباردة الذي يستخدمه رجال المجتمع لإخفاء مشاعرهم.

وبتهذيب بارد أشار إلى أريكة للكونت، وجلس هو شخصيّاً، وظلّ ينتظر صامتاً وعيناه مثبّتتان على الزائر.

Twitter: @ketab_n

«سيّدي، بادر الكونت بالقول وهو يحرّك تعاويذ سلسلة ساعته، ما جئت لأقوله لك هو في منتهى الغرابة وعدم اللّياقة وقلّة الملاءمة، بحيث يكون من حقّك إلقائي من النافذة. وفرْ عليّ هذا العنف، لأنّني جاهز لإنصافك بطريقة وديّة.

- أنا منصت إليك، يا سيّدي، مع التحفّظ على ما ستقدّمه لي لاحقاً، إنْ كان كلامك لا يناسبني، أجاب بول من دون أنْ ترفّ عضلة واحدة في وجهه.

«أنت جتّاتوري!»

إثر سماع هاتين الكلمتين، عمّ شحوب مخضرّ فجأةً وجه السيّد دابرومون، وأحاطت بعينيه هالة حمراء؛ اقترب حاجباه، وانبثق من بؤبؤيه ما يشبه البريق الفوسفوريّ؛ نهض قليلاً، ممزّقاً بيديه المتشنّجتين مسندَي الأكاجو في الأريكة. كان الأمر من الفظاعة حتّى أنّ آلتافيلّا، رغم شجاعته الفائقة، أمسك بواحد من فروع المرجان الصغيرة المتشعّبة والمعلّقة في سلسلة ساعته، ووجّه غريزياً رؤوسها المسنّنة نحو محدّثه.

وبجهدٍ من العزيمة أقصى، عاد السيّد دابرومون إلى الجلوس، وقال: «أنت على حقّ، يا سيّدي؛ هذه هي المكافأة التي تستوجبها مثل تلك الشتيمة؛ غير أنّني سأصبر أكثر في انتظار تدارك آخر للخطأ.

- صدّقْ، تابع الكونت، أنّني لم أوجّه مثل هذه الإهانة التي لا يمكن غسلها إلّا بالدم، إلى أيّ رجل نبيل، من دون دوافع خطيرة. أنا أحبّ الآنسة أليسيا وارْد.

- وماذا يهمّني؟

هذا يهمّك قليلاً جدّاً، بالفعل، لأنّك محبوب؛ أمّا أنا، الدّونْ فيليب آلتافيلّا، فأمنعك من رؤية المِسْ أليسيا وارْد.

Twitter: @ketab_n

- لا أتقبّل أوامر منك.

أعرف ذلك، أجاب الكونت النابوليتاني؛ لذلك لم أكن أتوقّع أن تطيعني.

- وأيّ دافع يجعلك تفعل ذلك، إذن؟ قال بول.

- لي قناعة بأنّ «الفاتشينو» الذي تتحلّى به، مع الأسف، يؤثّر بطريقة مشؤومة في الآنسة أليسيا وارْد. هذه فكرة عبثيّة، حكم مسبق جدير بالعصور الوسطى يمكنه أن يبدو لك سخيفاً جدّاً؛ ولن أناقش ذلك معك. عيناك تقعان على المِسْ وارْد وترسلان لها رغماً عنك تلك النظرة المشؤومة التي سوف تقتلها. وما من وسيلة أخرى لديّ لمنع هذه النتيجة الحزينة إلّا من خلال استفزازك بخصومة لا موجب لها. لو كنتُ في القرن السادس عشر، لجعلتك تُقتل على يدي واحد من فلاحيَّ في الجبل؛ لكنّ تلك التقاليد لم تعد واردة اليوم. ولقد فكّرت عميقاً في مطالبتك بالعودة إلى فرنسا؛ لكنّه أمر في منتهى السذاجة: كنتَ ستهزأ من هذا المنافس الذي قال لك أنْ ترحل وتتركه وحيداً قرب خطيبتك بذريعة الجتّاتورا».

وبينما كان الكونت ألتافيلّا يتكلّم، كان بول دابرومون يشعر أنّه مخترَق برعب خفيّ؛ فهوَذا إذن، هو المسيحيّ، ضحيّة قوى الجحيم، والشيطان الرجيم ينظر عبر بؤبؤيه! فيزرع الكوارث، وحبّه يتسبّب بالموت! ولِلَحظة زوبعَ عقله في دماغه، وخبط الجنون بجناحيه الجدران الجانبيّة في جمجمته.

«أيّها الكونت، بشرفك، هل تفكّر في ما تقول؟ صاح دابرومون بعد بضع دقائق من حلم يقظة، احترمه النابوليتاني.

- أفكّر في ذلك، بشرفي.

Twitter: @ketab_n

- أوه! إذن فالأمر صحيح! قال بول بصوت خفيض: أنا قاتل إذن، شيطان، مصّاص دماء! أقتل تلك المخلوقة السماوية، وأعذّب ذلك العجوز!» وكان على وشك وعد الكونت بعدم الرجوع إلى رؤية أليسيا؛ غير أنّ الحياء البشريّ والغيرة اللّذين استيقظا في قلبه، أوقفا كلماته على شفتيه.

«أيّها الكونت، أضاف بول، لنْ أخفي عنك شيئاً إنْ قلت لك أنّني سأذهب حالاً لرؤية الآنسة وارْد.

- لن أمسك بخناقك لمنعك من ذلك؛ لقد وفّرتَ عليَّ قبل قليل وسائل العنف، وأنا أعترف بجميلك؛ لكنْ تسرّني رؤيتك غداً، في الساعة السادسة، عند آثار پومپي، في قاعة الحمّامات المعدنيّة، على سبيل المثال؛ سوف يكون المكان مناسباً جدّاً. أيّ نوع من السلاح تفضّل؟ فقد أُهنْتَ: أتفضّل السيف أم السيف المعقوف أم المسدّس؟

- سوف نتبارز بالسكاكين وعيوننا معصوبة، يفصل بيننا منديل يمسك كلانا بأحد طرفيه. ينبغي توفير التساوي في الحظ: أنا جتّاتوري؛ يكفي أنْ أنظر إليك حتّى أقتلك، سيّدي الكونت!»

ثمّ أطلق بول دابرومون قهقهة ذات صرير حادّ، ودفع باباً واختفى.

12

استقرّت أليسيا في قاعة منخفضة من المنزل، كانت جدرانها مزيّنة بمشاهد رسوم جداريّة، تعوّض ورق الجدران في إيطاليا. ويتكوّن أثاثها من حصائر قصب تغطّي الأرضية. ومائدة أُلقيَتْ عليها قطعة سجّاد تركي تنتشر عليها أشعار كولريدج وشلي وتينيسوس ولونغفلو، ومرآة

Twitter: @ketab_n

ذات إطار من الطراز العتيق وبعض كراسي القصب؛ كما توجد ستائر من الأسل الصيني مزركشة بمعابد وصخور وصفصاف وكراكي وتنانين، متطابقة عند الفتحات ومرفوعة إلى النصف، تغربل ضوءاً ناعماً؛ ويظهر غصن شجرة برتقال، محمّلة بزهور تُسقطها الثمار عندما تنعقد، متسلّلاً بشكل مألوف إلى الغرفة وممتدّاً مثل شريط زخرفة فوق رأس أليسيا، نافضاً عليها ثلجه المعطّر.

كانت الفتاة، ولا تزال، متألمة قليلاً، متمدّدة على أريكة ضيّقة قرب النافذة؛ ترفعها حتّى النصف ثلاث أو أربع وسادات مغربية؛ أمّا غطاء البندقية فكان يغطّي رجليها باحتشام؛ وبذلك الترتيب كان يمكنها استقبال بول من دون خرق قوانين الحياء الإنجليزي.

كان الكتاب الذي بدأت أليسيا بقراءته قد انزلق أرضاً من يدها الساهية؛ وكانت حدقتاها تسبحان بشرود تحت أهدابها الطويلة وتبدوان كأنّهما تنظران إلى ما وراء هذا العالم؛ كانت تعاني من ذلك الضنى شبه الشهوانيّ الذي يعقب نوبات الحمّى، ولا انشغال لها إلّا بمضغ زهور شجرة البرتقال التي كانت تجمعها من فوق غطائها ويعجبها مذاقها المرّ. ألا توجد فينوس ماضغة ورود في لوحات سكيافوني؟ أيّ رسم لطيف مشابه للوحة رسّام البندقية القديم يمكن لرسّام حديث إنجازه بتقديم أليسيا معضعضةً أزهارَ شجرة برتقال!

كانت تفكّر في السيّد دابرومون وتتساءل عمّا إذا كانت ستتمكّن من العيش بما يكفي كي تصير زوجته؛ ليس لأنّها صدّقت تأثير الجتّاتورا، بل لأنّها صارت تشعر بأنّها مجتاحة رغماً عنها باستشعارات جنائزيّة: ففي اللّيلة ذاتها شاهدت حلماً لم تتلاش آثاره حتّى استيقاظها.

في ذلك الحلم كانت نائمة لكنّها مستيقظة وتوجّه عينيها نحو باب

Twitter: @ketab_n

غرفتها، مستشعرة أنّ أحداً ما سيظهر.- بعد دقيقتين أو ثلاث من الانتظار القلِق رأت شكلاً رشيقاً أبيض يرتسم على الخلفيّة الداكنة لإطار الباب، لاح الشكل في البداية شفّافاً وتاركاً ما يشبه ضباباً خفيفاً يدع مجالاً لرؤية الأشياء عبره، ثمّ زاد متانةً لدى اقترابه من السرير.

كان الظلّ يرتدي فستاناً من الموسلين تتجرجر أذياله على الأرض؛ وكانت خصلات لولبية من شعره الأسود المحلول تبكي على امتداد وجهه الشاحب المعلَّم ببقعتين ورديّتين صغيرتين على الوجنتين؛ وكانت بشرة الرقبة والصدر على درجة من البياض تجعلها تمتزج بالفستان، فلا يصير من السهل الجزم أين تنتهي البشرة وأين يبدأ القماش؛ وهناك سلسلة ذهبيّة من صنع البندقية لا تكاد تُرى، تطوّق العنق الرقيق بخط ذهبيّ ضيّق؛ يدها النحيفة والمعرّقة بالأزرق تمسك بزهرة - وردة شاي[1]- تنفصل بتلاتها وتنهمر على الأرض مثل الدموع.

لا تعرف أليسيا أمّها التي ماتت بعد ولادتها بعام؛ لكنّها كثيراً ما كانت تقف متأمّلة أمام منمنمة ذات ألوان شبه منحلّة تُظهر درجة لون أصفر عاجيّ، شاحبة مثل ذكريات الموتى، وتبعث على تصوّر أنّها صورة شبح أكثر منها صورة امرأة حيّة، وفهمت أنّ تلك المرأة التي كانت تدخل إلى الغرفة بتلك الطريقة هي نانسي وارْد، أمّها. الفستان الأبيض، والسلسلة، والزهرة في اليد، والشعر الأسود، والخدّان المورّدان، لا ينقص شيء. إنّها فعلاً تلك المنمنة العاجية، مكبّرة الحجم، مظهَّرة كمثْل صورة فوتوغرافيّة، ومتحرّكة بكلّ حقيقة الحلم.

دفع حنوّ ممزوج بالرعب صدر أليسيا إلى الخفقان. كانت ترغب في مدّ ذراعيها للشبح، غير أنّ ذراعيها الثقيلتين مثل الرخام لم يكن بوسعهما

(1) وردة مهجّنة بنكهة زهر الشاي.

Twitter: @ketab_n

الانفصال عن الطبقة التي تستندان إليها. حاولت الكلام لكنّ لسانها لم يتمكّن إلّا من التلجلج بنبرات مبهمة.

بعد أنْ وضعت نانسي وردة الشاي على المنضدة، جثت قرب الفراش ووضعت رأسها على صدر أليسيا، مصغيةً إلى تنفس الرئتين، محصيةً خفقات القلب؛ وكان خدّ الشبح البارد يبعث في الفتاة، الفزِعة من ذلك الفحص الصامت، أثر قطعة ثلج.

نهض الخيال، ألقى نظرة أليمة على الفتاة وبعد عدّ أوراق الوردة التي انفصلت منها بضع بتلات أخرى، وقال: «لم تبقَ إلّا واحدة».

ثمّ تدخّل النوم بِشاشِه الأسود بين الشبح والفتاة النائمة، واختلط كلّ شيء في الظلام.

هل تلك روح أمّها جاءت تُنذرها وتطلبها؟ ماذا تعني تلك الجملة الغامضة التي هوت من فم الشبح: «لم تبقَ إلّا واحدة؟» هل تكون تلك الوردة الشاحبة المتساقطة البتلات رمزاً لحياتها؟ ظلّ ذلك الحلم الغريب مع رعبه اللّطيف وجاذبيته المخيفة، وذلك الشبح الجذّاب المتدثّر بالموسلين محصياً بتْلات الزهور، يشغل خيال الفتاة، فيما غيمة كآبة تطفو فوق جبينها الجميل، واستشعارات عديدة تلامسها بأجنحتها السوداء.

وغصن شجرة البرتقال، هذا الذي ينفض عليها أزهاره، أليس له معنى مأتميّ أيضاً؟ هكذا إذن، لن تتلألأ النجوم البكر الصغيرة تحت وشاح العروس؟ سحبت أليسيا من بين شفتيها الزهرة التي كانت تعضعضها حزينة مستغرقة في التفكير؛ كانت الزهرة الصفراء قد ذبلت تماماً...

كان موعد زيارة السيّد دابرومون يقترب. كابرت الآنسة وازْد في بذل جهد أكبر، أعادت البشاشة إلى وجهها، ولفّت بإصبعها خصلات

Twitter: @ketab_n

شعرها، وعدّلت طيّات وشاح الشاش المنكمشة، واستعادت كتابها في يدها لإظهار بعض رباطة الجأش.

دخل بول، واستقبلته الآنسة وارْد مبتهجة، إذْ كانت لا ترغب في رؤيته مستنفَراً لو أنّه رآها نائمة، ولن يكفّ عن اعتبار نفسه سبب مرضها. وكانت المشاحنة التي خاضها مع الكونت آلتافيلّا قد أضفت على بول مظهراً زائغاً وشرساً جعل فيتشي تؤدّي إشارة التعزيم، غير أنّ ابتسامة أليسيا الحانية سرعان ما بدّدت الغيمة.

«أتمنّى ألّا تكوني مريضة مرضاً خطيراً، قال مخاطباً الآنسة وارْد وهو يجلس إلى جانبها.

أوه! لا شيء، بعض التعب فقط: هبّت ريح السيروكو بالأمس، وهذه الريح القادمة من أفريقيا تتعبني: لكنّك سوف تتأكّد كيف أستعيد صحّتي بشكل جيّد في قصرنا الصغير في لنكولنشاير! وبما أنّني قويّة الآن فسنمارس التجذيف بالدور في المستنقع!».

ولدى نطقها بتلك الكلمات لم تتمكّن من إخفاء سعلة تشنّجية صغيرة إخفاءً كاملاً.

امتقع لون السيّد دابرومون وأبعد عنها عينيه.

خيّم الصمت بضع دقائق في الغرفة.

«بول، أنا لم أهبك شيئاً البتّة، تابعت أليسيا وهي تنزع عن إصبعها الذي ازداد هزالاً خاتماً ذهبيّاً بسيطاً؛ خذْ هذا الخاتم ذكرى منّي؛ ربّما يمكنك وضعه لأنّ يدك تشبه يد امرأة؛ الوداع! أشعر أنّني مرهقة وأرغب في النوم؛ عدْ إلى رؤيتي غداً»

انسحب بول شديد الحزن؛ كلّ جهود أليسيا لإخفاء ألمها باءت بالفشل؛ كان يحبّ الآنسة وارْد بشغف، وهوَذا يقتلها! وهذا الخاتم الذي

Twitter: @ketab_n

ناولته إيّاه قبل قليل، أليس خاتم خطبة للحياة الأخرى؟

ظلّ هائماً على الشاطئ شبه مجنون، حالماً بالهروب، باللّجوء إلى أحد الأديرة وانتظار الموت هناك جالساً على نعشه، دون أن يخلع ثياب الرهبنة. أحسّ بالخسّة والجبن لأنّه لم يضحّ بحبه واستغلّ شجاعة أليسيا: فهي لا تجهل شيئاً، وتعرف أنّه مجرّد جتّاتوري، كما أكّد ذلك الكونت آلتافيلّا، ونظراً لتحلّيها بحنان ملائكيّ فهي لم تسعَ إلى صدّه!

«نعم، حدّث نفسه، ذلك النابوليتاني، ذلك الكونت الجميل الذي تستهين به، هو عاشق حقّاً. شغفه يُخزي شغفي: من أجل إنقاذ أليسيا، لم يخشَ مهاجمتي، واستفزازي، أنا الجتّاتوري، أي كما في أفكاره، الكائن الذي يعادل الشيطان خطراً. كان يحرّك تعاويذه وهو يكلّمني، ويخفض نظره أمام نظرتي، وهو المبارز الشهير الذي استطاع طرح ثلاثة رجال أرضاً!»

إثر عودته إلى فندق روما، كتب بول ثلاث رسائل، وترك وصية يقول فيها إنّه يترك كلّ ما يملك إلى الآنسة أليسيا وارْد، باستثناء هِبة بالوصيّة تذهب إلى بادي، واتّخذ الإجراءات الضرورية لرجل عاشق سيخوض مبارزة قاتلة في الغد.

فتح صناديق بليساندر[1] يخبّئ فيها أسلحته داخل خانات مزركشة بنسيج صوفيّ أخضر متين، حرّك السيوف والمسدّسات وسكاكين الصيد، ووجد أخيراً خنجرَين كورسيكيّين مضلّعَين متشابهين تماماً، كان قد اشتراهما ليهبهما إلى بعض الأصدقاء.

كانا شفرتين من الفولاذ الصرف، سميكتين قرب المقبض، وقاطعتين من الجهتين باتّجاه الحدّ، مرصّعتين بخطوط متموّجة، ومخيفتين على نحوٍ

(1) خشب فاخر بنفسجيّ اللّون.

Twitter: @ketab_n

غامض، ومركّبتين بعناية. واختار بول أيضاً ثلاثة مناديل ووضع كلّ شيء في رزمة.

ثمّ نبّه سكاتسيغا إلى تهيئة نفسه منذ الصباح الباكر من أجل نزهة ريفيّة.

«أوه! قال، مرتمياً بكلّ ثيابه على السرير، فلتحسمْ هذه المواجهة قدَري بمشيئة الربّ! إذا حظيتُ بأنْ أُقْتَل، فإنّ أليسيا سوف تعيش!»

13

لا تستيقظ پومپي، المدينة الميتة، في الصباح مثل المدن الحيّة. ومع أنّها ألقت إلى النصف بملاءة الرماد التي تغطّيها منذ العديد من القرون، وحتّى بعد رحيل اللّيل، تبقى نائمة على فراشها الجنائزيّ.

والسيّاح القادمون من كلّ الأمم والذين يزورونها خلال النهار، ما زالوا متمدّدين على أسرّتهم حتّى تلك الساعة، مرهقين تماماً من أتعاب رحلاتهم، وعندما يبزغ الفجر فوق خرائب المدينة- المومياء، لا يتمكّن من إضاءة وجه بشريّ واحد. وحدها العظايات، وهي تختلج بأذنابها، تزحف عبر الجدران، تسرع فوق الفسيفساء المتخلخلة، من دون اكتراث لعبارة «كافيه كانيم»[1] المنقوشة على عتبات البيوت المقفرة، وتختفي مبتهجةً بأولى أشعة الشمس. هؤلاء هم السكّان الذين أعقبوا السكّان القدامى، ويبدو أنّ پومپي لم تُنبَش إلّا من أجلهم.

يا له من مشهد غريب أنْ ترى تحت بريق الصباح اللّازورديّ والورديّ هذه الجثّة لمدينة تمّ القبض عليها في أوج ملذّاتها وأشغالها

---

(1) وضعها باللّاتينية cave çanem، وتعني: «احترسْ من الكلب». وهي من الكتابات التي وُجدت فعلاً في آثار پومپي.

Twitter: @ketab_n

وحضارتها، ولم تخضع إلى الانحلال البطيء للآثار العاديّة؛ يذهب الاعتقاد بالمرء لا إرادياً إلى أنّ مالكي تلك البيوت التي تمّت المحافظة عليها مع أصغر تفاصيلها سيخرجون من مساكنهم بأثوابهم الإغريقية أو الرومانية؛ والمركبات، التي تُشاهد أثلامها على البلاط، ستعود إلى جرْيها؛ والشاربون سيدخلون إلى حوانيت المشروبات الساخنة حيث لا تزال علامات الأكواب مطبوعة على رخام المشْرب. يسير الزائر كأنّه في حلم وسط الماضي؛ يقرأ حروفاً حمراء، عند زوايا الشوارع، لافتة العرض لفرْجة اليوم! غير أنّ ذلك اليوم مرّ منذ أكثر من سبعة عشر قرناً. في صفاء بداية الفجر تبدو الراقصات المرسومات على الجدران كأنّهنّ يحرّكن جلاجلهنّ؛ ويرفعن بطرف أقدامهنّ البيض، كما لو كان ذلك وسط رغوة ورديّة، أطراف أثوابهنّ الفضفاضة، معتقداتٍ، على الأرجح، أنّ الشمعدانات تُضاء من أجل الحفلات الماجنة في الغرف ثلاثية الأسرّة؛ الفينوسات والساتيرات[1] والوجوه البطولية أو الفظّة، تحاول، وقد فاجأها شعاع، أنْ تعوّض السكّان المفقودين وتجعل للمدينة الميتة سكّاناً مرسومين. الظلال الملوّنة ترتعش على امتداد الجدران، ويمكن للذهن الاستسلام مدّة دقائق لوهم يتعلّق بمشاهدة عرض مسرحيّ قديم. لكنْ، في ذلك اليوم، وبصورة ذُعرت منها العظايات، ارتبكت سكينة يوميّ الصباحية بوصول زائر غريب: توقّفت عربة عند مدخل طريق المقابر؛ خرج منها بول وتوجّه مشياً نحو مكان الموعد.

كان مبكّراً في الوصول، ومع أنّه كان مغرماً بأشياء أخرى غير علم الآثار، لم يمنع نفسه وهو يمشي من ملاحظة مئات التفاصيل التي ما

---

(1) بـ «الفينوسات» يقصد تماثيل فينوس، و«الساتير» Satyre (من اليونانية Sáturos واللّاتينية Satyrus) كائن خرافيّ نصفه الأعلى بشر والأسفل ماعز، ويرمز للشبق والشهوات.

Twitter: @ketab_n

كان ليلاحظها لو كان في وضع معتاد. فالحواسّ التي تكفّ الروح عن مراقبتها، والتي تباشر العمل عندئذ بذاتها، يكون لها أحياناً وضوح متفرّد. هناك محكومون بالإعدام يميّزون، وهم في طريقهم إلى تنفيذ الحكم، زهرة صغيرة بين شقوق البلاط، أو رقماً على زرّ بدلة عسكرية، أو خطأً إملائيّاً في لافتة أو شعار. وغير ذلك من المواقف البسيطة التي تكتسي بالنسبة إليهم أهمية كبيرة. مرّ السيّد دابرومون أمام فيلّا ديوميديه، وقبر ماميا، والمباني المأتميّة نصف الدائرية، وباب المدينة القديم، والبيوت والدكاكين المنتشرة على جانبَي طريق القناصل، من دون إلقاء نظرة تقريباً على كلّ ذلك، مع أنّ صوراً ملوّنة وحيّة لتلك الآثار كانت تصل إلى دماغه بوضوح كامل؛ كان يشاهد كلّ شيء، الأعمدة المضلّعة المطليّة حتّى نصف ارتفاعها بمعجون مرمريّ أحمر أو أصفر، والرسوم المنمنمة، والكتابات المنقوشة على الأسوار، بل إنّ هناك أيضا إعلان تأجير بعنوان أحمر ترسّخ عميقاً في ذاكرته حتّى صارت شفتاه تكرّران كلماته اللّاتينية آليّاً من دون ربطه بأيّ معنىً محدّد.

هل كانت فكرة المعركة هي التي تستغرق بول إلى هذه الدرجة؟ إطلاقاً، فهو لم يكن يفكّر فيها أصلاً؛ كان فكره في مكان آخر: في ردهة ريشموند. كان يقدّم للكومودوري رسالة التوصية، والآنسة وارْد تنظر بمواربة؛ كانت ترتدي فستاناً أبيض، وأزهار ياسمين تتلألأ في شعرها. كم كانت فتيّة، جميلة وحيويّة... آنذاك!

توجد الحمّامات القديمة في آخر طريق القناصل، قرب شارع الحظّ؛ لم يجد السيّد دابرومون صعوبة في العثور عليها. دخل إلى القاعة المقبّبة التي يحيط بها صفّ من الكوى مكوّنة من أطالس[1] طين مشويّ،

---

(1) أطلس هو أحد الجبابرة في الأساطير الإغريقية ويعرف برفعه قبّة السماء.

Twitter: @ketab_n

تسند عارضة مزخرفة بتماثيل أطفال وأغصان مُورقة. اختفت الكسوة الرخامية والفسيفساء والركائز البرونزية الثلاثية القوائم. لم يبقَ من الرونق القديم إلّا أطالس الطين والجدران العارية مثل جدران القبور؛ وكان ضوء مغبّش يأتي من شبّاك صغير مستدير يقسّم زرقة السماء إلى أقراص، يتسلّل مرتعشاً على البلاط المهشّم.

هناك كانت نساء پومپي يأتين، بعد الاستحمام، لتجفيف أجسادهنّ الجميلة المبلّلة، وإحكام زينتهنّ، ثمّ ارتداء أثوابهنّ والتبسّم لأنفسهنّ أمام النحاس الصقيل للمرايا. ثمّة مشهد مختلف تماماً سيحدث، وينبغي على الدم أنْ يسيل أرضاً، هناك حيث كانت، قديماً، تسيل العطور.

بعد لحظات، ظهر الكونت آلتافيلّا: كان يحمل بيده صندوق مسدّسات، وسيفَين تحت ذراعه، ذلك أنّه لم يكن قادراً على التصديق بأنّ الشروط التي اقترحها السيّد بول دابرومون كانت جدّيّة؛ لم يرَ فيها سوى ضحكة شيطانية، سخرية جهنّميّة.

«ما الحاجة إلى المسدّسين وهذين السيفين، أيّها الكونت؟ قال بول لدى رؤيته ذلك العدد من الأسلحة؛ ألم نتّفق على طريقة أخرى للقتال؟

- أجلْ، ولكنّني فكّرتُ بأنّك قد تغيّر رأيك؛ لم يسبق أنْ حدث قتال بتلك الطريقة.

- حتّى لو كانت مهارتنا متساوية، فإنّ وضعي يوفّر لي الكثير من الفوائد مقارنةً بك، أجاب بول بابتسامة لاذعة؛ ولا أريد استغلالها. جلبتُ خنجرَين؛ يمكنك فحصهما؛ إنّهما متشابهان تماماً؛ وهنا منديلان لتعصيب عينينا. انظرْ إنّهما سميكان، ونظرتي لا يمكنها اختراق قماشهما».

أومأ الكونت آلتافيلّا بالموافقة.

Twitter: @ketab_n

«ليس لدينا شهود، قال بول، ولا ينبغي لأحدِنا الخروج حيّاً من هذا القبو. فليكتبْ كلانا بطاقة يشهد فيها باستقامة النِّزال؛ وسوف يقوم المنتصر بوضعها على صدر القتيل.

- احتياط جيّد!» أجاب النابوليتاني مبتسماً وهو يخطّ بعض الأسطر على ورقة من دفتر بول الذي نفّذ بدوره الإجراء نفسه.

بعد إتمام ذلك، تخفّف الخصمان من ثيابهما، وعصّبا عينيهما، وتسلّحا بخنجريهما، وأمسك كلاهما بطرف المنديل، بمثابة همزة وصل مرعبة تتوسّط حقدَيهما.

- هل أنت مستعدّ؟ قال السيّد دابرومون للكونت آلتافيلّا.

- نعم»، أجاب النابوليتاني بصوت في منتهى الهدوء.

كان الدون فيليب آلتافيلّا يتحلّى ببسالة مجرّبة، ولا يخشى شيئاً في العالم سوى الجتّاتورا، وهذه المعركة العمياء التي كان من شأنها جعل أيّ شخص آخر يرتجف خوفاً، لم تتسبّب له بأيّ اضطراب؛ وهو بذلك يراهن على حياته بطريقة الوجه أو القفا، ولم يعد متضايقاً من رؤية العين الوحشيّة لخصمه تنفث عليه نظرتها الصفراء.

شهَرَ المقاتلان خنجريهما، وبين عتمتين كثيفتين تمدّد المنديل الذي يصل بينهما بشدّة. وبحركة غريزية تراجع بول والكونت بجذْعَيهما إلى الخلف، وهو الردّ الوحيد الممكن في هذه المبارزة الغريبة؛ وكانت ذراعاهما تسقطان من دون التمكّن من إصابة أيّ شيء آخر غير الفراغ.

هذا الصراع المعتم، حيث يستشعر كلاهما الموت من دون رؤيته يُقبل، كان ذا طابع مفزع. وكان الخصمان الشرسان الصامتان يتراجعان، يستديران، يقفزان، يصطدمان أحياناً، يخطئان الهدف أو يتجاوزانه؛ ولا يُسمع إلّا وقع الرفس من قدميهما والأنفاس اللّاهثة من صدريهما.

Twitter: @ketab_n

في إحدى المرّات أحسّ آلتافيلّا برأس خنجره يلتقي شيئاً ما؛ فتوقّف معتقداً أنّه قتل خصمه، وانتظر سقطة الجسم: لم يكن أصاب إلّا الجدار!

«اللّعنة! اعتقدتُ تماماً أنّني مزّقتك من جهة إلى أخرى، قال مستعيداً وضعية التهيّؤ.

- لا تتكلّم، قال بول، صوتك يدلّني عليك».

واستُعيد القتال.

فجأةً أحسّ الخصمان أنّهما انفصلا أحدهما عن الآخر. كانت طعنة من خنجر بول قد مزّقت المنديل.

«هدنة! صاح النابوليتاني؛ لم نعد متّصلَين، لقد تمزّق المنديل.

- لا يهمّ! لنواصلْ»، قال بول.

خيّم صمت كئيب. ذلك أنّ استقامة العدوَّين جعلتهما يرفضان استغلال التوجيهات التي يقدّمها تبادلهما الكلام. خطا كلاهما بضع خطوات للتمويه، وعادا إلى البحث المترصّد في العتمة.

حرّكتْ قدم السيّد دابرومون حجراً صغيراً؛ ذلك الاصطدام الخفيف دلّ النابوليتاني، وكان يحرّك خنجره كيفما اتّفق، على الاتّجاه الذي ينبغي عليه الذهاب نحوه. استجمع آلتافيلّا نفسه نازلاً على ركبتيه لاكتساب اندفاعة أقوى، ووثب وثبة نمر ملتقياً بخنجر السيّد دابرومون.

لمس بول طرف خنجره وأحس به مبلّلاً... رنّتْ خطوات غير منتظمة بثقل على البلاط؛ سُمِعتْ تنهيدة مخنوقة وسقط جسم على الأرض دفعة واحدة.

تملّك الرعب بول فأسقط العُصابة التي كانت تغطّي عينيه، ورأى الكونت آلتافيلّا شاحباً، بلا حراك، متمدّداً على ظهره وقميصه مبقّع عند موضع القلب بلطخة حمراء كبيرة.

Twitter: @ketab_n

لقد مات النابوليتاني الجميل!

وضع السيّد دابرومون على صدر آلتافيلّا تلك البطاقة التي تشهد باستقامة المبارزة، وخرج من الحمّامات القديمة أكثر شحوباً في ضوء النهار ممّا كان عليه، تحت ضوء القمر، القاتلُ الذي جعله برودون يُلاحَق من طرف الإيرينيات[1] المنتقمات.

14

حوالى الساعة الثانية ظهراً، كانت جماعة من السيّاح الإنجليز، يقودها دليل، في زيارة لآثار پومپَي. كانت تلك القبيلة من أبناء الجزيرة تتكوّن من الأب والأم وثلاث فتيات وصبيَّين وابن عمّ، وسبق لها أنْ جابتْ بنظرة خضراء مزرقّة وباردة، حيث يلوح ذلك الضجر العميق الذي يميّز البريطانيّين، كلاًّ من المدرّج الكبير ومسرح التراجيديا والغناء، وهما متجاوران بشكل مثير جدّاً للفضول؛ والحيّ العسكريّ حيث تظهر رسوم كاريكاتورية بالطباشير ناجمة عن العطالة التي يعيشها فريق الحراسة؛ وميدان الفوروم حيث عمليّات ترميم مفاجئة؛ ومبنى البازيليك ومعبدَي فينوس وجوبيتير والبانتيون والدكاكين التي تحاذيها. كان أفراد المجموعة كلّهم ينصتون بصمت إلى التفسيرات المهذارة للدليل ولا يكادون يلقون نظرة على الأعمدة وقطع التماثيل والفسيفساء والمنمنمات والنقوش.

بلغوا في نهاية المطاف الحمّامات القديمة، التي تمّ اكتشافها سنة 1824 كما أخبرهم الدليل. «هنا كانت غرف التعرّق الساخنة، وهناك فرن

(1) إلهات الانتقام عند الإغريق. وفي العبارة إشارة إلى لوحة الرسّام الفرنسيّ بيار برودون Pierre Prud'hon (1758–1823)، المعنوَنة «العدالة والانتقام الإلهيّ يلاحقان الجريمة» *La Justice et le Vengeance divine poursuivant le Crime*.

Twitter: @ketab_n

تسخين المياه، وهنالك قاعة الحرارة المعتدلة». كانت هذه التفاصيل المقدَّمة بلهجة نابوليتانية محليّة مختلطة ببضع كلمات إنجليزية تبدو غير مثيرة كثيراً لاهتمام الزوّار الذين بدؤوا أصلاً باستدارة للانسحاب عندما تقهقرت المِسْ إيثلوينا، وهي بكر الفتيات، شابّة ذات شعر أشقر مصفرّ وبشرة منمّشة ببقع صهباء، خطوتَين إلى الوراء بهيئة مصدومة ومذعورة، وصاحت: «رجل!

– لعلّه أحد عمّال التنقيب وجد المكان مناسباً لأخذ قيلولة؛ يوجد تحت هذه القبّة ظلّ وبرودة: لا تخشَي شيئاً، يا آنسة، قال الدليل دافعاً بقدمه ذلك الجسم المتمدّد على الأرض. هيّا! استيقظْ أيّها الكسول، ودعْ سياداتهم يمرّون».

لم يتحرّك النائم المزعوم.

«هذا ليس رجلاً نائماً، بل هو ميت»، قال أحد الفتيان، وقد مكّنته قامته القصيرة من تمييزٍ أفضلَ لمظهر الجثّة في الظلّ.

انحنى الدليل على الجثّة ونهض بغتةً، مشوّش الملامح.

«رجل مقتول! صاح.

– أوه! إنّه لأمر مزعج حقّاً أنْ نجد أنفسنا أمام مثل هذه الأشياء؛ ابتعدوا كلّكم، إيثلوينا، كيتي، بيس، قالت السيّدة بريسبريج، رؤية هذا المشهد السيّئ لا تناسب شبّاناً جيّدي التربية. أفلا توجد شرطة في هذا البلد! كان على ضابط المباحث رفع الجثة.

– بطاقة! قال ابن العمّ باختصار، وكان متيبّساً، طويلاً، ومتضايقاً من شخصيّته مثل صاحب قصر دومبيدايك في «سجن إدنبرة»[1].

(1) تحت هذا العنوان (*La Prison d'Édimbourg*) تُرجمت إلى الفرنسيّة رواية «في قلب سجن ميدلوثيان» لوالتر سكوت Walter Scoot, *The heart of Midlothian*، والشخصيّة التي يشير إليها غوتييه تلعب دوراً ثانويّاً في بداية الرواية وتمثّل مراهقاً أخرق وغبيّاً.

Twitter: @ketab_n

- فعلاً، قال الدليل وهو يتناول البطاقة الموضوعة على صدر آلتافيلّا، ورقة تتضمّن بعض السطور المخطوطة.

- اقرَأ»، قال المتحدّرون من الجزيرة في جوقة واحدة وقد ازداد فضولهم.

«لا حاجة إلى البحث أو إزعاج أحد بسبب موتي. إذا تمّ العثور على هذه البطاقة فوق جرحي فهذا يعني أنّني سقطتُ في مبارزة شريفة.

«التوقيع: فيليبه، كونت دي آلتافيلّا».

«كان رجلاً مستقيماً؛ يا للأسف! تنهّدت السيّدة بريسبريج، التي أثارتها صفة الكونت لدى الميت.

- وشابّاً وسيماً، همست إيثلوينا، الآنسة المنمّشة الوجه.

- لن تشتكي أكثر، قالت بيس لكيتي، من انعدام ما هو غير متوقّع في الرحلات: صحيح أنّنا لم نوقَف من قبل قطّاع الطرق عبر الطريق من تيراتشينا إلى فوندي؛ لكنّ العثور على سيّد شابّ مطعون بضربة خنجر في آثار بومبَي، يمثّل مغامرة حقيقيّة. لعلّ في الأمر منافسة غرامية؛ حصلنا على الأقلّ على شيء رائع وورومنطيقيّ لنحكيه إلى صديقاتنا. سوف أرسم المشهد في ألبومي، وتضيفين إلى الرسوم مقاطع شعرية غريبة على طريقة الشاعر بايرون.

- هذا أمر سويّ، قال الدليل، الطعنة حسنة التسديد، من الأسفل إلى الأعلى، وفق الأصول؛ لا خلاف».

هكذا كان تأبين الكونت آلتافيلّا.

ذهب بعض العمّال الذين أخطرهم الدليل للبحث عن رجال العدل، وتمّ نقل جثّة آلتافيلّا المسكين إلى قصره، قرب ساليرنو.

أما السيّد دابرومون، فقد عاد إلى عربته وعيناه مفتوحتان مثل مسرنم

Twitter: @ketab_n

لكنّه لا يرى شيئاً. كان يشبه تمثالاً يمشي. ومهما أحسّ لدى مرآى الجثّة بذلك الرعب الورِع الذي يوحي به الموت، فإنّه لم يشعر بأنّه متّهم، ولم يخالط يأسه شعور بالذنب. لقد تمّ استفزازه بطريقة لم تترك للرفض مكاناً، ولم يوافق على تلك المبارزة إلّا بأمل التخلّص فيها من حياته التي باتت كريهة. ولأنّه موهوب بنظرة مشؤومة فقد اختار معركة عمياء حتّى تعود المسؤولية للأقدار وحدها. ليست يده ذاتها هي التي طعنت؛ بل عدوّه هو الذي انقضّ على الخنجر! رثى لحال الكونت آلتافيلّا كما لو كان غريباً عن موته. «إنّ خنجري هو الذي قتله، ظلّ يقول لنفسه، كان يمكنني مشاهدته في حفل راقص فيحدث أنْ تسقط ثريّا من السقف وتُهشِّم رأسه. أنا بريء براءة الصاعقة، والانهيار الثلجيّ، وشجرة السمّ، براءة كلّ القوى التخريبية اللّاواعية. لم يسبق لإرادتي أن تتعامل والشرّ، قلبي مفعم بالحبّ والحنان، لكنّني أعرف أنّني ضارّ. الرعد لا يعرف أنّه يقتل؛ وأنا، الإنسان، المخلوق العاقل، أليس أمامي واجب صارم ينبغي القيام به إزاء ذاتي؟ يتوجّب عليّ استدعاء نفسي أمام محكمة ذاتي ومساءلتها. هل يمكنني البقاء على هذه الأرض حيث لا أتسبّب إلّا في المصائب؟ هل يلعنني الربّ إنْ أنا قتلت نفسي حبّاً في الآخرين؟ مسألة فظيعة وعميقة لا أستطيع حلّها؛ يبدو لي، في الوضعية التي أنا عليها، أنّ الموت الإراديّ خطأ مغتفر. وماذا لو كنت على خطأ؟ سوف أُحْرَم في عالم الخلود من رؤية أليسيا، وحتّى ذلك الوقت يمكنني رؤيتها هنا من دون إلحاق الضرر بها، لأنّ عيون الروح ليس لها «فاتشينو». إنّها فرصة لا أريد المجازفة بها».

جالت فكرة مباغتة بدماغ الجتّاتوري البائس وقطعت مناجاته لنفسه. استرخت ملامحه؛ وأزال الهدوء الثابت الذي يعقب القرارات الكبرى

Twitter: @ketab_n

تجاعيد جبهته الشاحبة: لقد اتّخذ قراراً أخيراً:

«فلتحلّ اللّعنة عليكما، يا عينيَّ، بما أنّكما قاتلتان؛ لكنْ، قبل إغماضكما إلى الأبد، تشبّعا بالنور، تأمّلا الشمس، السماء الزرقاء، البحر الشاسع، سلاسل الجبال المزرقّة، الأشجار المخضرّة، الآفاق البعيدة، أعمدة القصور، كوخ الصيّاد، جزُر الخلجان البعيدة، الشراع الأبيض يلامس لجّ الهاوية، جبل فيزوف مع قنزعته الدخانية؛ أُنظُرا، لتتذكّرا ذلك، إلى كلّ هذه المشاهد التي لن ترياها إلى الأبد؛ ادْرُسا كلّ شكل وكلّ لون، تمتّعا بحفلة أخيرة. حتّى اليوم، سواء أكنتما مشؤومتين أم لا، يمكنكما التوقّف عند كلّ شيء؛ انتشِيا بمشهد الخلق الرائع! هيا، انظرا، تجوَّلا. سينزل الستار بينكما وبين ديكور الكون!».

كانت العربة في هذه اللّحظة تحاذي الشاطئ؛ الشرم الساطع يتلألأ، والسماء تبدو كأنّها منقوشة في قطعة واحدة من الياقوت الأزرق؛ إشراق الجمال يغطّي كلّ شيء.

أمر بول سكاتسيغا بالتوقّف؛ نزل من العربة، وجلس على صخرة ونظر مطوّلاً، مطوّلاً، مطوّلاً، كما لو كان يرغب في الاستئثار باللّانهاية. كانت عيناه تستغرقان في فضاء النور، تنقلبان كما في حالة نشوة، تتضمّخان بالبريق، وتتبلّلان بالشمس! اللّيل الذي يوشك على القدوم لن يعقبه، بالنسبة إليه، فجر آخر.

اقتلع السيّد دابرومون نفسه من ذلك التأمّل الصامت، وصعد إلى العربة وقصد بيت الآنسة أليسيا وارْد.

كانت كما بالأمس، متمدّدة على أريكتها الضيّقة، في القاعة الأرضيّة التي سبق لنا وصفها. جلس بول قبالتها، وفي هذه المرّة لم يحافظ على عينيه منخفضتين باتّجاه الأرض، كما كان يفعل منذ وعيه بالجتّاتورا التي تملّكته.

Twitter: @ketab_n

جمال أليسيا المتكامل يزداد روحانيّة مع الألم: لقد اختفت المرأة تقريباً لتترك المجال للملاك: كانت بشرتها شفّافة، أثيريّة، مضيئة؛ حتّى ليمكن من خلالها رؤية روحها مثل بريقٍ على مصباحِ مرمر. كانت لعينيها لانهاية السماء وتلألؤ النجم؛ وكانت الحياة لا تكاد توقّع بختمها الأحمر على أرجوان شفتيها.

أضاءت ابتسامة إلهيّة فمها، مثل شعاع من الشمس يضيء وردة، عندما رأت نظرات خطيبها تغطّيها بملامسة طويلة. خالت أنّ بول قد طرد أخيراً أفكاره المشؤومة حول الجتّاتورا وعاد إليها سعيداً واثقاً كما في الأيّام الأولى، ومدّت إلى السيّد دابرومون يدها الصغيرة الشاحبة والرقيقة، فاحتفظ بها.

«ألم أعد أخيفك إذن؟ قالت بسخرية عذبة لبول الذي ظلّ يطيل تثبيت عينيه عليها.

- أوه! اتركيني أنظر إليك، أجاب السيّد دابرومون بنبرة صوت فريدة وهو يركع قرب الأريكة؛ دعيني أنتشي بهذا الجمال الذي لا يمكن وصفه!» وظلّ يتأمّل بلهفةٍ شعرَ أليسيا اللّامع الأسود، وجبينها الجميل النقيّ مثل رخام إغريقي، وعينيها بزرقتهما الداكنة مثل لازورد ليلة رائقة، وأنفها ذا القالب الناعم جدّاً، وفمها المفترّ عن لآلىء أظهرتْها ابتسامة جزئيّة واهنة، وجِيدها الذي يشبه عنق إوزة متموّجاً ومرناً، وبدا كأنّه يريد تسجيل كلّ ملمح، كلّ جزئية، كلّ إتقان مثل رسّام يرغب في رسم بورتريه من الذاكرة. كان يتشبّع بالمظهر المعبود، ويخزن مؤونة من الذكريات، محدِّداً الجوانب، متذكّراً التكوُّرات.

تحت تلك النظرة المتّقدة كانت أليسيا، مفتونة ومسحورة، تكابد

Twitter: @ketab_n

إحساساً مؤلماً بشكل مثير، قاتلاً بشكل لذيذ؛ كانت حياتها تسمو وتتلاشى؛ تحمرّ وتشحب، تصير باردة ثمّ محرقة. كانت تكفي دقيقة واحدة لتكون الروح قد غادرتها.

وضعت يدها على عينَي بول، لكنّ نظرات الشابّ كانت تخترق مثل شعلةٍ من اللّهب أصابع أليسيا الشفافة والهزيلة.

«الآن بوسع عينيّ الانطفاء، سوف أراها دائماً في قلبي» قال بول وهو ينهض.

في المساء، بعد الذهاب لتأمّل غروب الشمس، وهو آخر غروب يُتاح له تأمّله، طلب السيّد دابرومون، لدى عودته إلى فندق روما، موقداً وبعض الفحم.

«هل يرغب في الاختناق؟ قال فيرجيليو فالساكابا محدّثاً نفسه وهو يجلب إلى بادي ما طلب بأمر من سيّده؛ هذا أفضل ما يمكنه فعله ذلك الجتّاتوري اللّعين!»

فتح خطيب أليسيا النافذة، بعكس تخمين فالساكابا، وأشعل الفحم، وغرز فيه شفرة خنجر وانتظر احمرار الحديد.

وسرعان ما تحوّلت الشفرة الرقيقة، في الجمر المتّقد، إلى اللّون الأحمر المبيضّ؛ وكما لو كان بول يريد الترخيص لنفسه بإجازة للانصراف من ذاته، اتّكأ بكوعيه على المدفأة قبالة مرآة كبيرة ينعكس فيها نور شمعدان ذي عدّة شموع؛ نظر إلى ذلك النوع من الأشباح الذي كان هو شخصيّاً، ذلك الغلاف لأفكاره الذي لن يعود إلى رؤيته، بفضول كئيب: «وداعاً، يا شبحاً شاحباً مشؤوماً، يختلط فيه الجمال بالرعب، يا صلصالاً ممهوراً عند الجبين بختم النحس، يا قناعاً متشنّجاً لروح عذبة ورقيقة! ستختفي إلى الأبد بالنسبة لي: خيّاً، أرمي بك إلى الظلمات الأبدية، وقريباً سوف

Twitter: @ketab_n

أكون قد نسيتك مثل حلم ذاتَ ليلة عاصفة. عبثاً تقول، أيّها الجسد البائس، إلى عزيمتي التي لاَ تلين: «هوبير، هوبير، عيناي التعيستان! لن تثير شفقتها بتاتاً. هيا بنا، إلى العمل، ضحيّةً وجلاّداً!» وابتعدَ عن المدفأة كي يجلس على حافّة سريره.

نفخ مؤجِّجاً فحم الموقد الموضوع على منضدة صغيرة ذات قائمة واحدة، قريبة منه، وأمسك بمقبض الخنجر الذي كان نصله يرسل شرارات بيضاء مفرقِعة.

في هذه اللّحظة القصوى، ومهما كان قراره، أحسّ السيّد دابرومون بما يشبه الخَوَر: سال عرق بارد على صدغيه؛ لكنّه سرعان ما سيطر على ذلك التردّد الجسديّ الصرف وأدنى الحديد الحارق من عينيه.

ألم حادّ، معذّب، لا يطاق، كاد يقتلع منه صرخة؛ بدا له أنّ نفثتين من رصاص ذائب كانتا تنفذان عبر الحدقتين حتّى عمق الجمجمة؛ تخلّى عن الخنجر الذي تدحرج أرضاً وترك بقعة داكنة على الأرضية الخشبية.

عتمة كثيفة كالحة، تبدو معها أكثر اللّيالي غلساً نهاراً رائقاً، غطّته بحجابها الأسود؛ التفت نحو المدفأة حيث لا بدّ أنّ الشموع ما زالت تشتعل؛ لم يرَ إلّا ظلمات كثيفة، يتعذّر اختراقها، لا تتراءى فيها حتّى تلك البهرة المشوشة التي يظلّ المبصرون يرونها مغمضي الجفون عندما يكونون قبالة مصدر للضوء. لقد تمّ تقديم الأضحية!

«الآن، أيّتها المخلوقة النبيلة الفاتنة، قال بول، يمكنني أنْ أصير زوجك دون أنْ أكون قاتلاً. لن تذبلي ببسالة تحت نظرتي المشؤومة: سوف تستعيدين صحّتك الجميلة؛ وا أسفاه لن ألمحك مجدّداً، غير أنّ صورتك السماوية سوف تظلّ تشعّ ببريق خالد في ذكرياتي؛ سوف أراك بعين الروح، وأسمع صوتك أرخم من أعذب موسيقى؛ سوف أشمّ

Twitter: @ketab_n

الهواء الذي تنقله حركاتك، وأسمع رعشة فستانك الحريرية، والوقع الخفيّ لحذائك؛ سوف أمتصّ العطر الخفيف الذي يفوح منك ويحيط بك. سوف تتركين يدك بين يديّ أحياناً كي تعلني عن حضورك؛ سوف تتكرّمين بإرشاد ضريرك المسكين عندما تتردّد قدمه على دربه المعتم؛ سوف تُسمعينه ما كتب الشعراء وتصفين له اللّوحات والتماثيل. بكلمتك سوف تعيدين إليه الكون المتلاشي؛ سوف تكونين فكرته الوحيدة، حلمه الوحيد؛ وروحه المحرومة من تسلية الأشياء وإبهار النور سوف تطير نحوك بجناح لا يكلّ!

«لا أتأسّف على شيء، ما دمتِ نجوتِ. ماذا خسرتُ، حقّاً؟ مشهد الفصول والأيّام الرتيب، رؤية الزخارف المتفاوتة الروعة حيث تدور أفعال الكوميديا البشرية الحزينة. الأرض، السماء، المياه، الجبال، الأشجار، الأزهار: مظاهر كاذبة، تكرار مضجر، أشكال هي ذاتها دائماً! عندما نمتلك الحبّ نمتلك الشمس الحقيقيّة، الضياء الذي لا ينطفئ!»

هكذا كان يتكلّم بول دابرومون المسكين، في مناجاته الذاتية، محموماً بحماسة غنائية يختلط فيها الهذيان بالألم أحياناً.

رويداً رويداً سكنت آلامه؛ واستغرق في ذلك النوم الأسود، شقيق الموت والمؤاسي مثله.

عندما تسرّب ضوء النهار إلى الغرفة، لم يوقظه. بعد الآن يصير لمنتصف النهار ومنتصف اللّيل اللّون ذاته بالنسبة إليه؛ غير أنّ الأجراس وهي تقرع الأنجيلوس، صلاة التبشير الملائكيّ، في موجاتٍ بهيجة، كانت تطنّ بغموض مخترقةً نومه، ثمّ صارت واضحة أكثر، واجتذبته من النعاس.

رفع جفنيه، وقبل أنْ تتوصّل روحه النائمة إلى التذكّر، تملّكه إحساس

Twitter: @ketab_n

فظيع. كانت عيناه تنفتحان على الفراغ، على السواد، على العدم، كما لو أنّه دُفن حيّاً وأوقِظ من سباته داخل نعش؛ لكنّه سرعان ما تدارك نفسه. ألن يكون الوضع كذلك دوماً؟ ألم يعد يتوجّب عليه الانتقال، كلّ صباح، من ظلمات النوم إلى ظلمات اليقظة؟

بحث عشوائيّاً عن حبل الجرس.

هرع بادي.

ونظراً لذهوله من رؤية سيّده ينهض مع الحركات المتردّدة التي تميّز الأعمى:

«تهوّرتُ في النوم والنافذة مفتوحة، قال له بول، كي يضع حدّاً لأيّ توضيح، وأظنّ أنّني التقطت كُمْنَة[1]، لكنّها سوف تشفى؛ أوصِلْني إلى أريكتي وضعْ قربي كوباً من الماء البارد».

لم يبدِ بادي أيّ ملاحظة نظراً لتميّزه بالكتمان الإنجليزي، لذلك طبّق أوامر سيّده وانسحب.

بعد أنْ ظلّ بول بمفرده غطّس منديله في الماء البارد، ووضعه على عينيه كي يخفّف من الاتّقاد الذي تسبّب به الكيّ.

لنترك السيّد دابرومون في جموده المؤلم ولنهتمّ قليلاً بالشخصيّات الأخرى في حكايتنا.

انتشر خبر موت الكونت آلتافيلّا الغريب بسرعة في نابولي وصار موضوع تخمينات كثيرة متفاوتة في الشطط. كانت مهارة آلتافيلّا في المبارزة معلومة لدى الجميع؛ وكان آلتافيلّا معروفاً بكونه واحداً من أفضل المبارزين ضمن تلك المدرسة النابوليتانية المخيفة على أرض الميدان؛ كان قد تمكّن من قتل ثلاثة رجال، وإصابة خمسة أو ستة بجروح

---

(1) عمى جزئي أو كلّي.

Twitter: @ketab_n

خطيرة. وانتشرت شهرته في هذا المجال حتّى إنّه لم يعد يُبارِز. صار المبارزون الأكثر ثقة بأنفسهم يلقون عليه التحيّة بتهذيب، ويتفادونه حتّى وإنْ لحقتهم إهانة منه. ولو كان واحد من أولئك المتبجّحين هو الذي قتل آلتافيلّا لما أخفى شرف حصوله على ذلك النصر. بقيت فرضيّة الاغتيال، وقد دحضتها البطاقة التي عُثِر عليها فوق صدر الميت. تمّ في البداية التشكيك بالخطّ؛ غير أنّ التأكيد على خطّ الكونت جاء من أشخاص كانوا قد استلموا منه أكثر من مئة رسالة. وظلّت مسألة العينين المعصوبتين، إذْ أنّ الجثة ظلّت تحمل منديلاً معقوداً حول الرقبة، غير قابلة للتفسير. وبالإضافة إلى الخنجر المغروز في صدر الكونت، تمّ العثور على خنجر آخر قد يكون أفلت من يده التي خارت: لكنْ، إذا كانت المعركة قد جرت بالسكاكين، فبمَ يُفَسَّر وجود سيفين ومسدّسين تمّ التعرف عليها بوصفها من ممتلكات الكونت، وقد أعلن حوذيّ عربته أنّه أوصل سيّده إلى پوميي، مع أمر بالعودة إنْ لم يظهر مجدّداً بعد مرور ساعة؟

كان أمراً محيِّراً.

وسرعان ما بلغت ضجّة هذا الموت أذنَي فيتشي التي أخبرت السّير جوشوا وارْد. عاد إلى ذاكرة الكومودوري فوراً ذلك الحوار الغريب الذي جمعه مع آلتافيلّا حول وضع أليسيا، واستشفّ بطريقة مشوّشة حدوث صراع غامض، معركة فظيعة يائسة تورّط فيها السيّد دابرومون بطريقة إرادية أو غير إرادية. أمّا فيتشي فلم تتردّد في نسبة موت الكونت إلى الجتّاتوري الشنيع، وكان حقدها عليه قد أكسبها رؤية أخرى أوضح. وفي أثناء ذلك قام السيّد دابرومون بزيارته للآنسة وارْد في الساعة المعتادة، ولم يكن في رباطة جأشه ما يشي بانفعالات متأتّية من مأساة فظيعة، كان يبدو بالأحرى أهدأ ممّا في السابق.

Twitter: @ketab_n

أُخفيَ موضوع ذلك الموت عن الآنسة وارْد التي تفاقمت حالتها، دون أنْ يتمكّن الطبيب الإنجليزي الذي استدعاه السّير جوشوا من تشخيص مرض محدّد لديها: كان مرضها يشبه نوعاً من تلاشي الحياة، من اختلاج الروح خافقة بجناحيها من أجل بدء الطيران، من اختناق طائر بسبب آفة رئوية، أكثر منه مرضاً حقيقيّاً يمكن علاجه بالوسائل المعتادة. كان يمكن القول إنّها ملاك محجوز في الأرض يعاني من حنينه إلى الفضاء. كان جمال أليسيا من العذوبة والرهافة والشفافية والأثيرية إلى حدّ عدم تحمّله متابعة تنفّس الهواء البشري الفظّ. يمكننا تخيّلها محوّمة في النور الذهبيّ للفردوس، بينما وسادة الدنتيلا الصغيرة التي كانت تسند رأسها تشعّ مثل هالة. كانت وهي على فراشها تشبه تلك العذراء اللّطيفة التي رسمها شوريل[1]، أثمن جوهرة في تاج الفنّ القوطيّ.

لم يأتِ السيّد دابرومون في ذلك اليوم: فمن أجل إخفاء تضحيته لم يشأ الظهور بجفنين محمرّين، متريّثاً لإرجاع عماه المباغت إلى سبب آخر مختلف تماماً.

وفي الغد، وقد تلاشى شعوره بالألم، صعد إلى عربته التي يسوسها ساعيه بادي.

توقّفت العربة كالمعتاد عند باب الحاجز الشبكيّ. دفعه الأعمى الطوعيّ، وسلَكَ الممشى المعهود سابراً الرمل بقدميه. لم تهرع فيتشي وفق العادة لدى سماع الجرس الذي يتحرّك بنابض الباب؛ لم تصل أيّ ضجّة من مئات الضجّات الصغيرة المفرحة التي تكون مثل التنفّس للمنزل

(1) يان فان شوريل Jan Van Schoorel (1495–1562): رسّام هولنديّ يُدعى أحياناً «سيّد موت مريم»، أي أفضل من يرسم موتها، وهو اللّقب الذي كان يُطلق أكثر على الرسّام الهولنديّ يوس فان كليف Joos Van Cleve (1484–1540).

Twitter: @ketab_n

الحيّ، إلى أذنَي بول المرهفتين. كان صمت كئيب، عميق، مفزع، يخيّم على المسكن، حتّى ليمكن تصوّره مهجوراً. وهذا الصمت الذي كان من شأنه أن يبدو مشؤوماً حتّى بالنسبة لشخص مبصر، صار مفجعاً أكثر في الظلمات التي كانت تغطّي الأعمى الجديد.

كانت الأغصان التي لم يعد يميّزها تبدو كأنّها تريد الإمساك به مثل أذرعة متوسّلة ومنعَه من التقدّم أكثر. كان الغار يسدّ الممشى؛ وشجيرات الورد تتمسّك بثيابه، والنباتات المعترشة تتشبّث بساقيه، والحديقة تقول له بلغتها الخرساء: «أيّها البائس! ماذا جئت تفعل هنا؟ لا تقاوم الحواجز التي أعرقلك بها، ارحلْ من هنا!» لكنّ بول لم يكن يصغي؛ كانَ في عذاب استشعاراته الفظيعة، يتدحرج بين الأوراق، يدفع الأجمات الخضراء، ويكسر الأغصان ويتقدّم دائماً باتّجاه البيت.

بلغ أخيراً نهاية الممرّ ممزّقاً مرضوضاً. صفعته هبة هواء طلق، وتابع طريقه ويداه ممدّدتان إلى الأمام.

التقى بالجدار ووجد الباب تلمّساً.

دخل؛ ما من صوت ودّي رحّب بقدومه. ولأنّه لم يسمع أيّ صوت يمكن أنْ يقوده فقد ظلّ متردّداً بضع دقائق عند العتبة. رائحة سائل أثيريّ، تبخُّر عطور، رائحة شمع يذوب، كلّ أنواع العطور المبهمة في غرف الموتى تشبّثت بحاسة شمّ الأعمى المختلج هلعاً؛ راودت ذهنه فكرة فظيعة، ودخل إلى الغرفة.

بعد بضع خطوات، اصطدم بشيء ما سقط محدثاً ضجة كبيرة؛ انحنى وتعرّف لمساً على الشمعدان المعدنيّ الذي يشبه مشاعل الكنيسة ويحمل شمعة طويلة.

تابع طريقه مضطرباً عبر العتمة. خُيّل إليه أنّه سمع صوتاً يهمس

Twitter: @ketab_n

بصلوات؛ تقدّم خطوة أخرى، والتقت يداه بطرف سرير؛ انحنى، ولامست أصابعه المرتجفة في البداية جسداً جامداً ومستقيماً تحت رداء رقيق، ثمّ تاجاً من الورد ووجهاً صافياً وبارداً مثل الرخام.

كانت تلك أليسيا ممدّدة على فراش موتها.

«ماتت! صاح بول بحشرجة مخنوقة، ماتت! وأنا الذي قتلتُها!»

كان الكومودوري، المتجمّد من الهول، قد رأى ذلك الشبح ذا العينين المطفأتين يدخل مترنّحاً، تائهاً كيفما اتّفق ومرتطماً بفراش الموت الذي تنام عليه ابنة أخيه: كان قد فهم كلّ شيء. دفعت عظمة هذه التضحية غير المجدية بدمعتين من عينَي العجوز المحمرّتين، وهو الذي كان يظنّ أنّه بات عاجزاً عن المزيد من البكاء.

هرع بول إلى الركوع قرب الفراش وغطّى يد أليسيا المتجمّدة بقبلاته؛ كان النشيج يهزّ جسمه برجّات تشنّجية. أدّى تألمه إلى إثارة الشفقة حتّى لدى فيتشي الشرسة التي كانت تقف صامتة وكئيبة عند الحائط، معتنيةً بالرّقاد الأخير لسيّدتها.

بعد إنهاء وداعاته الخرساء وقف السيّد دابرومون وتوجّه نحو الباب، متصلّباً بلا أدنى مرونة، مثل رجل آليّ تحرّكه نوابض؛ وكان لعينيه المفتوحتين الثابتتين بحدقتيهما الفاترتين تعبير خارق: كانتا تبدوان كأنّهما تريان رغم عماهما. اجتاز الحديقة بخطوات ثقيلة تشبه خطى أطياف من الرخام، وخرج إلى الحقول سائراً أمامه خابطاً الحجارة بقدميه، متعثّراً أحياناً، مصيخاً السمع كأنما لالتقاط صوت في البعيد، وظلّ يتقدّم إلى الأمام دائماً.

كان صوت البحر العارم يدوّي بتميّز متزايد؛ وكانت الأمواج تحت دفع ريح إعصارية، تتكسّر على الشاطئ بنحيب هائل، تعبيراً عن آلام

Twitter: @ketab_n

مجهولة، وتنفخ، تحت طيّات الزبد، صدورها اليائسة؛ ملايين الدموع الحرّى تسيل على الصخور، والنوارس القلقة تطلق صيحات نائحة.

وصل بول إلى حافة صخرة مشرفة على البحر. كان من شأن فرقعة الأمواج، والمطر المملّح الذي يقتلعه هبوب الريح من الموج ويرمي به إلى وجهه أنْ ينبّهاه إلى الخطر المُحدق؛ لم يكترث لذلك؛ تشنّجت شفتاه الشاحبتان بابتسامة غريبة، وتابع مشيته الكئيبة، رغم شعوره بالفراغ تحت قدمه المعلّقة.

هوى؛ أمسكت به موجة عملاقة، برَمَتْه لحظات بتموّجاتها الحلزونية ثمّ ابتلعته.

عندئذ انفجرت العاصفة بعنف: هجمت الأمواج على الشاطئ في صفوف متراصّة، مثل محاربين في طور الانقضاض، مرسلةً على ارتفاع خمسين قدماً بخاراً من الزبد؛ تصدّعت الغيوم السوداء مثل جدران جهنّميّة، كاشفةً عبر شقوقها عن السعير المضطرم للبروق؛ أضاء المدى بريقٌ فوسفوريّ مبهر؛ احمرّت قمة فيزوف، وحلّت قنزعة من البخار الداكن، كانت تحوشها الريح، متموّجة عند جبين البركان. ارتطمت الزوارق الراسية بضجيج مفجع، وتأوّهت الحبال المشدودة بألم. وسرعان ما هطل المطر مصفّراً برشّاته مثل سِهام. بدا كلّ ذلك كما لو أنّ السديم يريد استعادةَ الطبيعة وعزْكَ عناصرها من جديد.

لم يُعثَر على جثة السيّد بول دابرومون البتّة، بعد كلّ حملات البحث التي أمر بها الكومودوري.

كان النعش من خشب الأبنوس مزوّداً بقفل ومقابض فضّية، ملبَّساً بالساتان المنجّد، وكانَ في نهاية المطاف يشبه النعش الذي أوصت

Twitter: @ketab_n

بتفاصيله المِسْ كلاريسا هارلو[1] بلطف مفعم بالشجى «إلى السيّد النّجار»، وشُحِنَ بحراً على متن يخت بعناية الكومودوري، ثمّ وُضع في مدفن العائلة في بيت لنكولنشاير. كان يضمّ جثمان أليسيا وارْد الأرضيّ، أليسيا الجميلة حتّى الموت.

أمّا بالنسبة للكومودوري، فقد حدث تغيُّر بارز في شخصيّته. اختفت بدانته المجيدة. وكفّ عن سكب بعض الروم في كوب الشاي، وصار لا يأكل إلّا بأطراف أسنانه، ولا يكاد يتجاوز النطق بكلمتين في اليوم، ولم يعد من وجود لذلك التباين بين صدغيه الأبيضين ووجهه القرمزيّ. لقد أمسى الكومودوري شاحباً!

(1) «كلاريسا هارلو أو حكاية سيّدة شابّة» *Clarissa Harlowe, or the History of a Young Lady*، رواية لصموئيل ريتشاردسون Samuel Richardson (1689—1761)، نُشرت سنة 1748.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

نبذة عن المؤلف:

ولد تيوفيل غوتييه Théophile Gautier في تارب Tarbes في جنوب فرنسا عام 1811 ونشأ بباريس وتوفي في ضاحيتها نويي- سور- سين Neuilly-sur-Seine في عام 1872. كان شاعراً وروائياً وقاصاً وكاتباً مسرحياً وناقداً للفنون التشكيلية. تعلم باكراً الرسم، وتوطدت علاقته بكبير رسامي فرنسا يومذاك، أوجين دولاكروا، الذي شرع يوجهه فيه. بيد أن شغف الكتابة كان هو الأقوى عنده، فراح من خلالها يساهم مساهمة فعالة في الحركة الرومنطيقية، وينشر قصائد وقصصاً وروايات ومتابعات نقدية للرسم والنحت بخاصة. من أهم مجموعاته الشعرية «ملهاة الموت» و«مزججات وأحجار منقوشة»، ومن أشهر رواياته «الآنسة موبان» و«رواية المومياء». على إن إضافة غوتييه الكبرى للأدب تتمثل في قصصه الفنطازية التي يقدم هذا الكتاب ترجمة لأجملها وأكثرها ذيوعاً.

نبذة عن المترجم:

شاعر وروائيّ ومترجم من تونس. ولد في مدينة باجة سنة 1950، ونال إجازة في الفلسفة والعلوم الاجتماعية من جامعة دمشق، ودبلوم ماجستير في الفلسفة من الجامعة اللبنانية. من مؤلّفاته، في الشّعر: «حافّة الأرض»، دار الكلمة، بيروت 1988، و«امرأة سادسة للحواسّ»، دار الطليعة الجديدة، دمشق 1998؛ وفي الرّواية: «توقيت البنْكَا» (جائزة الناقد للرّواية)، منشورات رياض الريس للكتب والنشر، لندن 1992، و«شمس القراميد» (جائزة كومار: الريشة الذهبية)، منشورات دار الجنوب، تونس 1997، و«عتبات الجنّة»، دار الفارابي، بيروت 2007. وله في الترجمة عشرون كتاباً من بينها: «خريف البطريرك» لغابرييل غارسيا ماركيز، و«حريّة مشروطة» لأوكتافيو باث، و«مغامرات الفتى «أصهب»» لجول رونار، وقد صدر الكتاب الأخير في منشورات مشروع «كلمة».

«الميتة العاشقة» وقصص فنطازيّة أُخرى

لا شيء يموت فعلاً، كلّ شيء يوجد دائماً؛ ولا أحد بإمكانه القضاء نهائياً على ما وُجد ذات مرّة. كلّ فعل، كلّ كلمة، كلّ شكل، كلّ فكرة هوَت في الأوقيانوس الكونيّ للأشياء تُنتج فيه دوائر تتقدّم متوسّعة حتّى تخوم الأبدية. الصورة الماديّة لا تتلاشى إلّا لدى النظرات المبتذلة، والأطياف التي تنفصل عنها تعمّر اللّانهاية. ما زال البطل باريس يخطف هيلانة في منطقة مجهولة من الفضاء. وما زال مركب كليوباترا، قادس، ينفخ أشرعته الحريريّة على زرقة نهر طرسوس آخرَ مثاليّ. وثمّة عقولٌ مشبوبة وقويّة استطاعت أنْ تجلب إليها قروناً مندثرة ظاهرياً، وأن تجعل شخصيّات ميتة في نظر الجميع تعيش من جديد. اتّخذ فاوست ابنة تيندار عشيقة له، ونقلها إلى قصره القوطيّ، من أعماق هاديس، هاوية العالم السفليّ الغامضة. ولقد عاش أوكتافيان للتوّ يوماً في عهد تيتوس ليكون محبوباً من آرّيا مارتشيلا، ابنة آرّيوس ديوميديه، النائمة في هذه اللّحظة قربه على سرير عتيق في مدينة يحسبها الجميع مهدّمة.

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة
أطفال و ناشئة

كلمة
KALIMA

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

9 789948 173304